



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

(٠٣٢)

كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

المستشرق غوستاف لوبون وموقفه من الإسلام

دراسة وصفية تحليلية نقدية

لكتابه

«حضارة العرب»

مقارنة مع آراء المستشرقين الآخرين

رسالة علمية مقدّمة لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه)

إعداد الطالب

عبد الوهاب بن محمد آل فايع عسيري

إشراف

أ.د. عبد الرحيم بن محمد المغذوي

العام الجامعي

١٤٣٥-١٤٣٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد؛^(١) فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه أن يفتتحوها بها أكثر أمورهم، وقد أخرج حديث خطبة الحاجة: النسائي: أحمد بن شعيب، السنن، كتاب النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح، رقم ٣٢٧٧، ٨٩/٦، والسجستاني: أبو داود، السنن، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، رقم ٢١١٨، ٤٥٦/٣، وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، رقم ١٨٩٢، ٨٧/٣، وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ٣٧٢٠، ٢٦٢/٦، وغيرهم من أصحاب السنن، وقد توسع الشيخ الألباني: محمد ناصر الدين في تخریج هذا الحديث في رسالته: (خطبة الحاجة)، وصححه.

يمثل الفكر الاستشراقي في معظمه حركة فكرية مضادة للإسلام والمسلمين، وكثيراً ما تطرق أرباب هذا الفكر إلى موضوعات الإسلام عقيدة وشرعية وتراثاً، واهتموا كثيراً بمقومات الحضارة العربية الإسلامية وتراثها الأدبي والعلمي والأخلاقي والسياسي.

ولكنهم للأسف أساءوا تقديمها لقرائهم، وحرّفوا وبدّلوا مقولاتها، وشوّهوا صورتها عن قصد مبيّت حيناً، وعن جهل وسوء فهم أحياناً أخرى.

ويرى بعض المثقفين أن من المستشرقين من اتّسمت كتاباتهم بشيءٍ من الإنصاف تجاه الإسلام والمسلمين والحضارة العربية، إلا أن كثرة الطعون والهفوات والأخطاء التي وقعوا فيها تبين أن ذلك لم يكن مقصوداً، ولم يكن غاية من غاياتهم؛ ومن هؤلاء المستشرقين الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون وهو من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين، ومن أبرز المستشرقين الذين كتبوا عن العرب وحضارتهم، ومن أبرز كتبه وأشهرها كتاب ((حضارة العرب)).

كتاب ((حضارة العرب)) مترجم بعدة لغات ومطبوع عدة طبعات ويباع ويوزع في معظم مكتبات العالم العربي والإسلامي، وهو كتاب فريد في نوعه خاصة في آثار الحضارة العربية، والمتفحص لكتابات غوستاف لوبون يجد أن الرجل بذل جهداً كبيراً في كتاباته، وخاصة كتاب "حضارة العرب"، ويعده كثيرون أنه كان منصفاً في كثير من آرائه ومواقفه تجاه الإسلام والمسلمين والحضارة العربية الإسلامية بصفة عامة، ولكنه مثل غيره وقع في أخطاء وهفوات ومطاعن كثيرة وخطيرة؛ منها ما مس شخص النبي ﷺ وزوجاته، ومنها ما مس القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي والحضارة العربية والإسلامية... وغير ذلك.

وسأتناول -إن شاء الله- من خلال هذه الدراسة التعرف على هذا المستشرق ومنهجه من خلال كتابه ((حضارة العرب))، ودراسة كتابه بالتحليل والنقد والمناقشة، والوقوف على ما جاء فيه من إيجابيات وسلبيات، سائلاً المولى ﷻ التوفيق والسداد.

موضوع البحث:

يتناول البحث دراسة كتاب حضارة العرب للمستشرق الفرنسي غوستاف لوبون دراسة وصفية تحليلية نقدية لما جاء فيه من آراء ومواقف تجاه الإسلام، ودراسة تحليلية لمنهج غوستاف لوبون من خلال دراساته الاستشراقية، وموقف المسلمين تجاه هذه الدراسات.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في النقاط التالية:

أولاً: لِسعة انتشار الكتاب وكثرة المغالطات التي تضمنها.

ثانياً: لأهمية التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فإنه من الضروري الاطلاع على آراء المفكرين غير المسلمين ولاسيما المستشرقين منهم الذين توغّلوا في قضايا الإسلام وتاريخه وحضارته، حتى أصبح لهم تلامذة وقراء وأتباع يأخذون عنهم ويستدلّون بأرائهم ويسيروا وفق مناهجهم، فإنه من حقّ كل أمة أن تعرف ما يقوله الآخرون عنها في عقيدتها وأحلاقها وثقافتها وحضارتها؛ كما أن من حقّ مثقفيها أن يتناولوا هذه الأقوال والآراء بالتحليل والنقد والتنبيه إلى ما وقع فيها من أخطاء عقديّة أو علميّة أو تاريخيّة سواء كانت عن جهلٍ وسوء فهم؛ أو عن شططٍ وسوء قصدٍ.

ثالثاً: لأن غوستاف لوبون من أبرز فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين، وهو يُعد من المنصفين إلى حدّ بعيد عند البعض؛ فقد دافع عن الحضارة العربية الإسلامية، ودافع عن حقوق المسلمين، وانتقد سياسات الدول الأوروبية المستعمرة، ويظهر من خلال كتاباته أنه محب للعرب وحضارتهم، وقد دافع كثيراً عن الفتوحات الإسلامية، ويظهر ذلك جلياً في كتابه حضارة العرب؛ وهو من أبرز الكتب اهتماماً بالحضارة العربية الإسلامية، وهو كتابٌ فريد في نوعه؛ فقد سطر فيه غوستاف لوبون كلماتٍ رائعة في حق النبي ﷺ والإسلام والمسلمين وحضارتهم، وله وجهة نظر مخالفة لكثيرٍ من آراء الغربيين الذين كتبوا عن المرأة

وعن العلاقات الاجتماعية في الإسلام، فقد دافع لوبون كثيراً عن قضية تعدد الزوجات، ومكانة المرأة في الإسلام.

رابعاً: لأن هذه الشهادات من غوستاف لوبون تعتبر حججاً قوية على الكتاب والمثقفين الغربيين الذين يفترون على الإسلام والمسلمين، ويسعون إلى تشويه التاريخ الإسلامي وحضارته.

خامساً: لأنه وقع من غوستاف لوبون من الافتراءات والهفوات والأخطاء مما لا بد من تنفيذها والرد عليها وتناولها بالتحليل والنقد والدراسة والتعليق.

أسباب اختيار الموضوع:

تتلخص أسباب اختيار الموضوع في النقاط التالية:

أولاً: المساهمة في الدفاع عن الدعوة الإسلامية ضد الشبهات والمطاعن والأخطاء والهفوات التي جاء بها غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب.

ثانياً: الكشف عن هوية هذا المستشرق والوقوف على أعماله وأبرز ما كتب عن التاريخ الإسلامي والحضارة العربية.

ثالثاً: انتشار كتاب حضارة العرب انتشاراً واسعاً بين القراء والمثقفين الغربيين والشرقيين، وترجمته إلى عدة لغات عالمية.

رابعاً: الوقوف على شهادات المستشرقين المنصفة والإيجابية تجاه الإسلام والمسلمين، ويُعتبر غوستاف لوبون -عند الكثير- من أبرز المستشرقين الذي عُرفوا بالإنصاف والموضوعية؛ خاصة من خلال كتابه حضارة العرب.

خامساً: لعدم وقوفي - فيما تستي لي الاطلاع عليه - على دراسة علمية تناولت كتاب حضارة العرب بالنقد والتحليل، خاصة فيما كان متعلقاً بالسيرة النبوية، والفتوحات الإسلامية، ومكانة المرأة في الإسلام.

أهداف البحث:

تكمن أهداف البحث في النقاط التالية:

أولاً: التعرف على المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون ومنهجه في التأليف من خلال كتابه حضارة العرب.

ثانياً: التفريق بين الكتاب الغربيين المنصفين والآخريين الحاقدين المتآمرين على الإسلام والمسلمين، والتفريق بين الأخطاء والهفوات التي جاءت عن حسن ظن وسوء فهم والأخرى التي جاءت عن شطط وسوء قصد.

ثالثاً: تناول كتاب حضارة العرب بالتحليل والنقد والمناقشة الموضوعية، والوقوف على ما جاء فيه من إيجابيات وسلبيات.

رابعاً: الكشف عن الأخطاء والهفوات والمطاعن الكثيرة في كتاب حضارة العرب فيما يتعلق بالإسلام؛ خاصة العقدية منها، وما كان متعلقاً بالنبوة والقرآن والشريعة، ومناقشتها والرد عليها.

خامساً: توظيف شهادات غوستاف لوبون واعترافاته الإيجابية تجاه النبي ﷺ والإسلام والمسلمين والتاريخ الإسلامي توظيفاً دعوياً ليكون حجة على المثقفين الغربيين، وذلك لكشف الشبهات وتفنيد ما ترسب في نفوسهم من أباطيل وأكاذيب.

تساؤلات البحث:

- ما مفهوم الاستشراق؟ ومن هو غوستاف لوبون؟
- ما المنهج الذي اتبعه غوستاف لوبون في كتاباته الاستشراقية؟
- ما الملاحظات المنهجية على كتابات غوستاف لوبون؟
- ما الذي ميّز كتاب حضارة العرب عن غيره من مؤلفات المستشرقين؟
- ما موقف المسلمين تجاه الدراسات الاستشراقية وكيفية التعامل معها؟
- كيف يستفيد الدعوة إلى الله من اعترافات وشهادات المثقفين الغربيين على سماحة الإسلام وعدالته وحفظه للحقوق؟
- ما موقف غوستاف لوبون من القرآن الكريم ومن العقيدة الإسلامية؟
- ما آراء غوستاف لوبون تجاه نظم الإسلام وتشريعاته؟
- ما آراء غوستاف لوبون تجاه النبي ﷺ؟
- ما نظرة غوستاف لوبون للمرأة وقضاياها في الإسلام؟
- ما موقف غوستاف لوبون من الفتوحات وانتشار الدعوة والثقافة الإسلامية؟

حدود البحث:

تقتصر الدراسة على مناقشة ودراسة كتاب "حضارة العرب"، للدكتور غوستاف لوبون ترجمة الأستاذ: عادل زعيتر، الطبعة الأولى نشر وتوزيع: دار العالم العربي ٢٠٠٩م، مدينة نصر- القاهرة. دراسة وصفية تحليلية نقدية، إضافة إلى التعليق على بعض أقوال غوستاف لوبون في مؤلفاته الأخرى بما يخدم الموضوع الخاص بالنقاش، ومقارنة آرائه مع آراء المستشرقين الآخرين في هذا الموضوع.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والنظر؛ لم أقف على دراسة علمية بمفهوم مناهج البحث العلمي تناولت كتاب حضارة العرب، أو تناولت منهج غوستاف لوبون في كتاباته الاستشراقية، ومناقشتها ونقدها والرد عليها من خلال الجوانب الدعوية.

ولكنني وقفت على كتاب ضمن سلسلة تسمى (في الميزان) للدكتور شوقي أبو خليل، أفرد فيها غوستاف لوبون بكتاب مستقل من خلال كتابه: (حضارة العرب)، وكان قبل ذلك أصدر ثلاثة كتب ضمن هذه السلسلة أولها لجرجي زيدان من خلال كتابه: (روايات تاريخ الإسلام)، والثاني لفيليب جتي، من خلال كتابه: (تاريخ العرب المطول)، والثالث لكارل بروكلمان، من خلال كتابه: (تاريخ الشعوب الإسلامية).

وفيما يلي لمحة عن الكتاب:

١. اسم الكتاب: غوستاف لوبون في الميزان.
٢. اسم المؤلف: د. شوقي أبو خليل.
٣. معلومات الطباعة والنشر: غلاف، عادي، من إصدار دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، يتألف من ١٩٢ صحيفة.
٤. ملخص لمحتويات الكتاب: قسم المؤلف الكتاب إلى:
 - مقدمة: تحدّث فيها عن المستشرق الفرنسي موريس بوكاي، والمغني البريطاني كات استيفنس الذي أسلم وغيّر اسمه إلى يوسف إسلام. ثمّ ذكر نبذة مختصرة عن كتاب حضارة العرب وعن المؤلف وعن مترجم الكتاب ثمّ خِطّة الدراسة.
 - بعد ذلك تحدّث عن روائع لوبون، وما جاء في كتابه من أقوال رائعة تجاه النبيّ ﷺ والإسلام والمسلمين والتاريخ الإسلامي والحضارة العربية.

- ثم تناول كتاب حضارة العرب (وَصْفٌ وَعَرَضٌ) تحدث فيه عن طبعات الكتاب وتقسيماته. وبعضاً مما ورد فيه من أخطاء وهفوات مع مناقشته لها.
- ثم جعل للكتاب خاتمة ذكر فيها أسباب عظمة العرب، وأسباب انحطاطهم، وحال الإسلام اليوم، ثم تحدّث عن شخصيّة غوستاف لوبون.

٥. الفروق بين رسالتي وهذا الكتاب:

أولاً: استيفاء الإيجابيات والسلبيات.

صرّح شوقي أبو خليل بأنّه لن يدرس في كتابه عن لوبون كل إيجابياته وسلبياته حيث قال: ((ونحن إذ ننتقي -فيما يلي- أهم ما أورده (لوبون) في كتابه: (حضارة العرب)، فلا يعني ذلك أنّه لم يورد غيرها، إنّنا نورد أبرز ما قاله، وذلك قبل أن نصوّب بعض ما أخطأ به، أو نوضّح نقاطاً خفيت عليه، أو نجلّي أشياء غابت عنه، أو نفنّد أموراً لم يدرك (لوبون) كنهها، فعثر عندما عاجلها، وجانب الحقيقة عندما أوردها، من خلال ما وصل إليه علمه)).^(١)

وقال بعد ذلك: ((لقد أحصينا أكثر من خمسين هفوةً وخطأً في: (حضارة العرب)، وهي ذات أهميّة كبيرة، خصوصاً فيما يتعلّق منها بالقرآن الكريم والعقيدة)).^(٢)

وقد درس في كتابه هذا (خمسين خطأً) فقط، وقد التزمْتُ في رسالتي هذه بدراسة كل ما أورده لوبون من إيجابياتٍ وسلبياتٍ جملةً وتفصيلاً.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.

ثانياً: موضوعات الدراسة وتقسيماتها:

يلاحظ على كتاب الدكتور شوقي أبو خليل عدم الترتيب في الموضوعات المراد مناقشتها، فهو يسرد روائع لوبون وأخطائه وهفواته بأرقام -وليس بعناوين-، حسب "تسلسل ورودها على صفحات الكتاب"^(١)، إلا إذا كانت مكررة ومتشابهة فإنه يوردها مع ورودها في المرة الأولى.^(٢)

إلا أن دراستي تقوم على فهرسة الكتاب بحسب الموضوعات المراد مناقشتها من الأخطاء والهفوات وجعلها تحت أبواب ثم فصول ثم مباحث.

ثالثاً: التوثيق من المصادر والمراجع:

وقع الدكتور شوقي أبو خليل في ما انتقد فيه غوستاف لوبون في أنه لا يحيل إلى المراجع والمصادر التي يأخذ عنها؛ فهناك الكثير من الوقائع التاريخية التي تحتاج إلى توثيق من مصادرها الأصلية لم تُوثق عند الدكتور شوقي أبو خليل. أما دراستي فسوف تهتم بتوثيق كل الأحداث والوقائع التاريخية من خلال المصادر والمراجع المعتمدة في التاريخ والحضارة الإسلامية، ومناقشة كل الأحداث والوقائع المكذوبة والواهية الواردة في كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون.

رابعاً: تخريج الأحاديث والآثار، وتفسير الآيات القرآنية:

لم أجد تخريجاً لأي حديث من الأحاديث التي وردت في كتاب شوقي أبو خليل مع كثرتها؛ إلاّ لحديث واحد أشار إليه المؤلف أنه في البخاري، وكذلك هناك تقصير كبير في الإحالة إلى كتب السنة، ومصادر السيرة النبوية الصحيحة، وكتب التفسير.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، الحاشية (١)، ص ٦٢.

أما دراستي تعنى بتخريج الأحاديث والآثار الواردة في كتاب حضارة العرب من مصادرها الأصلية من كتب السنة، والرجوع إلى كتب التفسير المعتبرة لشرح الآيات القرآنية الواردة في الدراسة.

٦. أوجه الإفادة من هذا الكتاب:

استفدت كثيراً من هذا الكتاب ومن مؤلفه الدكتور شوقي أبو خليل، خاصة في الجوانب التاريخية، فإن المؤلف له باع كبير في التاريخ، وقد أبدع كثيراً في مناقشته لأخطاء غوستاف لوبون؛ وكتابه يمتاز بالقوة في الأفكار، والعمق في المعاني، والمنطق المقنع، والأسلوب الممتع، والقارئ يلتمس من قراءة كتابه الموضوعية في الطرح، والبحث عن الحقيقة العلمية، والعدل.

وقد اطلعت في بعض الصحف والمجلات ومواقع الشبكة العنكبوتية على بعض الكتابات المختصة الناقدة لآراء غوستاف لوبون تجاه الإسلام، ولكن هذه الكتابات ما هي إلا مقالات علمية لا تتجاوز خمس صحائف، ولا تعد دراسات علمية أو أبحاث محكمة بمفهوم مناهج البحث العلمي. مع ذلك لا تخلو من الفوائد الكثيرة التي استفدت منها. وهناك مقالة سوف أتطرق إليها لأنها وردت في مجلة علمية محكمة، وهذه المقالة بعنوان (قراءة نقدية لبعض النصوص الواردة في كتاب حضارة العرب لمؤلفه غوستاف لوبون) للدكتورة: تركية بنت حمد بن ناصر بن جارالله. وردت هذه المقالة في مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، المجلد الأول، العدد: [٢١]، عام ٢٠٠٩م. جاءت المقالة في عشر صحائف، تناولت فيها الكاتبة أهم أهداف المستشرقين ودوافعهم، ثم تناولت بعض أخطاء غوستاف لوبون وهفواته وانتقدتها.

خطة البحث

تشتمل خطة البحث على مقدمة، وتمهيد، وخمسة أبواب، وخاتمة، وفهارس؛ وهي على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على: موضوع البحث، وأسباب اختياره، وأهميته، وأهدافه، وتساؤلاته، وحدوده، والدراسات السابقة له، وخطة البحث، ومنهج الباحث.

التمهيد: مفهوم الاستشراق والتعريف بغوستاف وبكتابه (حضارة العرب).

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق.

المبحث الثاني: التعريف بالمستشرق غوستاف لوبون.

المبحث الثالث: التعريف بكتابه (حضارة العرب).

الباب الأول: دراسة تقويمية لمنهج غوستاف لوبون وموقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: منهج غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب،

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: مناهج المستشرقين ودوافعهم.

المبحث الثاني: خصائص المدرسة الفرنسية التي ينتمي إليها غوستاف لوبون.

المبحث الثالث: عرض لأبرز مواقف وآراء لوبون في كتاباته الاستشراقية.

المبحث الرابع: موارده في كتابه وأشهر من نقل عنهم من المستشرقين.

المبحث الخامس: أبرز الملاحظات المنهجية على كتابه حضارة العرب.

الفصل الثاني: موقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية وكيفية فهمها والتعامل معها،

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: موقف المسلمين من مطاعن وافتراءات المستشرقين.

المبحث الثاني: موقف المسلمين من اعترافات وشهادات المستشرقين والمتقفين الغربيين على سماحة الإسلام وعدالته وحفظه للحقوق.

المبحث الثالث: الآثار العلمية المستفادة من دراسة الكتب الاستشراقية وأوجه الإفادة منها في تدعيم مسيرة الدعوة الإسلامية.

الباب الثاني: نظرة غوستاف لوبون تجاه مصادر الإسلام عرض ونقد.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: موقف لوبون من القرآن الكريم،

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شبهات لوبون حول مصادر القرآن الكريم.

المبحث الثاني: نظرة لوبون لمسألة جمع القرآن وترتيبه.

المبحث الثالث: آراء لوبون تجاه بعض نصوص القرآن.

الفصل الثاني: موقف لوبون من العقيدة الإسلامية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظرة لوبون لعقيدة التوحيد.

المبحث الثاني: شبهات لوبون حول الطواف بالكعبة وتقيل الحجر الأسود.

المبحث الثالث: آراء لوبون في الفرق الإسلامية.

الفصل الثالث: آراء لوبون في التشريعات والنظم الإسلامية والمذاهب الفقهية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: آراء لوبون تجاه بعض الشعائر الإسلامية.

المبحث الثاني: آراء لوبون تجاه النظام الاجتماعي والسياسي في الإسلام.

المبحث الثالث: موقف لوبون من المذاهب الأربعة.

الباب الثالث: آراء غوستاف لوبون تجاه أحداث السيرة النبوية عرض ونقد.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: موقف لوبون من شخصية النبي ﷺ،

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مولد النبي ﷺ ونشأته.

المبحث الثاني: أخلاق النبي ﷺ وصفاته الحميدة.

المبحث الثالث: حياة النبي ﷺ وعلاقاته الاجتماعية.

الفصل الثاني: موقف لوبون من أحداث الدعوة المكية وأحداث ما بعد الهجرة

النبوية،

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أحداث الدعوة المكية وما جاء فيها من مغالطات عند لوبون.

المبحث الثاني: آراء لوبون في أحداث ما بعد الهجرة النبوية.

الباب الرابع: غوستاف لوبون وقضايا المرأة في الإسلام عرض ونقد.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: آراء لوبون في تأثير الإسلام في أحوال النساء،

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظرة لوبون إلى أحوال النساء قبل بعثة النبي ﷺ.

المبحث الثاني: إعجاب لوبون برفع شأن المرأة في الإسلام.

المبحث الثالث: مقارنة لوبون بين المرأة في الإسلام والمرأة في أوروبا.

الفصل الثاني: آراء لوبون حول مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام،

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: دفاع لوبون عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام.

المبحث الثاني: مقارنة لوبون بين أحكام النكاح والطلاق عند المسلمين وأحكام النكاح

والطلاق عند الأوروبيين.

الباب الخامس: تقويم غوستاف لوبون لتاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية عرض ونقد.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: آراء لوبون في أحوال العرب وأديانهم،

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تقويم لوبون لأحوال العرب قبل الإسلام.

المبحث الثاني: نظرة لوبون إلى الإسلام وتأثيره في أحوال العرب.

الفصل الثاني: موقف لوبون من الفتوحات وانتشار الدعوة والثقافة الإسلامية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: رؤية لوبون حول مصادر قوة المسلمين العرب.

المبحث الثاني: تقويم لوبون للفتوحات الإسلامية.

المبحث الثالث: انتشار الدعوة والثقافة الإسلامية في الأمصار وتأثيرها على تلك الشعوب.

الخاتمة: وتتضمن ما يلي:

- الخلاصة.
- نتائج البحث.
- توصيات الباحث.

الفهارس: وتشتمل على:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- فهرس الأماكن والبلدان.
- فهرس الألفاظ الغريبة والمصطلحات العلمية.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

منهج البحث

المنهج الذي سأتبعه -إن شاء الله- في جمع المادة العلمية هو المنهج الوصفي والمنهج التحليلي والمنهج النقدي وسوف ألتزم بإتباع إجراءات البحث العلمية التالية:

- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها بذكر اسم السورة، ورقم الآية، مع كتابتها بالرسم العثماني.
- عزو الأحاديث إلى مصادرها الأصلية، وإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإني اقتصر عليهما، وإن كان في غيرهما فإني أعزوه إلى مصادره وأذكر كلام أهل العلم في بيان درجته.
- توثيق النصوص من مصادرها بذكر اسم المصدر، واسم المؤلف، ورقم الجزء -إن وجد- ورقم الصفحة.

- اختيار المادة العلمية بموضوع الدراسة بمنهجية سديدة.
- عرض آراء المستشرق "غوستاف لوبون" عرضاً موضوعياً معتمداً فيه على كتابه "حضارة العرب".

- مناقشة آراء المستشرق التي تم عرضها برؤية إسلامية، ونقد هذه الآراء نقداً علمياً في ضوء النصوص الشرعية.

- الرجوع إلى المصادر الإسلامية الصحيحة مع التركيز على مصادر السيرة النبوية وكتب التاريخ الإسلامي والرجوع إلى بعض كتابات المستشرقين وردودهم على بعضهم لتدعيم المناقشة والنقد.
- الترجمة الموجزة للأعلام الوارد ذكرهم في البحث.

- التعريف الموجز بالأماكن والبلدان والطوائف وكل ما يحتاج إلى تعريف.
- ختم البحث بخاتمة أبين فيها خلاصة الدراسة، وأهم النتائج المتحصلة منها، والتوصيات.
- الالتزام بعلاقات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.
- تذييل البحث بفهارس تفصيلية على النحو المبين في الخطة.

شكر وتقدير

أحمدُ اللهَ وأشكُرُه على عظيمِ منّتهِ وكريمِ فضلِهِ، حيثُ وفقني لسلوكِ طريقِ العلمِ، ويسرَ لي الالتحاقَ بالجامعةِ الإسلاميةِ والتزوّدَ من علومِها، وأعاني على كتابةِ هذا البحثِ الذي أرجو أن يكونَ على الوجهِ الذي يرضيه، وأن يكونَ خالصاً صواباً نافعاً. وله الحمدُ على نعمِهِ التي لا تحصى.

وأسألُ اللهَ تعالى أن يغفرَ لوالديّ وأن يرحمَهُما وأن يسكنَهُما فسيحَ جناتِهِ، وأن يجزيَهُما عني خيرَ الجزاءِ، فهما سببُ في وجودي في هذه الدنيا.

ثم أتوجهُ بالشكرِ وعظيمِ الامتنانِ لخادمِ الحرمين الشريفين الملكِ سلمان بن عبدالعزيز يحفظه الله، ولهذه الدولةِ المباركةِ، التي سهلت سبيلَ العلمِ لأبنائها الطلابِ، وذلكَ لهم الصعابِ في الداخلِ والخارجِ لكي ينهلوا من العلمِ بجميعِ تخصصاتِهِ، ليكونوا لبنّةً خيرٍ وبناءٍ لهذا البلدِ المعطاء، فجزاهم اللهُ خيرَ الجزاءِ.

ثم أتوجهُ بالشكرِ لكل من كان له فضلٌ عليّ في إتمامِ هذا البحثِ، وعلى رأسِهِم شَيْخِي المشرفِ على البحثِ الأستاذُ الدكتور: عبدالرحيم بن محمد المغذوي، الذي زودني بنصائِحِهِ، وتوجيهاتِهِ القيّمةِ، والتي أسهمت في إنجازِ هذا البحثِ.

وكانت أوقاتُ التقائي به فرصةً للإفادةِ من علمِهِ وتجاربه وملحوظاتِهِ المنهجيةِ، فله مني جزيلُ الشكرِ والتقديرِ، وأسألُ اللهَ أن يجزَلَ له المثوبةَ، وأن يرفعَ منزلتهِ في الدنيا والآخرةِ.

كما أتقدمُ بخالصِ الشكرِ وعظيمِ الامتنانِ للجامعةِ الإسلاميةِ بالمدينةِ النبويةِ ممثلةً في القائمين عليها وعلى رأسِهِم معالي مديرِ الجامعةِ المكلفِ الأستاذُ الدكتور إبراهيم بن علي العبيد ووكلائِهِ الأفاضلِ وجميعِ إداراتِ الجامعةِ وأقسامِها؛ وأخصُّ بالذكرِ كليةَ الدعوةِ وأصولِ الدينِ، وقسمَ الدعوةِ والثقافةِ الإسلاميةِ، وعمادةَ الدراساتِ العليا.

كما أشكرُ المناقشينَ الفاضلينَ: فضيلةَ الأستاذِ الدكتور عبد الله بن إبراهيم اللحيدان وفضيلةَ الدكتور خالد بن سعد الزهراني؛ اللذين تفضّلاً بقبولِ مناقشةِ هذه الرسالةِ وتحمّلاً عناءَ قراءتِها وتقويمِها وإبداءِ ملاحظاتِهما، مع كثرةِ مشاغليهما وضيقِ وقتِهما، فجزاهما اللهُ عني خيرَ الجزاءِ.

كما أشكرُ زوجتي وأولادي الذين وقّروا لي الظروفَ والأجواءَ المناسبةَ لإكمالِ هذا البحث،

كما أشكرُ كل من ساعدني في إتمامِ هذا البحث من الأساتذة والإخوة والزملاء بإبداءِ رأيٍ أو نصيحةٍ أو إعارَةِ كتابٍ أو إرشادٍ إلى مرجعٍ أو غير ذلك، والحمدُ لله أولاً وآخراً. وختاماً، فإنني لا أدعي أني وفيئُ الموضوعَ حقّه، ولا أني أصبْتُ في كلِّ ما قلتُ وقصدتُ؛ لأن الخطأَ والزللَ والنقصَ من طبيعةِ البشرِ، ولكن حسبي أني بذلتُ جهدي لإخراجِ هذا البحث على الصورةِ المرضيةِ، فما كان فيه من صوابٍ فمن الله وحده، فله الفضلُ والمُنُّ والحمدُ، وما كان فيه من خطأٍ فمن نفسي ومن الشيطان.

وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

التمهيد

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق

المبحث الثاني: التعريف بغوستاف لوبون

المبحث الثالث: التعريف بكتاب (حضارة العرب).

المبحث الأول

مفهوم الاستشراق

أ- الاستشراق لغة:

الاستشراق لغة: مصدر الفعل (اسْتَشْرَقَ)، وهي ((مَوْلَدَةٌ عَصْرِيَّةٌ))^(١). ((يُقَالُ: شَرَقَتْ الشَّمْسُ أَي: طَلَعَتْ، واسم المَوْضِعِ: المَشْرِقُ، والشَّرْقُ: المَشْرِقُ، والجمع إشراق. والتشريق: الأخذ في ناحية المَشْرِقِ، يُقَالُ: شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرَبٍ، وشَرَقُوا أَي: ذهبوا إلى الشَّرْقِ أو أَتَوْا الشَّرْقَ، وَكُلُّ مَا طَلَعَ مِنَ المَشْرِقِ فَهُوَ شَرَقٌ))^(٢)، وأصل الكلمة: شَرَقَ. قال ابنُ فَارِسٍ: ((شَرَقَ: الشَّيْنُ والرَّاءُ والقَافُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إِضَاءَةٍ وفتحٍ، من ذلك: شَرَقَتْ الشَّمْسُ، إِذَا طَلَعَتْ، وَأَشْرَقَتْ إِذَا أَضَاءَتْ.. والشَّرْقُ المَشْرِقُ...))^(٣).

ب- الاستشراق اصطلاحاً:

يختلف الباحثون كثيراً في المراد من مفهوم الاستشراق، وذلك تبعاً لموقفهم منه، فمنهم من يرى أنه ميدان علمي من ميادين البحث والدراسة، ومنهم من يرى أنه مؤسسة غربيّة ذات أهداف متعدّدة، وآخرون يرون أنّه ظاهرة طبيعيّة تولّدت عن حركة الصّراع بين الشّرق والغرب، أو بمفهوم آخر بين الإسلام والمسيحيّة. والبعض يرى أنّ الاستشراق غير واضح المعالم، وليس له تحديد واضح بحيث يمكن إطلاق هذا المصطلح عليه؛ خاصة أنّ الحديث عنه يعتمد على نظرة المتحدث عنه، فهناك من ينظر إليه نظرة إعجابٍ وانبهارٍ، ومنهم من رفض كلّ ما يأتي عن الاستشراق مهما اصطبغ بالصّبغة العلميّة، وآخر أخضع نتائج الاستشراق لأحكام علميّة خالصة فرفض وقبل.

(١) رضا: أحمد، معجم متن اللغة، ٣/٣١٠.

(٢) الفيروز آبادي: مجد الدين، القاموس المحيط، مادة: [الشرق]، ص ١١٥٨-١١٥٩.

(٣) ابن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، مادة: [شرق]، ٣/٢٦٤.

وباستعراض لبعض تعريفات الاستشراق يمكن أن تتضح الاتجاهات التي ينتهجها الباحثون في النظر إلى مفهوم الاستشراق:

١- عرّفه محمود زقزوق بقوله: ((الاستشراق هو علمُ العالم الشرقي، وهو ذو معنيين: عام يطلق على كلِّ غربيٍّ يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه، ومعنى خاص وهو الدّراسة الغربيّة المتعلّقة بالشرّق الإسلامي في لغاته وتاريخه وعقائده))^(١).

٢- وعرّفه إدوارد سعيد بقوله: ((الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيها وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجاز: أسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبناؤه، وامتلاك السيادة عليه))^(٢).

وله تعريف آخر يقول فيه: ((الاستشراق هو ذلك الفرع المنظم تنظيمًا عاليًا، الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه أن تتدبر الشرق - بل حتى - أن تنتج سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وعقائدياً وعلمياً وتخليياً في مرحلة ما بعد عصر التنوير))^(٣).

٣- وعرفه ميكائيل أنجلو جويدي بقوله: ((الاستشراق هو الجمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية، وهو أيضاً تعاطي الحضارات القديمة، أو هو تقدير شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدّن في القرون الوسطى))^(٤).

(١) زقزوق: محمود، الاستشراق والخلفية الفكرية والصراع الحضاري، ص ١٨.

(٢) سعيد: إدوارد، الاستشراق، ص ٣٨-٣٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٨.

(٤) محاضرة ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة، تحت عنوان "علم الشرق وتاريخ العمران" نشرتها مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول عام ١٣٤٧هـ.

- ٤- وعرفه شكري النجّار بقوله: ((الاستشراق هو: أسلوب غربي لفهم الشرق والسيطرة عليه ومحاولة وإعادة توجيهه والتحكم فيه)).^(١)
- ٥- وعرفه ميشال جحا بقوله: ((المستشرقون هم أولئك الأساتذة والباحثون الأكاديميون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي)).^(٢)
- ٦- وعرفته عفاف صبرة بقولها: ((المستشرقون اصطلاحٌ يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية، فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق، مثل الهند وفارس والصين واليابان والعالم العربي وغيره من أمم الشرق)).^(٣)
- ٧- وعرفه مالك بن نبي بقوله: ((إننا نعني بالمستشرقين: الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية)).^(٤)
- ٨- وعرفه علي النملة بقوله: ((الاستشراق هو تصدر علماء غير مسلمين من الشرق أو الغرب عرباً أو غير عرب لدراسة علوم المسلمين وحضارتهم ومعتقدهم وتقاليدهم وشعوبهم وعاداتهم سواء كانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر الأبيض المتوسط أم الجانب الجنوبي منه، وسواء كانت لغة هذه الشعوب العربية، أم غير العربية، كالتركية والفارسية والأردية والبشتو وغيرها

(١) النجّار: شكري، الاهتمام بالاستشراق، (مجلة الفكر العربي، العدد: [٣١])، ص ٧١.

(٢) جحا: ميشال، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص ١٧.

(٣) صبرة: عفاف، المستشرقون ومشكلات الحضارة، ص ٩.

(٤) ابن نبي: مالك، إنتاج المستشرقين، ص ١٧.

من اللغات التي تتحدثها شعوب المسلمين، وكان فيها آثار علمية أخضعها المستشرقون للدراسة والتحليل)).^(١)

وله تعريف آخر يقول فيه: ((الاستشراق هو الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام.. أو أنه اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين بغض النظر عن وجهة المشتغل الجغرافية وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية)).^(٢)

٩- وعرفه أحمد سمايلوفتش بقوله: ((الاستشراق هو اهتمام علماء الغرب بعلوم المسلمين وتاريخهم، ولغاتهم، وآدابهم، وعلومهم، وعاداتهم، ومعتقداتهم)).^(٣)

١٠- وعرفه عدنان محمد وزان: ((الاستشراق هو مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة)).^(٤)

١١- وعرفه رودى بارت بقوله: ((الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي)).^(٥)

١٢- وعرفه رودنسون بقوله: ((كلمة الاستشراق دخلت معجم الأكاديمية الفرنسية في ١٨٣٨م، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرّس لدراسة الشرق)).^(٦)

(١) النملة: علي، كنه الاستشراق، (دراسات استشراقية وحضارية، كتاب دوري محكم، العدد: [١])، ص ٢٧.

(٢) النملة: علي، الاستشراق والدراسات الإسلامية، ص ١٢٤.

(٣) سمايلوفتش: أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص ١٢.

(٤) وزان: عدنان محمد، الاستشراق والمستشرقون (وجهة نظر)، ص ١٥.

(٥) بارت: رودى، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١١.

(٦) رودنسون، صورة العالم الإسلامي في أوروبا، نقلاً عن: سمايلوفتش: أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص ٢٤.

- ١٣- وجاء تعريفه في الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة: ((ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه، وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبراً عن الخلفية للصراع الحضاري بينهما)).^(١)
- ١٤- وعرفه أحمد عبد الحميد غراب بقوله: ((الاستشراق دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهل الكتاب بوجه خاص للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخاً ونظماً وثروات وإمكانات بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي)).^(٢)
- ١٥- وعرفه عبد المتعال محمد الجبري بقوله: ((الاستشراق هو دراسة علوم الشرق وأحواله وبيئاته الطبيعية والعمرائية والبشرية ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الأمم الشخصية - فلكل أمة مشخّصاتها- في كل مجتمع ودراسة الهيئات والتيارات الفكرية والمذهبية في شتى صورها وانواعها)).^(٣)
- ومن خلال التعريفات السابقة يمكن أن أعرف الاستشراق بأنه: ((الدراسات الغربية للشرق وعلومه عامة، والإسلام خاصة)).

* * * * *

(١) الندوة العالمية للشباب، الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ٦٨٧/٢.

(٢) غراب: أحمد عبد الحميد، رؤيا إسلامية للاستشراق، ص ٧.

(٣) الجبري: عبد المتعال محمد، الاستشراق الفكري وجه الاستعمار الفكري، ص ١٣.

المبحث الثاني

التعريف بالمستشرق غوستاف لوبون.

ويشتمل على التالي:

أولاً: اسمه ومولده

ثانياً: دراسته العلمية

ثالثاً: رحلاته

رابعاً: حياته العملية

خامساً: مؤلفاته

سادساً: الدراسات حول شخصية غوستاف لوبون وآراءه

سابعاً: كتب المؤلف المترجمة إلى اللغة العربية

ثامناً: وفاته

المبحث الثاني

التعريف بالمستشرق غوستاف لوبون.

ترجمة: غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) ١٨٤١م-١٩٣١م^(١)

أولاً: اسمه ومولده

هو شارل -ماري- غوستاف لوبون^(٢) (Le Bon Charle Marie Gustave)

مشهور بغوستاف لوبون، وهو من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين. ولد في نوجيه ليغوترو^(٣)، في السابع من شهر مايو عام ١٨٤١م.

ثانياً: دراسته العلمية

درس الثانوية في مدينة تورز^(٤)، ثم التحق بالجامعة في علوم الطب في العاصمة باريس، إلى أن حصل على درجة الدكتوراه في علم الطب في عام ١٨٦٦م.

ثالثاً: رحلاته

رحل إلى أوروبا، وآسيا، وإفريقيا الشمالية ما بين عام ١٨٦٠م و ١٨٨٠م. فكتب مقالات عن رحلاته، وله مصنفات في علم الحفريات، والعلوم الإنسانية في الحضارات الشرقية، كما شارك في لجان المعارض العالمية.

(١) المرجع الأساسي لهذه الترجمة هي الترجمة الموجودة في: wikipedia، وقد قمت بترجمة ما نقلته عنها من الفرنسية إلى العربية أولاً، ثم رتبته على شكل فقرات، وعنونت لكل فقرة منها.

(٢) غوفير: كاثرين، آراء غوستاف لوبون السياسية، ص ٤٤.

(٣) قرية في إقليم أورتلر شمال غربي فرنسا بقرب مدينة شاتر، بينها وبين العاصمة باريس حوالي ١٥٠ كلم. انظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة (مدينة نوجيه)، أقاليم فرنسا: <http://ar.wikipedia.org>.

(٤) تورز أو تورش، مدينة تقع على نهر (لوار-Loir) في وسط غرب فرنسا، وهي عاصمة مقاطعة (أندر لوار - Indre-et-Loire) بينها وبين العاصمة باريس ٢٤٠ كلم تقريباً. انظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة (مدينة تورز)، أقاليم فرنسا: <http://ar.wikipedia.org>.

قال بيار دو فيرجيه^(١) في تقديمه لكتاب الإنسان والمجتمعات لغوستاف لوبون ووصفه لرحلاته العلمية: ((في بداية ظهور الجمهورية الثالثة، شرع لوبون في سلسلة من الرحلات، جال في أوروبا، وإفريقيا الشمالية، والشرق الأوسط والهند، كما وصف ذلك في كتابه حضارة العرب. فرجع من هذه الرحلات العلمية بمعلومات ووثائق كوّنت المادة الأساسية في أهم مصنّفاته، وكان له السبق في إحراز مجموعة من الاكتشافات في الظواهر الاجتماعية والسياسية. وفي عام ١٨٧٩م سافر إلى موسكو ثم رحل إلى جبل تاترس في جنوب النمسا، حيث صرّح كبار السن في تلك البلاد أنّهم لم يروا فرنسياً قط.

وبعد عودته إلى فرنسا، في عام ١٨٨٦م حصل على منحة دراسية من وزارة التربية والتعليم لرحلة استكشافية أثرية في نيبال وجزر الهند. فتجول في تلك البلاد، راكباً الخيل ولمدة ستة أشهر. وصنف في تجرّبه هذه كتابه المشهور: (الفروسية وقواعدها) الذي أعاد طبعه ونشره: جان ميشال بلاس، ويعد هذا الكتاب العمدة في المدرسة الوطنية للفروسية إلى الآن في سومر، واستطاع أن يقتني خلال رحلته المئات من الصور التي زخرف بها كتابيه: (آثار الهند) و(الحضارات في الهند) عام ١٨٩٣م)).^(٢)

رابعاً: حياته العملية

((التحق بجمعية علم الإنسان بباريس عام ١٨٧٩م، ومنحته بعد سنة من الالتحاق بها جائزة قودار لدراسته المباحث التشريحية والرياضية في ناموس تحولات حجم الجمجمة بالذكاء. إلا أنه في سنة ١٨٨٨م استقال من هذه الجمعية وقطع كل الاتصالات بها بسبب عدم التفاتها إلى أبحاثه الجديدة عن روح الجماعات، حيث توصل بأبحاثه إلى عدم وجود عرق نزيه في الأمم المتقدمة))^(٣)، ويعني بالعرق، كغيره من علماء زمانه، كلمة مرادفة لكلمة الشعب التي يراد بها ((تجمع بشري ينتسبون إلى بيئة وثقافة واحدة في اللغة، والتقاليد،

(١) الأمين العام لجمعية أصدقاء غوستاف لوبون.

(٢) لوبون: غوستاف، الإنسان والمجتمعات: أصولها وتاريخها، ص ٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤١.

والدين، والتاريخ، والعادات، واللباس، والأكل...»^(١). وكان يرى أن «التصنيف حسب لون البشرة أو لون الشعر لا قيمة له إلا مثل من يصنّف الكلاب حسب اللون، وشكل الشعر، فيجعلها على فئات منها الأبيض، والأسود، والأحمر، والمتجعد.

كما كان لوبون يشارك بجدية في الحياة الفكرية الفرنسية، ففي عام ١٩٠٢م كان يقدم وجبات غداء كل يوم أربعاء، ويدعو إليها بعض الشخصيات لحضورها، كما أسس مكتبة الفلسفة العلميّة في دار النشر المشهورة فلاماري.

وبعد انتهائه من رحلاته العلمية، بدأ مشروعاً طويلاً وهو تصنيف سلسلة من الكتب في علم النفس، والفوارق النفسية بين الأمم، فكتب خلال عام ١٨٩٤م إلى وفاته أكثر من عشرين كتاباً، وقد طبعت، وله عدة أبحاث في تحويل المادة بواسطة الطاقة، عن طريق التفكك الذري»^(٢).

خامساً: مؤلفاته^(٣)

كان اهتمام لوبون بالبحث العلمي أكثر من اهتمامه ومباشرته لعمله الرئيس -الطب-، فقد كتب العديد من المقالات، وله كلمات موجهة إلى مجتمعات العلماء المتخصصين، ونشر كذلك كتباً وجدت قبولاً ككتاب (الموت الظاهر والدفن المبكر) ١٨٦٦م. أما أبحاثه الطبية انصبّت أولاً في علم وظائف الأعضاء، كعلم التشريح وعلم الفيزياء، ثم اتجه إلى العلوم الاجتماعية، فتدرّج من علم الأحياء إلى علم الاجتماع. وكانت أول مؤلفاته في علم الاجتماع هو كتاب: (الإنسان والمجتمعات) ١٨٨١م. ثم اتجه بالتدرج من علم الاجتماع الإنساني إلى علم النفس الجماعي، ويعتبر مؤسساً لهذه المادة. ألف في ذلك كتابه المشهور الذي روج في العالم (روح الجماعات) ١٨٩٥م، نشر هذا الكتاب بعد كتاب (قوانين علم النفس في تطور الأمم) ١٨٩٤م. ثم بعد ذلك، ألف كتاب (روح الاشتراكية) ١٨٩٦م، و(روح التربية) ١٩٠٢م، و(روح

(١) لوبون: غوستاف، الإنسان والمجتمعات: أصولها وتاريخها، ص ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣-٢٥، بتصرف.

(٣) غوفير: كاثرين، آراء غوستاف لوبون السياسية، ص ٤٤.

السياسة) ١٩١١م، و(الآراء والمعتقدات) ١٩١١م، و(الثورة الفرنسية وروح الثورات) ١٩١٢م، ثم في آخر حياته، في عام ١٩١٤م، وعمره وقتئذ ثلاث وسبعين سنة، بدأ مرحلة جديدة موسومة بنوع استعادة المعتقدات الدينية بالأمور العلمية، وذلك في كتابه: (حياة الحقائق) ١٩١٤م، و(الأصول العلمية لروح التاريخ) ١٩٣١م.

وله حوالي أربعين مصنفاً في عدة مجالات كعلم الطب، والفلسفة، والتاريخ، وعلم النفس والاجتماع...، وسأذكر بعضاً من هذه المصنفات مراعيًا التاريخ الزمني للتأليف:

- ١- البران - إقليم في وسط فرنسا يبعد عن باريس ٣٠٠ كيلومتر تقريباً - ١٨٦٠م.
- ٢- الطريقة الميسرة للتحليل الكيميائي للتربة ١٨٦٢م.
- ٣- الموت الظاهر والدفن المبكر ١٨٦٦م.
- ٤- الكوليرا ١٨٦٧م.
- ٥- علاج تطبيقي لأمراض الأعضاء التناسلية والبولية ١٨٦٩م.
- ٦- نظافة الجندي والمصابين ١٨٧٠م.
- ٧- روح جيل الإنسان وأهم الأحياء ١٨٧٠م.
- ٨- تعليم علم تركيب الأنسجة وعلم التشريح عن طريق العرض الضوئي ١٨٧٢م.
- ٩- الحياة - معالجة الروح الإنسانية - ١٨٧٤م.
- ١٠- فرجار غير منظم ١٨٧٨م.
- ١١- الساعة الجوية ١٨٧٨م.
- ١٢- طريق الرسم البياني وأجهزة التسجيل ١٨٧٨م.
- ١٣- المباحث التشريحية والرياضية في ناموس تحولات حجم الجمجمة بالذكاء ١٨٧٩م.
- ١٤- التشرونوسكوب الحديد لفحص بعض الأمراض العصبية ١٨٧٩م.
- ١٥- دخان التبغ ١٨٨٠م.
- ١٦- الإنسان والمجتمعات، أصولها وتاريخها ١٨٨١م.
- ١٧- رحلة إلى جبل تاترس ١٨٨١م.

- ١٨ - الأهالي ١٨٨٣ م.
- ١٩ - حضارة العرب ١٨٨٤ م.
- ٢٠ - رحلة إلى نيبال ١٨٨٦ م.
- ٢١ - الارتفاعات التصويرية ١٨٨٨ م.
- ٢٢ - دور اليهود في الحضارات ١٨٨٨ م.
- ٢٣ - الحضارات الأولى - الشرق - ١٨٨٩ م.
- ٢٤ - تطور القوى ١٨٩٠ م.
- ٢٥ - فروسية العصر وقواعدها ١٨٩٢ م.
- ٢٦ - حضارات الهند ١٨٩٣ م.
- ٢٧ - آثار الهند ١٨٩٣ م.
- ٢٨ - سيكيولوجية تطور الأمم ١٨٩٤ م.
- ٢٩ - روح الجماعات ١٨٩٥ م.
- ٣٠ - روح الاشتراكية ١٨٩٨ م.
- ٣١ - روح التربية ١٩٠٢ م.
- ٣٢ - الدين والحياة ١٩٠٣ م.
- ٣٣ - تطور المادة ١٩٠٥ م.
- ٣٤ - نشأة المادة وزوالها ١٩٠٧ م.
- ٣٥ - روح السياسة ١٩١٠ م.
- ٣٦ - الآراء والمعتقدات ١٩١١ م.
- ٣٧ - الثورة الفرنسية وروح الثورات ١٩١٢ م.
- ٣٨ - حِكم الزمان الحالي ١٩١٣ م.
- ٣٩ - حياة الحقائق ١٩١٤ م.
- ٤٠ - التعليم الروحي للحرب الأوروبية ١٩١٥ م.
- ٤١ - الآثار الأولى للحرب ١٩١٧ م.

- ٤٢ - أمس وغدا، فكرة قصيرة ١٩١٨ م.
- ٤٣ - روح الأزمنة الحديثة ١٩٢٠ م.
- ٤٤ - اضطراب العالم ١٩٢٣ م.
- ٤٥ - حيرات العصر ١٩٢٤ م.
- ٤٦ - التطور الحالي للعالم ١٩٢٧ م.
- ٤٧ - الأصول العلمية لروح التاريخ ١٩٣١ م
- كما أن للمؤلف العديد من المقالات العلمية، وقد نشر معظمها في المجلة العلمية الفرنسية، ومن هذه المقالات العلمية ما يلي مرتبة حسب تاريخ نشر كل واحدة منها:
- ١ - استخدام القوى الطبيعية ونقلها (٢٠ أغسطس، ١٨٨١ م).
 - ٢ - القوى المستقبلية (٨ أكتوبر، ١٨٨١ م).
 - ٣ - الكهرباء والقوى المستقبلية (٥ نوفمبر، ١٨٨١ م).
 - ٤ - علم الإنسان ودراسة الأجناس (١٧ ديسمبر، ١٨٨١ م).
 - ٥ - نشأة الأجناس في جبل تاترس في العصر الحاضر (١٨ مارس، ١٨٨٢ م).
 - ٦ - حضارة العرب والدراسة العلمية للتاريخ (١ ديسمبر، ١٨٨٣ م).
 - ٧ - الهند الجديد، وكيفية تكوين الاستعمار، وكيفية المحافظة عليه أو فقده (٢٠ نوفمبر، ١٨٨٦ م).
 - ٨ - تأثير التعليم والأنظمة الأوروبية في السكان الأصليين من المستعمرات (٢٤ أغسطس، ١٨٨٩ م).
 - ٩ - نفسية المرأة وآثار التعليم عليها في العصر الحاضر (١١ أكتوبر، ١٨٩٠ م).
 - ١٠ - الأبحاث الحديثة في مكسرات الكولا (٢٢ أكتوبر، ١٨٩٣ م).
 - ١١ - روح الجماعات (٦ و ٢٠ أبريل، ١٨٩٥ م).
 - ١٢ - الأضواء غير مرئية (٢٨ يناير، ١٨٩٩ م).
 - ١٣ - شفافية المواد الكثيفة بالأشعة (١١ فبراير، ١٨٩٩ م).
 - ١٤ - الإشعاع الكهربائي وشفافية المواد لأمواج الأثير (٢٩ أبريل، ١٨٩٩ م).

- ١٥- الأورانيوم، راديوم والانبعاثات المعدنية (٥ مايو، ١٩٠٠م).
- ١٦- أنواع الفسفور المختلفة (٨-١٥ سبتمبر، ١٩٠٠م).
- ١٧- تباين الأنواع الكيميائية (٢٢ ديسمبر، ١٩٠٠م).
- ١٨- تجسيم الطاقة (١٥ أكتوبر، ١٩٠٤م).
- ١٩- تجريد المادة (١٢ و١٩ نوفمبر، ١٩٠٤م).
- ٢٠- العالم وسط بين المادة والأثير (١٠ و١٧ ديسمبر، ١٩٠٤م).
- ٢١- تجريد المادة وأصل الحرارة الشمسية والكهربائية (١٦ ديسمبر، ١٩٠٥م).
- ٢٢- التنوير من المعرفة العلمية (١ و٨ فبراير، ١٩٠٨م).
- ٢٣- دور السرعة في الظواهر (١٢ ديسمبر، ١٩٠٨م).
- ٢٤- عودة السحر (٢٦ مارس و٢ أبريل، ١٩١٠م).
- ٢٥- الروحانية والعلمية (مجلة الحياة، رقم: ١٩٦٢، ٣١ ديسمبر، ١٩١٠م).
- ٢٦- برنامج خبرات في حل واستئصال مشكلة التكهن (مجلة الحياة، رقم: ٢٠٨٥، ١٠ مايو، ١٩١٣م).
- ٢٧- التحولات الواضحة من اللوحات إلى فن النحت (مجلة الحياة، رقم: ٢٨٤٧، ١٥ ديسمبر، ١٩٣٠م).

سادساً: الدراسات حول شخصية غوستاف لوبون وآراءه

إن شخصية غوستاف لوبون وآراءه كانت محل اهتمام الباحثين في فرنسا وخارجها، في حياة المؤلف وبعد وفاته، مما يدل على المكانة العلمية التي يحتلها هذا العالم لدى المتخصصين، وفي ما يلي ما تيسر لي العثور عليه من تلك الدراسات مرتبة حسب تاريخ كتابتها:

- ١- مَنْ المؤلف الذي اكتشف الظواهر الإشعاعية الفعّالة؟ لهين بيدي ١٩٠١م.
- ٢- نظريات الدكتور غوستاف لوبون في تطور المادة، لهنري لورنت ١٩٠٦م.
- ٣- غوستاف لوبون وأعماله، لإدمون بيكار ١٩٠٩م.

- ٤- أعمال غوستاف لوبون، لبارون موتونو ١٩١٤م.
- ٥- أعمال غوستاف لوبون، لألبرت دلاتور ١٩٢٥م.
- ٦- وجبات الغداء اليومية لغوستاف لوبون، لإرنست فلاماريون ١٩٢٨م.
- ٧- أصول الروح الجماعية (باللغة الانكليزية)، لروبرت ني ١٩٧٥م.
- ٨- غوستاف لوبون، الرجل وأعماله (باللغة الانكليزية)، لأليس ويدنار ١٩٧٩م.
- ٩- المادة تعني الطاقة لدى غوستاف لوبون، لبيار دوفيرجيه ١٩٨٤م.
- ١٠- عمر الجماعات، لسيرج موسكوفيسي ١٩٩١م.
- ١١- آراء غوستاف لوبون السياسية، لكاثرين غوفير ١٩٨٦م.
- ١٢- غوستاف لوبون: حياة مثقف، لبنيتوا ماربو ٢٠٠٠م.
- ١٣- روح الجماعات لغوستاف لوبون، لفينسنت رويو ٢٠٠٨م.
- ١٤- رؤية اجتماعية في الجمهور لغوستاف لوبون، لفينسنت رويو ٢٠٠٨م.
- ١٥- غوستاف لوبون، الأمس واليوم، لكوريا ٢٠١١م.

وقد اعترف الكثير من المثقفين والمفكرين والسياسيين الغربيين بأهمية أعمال غوستاف لوبون وتقدمها، ومن هؤلاء: بول بينليف ودانيال برثولو وأدوارد برانلي وشولسون داين وألبرت أينشتاين.

و كتب كاستون موش في عام ١٩٢٣م: ((لوبون ليس أول من فهم الطاقة الذرية بل قيّمها... ولم يكن يعمل كمهندس بل كمجرب)).^(١) ولما أَلّف كتابه روح الجماعات شكر عمله موسولين، والرسالة محفوظة في جمعية أصدقاء غوستاف لوبون.

(١) لوبون: غوستاف، الإنسان والمجتمعات: أصولها وتاريخها، ص ٢٥.

وزعم البعض أن الدكاتوريين استفادوا من غوستاف لوبون كموسوليني، وهتلر، وستالين، وماو، كما أن الكثير من الجمهوريين استفادوا منه أيضاً، كروزفيلت، وكيلاموسو، وتشرشل، وديغول.^(١)

ورغم مؤلفاته الكثيرة في مختلف المجالات إلا أنه اشتهر بأنه عالم اجتماع فقط لا سيما بعد كتابه (روح الجماعات). يقول بيار دوفيرجيه: ((غوستاف لوبون ما زال مشهوراً بكتابه (روح الجماعات ١٨٩٥م))^(٢) ويقول أيضاً: ((أريد أن أضيف كلمة في لوبون: أجهل رجل عند الناس بل أكثر رجل منسي)).^(٣) وعرفته موسوعة لاروس بأنه طبيب وعالم اجتماعي، اشتهر بكتابه (روح الجماعات)، وأنه أول من سلط الضوء على تأثير الدعايات في الناس.^(٤) وجاء في الموسوعة العربية الميسرة: ((غوستاف لوبون، عالم نفس واجتماع فرنسي...ألف عدداً من الكتب في علم النفس الاجتماعي، منها: (روح الجماعات) و(السنن النفسية لتطور الأمم) و(فلسفة التاريخ)، وقد ترجمت إلى العربية. اشتهر بكتابه (الحشد) أو (دراسة العقل الجماعي) ١٨٩٠م، وفيه يرد مشكلة سيكولوجية الحشد إلى مشكلة سلوك الفرد بتأثير أنواع خاصة من الدوافع، ويرى أن سلوك الحشد يظهر خواص جديدة مختلفة عن سلوك الأفراد الذين يتكون منهم الحشد عندما يكونون فرادى...)).^(٥)

وفي المنجد في اللغة والأعلام: ((طبيب وعالم اجتماعي فرنسي، رائد علم الاجتماع، دعا إلى تفسير السلوك الجماعي بالمقارنة بين نفسيّات فرديّة، من كتبه: نفسيّة الجماهير، وعلم النفس في الأزمنة الجديدة)).^(٦)

(١) لوبون: غوستاف، الإنسان والمجتمعات: أصولها وتاريخها، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٤) معجم وموسوعة لاروس، ص ٨٠٥.

(٥) صلواتي: ياسين وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، ١٥٦٩/٢.

(٦) معلوف: لويس، المنجد في اللغة والأعلام، ص ٤٩٥.

وجاء في الموسوعة الميسرة في الأديان: ((غوستاف لوبون: مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقاً، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متممة بإنصاف الحضارة الإسلامية مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره)).^(١)

ولعل من الأسباب التي أدت إلى إهماله وعدم تقديره:

١ - موقفه من اليهود، ومن ذلك قوله: ((لم يكن لليهود فنون، ولا علوم، ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة - مهما صغرت - في شيد المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة...)).^(٢)

وبسبب موقفه من اليهود وصفه بعض من ترجم له من العرب تبعاً لمن يعمل لمصالح اليهود بالتعصب والعنصرية: ((لوبون غوستاف (١٨٤١-١٩٣١)، عالم نفس، اجتماع فرنسي، كان متعصباً للعنصرية...)).^(٣)

٢ - موقفه من الديمقراطية.

٣ - موقفه من النصارى.

٤ - موقفه من الاستعمار.

وسياتي لاحقاً - إن شاء الله - الحديث عن موقف لوبون من كل ما سبق ذكره.

سابعاً: كتب المؤلف المترجمة إلى اللغة العربية

١ - حياة الحقائق، ت. عادل زعيتر، مصر، ١٣٦٨هـ. ومطبعة دار إحياء الكتب

العربية - عيسى البابي وشركاؤه، ط ١، ١٩٤٩.

(١) الندوة العالمية للشباب، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ٦٨٩/٢.

(٢) لوبون: غوستاف، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٢٥.

(٣) الندوة العلمية للشباب، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ١٥٦٩/٢.

- ٢- روح الجماعات، ت. عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٥م.
- ٣- حضارة العرب، ت. عادل زعيتر، دار العالم العربي، مدينة نصر-القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٦٩م. وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- ٤- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ت. عادل زعيتر، طبعه عيسى البابي الحلبي.
- ٥- روح الثورات والثورة الفرنسية، ت. عادل زعيتر، المطبعة العصرية.
- ٦- الآراء والمعتقدات، ت. عادل زعيتر، المطبعة العصرية الفجالة، مصر، ط٢، ١٣٦٥هـ.
- ٧- الفلسفة السياسية، ت. عبد الباسط أفندي فتح الله البيروني.
- ٨- روح الاشتراكية، ت. عادل زعيتر، عني بنشره إلياس أفندي أنطون إلياس صاحب المطبعة العصرية.
- ٩- حضارة الهند، ت. عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٨م.
- ١٠- الحضارة المصرية، ت. صادق رستم.
- ١١- حضارة العرب في الأندلس، ت. عبدالرحمن البرقوقي.
- ١٢- الدين والحياة، ت. عادل زعيتر.

ثامناً: وفاته

توفي في فرنسا في مدينة مَغن لَقوكيت، في الثالث عشر من شهر ديسمبر، سنة ١٩٣١م.

المبحث الثالث

التعريف بكتابه (حضارة العرب)

ويشتمل على التالي:

أولاً: زمن تأليفه

ثانياً: أسباب تأليفه

ثالثاً: محتوياته

رابعاً: منهج الكتاب

خامساً: نظرة عامة على منهج الكتاب من الناحية الفنية

المبحث الثالث

التعريف بكتابه (حضارة العرب)

أولاً: زمن تأليفه

ظهر كتاب حضارة العرب سنة ١٨٨٤م، قال عادل زعيتر في مقدمته لترجمة كتاب حضارة العرب في سياق حديثه عن جحود ونكران الأوروبيين لفضل العرب في تمدنهم: «وقد راع هذا الجحود العلامة الفرنسي الكبير غوستاف لوبون، وهو الذي هدّته رحلاته في العالم الإسلامي ومباحثه الاجتماعية إلى أن العرب هم الذين مدّنوا أوروبا، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقدته، وأن يُبديّه للعالم في صورته الحقيقية ما استطاع، فأخرج في سنة ١٨٨٤م كتاب (حضارة العرب) الذي نعرض ترجمته على الناطقين بالضاد»^(١).

ثانياً: أسباب تأليفه

ذكر غوستاف لوبون عدة أسباب دفعته لتأليف هذا الكتاب؛ وذلك أنه بعد انتهائه من تأليف كتاب (الإنسان والمجتمعات: مصدرهما وتاريخهما) وهو كتاب يبحث في نشأة الإنسان وتكوّن الأُسْر، والمجتمعات، والصناعات، والفنون، والنظم، والمعتقدات؛ رأى أن يبحث عن الحضارات العظيمة إكمالاً لبرنامجه.

فبدأ بالعرب وذلك لعدة أسباب ذكرها^(٢)؛ سأقوم بتلخيصها في نقاط؛ وهي

كالتالي:

أولاً: كثرة رحلاته في البلدان العربية.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥-٢٧.

ثانياً: يرى أن الاطلاع على تاريخ الحضارة العربية مفيد للغاية.

ثالثاً: امتداد الحضارة العربية من المحيط إلى المحيط، وأهلها يدينون بديانة واحدة، ولغة واحدة، ونظم واحدة، وفنون واحدة.

رابعاً: عدم وجود كتاب جامع لتأثير العرب في الأمم الأخرى، وأن كل ما كتبه المؤرخون عن الشرق ضعيف مقارنة بشأن الأمة العربية.

خامساً: التعرف على التجانس والتباين بين بلدان العالم الإسلامي.

سادساً: معرفة فضل العرب على بقية شعوب العالم.

سابعاً: الوقوف على أسباب قوة ونفوذ العرب والمسلمين قرونًا طويلة.

ثامناً: قرب حاضر الشرق من ماضيه، ولأن الشرق مرجع دائم لرجال الفن والعلم والأدب.

تاسعاً: العرب عنوان أمم الشرق، ولا تزال أوروبا جاهلة لشأنهم.

وغير ذلك من الأسباب التي ذكرها لوبون في ثنايا كتابه.

ثالثاً: محتوياته

قسّم لوبون كتابه هذا إلى مقدمة وستة أبواب وثلاثة فهارس، على النحو التالي:

المقدمة: وتحدّث فيها عن أمور أهمّها منهجه في دراسة الحضارات، ومنها حضارة العرب.

الباب الأول: البيئة والعرق وفيه ثلاثة فصول: الأول: جزيرة العرب، والثاني: العرب، والثالث: العرب قبل ظهور محمّد.

الباب الثاني: مصادر قوّة العرب وفيه ثلاثة فصول: الأول: محمّد - نشوء الدولة العربية-، والثاني: عن القرآن، والثالث: فتوح العرب.

الباب الثالث: دولة العرب، وفيه ثمانية فصول: الأول: العرب في سوريا، والثاني: العرب في بغداد، والثالث: العرب في بلاد فارس والهند، والرابع: العرب في مصر، والخامس: العرب في إفريقيا الشمالية، والسادس: العرب في إسبانيا، والسابع: العرب في صقلية، وإيطالية وفرنسا، والثامن: اضطراع النصرانية والإسلام (الحروب الصليبية).

الباب الرابع: طبائع العرب ونظمهم، وفيه خمسة فصول: الأول: أهل البدو وأهل الأرياف من العرب، والثاني: عرب المدن، طبائعهم وعاداتهم، والثالث: نظم العرب السياسية والاجتماعية، والرابع: المرأة في الشرق، والخامس: الدين والأخلاق.

الباب الخامس: حضارة العرب، وفيه عشرة فصول، الأول: مصادر معارف العرب (تعليمهم ومناهجهم)، والثاني: اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ، والثالث: الرياضيات وعلم الفلك، والرابع: العلوم الجغرافية، والخامس: الفيزياء وتطبيقاتها، والسادس: العلوم الطبيعية والطبية، والسابع: الفنون العربية (الرسم والحفر والفنون الصناعية)، والثامن: فنّ عمارة العرب، والتاسع: تجارة العرب (صلاتهم بمختلف الأمم)، والعاشر: تمدن العرب لأوروبا (تأثيرهم في الشرق والغرب).

الباب السادس: انحطاط حضارة العرب، وفيه فصلان: الأول: ورثة العرب (تأثير الأوروبيين في الشرق)، والثاني: أسباب عظمة العرب وانحطاطهم (حال الإسلام الحاضرة).

الفهارس: وفيه ثلاثة فهارس الأول: للمصادر، والثاني: للصور والخرائط، والثالث: للموضوعات.

رابعاً: منهج الكتاب

قال عادل زعيتر في مقدمة ترجمته لكتاب (حضارة العرب)^(١): «سلك لوبون في تأليف كتاب (حضارة العرب) طريقاً لم يسبقه إليها أحد من المستشرقين، فجاء جامعاً لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها في العالم، شاملاً لعجائبها مفصلاً لعواملها، باحثاً في قيام دولة العرب وفي أسباب عظمتهم وانحطاطهم، مبتعداً عن أوهام الأوروبيين التقليدية في العرب والإسلام.

وقد استعان لوبون بطريقة التحليل العلمي على الخصوص، فأوضح في هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضي، ووصف فيه عرق العرب وبيئاتهم، ودرس فيه أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم وتأثيرهم في المشرق والمغرب وأسباب عظمتهم وانحطاطهم».

وقال أيضاً: «فمن درس كتاب حضارة العرب وإنعام النظر فيه يتبين للقارئ أن العلامة غوستاف لوبون سلك في تأليفه طريقاً جديداً لم يسبقه إليه أحد، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب من مرقدتها وإظهارها للملأ على وجهها الصحيح.

ولم يأل العلامة لوبون جهداً في درس حضارة العرب مستنداً إلى أهم المؤلفات التاريخية وإلى مشاهداته الشخصية، فجاء كتابه جامعاً لكثير مما في تاريخ حضارة العرب من العظات والعبر، وقد أكثر بعض كتابنا من الاستشهاد بجمل منه عند بحثهم في تاريخ الحضارة فصار من الضروري نقله بأسره إلى اللغة العربية.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦.

هذا الكتاب صحيح المناحي والغايات في مجموعته، وهو كغيره من الكتب المهمة، لا يخلو من هفوات لا تخفى على القارئ، ولكن هذه الهفوات لا تحط من قيمته العظيمة،^(١) وقد أشرت إلى أهمها في هذه المقدمة.

بحث العلامة غوستاف لوبون في طبائع العرب وعاداتهم ونظمهم في مختلف الأقطار كما كانت عليه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، فعلى القارئ أن يلاحظ ذلك، وأن يعلم أن هذا الكتاب ظهر في سنة ١٨٨٤م، وأن طبائع العرب وعاداتهم تحولت بعض التحول منذ ذلك التاريخ بفعل مبتكرات العلوم والفنون والصناعة، وبفعل علاقات أمم الشرق الوثيقة بأمم الغرب في الزمن الحاضر)).^(٢)

خامساً: نظرة عامة على منهج الكتاب من الناحية الفنية

١. قال لوبون في نهاية مقدمة كتابه هذا:

((ونحن إذ نختتم هذه المقدمة نلخص المنهاج الذي أتبعناه في وضع هذا الكتاب، والذي نتبعه فيما نؤلفه من تواريخ الحضارات، بما يأتي، فنقول:

من المبادئ العامة: الوجوب في وقوع الحوادث التاريخية، والصلة الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي.

ومن موادّ التأليف: آثار الشعوب التي هي موضوع الدرس وتصويرها تصويراً صادقاً، ووصف العرق جسماً وعقلاً، والبيئة التي نشأ فيها العرق، والعوامل التي خضع لها، وتحليل

(١) بل إن هذه الهفوات لم تجعل لكتابه قيمة تُذكر.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٣.

لعناصر الحضارة، أي للنُّظْم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصناعات، وتاريخ لتكوين كلِّ واحدٍ من هذه العناصر.

وإذا أصابنا التوفيق في عَرَض صورة واضحة عن الأزمنة التي نرغب في بعثها، مستعينين بتلك الموادِّ والمبادئ، فإننا نكون قد نلنا ما نتمنى)).^(١)

٢. من معالم منهجه تواضعه في الاعتراف بما يجمله عن حضارة العرب كقوله: ((ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نُبدِي رأياً قاطعاً في ثروة جزيرة العرب المعدنية، فمعارفنا بها سطحيّة)).^(٢)

٣. تصحيح كثير من المعلومات الخاطئة عن العرب كقوله: ((ولا يؤبه للأخبار الناقصة التي أتى بها إسترابون وديودورس الصَّقَلِّي، وهما اللذان أسندا إلى جزيرة العرب من المنتجات في الغالب ما كانت تصدره إليها بلادُ الهند فتصدرها إلى الخارج)).^(٣)

وكذلك رُدّه على من زعموا أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور مُحَمَّد ﷺ.^(٤)

٤. لم يزر لوبون جميع البلدان التي خضعت لدولة العرب، حيث قال: ((كنتُ أريد أن أتمَّ مباحثي في مختلف البلدان التي خضعت لدولة العرب العظمى فأسيح في قلب جزيرة العرب وأوضح بعض المسائل التي لم أجد لها حلاً، فاقترحت حديثاً على وزير المعارف العامّة -وهو القيم على أموال البعثات العلمية- أن يعهد إليّ في ارتياد جميع جزيرة العرب والتقاط صور فوتوغرافية لأهم آثارها، فلم يقبل اقتراحي؛ لذلك عدلتُ، وأنا العاجز عن

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥،

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٧،

القيام بتلك الرحلة العريضة من مالي الخاص، عن مشروعى فاقترضت على رحلاتي في أقسام دولة العرب الأخرى التي تسهل السياحة فيها).^(١)

٥. لا يذكر اسم الكتاب الذي ينقل عنه والجزء والصفحة ويكتفي بذكر قائل النص. انظر على سبيل المثال.^(٢)

٦. الإحالة إلى بعض كتبه الأخرى لزيادة توضيح قضية ما كإحالاته إلى كتابه: (الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما)،^(٣) وكتابه: (السحنات)،^(٤) وكتاب آخر لم يسمه^(٥)، وكتاب: (دخان التبغ ومباحث كيماوية وفيزيولوجية).^(٦) وقوله: ((وقد ذكرنا في كتاب نشرناه حديثاً عن تأثير الحشيش النفسي...))،^(٧) وقوله: ((وهذا ما أوضحناه في كتابنا الأخير، فلا نرى غير تكرار ما ذكرناه فيه لإقناع القارئ...))،^(٨) وقوله: ((ففصلته في مذكرة نشرتها بعنوان: (المباحث التشريحية والرياضية في ناموس تحولات حجم الجمجمة)).^(٩)

٧. بذل لوبون جهداً كبيراً في تأليف هذه الكتاب، وتجاوز مصاعب كثيرة، ومنها في قوله: ((ونرى أن صورنا الفوتوغرافية، التي هي الأولى من نوعها عن داخل جامع عمر على

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق، الصفحات ٤٤-٥٠-٥٢-٥٥-٦٥.

(٣) المصدر السابق، حاشية الصفحات ٢٦-٦٤-٥٩٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٨٩.

(٦) المصدر السابق، حاشية ص ٣٧٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٧١.

(٨) المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(٩) المصدر السابق، ص ٤٠٨.

الخصوص، أصدق من أي رسم جاء عنه في أي كتاب نشر حتى الآن، فبهذه الصورة الفوتوغرافية ظهر ما في داخل هذا الجامع من الدقائق، وذلك مع ما اعترضنا حين التقاط هذه الصور من المصاعب بسبب تفاوت نور داخل هذا الجامع وتعذر دفع آلة التصوير إلى الوراء عند الاقتضاء، وليس من غير مصاعب كبيرة ما وفقنا لنيله من الصور التي يشتمل عليها هذا الكتاب»^(١).

٨. اهتم لوبون بتصوير المعالم التي أمكنه تصويرها أو نقلها من المؤرخين السابقين له؛ لاعتقاده بأن الصورة تغني عن آلاف الشُّروح، ونصَّ في أكثر من موضع على أهمية الصورة. وقد أورد في كتابه هذا ٣٦٣ صورة من تصويره، و ١٠ لوحات، و ٤ خرائط.

٩. تقديره للدراسات السابقة والنقل منها، كقوله: «وإليك -مثلاً- ما جاء في كتاب ثمين وضعه العالم المتدين مسيو لُوْبِلِه الذي هو ممن أجادوا درس الشرق...»^(٢).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، حاشية ص ١٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩١.

الباب الأول

دراسة تقويمية لمنهج غوستاف لوبون وموقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول

منهج غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب،

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: مناهج المستشرقين ودوافعهم

المبحث الثاني: خصائص المدرسة الفرنسية التي ينتمي إليها غوستاف لوبون

المبحث الثالث: عرض لأبرز مواقف وآراء لوبون في كتاباته الاستشراقية

المبحث الرابع: موارده في كتابه وأشهر من نقل عنهم من المستشرقين

المبحث الخامس: أبرز الملاحظات المنهجية على كتابه حضارة العرب

الفصل الثاني

موقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية وكيفية فهمها والتعامل معها،

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: موقف المسلمين من مطاعن وافتراءات المستشرقين

المبحث الثاني: موقف المسلمين من اعترافات وشهادات المستشرقين والمثقفين الغربيين على سماحة الإسلام

وعدالته وحفظه للحقوق

المبحث الثالث: الآثار العلمية المستفادة من دراسة الكتب الاستشراقية وأوجه الإفادة منها في تدعيم مسيرة

الدعوة الإسلامية

الفصل الأول

منهج غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: مناهج المستشرقين ودوافعهم

المبحث الثاني: خصائص المدرسة الفرنسية التي ينتمي إليها غوستاف لوبون

المبحث الثالث: عرض لأبرز مواقف وآراء لوبون في كتاباته الاستشراقية

المبحث الرابع: موارده في كتابه وأشهر من نقل عنهم من المستشرقين

المبحث الخامس: أبرز الملاحظات المنهجية على كتابه حضارة العرب

المبحث الأول

مناهج المستشرقين ودوافعهم

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: المنهج في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني: الآراء حول مناهج المستشرقين

المطلب الثالث: أهم العوامل التي تحكمت في منهج البحث الاستشراقي، وأهم

المآخذ المنهجية على كتابات المستشرقين تجاه الإسلام

المطلب الرابع: دوافع المستشرقين

المطلب الخامس: السمات المشتركة لكتابات المستشرقين على وجه العموم

المطلب الأول

المنهج في اللغة والاصطلاح

من خلال تتبعي للكثير من الكتابات حول مناهج المستشرقين في البحث؛ ومن خلال تفاوت آراء الكتاب حول هذا الموضوع؛ قمت بتلخيص وإعادة صياغة لهذه الكتابات وذلك للتركيز على أهم مناهج المستشرقين.

وقبل الحديث عن مناهج المستشرقين، سأقوم بتعريف المنهج في اللغة والاصطلاح، لكي تتضح المقارنة بين مفهوم المنهج الصحيح والمنهج الذي اتبعه المستشرقون.

أولاً: المنهج في اللغة

يقول ابن فارس: النَّهْجُ، والطَّرِيقُ، وَنَهَجَ لِي الْأَمْرُ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمَنْهَاجِ. وَالْمَنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضاً، وَالْجَمْعُ الْمَنْهَاجُ.^(١)

وقال الجوهري: النَّهْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَكَذَلِكَ الْمَنْهَجُ وَالْمَنْهَاجُ، وَأَنْهَجَ الطَّرِيقَ، أَي: اسْتَبَانَ وَصَارَ نَهْجاً وَاضِحاً بَيِّنًا. وَقَالَ أَيْضاً: وَنَهَجْتَ الطَّرِيقَ، إِذَا أَبْنَيْتَهُ وَأَوْضَحْتَهُ. يُقَالُ: اعْمَلْ مَا نَهَجْتَهُ لَكَ، وَقُلَانٌ يَسْتَنْهَجُ سَبِيلَ فُلَانٍ، أَي: يَسْأَلُكَ مَسَلَكَهُ.^(٢)

وقال الفيروز أبادي: النَّهْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ؛ كَالْمَنْهَجِ وَالْمَنْهَاجِ.^(٣)

وقال ابن منظور: (نَهَجَ) طَرِيقٌ نَهَجٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ وَهُوَ النَّهْجُ... طَرِيقٌ نَهَجَةٌ وَسَبِيلٌ مَنَهَجٌ كَنَهَجٍ، وَمَنْهَجٌ الطَّرِيقُ: وَضَحُهُ، وَالْمَنْهَاجُ كَالْمَنْهَجِ وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وَأَنْهَجَ الطَّرِيقُ: وَضَحَ وَاسْتَبَانَ وَصَارَ نَهْجاً وَاضِحاً بَيِّنًا.^(٤)

(١) ابن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، مادة: [نَهَجَ]، ٣٦١/٥.

(٢) الجوهري: أسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة: [نَهَجَ]، ٣٤٦/١.

(٣) الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة: [النَّهْجُ]، ٢٠٨/١.

(٤) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: [نَهَجَ]، ٣٨٣/٢.

ثانياً: المنهج في الاصطلاح

هناك الكثير من التعريفات للمنهج في الاصطلاح العام، منها:

أنه النشاط المنظم للإنسان في أيّ جانب من جوانب حياته.^(١)

وقيل بأنّ المنهج هو: الأصول والقواعد، ويراد بها الطريقة المنظمة في النظر والتفكير وتناول العلوم والمعارف.^(٢)

وقيل أنّ المنهج هو: الطريق المؤدّي إلى التّعريف على الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، والتي تهيمن على سير العقل، وتحدّ عمليّاته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة.

وقيل المنهج هو: أسلوب للتّفكير والعمل، يعتمد الباحث لتنظيم أفكاره، وتحليلها وعرضها، وبالتالي الوصول إلى نتائج وحقائق معقولة حول الظاهرة موضوع الدّراسة.^(٣)

وقيل إنّ منهج البحث هو طريقة وأسلوب البحث، وهي تعبّر عن محاولة الباحث في الوصول إلى المعرفة، أو التّنقيب عنها بأسلوب علميّ يخضع للتقصّي الدقيق، والنقد العميق، وعرضها بطريقة تحقق التّكامل والشّمول.^(٤)

وقيل إنّ المنهج يطلق ويراد به: النّظام والخطة العلميّة السليمة المرسومة للشّيء، وذلك مثل منهاج الدّراسة والتّعليم ومنهاج البحث العلمي ومنهاج العلوم.^(٥)

ويذهب بعض الباحثين إلى أن للمنهج استعمالان: أحدهما عام والآخر خاص، وأن مدلولهما في الحالتين متقارب. فالمنهج يأتي بمعنى السّمة الغالبة على مجموعة من الظواهر

(١) القوسي: مفرح بن سليمان، المنهج السلفي، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٣) عليان: رحي مصطفى وزميله، منهاج وأساليب البحث العلمي، ص ٣٣.

(٤) السامرائي: فاروق، المنهج الحديث للبحث في العلوم الإنسانيّة، ص ٧.

(٥) أنيس: إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ٩٥٧/٢.

الفكرية أو السلوكية... ويأتي بمعنى الطريق أو الطريقة المعددة التي توصل الإنسان من نقطة إلى نقطة أخرى، فالمنهج في البحث يعتبر وحدة متكاملة ذات كيان مستقل، تتألف من أساليب ووسائل معنوية ومادية.^(١)

تلك كانت طائفة مختارة من تعريفات المنهج لدى العلماء والكتاب المسلمين، سأذكر بعض تعريفات المنهج لدى العلماء الغربيين.

وردت كلمة منهج (Method) في الفكر الغربي بمعاني متعددة؛ خاصة وعمامة ومنها:

علم المنهج بالإنجليزية: (Methodology) أو الميثودولوجيا: هو العلم الذي يدرس المناهج البحثية المستخدمة في كل فرع من فروع العلوم المختلفة.

و يمكن تعريف علم المنهج على أنه: تحليل مبادئ وطرق وقواعد، المطبقة من قبل تخصص معين في البحث، والتحري عن النظريات، أو تطور المنهجية المطبقة في تخصص ما، أو الإجراءات العملية، أو مجموعة الإجراءات.

وعلم المنهج يتضمن:

- دراسة مجموعة نظريات، أو مصطلحات، أو أفكار.
- دراسة مقارنة للطرق المختلفة والمقاربات البحثية.
- نقد للطرق المستخدمة والمناهج.^(٢)

(١) صيني: سعيد ، قواعد أساسية في البحث العلمي ، ٦١-٦٢ .

(٢) ويستر: ميريام، قاموس ميريام ويستر، ويكيبيديا الموسوعة الحرة (علم المنهج)،

والمنهج هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء، أو في عمل شيء، أو في تعليم شيء، طبقاً لمبادئ معينة، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة.^(١)

وقيل أن المنهج بوجه عام هو: وسيلة محدّدة توصل إلى غاية معينة.^(٢)

وقيل هو: قواعد مؤكّدة بسيطة إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة كان في مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ.^(٣)

هذه كانت طائفة من تعريفات المنهج لدى الكتاب والمثقفين سواء من المسلمين أو الغربيين، ولكن هل التزم المستشرقون بهذه المناهج في دراساتهم الاستشراقية؟ وهل طبّقوا المعايير والقواعد السليمة للوصول إلى الحقيقة المرجوّة من أبحاثهم؟

(١) كرم: يوسف، وآخرون، المعجم الفلسفي، ص ١٧٠.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص ١٩٥.

(٣) وهبة: مراد، المعجم الفلسفي، ص ٤٣٢، والتعريف للفيلسوف الفرنسي (ديكارت).

المطلب الثاني

الآراء حول مناهج المستشرقين

هناك اتهامات كثيرة لمناهج المستشرقين في دراساتهم تجاه الشرق والإسلام والتفاوت كبير بين آراء الباحثين في الحكم على الفكر الاستشراقي ومنهجه في البحث.

بما أن الاستشراق مظهر من مظاهر صلة الغرب بالشرق؛ فهو نتاج لهذه الصلة، وبحسب تنوع هذه الصلة تنوع الاستشراق؛ فهناك استشراق ديني، وسياسي، وأدبي أو أكاديمي... فمثلاً الاستشراق الديني يترجم دوافع التبشير (التنصير)، والاستشراق السياسي يعبر عن مصالح الغرب السياسية والاستعمارية، والاستشراق الأدبي يستلهم سحر الشرق وغرابتة، والاستشراق الأكاديمي جعل همه الأساس المعرفة والبحث العلمي.

من خلال هذا التنوع في الدراسات الاستشراقية ظهر كذلك تنوع في نقد هذه الدراسات، فبحسب تنوع الصلات والمواقف من الغرب تنوعت المواقف من الاستشراق، ونتجت وتشكلت مدارس مختلفة ومتباينة إلى حد كبير في نقد الاستشراق ومناهجه، وتفاوتت آراء الباحثين في الحكم على الفكر الاستشراقي ومنهجه في البحث العلمي، وانقسمت هذه الآراء إلى ثلاثة أقسام: ^(١)

القسم الأول: أفرط في الثناء على الفكر الاستشراقي ومنهجه في البحث ووصفه بالمنهجية والدقة العلمية، وأنه قام بخدمات جليلة للفكر الإسلامي وأن الاستشراق أحسن أكثر مما أساء، وأفاد أكثر مما أضر؛

يتمثل ذلك في أمرين:

١- نشر المخطوطات وفهرستها.

٢- توجيه الفكر الإسلامي إلى الأخذ بالمنهج العلمي في البحث والدراسة. ^(٢)

(١) الدسوقي: محمد، الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي، منشور في كتاب دراسات استشراقية وحضارية، العدد: [١]، ص ٨٨.

(٢) داغر: يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، ٧٧٩/٢٠.

ويرى البعض أن المستشرقين قدموا لنا خدمات أياديهم البيضاء، وأنهم بذلوا جهداً كبيراً في التوثيق والتحقيق والتمحيص، فكان عملهم سليماً من الشوائب في الجملة؛ يقول محمد كرد علي: ((وكل ما طبعه أولئك الأعلام ينم عن صبر طبيعي فيهم، ودأب غريب، وأمانة يصفق لها، وتحرق للحق، وتخرج من التلفيق حتى غدت مطبوعاتهم -إلا ما ندر منها- مثال النظر البليغ والطبع الجميل، وأكبر معوان على المراجعة والمطالعة، والانتفاع بالكتاب حق الانتفاع))^(١) ويقول صلاح الدين المنجد: ((إن المستشرقين طرّقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا، وعالجوا كل أمر ذي شأن في ديننا وحضارتنا متبعين في دراساتهم وأبحاثهم طرق البحث المنهجي المنظم، ولقد أتيح لهم أن يكونوا أحياناً كثيرة أكثر إحاطة بالمصادر، وأبصر بمواضع النقد)).^(٢) ويقول زكي مبارك بعد أن بين أن للمستشرقين أخطاء في فهم التراث، وأن لهم آراءهم الفاسدة في الإسلام وتعاليمه، يقول: ((وليس لدي ما يمنع من الاعتراف بأن أثر المستشرقين أبقى في ذهني وأوضح، وأن فضلهم عليّ أظهر وأرجح)).^(٣)

وهذا إيجاز وإجمال بوجه عام لما يراه الذين يفرضون في الثناء على الفكر الاستشراقي.

القسم الثاني: قسم رفض الفكر الاستشراقي لأنه في كل ما صدر عنه لا يعرف

الإنصاف، وليست لديه موضوعية في الطرح، فكان في جوهره ومجمله فكراً عدوانياً باغياً.

فهذا الفريق يرى أن الاستشراق أساء إلينا أبلغ إساءة، وأن المستشرقين على اختلاف

لغاتهم وجنسياتهم يعملون وفق تخطيط مدروس يستهدف إضعاف القوة الإسلامية في شتى

المجالات، وأن هدفهم الأول من نشر التراث هو معرفة جوانب القوة للقضاء عليها،

(١) مجلة المجمع العلمي العربي، ١٠/٤٣٣-٤٥٦؛ والعقيقي: نجيب، المستشرقون، ٧/١.

(٢) المنجد: صلاح الدين، المنتقى من دراسات المستشرقين، ص ١٤.

(٣) مبارك: زكي، نفع المستشرقين أكثر من ضررهم، مجلة الهلال، العدد: [٣]، ص ٣٢١.

وجوانب الضعف لتعميقها؛ ليصل النفوذ الغربي طاغياً علينا، ولتمتلي طرق العود للإسلام الصحيح بالأشواك الدامية التي تحول دون اعتصام المسلمين الجاد بدينهم، فهم بغير هذا الدين لن يقدروا على أن يقفوا في وجه احتلال مادي أو معنوي^(١)، وهذا غاية الغايات للفكر الاستشراقي والسياسة الإستعمارية.^(٢)

أدلتهم على ذلك هو أن معظم ما اهتم به الاستشراق من تراثنا يعكس الاضطراب الفكري والسياسي بين المسلمين، فاهتم بالجوانب السلبية في تراثنا أكثر من الجوانب الإيجابية، ولم يكن الاستشراق في منهج التحقيق علمياً وموضوعياً، فقد ظهرت الكثير من الأخطاء والتحريفات والتعليقات التي تعبر عن التعصب والاتهام للإسلام ولغته، كما تعبر عن خدمة الأهواء السياسية والأطماع الاستعمارية، والتوجهات التنصيرية.

ما قدمه الاستشراق للأمة الإسلامية من تحقيق وفهرسة ليس ما يساعدنا على النهوض من كبوة التخلف على قول البعض؛ وإنما ليتمكن بيننا أسباب التمزق والضعف والتبعية، ويحقق له مآربه للهيمنة الفكرية والسياسية.

يقول محمد أسد: ((تواجها صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية في جميع ما كتب مستشرقو أوروبا، وليس ذلك قاصراً على بلد دون آخر، إنك تجد في إنجلترا وألمانيا، وفي روسيا وفرنسا، وفي إيطاليا وهولندا، وبكلمة واحدة في كل صقع يتجه المستشرقون فيه

(١) المعنوي: ما لا يكون للسان فيه حظ وإنما هو معنى يعرف بالقلب، وهي كلمة مُحدثة. المناوي: محمد بن عبدالرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ١/٤٩٨. أنيس: إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: [عنو]، ٢/٦٣٣.

(٢) الجندي: أنور، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٥١-٢٥٢.

بأبصارهم نحو الاسلام، ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة - حقيقية أو خيالية - ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد^(١).

يقول حسين الهراوي: ((إنهم ليسوا من العلم ولا من الأمانة كما يتصورهم الناس، وإنهم ممن لا يوثق بهم في البحث العلمي))^(٢).

القسم الثالث: قسم اتسم بالوسطية، وعدم الإفراط في المدح أو القدح، فهو يذكر ما للاستشراق من حسنات وسيئات دون غمط لحق، أو تجاهل لخطل في الرأي أو فساد فيه. فهم من جانب أيّدوا الذين حكموا على الاستشراق بالعدوانية وعدم الموضوعية في الطرح، ولكنهم من جانب آخر وافقوا الذين مدحوا الاستشراق وأثنوا عليه.

ودعوا إلى الأخذ بالنتائج الإيجابية وإلى تقويم أعمال المستشرقين وفق الأسلوب العلمي المنهجي، والابتعاد عن التعصب والانفعال، كما دعوا في مقابل ذلك إلى عدم امتداح هذه الأعمال وعدم اعتبارها المثل الأعلى دون تقويم علمي^(٣).

يتضح مما سبق أن التفاوت بين آراء الباحثين بالنسبة للفكر الاستشراقي له أسبابه ومسوغاته، فكل ما يصدر عن الإنسان من رأي ونظر فإنه محكوم غالباً بثقافته الخاصة، وظروف البيئة التي يعيش فيها.

(١) جحا: ميشال، موقف العرب من المستعربين، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص ٣٦.

(٢) الهراوي: حسين، ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم، منشور في مجلة الهلال، العدد: [٣]، ص ٣٢٤.

(٣) الدسوقي: محمد، الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي، منشور في كتاب دراسات استشراقية وحضارية، العدد: [١]، ص ١٠٦؛ وحسين: صبحي ناصر، موقف المشاركة من المستشرقين، منشور في كتاب الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، ص ٤٨.

أما وجهة نظري الخاصة في مناهج المستشرقين والفكر الاستشراقي بصفة عامة فهي تتلخص في الآتي:

أولاً: هناك قلة من المستشرقين لهم كلمة حق في الإسلام والمسلمين، ولكن هذه الكلمة تاهت وسط آلاف الكلمات الحاقدة والمغرضة تجاه الإسلام والمسلمين من الكثير من المستشرقين.

ثانياً: أن ما قدمه المستشرقون لنا من بعض الخير والنفع والذي تمثل في التحقيق والنشر وإصدار الفهارس القرآنية والحديثية وغيرها؛ فإن هذا الذي قدموه لم يكن مقصوداً لهم ولا غاية من غاياتهم، وإنما خدمة لنزعاتهم الدينية ومصالحهم الاستعمارية، والجميع متفقون على أن الجانب السلبي في الفكر الاستشراقي أغلب من الجانب الإيجابي، وأن هذا الأخير لم يكن مقصوداً لهذا الفكر.

ثالثاً: أن المعجبين بالفكر الاستشراقي والمروجين له هم في الغالب إما غير مسلمين، أو مسلمون لا يلمون بالثقافة الإسلامية، وعندما أرادوا التثقف لم يجدوا سوى كتب المستشرقين فاندفعوا إلى الاقتباس منها، وانبهروا بما فيها من مناهج علمية، فاعتقدوا أن هؤلاء الغربيين لا يقولون إلا الحق.

مما يدل على أن منهج المستشرقين في جملته لم يكن علمياً، ولا منصفاً، أو محققاً؛ ما يلي:

أولاً: رعاية الكنيسة ودعمها له منذ بدأ وحتى الآن، ثم رعاية السياسة الاستعمارية له في العصر الحديث.

ثانياً: نهض بالفكر الاستشراقي في أول نشأته الرهبان والقساوسة، وظل بعض هؤلاء يعملون في حقل هذا الفكر حتى العصر الحاضر، ومن هنا لم يستطع الفكر الاستشراقي أن يتخلى - في عصر العلم - عن الأباطيل والسخافات التي كان يرددها في عصر الظلمات.

ثالثاً: مجافاة المنهج العلمي بإهمال القواعد والأسس الأولية له.

رابعاً: إهمال المصادر الإسلامية الأصيلة، وهذا يخالف مبدأ الأخلاق الأكاديمية.

خامساً: الاحتفاء بدراسات المستشرقين التي ملئت بالافتراءات التي تشوه الإسلام وتنقّر من المسلمين.

سادساً: التمويه والتلبيس في البحث بالتظاهر بالموضوعية والاستيعاب، ثم دس السم في الدسم، وفق أسلوب يوحى بأن الاستشراق يتسم بالجدّة والدقة والصحة، وهو ليس كذلك في الواقع.

المطلب الثالث

أهم العوامل التي تحكمت في منهج البحث الاستشراقي

أولاً: عدم التخصص

يقول السامرائي^(١): عن كتاب ساسي في قواعد اللغة العربية إنّه قد لَوّن الاستشراق الأوروبي بصبغة فرنسية؛ أما اهتمامات دو ساسي فقد تنوعت حيث شملت اللغة العربية وآدابها والتاريخ والفرق والجغرافيا، وهي فترة افتقدت إلى التخصص حيث كان المستشرق بمجرد دخوله هذا المجال يظن أنه يستطيع أن يكتب في كل ما يخص الإسلام والمسلمين، ولكن هذا النمط استمر كثيراً بعد هذه الفترة حتى يومنا هذا.

ثانياً: التأثير بالحياة المادية

يرى الكثير من النقاد أن البعثات التعليمية الإسلامية إلى الغرب بعد الحرب العلمية الثانية؛ حيث تدفّق مجموعة من الطلبة العرب والمسلمين سواء للدراسة أو العمل؛ ذلك كان له تأثير على البعض منهم، حيث عاد لتطبيق المنهج الاستشراقي في دراسة العلوم الإسلامية والعربية، فقد تأثر البعض بالنزعة المادية في النظرة للحياة، ومن ثمّ تأثر البعد الروحاني سلبيًا لديهم، لما تلقّوه بطرق غير مباشرة من وجود فجوة ذهنية بين العلم والروحانيات في الثقافة الغربية، فعاد بعضهم ليبثّ المنهج المعلمن في إدارة الحياة.

وهذا الموضوع يحتاج إلى بحث علمي يركّز على مدى أثر البعثات التعليمية الإسلامية إلى الغرب وتأثيرها الإيجابي في رحلة التعارف بين الأمم، سواءً ذهب هؤلاء الطلبة

(١) السامرائي: قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص ١٠٣.

لدراسة العلوم الإسلامية والعربية في المراكز والمعاهد الاستشراقية، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية حيث تدفّق مجموعة من الطلبة العرب والمسلمين، ومنهم من بقي يدرّس في هذه المراكز أو يعمل، ومنهم من عاد لتطبيق المنهج الاستشراقي في دراسة العلوم الإسلامية والعربية، أم ذهبوا بوجه أوسع لدراسة تخصصات علمية تطبيقية وبحثة تحتاجها البلاد الإسلامية التي بعثتهم لها. وهؤلاء هم الكثرة الذين بسطوا بتلقائيتهم قدرًا لا يُستهان به من تجسير الفجوة في العلاقات الفكرية بين الشرق والغرب، وإن لم ينووا الإقامة الدائمة في الغرب، إلا أنّ وجودهم ترك أثرًا إيجابيًا على العموم في تجسير هذه العلاقة، وإن لم يخلُ وجود بعضهم من قابليتهم للتأثر بالنزعة المادية في النظرة للحياة، ومن ثمّ تأثر البعد الروحاني سلباً لديهم، لما تلقّوه بطرق غير مباشرة من وجود فجوة ذهنية بين العلم والروحانيات في الثقافة الغربية، فعاد بعضهم لبيث المنهج المعلمن في إدارة الحياة^(١).

(١) بوكاي: موريس، دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤١؛ والنملة: علي، محاضرة بعنوان: منهج التأثر والتأثير بين الثقافات، ١٧ محرم ١٤٢٩هـ، نشرتها صحيفة الرياض، العدد: [١٤٤٦٠]، بتاريخ: ١٧/١/١٤٢٩هـ. (بتصرف).

المطلب الرابع دوافع المستشرقين

أولاً: الدافع الديني:

الاهتمام الديني يعد أول أهداف الاستشراق ودوافعه الأولى وأهمها على الإطلاق، فعندما رأى النصارى وبخاصة رجال الدين فيهم أن الإسلام اكتسح المناطق التي كانت للنصرانية وأقبل كثير من النصارى على الدين الإسلامي ليس لسماحته فحسب، ولكن لأنه بعيد عن التعقيدات وطلاسم العقيدة النصرانية، ولأنه نظام كامل للحياة، كما أن رجال الدين النصارى خافوا على مكانتهم الاجتماعية والسياسية في العالم النصراني فكان لابد أن يقفوا في وجه الإسلام حيث إنه ليس في الإسلام طبقة رجال دين أو أكليروس كما في النصرانية.^(١)

وقد ذهب إلى هذا الرأي الدكتور السباعي حيث قال: «لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لتتعرف إلى الدافع الديني للاستشراق عند الغربيين»^(٢)؛ معللاً ذلك ((باهتمامهم في الطعن في الإسلام، وتشويهه محاسنه، وتحريف حقائقه؛ ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام - وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين - دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص وسفاكو دماء، يحتهم

(١) حسين: آصف، المسار الفكري للاستشراق، ص ٥٦٦.

(٢) السباعي: مصطفى، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص ٢٠.

دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي))^(١)، وهذا أيضاً ما ذهب إليه الشرقاوي.^(٢)

ثانياً: الدافع العلمي:

ذهب الدكتور عبد المتعال الجبري أن الدافع الأول للاستشراق هو الدافع العلمي حيث قال: ((كان الغرض الأول من دراسة المشرقيات هو استفادة الغرب من علوم الشرق وآدابه، فقد رأت أوروبا أنها لا تستطيع أن تنهض وتتخلص من الحكم العربي المسيطر على أوروبا إلا بالعلم الذي أقام عليه المسلمون فتوحهم وحكمهم)).^(٣)

ولكن الدافع العلمي وإن كان من الدوافع التي تقف من وراء الاستشراق، لكنه لا يمكن - بأي حال من الأحوال - أن يتصدر قائمة الدوافع الاستشراقية، بحيث يسبق الدافع الديني، يقول السباعي: ((من المستشرقين نفر قليل جداً أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة إلى المستشرقين، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته.^(٤)

كما أن أوروبا لم تكن لتنهض نهضتها دون أن تأخذ بأسباب ذلك وهو دراسة منجزات الحضارة الإسلامية في جميع المجالات العلمية، فقد رأى زعماء أوروبا ((أنه إذا

(١) المصدر السابق.

(٢) الشرقاوي: محمد، الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، ص ٤٣.

(٣) الجبري: عبد المتعال محمد، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ص ١٦.

(٤) السباعي: مصطفى، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص ٢٠.

كانت أوروبا تريد النهوض الحضاري والعلمي فعلیها بالتوجه إلى بواطن العلم تدرس لغاته وآدابه وحضارته»^(١) وبالرجوع إلى قوائم الكتب التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية لعرفنا حقيقة أهمية هذا الهدف من أهداف الاستشراق فالغربيين لم يتركوا مجالاً كتب فيه العلماء المسلمون حتى درسوا هذه الكتابات وترجموا عنها، وأخذوا منها.

ثالثاً: الدافع التجاري:

الدافع التجاري من دوافع دراسات المستشرقين، وفي ذلك يقول السباعي: ((ومن الدوافع التي كان لها أثرها في تنشيط الاستشراق، رغبة الغربيين في التعامل معنا لترويج بضائعهم، وشراء مواردنا الطبيعية الخام بأبخس الأثمان، ولقتل صناعتنا المحلية التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين))^(٢) فعندما بدأت أوروبا نهضتها العلمية والصناعية والحضارية وكانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، كما أنهم أصبحوا بحاجة إلى أسواق تجارية لتصريف بضائعهم كان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقاً مفتوحة لمنتجاتهم؛ فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعية واللغوية والثقافية وغيرها.

ولم يتوقف الهدف التجاري عند بدايات الاستشراق؛ فإن هذا الهدف ما زال من الأهداف المهمة؛ لاستمرار الدراسات الاستشراقية، فمصانعهم ما تزال تنتج أكثر من حاجة أسواقهم المحلية كما أنهم ما زالوا بحاجة إلى المواد الخام المتوفرة في العالم الإسلامي؛ ((ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات وكذلك الملوك في بعض الأحيان يزودون

(١) ريتشارد: سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٦.

(٢) السباعي: مصطفى، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص ٢٣.

الباحثين بما يحتاجون إليه من مال، كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية^(١)، فكانت تصدر تقارير شهرية هي في ظاهرها تقارير اقتصادية ولكنها في حقيقتها دراسات استشرافية متكاملة حيث يقدم التقرير دراسة عن الأحوال الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية للبلاد العربية الإسلامية ليتعرف أرباب الاقتصاد والسياسة على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي.

رابعاً: الدافع السياسي:

وهذا الدافع يتجلى أكثر في عصرنا الحاضر بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية، من خلال تجنيد رجال يعملون لحساب الاستشراق في سفارات الدول الغربية يحسنون اللغة العربية؛ ((ليتمكنوا من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة؛ للتعرف على أفكارهم، يثون فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريده دولهم، وكثيراً ما كان لهذا الاتصال أثره الخطير في الماضي حين كان السفراء الغربيون - لا يزالون في بعض الدول العربية والإسلامية - يثون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية؛ بحجة توجيه النصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تماماً نفسية كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضعف في سياستهم العامة، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم)).^(٢)

(١) زفروق: محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٧٧.

(٢) السباعي: مصطفى، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص ٢٤.

خامساً: الدافع الثقافي:

من أبرز دوافع الاستشراق وأهدافه نشر الثقافة الغربية انطلاقاً من النظرة الاستعمارية التي ينظر بها إلى الشعوب الأخرى، ومن أبرز المجالات الثقافية نشر اللغات الأوروبية ومحاربة اللغة العربية، وصبغ البلاد العربية والإسلامية بالطابع الثقافي الغربي، وقد نشط الاستشراق في هذا المجال أيما نشاط؛ فأسس المعاهد العلمية والتنصيرية في أنحاء العالم الإسلامي وسعى إلى نشر ثقافته وفكره من خلال هؤلاء التلاميذ، وقد فكر نابليون في ذلك حينما ((طلب من خليفته على مصر أن يبعث إليه بخمسمائة من المشايخ ورؤساء القبائل ليعيشوا فترة من الزمن في فرنسا يشاهدون في أثناءها عظمة الأمة الفرنسية ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولما يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم))^(١)، ولم يتم لنابليون ذلك ولكن لما جاء محمد علي أرسل بعثة من أبناء مصر النابجهين يقودهم رفاعة رفعت الطهطاوي، وقد قال محمود شاكر: إن هؤلاء ((يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزياً لفرنسا وعلى مر الأيام يكبرون ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيراً في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر)).^(٢)

(١) شاكر: محمود محمد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١.

المطلب الخامس

السمات المشتركة لكتابات المستشرقين

يستطيع القارئ البسيط من خلال تتبع كتابات المستشرقين أن يستخلص مجموعة من السمات المشتركة لآرائهم ومواقفهم تجاه الإسلام، وهذه بعض من تلك السمات قمت بجمعها وتلخيصها من خلال الدراسات الاستشراقية، ومن خلال كتب بعض من ناقش المستشرقين في آرائهم:

أولاً: تحليل الإسلام ودراسته بعقلية غربية، فهم يحكمون على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمغلوط الذي يجهل حقيقة الإسلام، فهم يميلون إلى النظر إلى التاريخ الإسلامي من خلفية ثقافية غربية، ووفقاً لمناهج البحث عندهم ومعاييرهم التي لا تصلح للتطبيق إلا على ثقافتهم، إضافة إلى ذلك هم يلجؤون إلى الاقتراحات والتخمينات التي بتكرارها يؤكدون الحقائق المقررة، ويطلقون عليها نظريات علمية، وينصبون أنفسهم للحكم من خلالها على التاريخ الإسلامي.

ثانياً: كثيراً ما يغلب على أبحاثهم الخضوع للهوى والبعد عن التجرد العلمي، فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مسبقاً، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك. فهو لديه فكرة مسبقة، ثم يقوم باللجوء إلى التصوص واصطيادها لإثبات تلك الفكرة واستبعاد ما يخالفها. وهذا مما لاشك فيه ليس من الأمانة العلمية، ويخالف الموضوعية والمنهجية الصحيحة في كتابة البحوث.

ثالثاً: خيانتهم لمبدأ الأخلاق الأكاديمية الذي يتطلب الحياد على الأقل؛ فهم يعتمدون النقل من المصادر الغير موثوقة لدى المسلمين، فيذهبون إلى الكتب التي تجمع الأحاديث والأخبار الضعيفة والشاذة فيحكمون بموجبها، ويستخدمونها كأداة في إثارة الشكوك.

رابعاً: ينتقون بعض الأحداث والقضايا الضعيفة والمعقدة والمتضاربة ويكتبون عنها، ويولونها مكانة واهتماماً أكثر مما تستحق، ويهملون غيرها، كما أنهم يشككون في أمور من

المسلّمات لدينا في التاريخ الإسلامي؛ فقد كثرت كتاباتهم عن الشيعة والإسماعيلية والزنج وغيرهم من الفرق التي ظهرت في التاريخ الإسلامي وبالغوا بالحديث عنهم، وقاموا بإخفاء الجوانب المشرقة والإيجابية.

خامساً: لا يتمتعون بالحيادية التامة، والنظرة الشمولية المعمّقة والإنصاف ونشدان الحق، بل تتسم كتاباتهم بأنها مصحوبة بالبواعث النفسية، والاحتقانات التاريخية، والتضادات الدينيّة والاستعمارية، أو نبرات الاستعلاء والاستكبار، أو لتمهيد بسط النفوذ والهيمنة.

سادساً: العبث والتلاعب بالمصطلحات والألفاظ، فهم يُسمّون الأمور بغير أسمائها، فمثلاً يسمون المنافقين في عهد النَّبِيِّ ﷺ بالمعارضة.

سابعاً: التحريف الواضح للكثير من الحقائق الثابتة في الإسلام والتزييف في تفسيراتهم للأحداث التاريخية؛ فهم يقومون بتحريف النصوص ونقلها نقلاً مشوهاً، وعرضها عرضاً مبتوراً، وإساءة فهم ما لا يجدون سبيلاً لتحريفه.

ثامناً: عدم الدقة وضحالة الفكر المستوعب في البحث الموضوعي، وذلك بسبب جهلهم باللغة العربية والإسلام، وضعف مؤهلاتهم مما جعلهم يرتكبون أخطاء فادحة في تفسيراتهم للأحداث التاريخية، لأنهم فسروا تلك الأحداث في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم.

تاسعاً: عدم الموضوعية في النقل من المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، كل ذلك انسياقاً مع الهوى وانحرافاً عن الحق.

المبحث الثاني

خصائص المدرسة الفرنسية التي ينتمي إليها غوستاف لوبون

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تاريخ المدرسة الفرنسية

المطلب الثاني: أعلام المستشرقين الفرنسيين

المطلب الثالث: ملامح الاستشراق الفرنسي

المطلب الأول

تاريخ المدرسة الفرنسية

تُعد المدرسة الفرنسية من أقدم المدارس الاستشراقية وأهمها، وترجع صلة الفرنسيين بالشرق إلى أواخر القرن الأول الهجري عندما دخلها الفاتحون المسلمون، من هنا بدأ الفرنسيون بالاهتمام بالدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، ثم توطدت هذه العلاقة بقيام الدولة الإسلامية في الأندلس، ثم بحملة نابليون على مصر، وأخيراً باحتلال فرنسا لكثير من البلدان الشرقية.

ولكن بدأ الاستشراق الفرنسي فعلياً عندما أسست أول مدرسة في أوروبا للغات الشرقية الحية في باريس عام ١٧٩٥م في ظل الثورة الفرنسية، ثم تقدمت الدراسات الاستشراقية من خلال هذه المدرسة واتسمت بطابع علمي إلى حد ما. ^(١)

وقد رأس هذه المدرسة المستشرق الفرنسي "سلفستر دو ساسي" ^(٢) و كان يُعد عميد الاستشراق الأوروبي آنذاك، وإمام المستشرقين في عصره، وكانت جهوده منصبّة على

(١) السامرائي: قاسم ، الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ص ١ ٥. سمايلوفيتش: أحمد، فلسفة الاستشراق، ص ٧٠. سعيد: إدوارد، الاستشراق، ص ٨٠. الزيايدي: محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٨٤. السعدي: إسحاق، تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه، ٢٤٨/١.

(٢) ستأتي الترجمة لهذا المستشرق ص ٧٤.

الدراسات العربية، يقول السامرائي عن كتاب دو ساسي في قواعد اللغة العربية: ((إنه قد لَوّن الاستشراق الأوروبي بصبغة فرنسية)).^(١)

وهذه الفترة كما يقول السامرائي أنها افتقدت إلى التخصص حيث كان المستشرق وبمجرد دخوله هذا المجال يظن أنه يستطيع أن يكتب في كل ما يخص الإسلام والمسلمين، ولكن هذا النمط استمر كثيراً حتى بعد هذه الفترة وإلى يومنا هذا.

ولقد ارتبط الاستشراق الفرنسي في هذه الفترة بالاستعمار بعد أن كان ارتباطه بالتنصير، ومع أن انفكاكه عن التنصير كان في الظاهر وارتباطه بالاستعمار ما هو إلا مساندة للظروف التاريخية، يقول الطيباوي: ((وظل التجاوب بين الاستشراق والتنصير متبادلاً وإن لم يكن التماثل بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي ظاهراً بشكل واضح))^(٢) ، ويقول محمود حمدي زقزوق: ((ومع أن الاستشراق أصبح من الناحية الأكاديمية منفصلاً عن التنصير إلا إنه لم يزل التحالف بينهما مستمراً حتى العصر الحاضر))^(٣) ، ثم بدأ المستشرقون الفرنسيون في النصف من القرن التاسع عشر الميلادي بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية، وقد نشطت هذه الجمعيات في إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة؛ ((فقد تأسست أول جمعية في باريس عام ١٨٢٢م وهي الجمعية الآسيوية الأولى في أوروبا)).^(٤)

بعد ذلك ((نشط الاستشراق الفرنسي قبل وبعد الحملة الفرنسية على مصر؛ فقد اصطحب نابليون معه عدداً كبيراً من العلماء في المجالات المختلفة ليحدث هزة انبهار لدى

(١) السامرائي: قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص ١٦.

(٢) الطيباوي: عبداللطيف، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص ٢٣.

(٣) زقزوق: محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٣١.

(٤) بدوي: عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٣٣٧.

المسلمين وعلمائهم بالحضارة الغربية، ولدراسة أوضاع المجتمعات الإسلامية بصورة أعمق، وقد صدر عن هذه الحملة كتاباً ضخماً بعنوان "وصف مصر" كما إن نفوذ الاستشراق الفرنسي استمر بعد وصول محمد علي إلى السلطة حيث بدأت البعثات العلمية في عهده وكانت تحت إشراف المستشرق الفرنسي جومار، وقد أرسلت تركيا وإيران والمغرب الأقصى بعثات مماثلة، والسبب في أن أولى البعثات العلمية قد توجهت إلى فرنسا أنها كانت أول الدول الأوروبية التي اتخذت العلمانية منهج حياة، وأن الفساد الأخلاقي كان ينتشر فيها أكثر من غيرها من الدول الأوروبية^(١) ، يقول محمد لطفي الصباغ: ((إن إفساد الطلبة المبعوثين لم يكن ليتحقق في بلد من البلاد الأوروبية كما كان يمكن أن يتحقق في فرنسا التي خرجت من الثورة الفرنسية وهي تسبح في بحور من الفوضى الخلقية والفكرية والاجتماعية... من أجل ذلك كانت فرنسا محل البعثات)).^(٢)

واستمر اهتمام الفرنسيين بالدراسات الاستشراقية إلى وقتنا الحاضر، فهناك أقسام متخصصة في الجامعات الفرنسية تعنى بالدراسات الاستشراقية، وكذلك هناك الكثير من المراكز العلمية لدراسة العالم العربي والإسلامي، إضافة إلى المؤتمرات والندوات التي تعقد لدراسة المجتمعات الإسلامية.

(١) مركز المدينة المنورة للدراسات الاستشراقية (www.madinacenter.com) بإشراف: د. مازن مطبقاني.

(٢) الصباغ: محمد لطفي، الابتعاث ومخاطره، ص ١٦.

المطلب الثاني

أعلام المستشرقين الفرنسيين

نبذة مختصرة لأبرز المستشرقين الفرنسيين، والذين كان لهم الأثر الواضح على المدرسة الفرنسية للاستشراق:

١- سيلفستر دو ساسي Silvester De Sacy (١٧٥٨م-١٨٣٨م) ^(١)

ولد في باريس عام ١٧٥٨م، وتعلم اللاتينية واليونانية ثم درس على بعض القساوسة منهم القس مور والأب بارتارو، ثم درس العربية والفارسية والتركية. عمل في نشر المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية، وكتب العديد من البحوث حول العرب وآدابهم وحقق عدداً من المخطوطات.

عُين أستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية عام ١٧٩٥م وأعد كتاباً في النحو ترجم إلى الإنجليزية والألمانية والدمركية، وأصبح مديراً لهذه المدرسة عام ١٨٣٣م، وعندما تأسست الجمعية الآسيوية انتخب رئيساً لها عام ١٨٢٢م. ومن أبرز اهتماماته "الدروز" حيث ألف كتاباً حولهم في جزأين.

أصبحت فرنسا في عهده محط أنظار المستشرقين من جميع أنحاء القارة الأوروبية، وإنّ الاستشراق اصطبغ بالصبغة الفرنسية في عصره، عمل دو ساسي مع الحكومة الفرنسية وهو الذي ترجم البيانات التي نشرت عند احتلال الجزائر وكذلك عند احتلال مصر من قبل حملة نابليون عام ١٧٩٧م.

(١) بدوي: عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٣٣٤، بتصرف.

(١)

٢- لويس ماسينيون Louis Massingon (١٨٨٣م-١٩٦٢م)

ولد في باريس وحصل على دبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب، كما حصل على دبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية الحية (فصحي وعامية) زار كلاً من الجزائر والمغرب، وفي الجزائر انعقدت الصلة بينه وبين بعض كبار المستشرقين مثل جولدتسيهر وآسين بلاثيوس وسنوك هورخرونيه ولي شاتيليه.

التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة عام (١٩٠٧م-١٩٠٨م)، وفي عام ١٩٠٩م عاد إلى مصر وهناك حضر بعض دروس الأزهر وكان مرتدياً الذي الأزهري، زار العديد من البلاد الإسلامية منها الحجاز والقاهرة والقدس ولبنان وتركيا، عمل معيداً في كرسي "الإسلام من الناحية الاجتماعية" في معهد فرنسا (١٩١٩م-١٩٢٤م) وأصبح أستاذ كرسي (١٩٢٦م-١٩٥٤م) ومديراً للدراسات في المدرسة العلمية العليا حتى تقاعده عام ١٩٥٤م.

لقد اشتهر ماسينيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة بالحلاج حيث حقق ديوان الحلاج (الطواسين) وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (آلام الحلاج شهيد التصوف) في جزأين وقد نشرت في كتاب تزيد صفحاته على ألف صفحة (ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية) وله اهتمام بالشيعة والتشيع، وعرف عن لويس صلته بالحكومة الفرنسية وتقديمه المشورة لها.

(١) بدوي: عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٥٢٩. بتصرف.

٣- ريجي بلاشير R.L. Blacher (١٩٠٠م-١٩٧٣م) ^(١)

ولد في باريس وتلقى التعليم الثانوي في الدار البيضاء، وتخرج باللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر، تولى العديد من المناصب العلمية منها أستاذ اللغة العربية في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (١٩٢٤م-١٩٣٥م)، وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس وأستاذاً محاضراً في السوربون، ثم مدير مدرسة الدراسات العليا والعلمية، ثم أستاذ اللغة العربية وحضارتها في باريس.

من أبرز إنتاجه ترجمته لمعاني القرآن الكريم وكذلك كتابه (تاريخ الأدب العربي) في جزأين، وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني، وله أيضاً كتاب (أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي).

٤- مكسيم رودنسون Maxim Rodinson ١٩١٥م. ^(٢)

ولد في باريس في ٢٦ يناير ١٩١٥م، وحصل على الدكتوراه في الآداب، ثم حصل على شهادة من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العلمية العليا، تولى العديد من المناصب العلمية في كل من سوريا ولبنان في المعاهد التابعة للحكومة الفرنسية هناك، تولى منصب مدير الدراسات في المدرسة العلمية للدراسات العليا قسم العلوم التاريخية واللغوية، ثم محاضراً في قسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية، نال العديد من الأوسمة والجوائز من الجهات العلمية الفرنسية والأوروبية.

(١) بدوي: عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ١٢٧. بتصرف.

(٢) العقيقي: نجيب، المستشرقون، ١/٣١٦.

له العديد من المؤلفات منها (الإسلام والرأسمالية) و(جاذبية الإسلام) و(محمد) و(إسرائيل والرفض العربي)، وله العديد من الدراسات التاريخية والتاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي.

هناك العديد من المستشرقين الفرنسيين البارزين مثل هنري لاوست وكلود كاهن وشارل بيلا وإميل درمنغم والأب لويس جارديه والأب البلجيكي الأصل الفرنسي الجنسية الأب لامانس، وأندريه ريموند، وروبير مانتران.. وغيرهم.^(١)

(١) للاستزادة، انظر: بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين.

المطلب الثالث

ملامح الاستشراق الفرنسي

إن الدارسين للاستشراق وبخاصة الفرنسي منه يؤكدون على أنّ الاستشراق الفرنسيّ الكاثوليكي هو أشد المدارس الاستشراقية قسوة وتطرفاً وعنفاً في الهجوم على الإسلام وعلى نبيه ﷺ، وبالرجوع إلى المواجهات بين العلماء المسلمين والمستشرقين الكاثوليك في الدول التي كانت خاضعة للاحتلال الفرنسي تبين حجم الحُبث الكاثوليكي الاستشراقي في هجمته على الإسلام؛ ويكفي مراجعة صحف ومجلات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ يقول علي النملة: ((ولا سيما عند النظر إلى الخلفية الطائفية للمستشرق كالكاثوليكي والبروتستانت والارثوذكسي، فنجد أن المستشرقين الفرنسيين، وهم كاثوليك في الغالب، أكثر التصاقاً بالتنصير من غيرهم، وبالتالي فهم أكثر من غيرهم جناية على المجتمع العربي الإسلامي بإسهاماتهم المتعددة في مواجهة المجتمع المسلم، ويمكن التوسع في هذا الافتراض بالدراسة المستقلة)).^(١)

أهم ملامح الاستشراق الفرنسي:

اهتم الاستشراق بجميع الجوانب الثقافية والحضارية والسياسية والفلسفية والدينية والاقتصادية.. وكانت هناك توجهات خاصة لكل مدرسة من مدارس الاستشراق، والمدرسة الفرنسية طرقت كل هذه الجوانب إلا أنها تخصصت في الجانب الثقافي فقد اهتمت مثلاً بالجوانب اللغوية والأدبية، واهتمت كذلك بتحقيق ودراسة المواضيع العلمية في الحضارة العربية.

(١) النملة: علي بن إبراهيم، المستشرقون والتنصير، ص ٢٢.

أورد الدكتور الزيايدي بعضاً من ملامح الاستشراق الفرنسي؛ فقال: ^(١)

أولاً: تتركز دراسته حول ثلاثة محاور وهي:

١- المحور الديني.

٢- المحور السياسي.

٣- المحور الاستعماري

ثانياً: له أثر كبير في توجيه الاستشراق الألماني والانحراف به نحو منحرجات دينية وسياسية، ويبرز ذلك من خلال تتلمذ الكثير من المستشرقين الألمان على مستشرقين فرنسيين؛ منهم فرايتاج وفلوجل وفلايشر.

ثالثاً: يعتبر معهد اللغات الشرقية الذي أسس سنة ١٧٩٥م أهم مكان ترعرع فيه الاستشراق الفرنسي.

رابعاً: كان لجامعة السربون ذات الشهرة العالمية أثر واضح في تنشيط الدراسات الشرقية في فرنسا.

خامساً: أسس كثيراً من المعاهد والمدارس والمراكز الثقافية في بلاد الشرق التي كان لها تأثير كبير في فرنسة عدد من هذه البلاد خاصة التي استعمرت من قبل فرنسا.

سادساً: يمتاز الاستشراق بالتخصص، أي أن معظم أفراده تخصص كل منهم في جانب معين من جوانب البحث والدراسة.

سابعاً: نشأت معظم الجامعات والمعاهد الفرنسية التي تعنى بالدراسات الشرقية بجهود رهبان وقساوسة؛ وتولى هؤلاء إدارة الأمور فيها.

(١) الزيايدي: محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ص ٨٥.

ثامناً: من مميزاته أنه قام بفهرسة الكثير من الكنوز الشرقية من مخطوطات ووثائق وغيرها سواء ما كان منها في فرنسا أو في غيرها من البلاد التي وقعت تحت الاستعمار الفرنسي.

تاسعاً: اهتم منذ البداية بكل ما يتعلق بالشرق عموماً، ولم يخص الإسلام أو العربية وحدهما أو يركز عليهما.

عاشراً: يعتبر المرجع الأوروبي الأول عن الأبحاث والدراسات الخاصة بالطوارق والبربر، وتركز مستعمراته في افريقيا ساعده على ذلك، واهتمامه بهذا النوع من الدراسات لا يخلو من نوايا استعمارية سيئة.

الحادي عشر: ترك بصماته الواضحة على التعليم في افريقيا، وخاصة في شمالها، وتم ذلك عن طريق ما أتيح لأعضائه من فرص في التدريس والتوجيه التربوي وتخطيط المناهج وغيرها.

الثاني عشر: اهتم كثيراً بالآثار وتبعها في مواقعها، وأنشأ لها معاهد ومراكز خاصة.

الثالث عشر: ضم بين صفوفه الكثير من ضباط القوات المسلحة الفرنسية، وأتاح لهم عملهم في المستعمرات الفرنسية.

الرابع عشر: النبوغ في ميدان الدراسات الشرقية في مختلف جوانبها، ومن هؤلاء جاكو ومونتان وبرشيه وغيرهم.

المبحث الثالث

عرض لأبرز مواقف وآراء لوبون في كتاباته الاستشراقية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أبرز الشبه والطعون الواردة في كتابات لوبون تجاه الإسلام

المطلب الثاني: أبرز المواقف والآراء المنصفة الواردة في كتابات لوبون تجاه الإسلام

والمسلمين وأثر المسلمين العرب على بقية الشعوب الأخرى

المطلب الأول

أبرز الشبه والطعون الواردة في كتابات لوبون تجاه الإسلام

أولاً: تشكيك لوبون في مسألة الوحي، وتناقض آرائه حول أصول القرآن.

١ - الزعم بأن رسول الله ﷺ تلقى علم التوراة من راهب نسطوري^(١) في بصرى، بما يعني أن ذلك هو مصدر القرآن الكريم.

في قوله: ((وتقول القصة إنَّ محمداً سافر مرّة مع عمّه إلى سوريا، فتعرّف في بصرى براهبٍ نسطوري في دَيْرٍ نصراني، فتلقّى منه علم التوراة)).^(٢)
ويقول: ((وتهيأ له بذلك السّفر إلى سوريا والاجتماع مرّة ثانية بالراهب الذي أطلعه سابقاً على علم التوراة...)).^(٣)

٢ - زعمه بأن بعض المواضع في القرآن الكريم من أقوال النبي ﷺ.

كقوله: ((وكان محمداً قليل المسامحة نحو النساء، مع ميله الشديد إليهن، ومع أن محمداً لم يبلغ في شدته درجة رجال التوراة، وصفهن في القرآن بأنهنَّ يُنشأن في الحلية، ويخاصمن من غير سبب)).^(٤)

(١) النسطورية، بالضمّ وتفتح، أهمله الجوهريّ. وقال الصّاغبيّ وصاحب اللسان: هم أُمَّة من التّصارى تُخالف، وفي التكملة واللسان: يخالفون بقيّتهم، وهم أصحابُ نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن أمير المؤمنين المأمون بالله العباسيّ، وتصرّف في الإنجيل بحكم رأيه وقال: إنّ الله واحد ذو أقانيم ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وهو بالروميّة نسطورس، بفتح الثّون. الزبيدي: محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة: [نسطر]، ٢١٤/١٤.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٢-١١٣.

وقوله: ((وإليك وصف محمدٍ ليوم الحساب - وأورد بعض الآيات الدالة على يوم القيامة- ثم قال: ((وفي النار ضروب الأذى - كما يرى محمد - ثم أورد بعض الآيات)).^(١)
وقوله: ((قال محمد: - ثم يذكر بعض الآيات من القرآن الكريم)).^(٢)

٣- زعمه بأن بعض نصوص القرآن الكريم مقتبسة من التوراة وأن بعض أصول القرآن صورة مبسطة عن النصرانية.

وذلك في قوله: ((وما جاء في القرآن من نصّ على خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق آدم، والجنة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب مقتبس من التوراة)).^(٣)
وقوله: ((إذا رجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية، أمكننا عدّ الإسلام صورة مبسطة عن النصرانية، ومع ذلك، فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي)).^(٤)

٤- تناقضه في مسألة الوحي، ونقده لترتيب القرآن، وسياقه.

وذلك بقوله: ((القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي الناظم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط، مع أنه أنزل وحيًا من الله على محمد، وأسلوب هذا الكتاب، وإن كان جديرًا بالذكر أحيانًا، عاطل من الترتيب، فاقده السياق كثيرًا، ويسهل تفسير ذلك عند النظر إلى كيفية تأليفه، فهو قد كتب بالحقيقة، تبعًا لمقتضيات الزمن، فإذا ما اعترضت محمدًا معضلة أتاه جبريل بوحى جديد حلاً لها فدوّن ذلك في القرآن... ويعُدُّ العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان، ومع ما في ذلك من مبالغة شرقية، نعتف بأن في القرآن آياتٍ موزونة رائعة، مما لم يسبقه إليه كتاب ديني آخر)).^(٥)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢١-١٢٣-١٢٤-١٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٧.

وقوله: ((وشرع محمّدٌ، منذ وصوله إلى المدينة، ينظّم شؤون دينه، وأخذ القرآن -الذي كان في دور التكوين- يكتمل بفضل تواتر نزول الوحي على محمّد في جميع الأحوال الصعبة خلا مبادئه الأساسية التي كانت قد عُرضت)).^(١)

ثانياً: آراء لوبون تجاه شخصية النبي ﷺ وعلاقاته الاجتماعية

١ - وصفه النبي ﷺ بالمتهوس^(٢)

يقول لوبون: ((حقاً أنّ من أعاجيب التاريخ أن يُلبّي نداء ذلك المتهوس الشهير شعبٌ جامعٌ شديد الشكيمة لم يقدر على قهره فاتحٌ، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول وألأ يزال يُمسك، وهو في جدّته، ملايين من الناس تحت لواء شرعه. ويجب احترام أعظم مؤسّسي الأديان والدول، وإنّ وصفهم العلم الحديث بذوي الهوس)).^(٣)

وقوله: ((وإذا عدوت هوس محمدٍ ككلّ مفتون، وجدته حصيماً سليماً الفكرة)).^(٤)

وقوله كذلك: ((ويجب عدّ محمّدٍ من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكثر مؤسّسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولو الهوس وحدهم، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين يُنشئون الديانات ويقودون الناس، ومتى يُبحث في عمل المفتونين في العالم يُعترف بأنّه عظيم، وهم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدول، وأثاروا الجموع وقادوا البشر، لو كان العقل، لا الهوس، هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر.

ولا يقف أيُّ قولٍ بخداع محمّد ثانياً أمام سلطان النقد كما يلوح لي، ومحمّد كان يجد في هوسه ما يحفره إلى اقتحام كلِّ عائق، ويجب على من يودُّ أن يفرض إيمانه على الآخرين

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٦.

(٢) الهوس، بالتحريك: طرفٌ من الجنون. الجوهري: إسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة: [هوس]، ٩٩٢/٣.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٤.

أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله، فيتقوى، ولا يرتد أمام أي مانع)).^(١)

٢- زعمه بأن النبي ﷺ كان يجذب كل يوم أصحاباً آخرين ببلاغته.

قال: ((كان محمدٌ يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر، وكان يجتذب في أصحاباً آخرين ببلاغته)).^(٢)

٣- زعمه بأن النبي ﷺ لم ينفر من عبادات قومه، وأنه لم يفكر في قلبها رأساً على عقب.

قال لوبون: ((ولم يخبرنا التاريخ عن سيرة محمد في السنين الخمس عشرة التي انقضت بعد زواجه بخديجة، ويفترض، وإن لم يقدّم دليل على ذلك أنه كان يفكر في أثنائها في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه، ولم يتبد منه في تلك السنوات أي نفور من عبادات العرب مع ذلك، كما أنه لم يقع فيها ما يدل على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عقب)).^(٣)

٤- الزعم بأن رسول الله ﷺ هو الذي يحلل ويحرم، وأن بعض ما حرّمه جاء موافقاً لمشاعر كثير من العرب.

في قوله: ((ومثل ذلك شأن محمد، الذي عرف كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها، فدعمها بنفوذ الدين العظيم، ولكن شريعة محمد لم تنسخ جميع العادات التي قامت مقامها كما أن قانون الألواح الاثني عشر لم يقض على قوانين الرومان القديمة، ومحمد حين رأى أن يحرم بعض العادات القديمة كالوَأد، لم يفعل غير ما يلائم المشاعر المنتشرة بدرجة الكفاية وما تقره هذه المشاعر)).^(٤)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٤-١١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٨٤.

٥- اتهامه النَّبِيِّ ﷺ بالقسوة على أعدائه.

قوله: ((وتوالت الوقائع بين مُحَمَّدٍ وجيرانه، وكانت كلُّ مصيبةٍ تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب، وكان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزم، ومعتدلاً إذا ما نُصر، وهو لم يَثْسُرْ على أعدائه إلاّ مرّةً واحدةً، حين أمر بأن تُضرب رقابُ سبعمئة معتقلٍ يهوديٍّ خانوه)).^(١)

٦- اتّهام النَّبِيِّ ﷺ بالضعف أمام النّساء، وخاصةً أمام زوجة ابنه بالتَّبَنِّي زيد ابن

حارثة رضي الله عنه، واتهامه بأنه كان قليل المسامحة نحوهن.

في قوله: ((وضعف مُحَمَّدٌ الوحيد هو حُبُّهُ الطارئ للنّساء، وهو الَّذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يُخَفِ محمد حُبَّهُ للنّساء فقد قال: (حُبُّبٌ إِلَيَّ من دنياكم ثلاث: الطَّيِّبُ والنّساءُ، وجُعِلت فُرّةٌ عيني في الصّلاة)).^(٢)

ولم يبالي مُحَمَّدٌ بسنِّ المرأة التي كان يتزوجها، فتزوَّج عائشة وهي بنت عشر سنين، وتزوَّج ميمونة وهي في السنّة الحادية والخمسين من سِنِهَا. وأطلق مُحَمَّدٌ العنان لهذا الحبِّ، حتّى إنّه رأى اتّفاقاً زوجة ابنه بالتَّبَنِّي وهي عارية، فوقع في قلبه منها شيءٌ فسرحها بعلها ليتزوَّجها مُحَمَّدٌ، فاغتمّ المسلمون، فأوحى إلى مُحَمَّدٍ، بواسطة جبريل الَّذي كان يتّصل به يومياً، آياتٌ تسوّغ ذلك، فانقلب الانتقاد إلى سكوت)).^(٣)

وقوله: ((كان مُحَمَّدٌ قليل المسامحة نحو النّساء، مع ميله الشّدّيد إليهن)).^(٤)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٦.

(٢) أخرجه النسائي: أحمد بن شعيب، السنن، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم ٣٩٤٠، ٦١/٧. وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٢٢٩٣، ٣٠٥/١٩. والحاكم: محمد بن عبدالله، المستدرک، رقم ٢٦٧٦، ١٧٤/٢. جميعهم من غير كلمة: [ثلاث]. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع، رقم ٣١٢٤، ٥٩٩/١.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٢.

٧- التشكيك في وفاء زوجات النبي ﷺ له، خاصة عائشة رضي الله عنها.

في قوله: ((ولم يثبت تماماً وفاء زوجات محمد الكامل له، ويظهر أن محمداً لاقى من المكاره الزوجية ما ينذر وجوده عند الشرقيين، ويكثر وقوعه لدى الأوروبيين، وكانت عائشة، على الخصوص، موضوع قلق له، وأصبحت ذات مرة موضع قالة سوء، فشهد جبريل، المحب للخير على الدوام، بعصمتها، فدونت شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن، فَحُظِرَ الشُّكُّ)).^(١)

٨- زعمه بأن رسول الله ﷺ أقام ديناً سهلاً يستمره قومه مستفيداً فيه من اليهودية والنصرانية.

في قوله: ((كان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يستمره قومه، وقد وُقِّعَ لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدّمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلًا إن ما أوحى إليهم صحيح، والحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروع ثلاثة لأصل واحد، وهي ذات قُرْبَى وشيخة)).^(٢)

ثالثاً: آراء لوبون تجاه بعض مسائل العقيدة والشريعة الإسلامية

١- زعمه بأن الديانة الهندوسية أفضل من الديانة الإسلامية.

في قوله: ((فإذا كان العرب أفضل من الهندوس علماء، كما هو واضح، فإنهم دونهم فلسفة وديانة، فليس في عامية القرآن ولاهوتيته الصبائية التي هي أيضاً من صفات الأديان السامية ما يقاس بنظريات الهندوس التي أتيح لي أن أبين عمقها العجيب في كتاب آخر)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٦٦.

٢- زعمه بأن الكعبة تعتبر معبد، وأن الحجر الأسود عبارة عن نُصْبٍ يعظمه المسلمون.

في قوله: ((ويقع المعبد الصَّغِير -الكعبة- في باحة الحرم المكي)).^(١)

وقوله: ((جعل محمد ﷺ: "الكعبة معبداً إسلامياً)).^(٢)

وفي قوله: ((ولا نعلم شيئاً^(٣) كرمه النَّاسُ زمناً طويلاً كالحجر الأسود الذي كان موضع احترامٍ وتبجيلٍ قبل ظهور محمد بقرون كثيرة)).^(٤)

٣- زعمه بأن اليهود كانوا شديدي التعظيم للكعبة.

في قوله: ((وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيين الكعبة التي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضاً)).^(٥)

٤- زعمه بأن نظم الإسلام كانت ملائمة لاحتياجات الأمة في القديم، ثم

صارت فيما بعد ثقلاً لا يمكن زحزحته.

في قوله: ((نيرُ هذه الشريعة الحازم ظلٌّ طيباً ما بقيت نُظْمُ النَّبِيِّ ملائمة لاحتياجات أُمَّته، فلما أصبح تعديل تلك النُّظْمِ ضربة لازِبٍ بسبب مبتكرات حضارة العرب، كان نيرُ التَّقَالِيدِ من التَّثْقُلِ بحيث لا يمكن زحزحته)).^(٦)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٣) جاء في بعض الترجمات الأخرى بلفظ (نُصْباً). انظر طبعة: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٧١.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٦٠٨.

٥- التشكيك في تحريم الإسلام تصوير الآلهة والكائنات الحيّة، والزّعم بأنّ القرآن الكريم حرّم الشطرنج.

في قوله: ((التصوير: من الأقوال الشائعة أنّه حرّم على المسلمين تصوير الآلهة والموجودات الحيّة، ويعزو القرآن، أو تفاسير القرآن على الأقل، هذا المنع إلى النبيّ.

والواقع أنّ المسلمين لم يكثرثوا لذلك إلّا في زمن متأخّر، وإنّهم تجاهلوا زمناً طويلاً، كما تجاهلوا منع ذلك الكتاب المقدّس للعبة الشطرنج، والشرب بآنية من الذهب أو الفضة...)).^(١)

٦- نفيه تأثير القرآن الكريم في جميع مذاهب العرب العلميّة والفلسفية التي نشروها في العالم في خمسة قرون.

في قوله: ((ولم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلميّة والفلسفيّة التي نشروها في العالم في خمسة قرون... غير أنّ العلماء كانوا لا يزالون -أبداً- بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدّس (القرآن) من الاختلاف، فإذا ما بلغت أفكارهم الحرّة عامّة الناس اضطرّ حماهم من الخلفاء، عادةً، إلى نفيهم لأجل محدود احتراماً للشعور العام، وإذا ما هدأت الرّوابة بسرعة استدعاهم الخلفاء...)).^(٢)

وقوله: ((لم يكن للإسلام، ديانة، تأثير في آثار العرب العلميّة والفلسفيّة)).^(٣)

٧- الزّعم بأنّ أهل اليمن كانوا ينظرون إلى أهل مكّة بعين الغيرة، وكانوا ينتظرون ظهور نبيّ، فاستهواهم حديث النبيّ ﷺ فاعتقدوه النبيّ المنتظر، فحدّثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكّة أيضاً، فأمنوا به.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٧١.

في قوله: ((اغتنم محمد ﷺ موسم الحج فدعا إلى دينه أناساً من اليمن، كانوا ينظرون إلى مكة بعين العيرة، وكانوا ينتظرون - كما شاع بينهم - ظهور نبي، فاستهواهم حديث النبي واعتقدوا أنه هو النبي المنتظر، وقد حدثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها العيرة من مكة أيضاً، وقد جاءه من هؤلاء رجال كثيرٌ ليستمعوا إلى دينه البسيط الواضح،... فأمنوا به وصدقوه وبايعوه، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه)).^(١)

رابعاً: آراء غوستاف لوبون تجاه غزوات النبي ﷺ والفتوحات الإسلامية

١ - الزعم بأن رسول الله ﷺ فتح مكة لأجل أن يعم نفوذه.

في قوله: ((وعظم شأن محمد في عدة سنين، وأصبح لا بُدَّ له من فتح مكة حتى يعم نفوذه، فرأى أن يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً إلى هذا الغرض، فجاء إلى البلد المقدس ومعه ١٤٠٠ من أصحابه، ولم يكتب له دخوله)).^(٢)

٢ - الزعم بأن صلح الحديبية كان إخفاقاً، وأن النبي ﷺ أراد بغزوة خيبر

التسلية على أصحابه جرأ هذا الإخفاق.

في قوله: ((ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق^(٣) أن يروح أصحابه، فحفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام، والتي كانت تقطن فيها قبائل يهودية، والتي كانت مقرَّ تجارة اليهود، ففتحها عنوة)).^(٤)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٣) يقصد: عدم دخول مكة بعد صلح الحديبية.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٧.

٣- الزعم بأن سبب فتح مكة إحساس محمد ﷺ بنمو سلطانه.

في قوله: ((ولمّا أحسّ محمّدٌ نموَّ سلطانه، عزم على فتح مكّة، فألّف جيشاً من عشرة آلاف محارب، مما لم يسبق له أن جمع مثله، فبلغ أسوارها، ففتح به مكّة من غير قتال بقوّة ما تمّ له من النّفوذ)).^(١)

٤- زعمه أن انتصار المسلمين على الروم كان سببه ضعف الدولة الرومية

في قوله: ((وكانت دولة الرّوم، الّتي نهكتها محارباتها لدولة الفُرس، والّتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة، في دور الانحطاط، ولم تكن غير هيكلٍ نحْرٍ يكفي أقلُّ صدمة لتداعيه)).^(٢)

وقوله: ((..كانت أركان العالم متداعيةً كالّدولة الإغريقيّة الرّومانيّة، والدّولة الفارسيّة في زمن ظهور محمّد، فقد كانت تانك الدّولتان مرهوبتين، مع ما كان يبدو من وهنهما)).^(٣)

وقوله: ((وُلد محمّد في أحسن الأوقات، فقد رأينا أن العالم المسنّ كان متصدّعاً فيه من كلّ جانب، ولم يتوجّب على أتباع محمّد إلاّ أن يهزّوه ليتساقط. بيد أنّ القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة)).^(٤)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٠١.

خامساً: آراء لوبون تجاه أحداث التاريخ والحضارة الإسلامية

١- التشكيك بأن العرب لم يخرجوا عباقرة، وأنهم دون الإغريق في كثير من المسائل. في قوله: ((ظهر من العرب رجالٌ من الطراز العالي، كما تشهد بذلك اكتشافاتهم، ولكنني لا أظنُّ أنهم أخرجوا رجالاً عظماء كأولئك العباقرة الذين ذكرتهم^(١)، والعرب كانوا دون الأغارقة في كثير من المسائل، مساوين للرومان في الذكاء لا ريب، غير حائزين، إلاً لوقت قصير، ما كان سبباً في دوام فوز روما زمناً طويلاً من الصِّفات الخُلقيَّة)).^(٢)

٢- الرَّعْمُ بأنَّ العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب تماماً، وأنهم تعلموا الشيء الكثير منه من قاهريهم بسرعة.

في قوله: ((ولكن العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب جهلاً تاماً، ولا تقوم الشجاعة مقام هذا الفنِّ، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البرابرة الذين ينقضُّون على أعدائهم بلا نظام، ولا يحارب كلُّ واحدٍ إلاً من أجل نفسه، وكان غير هذا أمر الفرس والروم، الذين كانت معرفتهم لفنِّ الحرب عظيمة جداً، كما ظهر من اشتباكهم الأوَّل بالعرب، ولم يلبث العربُ أن علموا من الهزائم التي أصابتهم في سوريا، ما كان يعوزهم، فاقتبسوا من قاهريهم كثيراً من شؤون الحرب...)).^(٣)

((إنَّ العرب نالوا عدَّة انتصارات في سوريا في خلافة أبي بكر، ولكن مهارتهم الحربية كانت ضعيفة مع شجاعتهم العظيمة - كما قلنا - فكان يتخلَّل تلك الانتصارات نوازلٌ إلى أن حذقوا صنع السِّلاح كأعدائهم)).^(٤)

(١) ذكر نيوتن وليبينتر. لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٣-١٣٤.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤٠-١٤١.

٣- الزعم بأن حضارة العرب ماتت إلى الأبد بعد إبادة وتشريد النصارى

للمسلمين في الأندلس

وذلك في قوله: ((وذلك أن فرديناند^(١) استولى على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة في سنة ١٤٩٢م، وأنه أخذ يعين في قتلهم وتشريدهم جماعات جماعات، وأن خلفاءه ساروا على سنته، وأنه قُتل وُسِّد ثلاثة ملايين نفس، فحبت^(٢) إلى الإبد شعلة حضارة العرب التي تُنير أوروبا منذ ثمانية قرون)).^(٣)

٤- الزعم بأن أصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جستنيان^(٤) تبجيلاً للعدراء.

في قوله: ((المسجد الأقصى: بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسي، وهو قديم أيضاً، وأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جستنيان تبجيلاً للعدراء، وحوّلها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر، ثم هدم الزلزال المسجد الأقصى وجُدِّد بناؤه في سنة ٧٨٥م)).^(٥)

(١) فرديناند الخامس (١٤٥٢هـ - ١٥١٦م). ملك قشتالة، وأراغون. استطاع السيطرة على غرناطة من أيدي المسلمين، أمر مسلمي الأندلس بالتحول عن دينهم، وإلا تعرضوا لعقوبات صارمة. ثم كانت أعمال محاكم التفتيش التي أقامها فرديناند التي بدأت في عام ١٤٨٧م خلال حربه مع المسلمين، واستخدمت وسائل العنف البالغ في عمليات التحقيق مع المسلمين بالدرجة الأولى، ثم مع مخالفي أمره الآخرين. انظر: الموسوعة العربية العالمية، ٢٩٠/١٧.

(٢) خَبَتْ: خَبَتِ النَّارُ، أَي: سَكَنَ هُبُّهَا. خَبَتِ النَّارُ، وَالْحَرْبُ، وَالْحِدَّةُ، خَبُوءًا وَخُبُوءًا: سَكَنَتْ وَطَفَّتْ. وَأَخْبَيْتُهَا: أَطْفَأْتُهَا. الجوهري: أسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة: [خَبَتْ]، ٢٤٧١/٦. الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة: [خَبَتْ]، ص ١٦٥٠.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٤٧.

(٤) جستنيان الأول هو (فلافوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس) (٤٨٢ - ٥٦٥م)، الإمبراطور البيزنطي الشهير، الذي جمع الشرائع الرومانية ودونها؛ المعروفة باسم: (مدونة جستنيان). انظر: الموسوعة العربية العالمية، ٣٧٠/٨.

(٥) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٦٢.

٥- الزعم بأن هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ هو بطل رواية ألف ليلة وليلة.

في قوله: ((بلغت بغداد ذروة الرِّخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير ٧٨٦-٨٠٩م)).^(١)

وقوله: ((وتحضت الفنون والعلوم والصنّاعة والتجارة بسرعة في زمن هارون الرشيد ٧٨٦م-٨٠٩م) على الخصوص، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفنّ يُشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة في أقاصي العالم، وأعطته القسطنطينية جزية...)).^(٢)

٦- الزعم بأن مباني الدّور الإسلامي الأول لم تكن من صنع العرب، وأنّها أقيمت على أنقاض الكنائس.

في قوله: ((ومهما يكن من أمر، فإنّ مما لا ريب فيه، أنّ مباني الدّور الإسلامي الأوّل، لم تكن من صنع العرب، وأنّ عمال البلاد التي دانت لهم هم الذين غيروا معالم الكنائس، لتكون موافقة لعبادة المسلمين، وأنهم أقاموا مباني العرب بأنقاض الكنائس...)).^(٣)

٧- اتهام عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأنه لم يمنع من عادات المصريين السيئة سوى قذف المصريين لإحدى العذارى إلى النيل ليؤمنّ عليهم بما يحتاجون من الماء وقت الفيضان، وأنّه استبدل ذلك بقذف تمثال خزفي يدعى العروس.

في قوله: ((ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريين، سوى عادة اختطاف إحدى العذارى الحسان من أبيوها في كلّ سنة، وقذفها في النيل، لكي يئنّ إله النيل على مصر بما تحتاج إليه من ارتفاع الماء وقت الفيضان، وقد استبدل عمرو بن العاص

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٥.

بتلك العادة العادة التي لا تزال موجودةً إلى يومنا، وهي قذف تمثال خزيٍّ يُدعى بالعروس، في النَّيل في يوم معيَّن من كلِّ سنة)).^(١)

٨- اتهام عبد الرَّحمن الدَّاخل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَنْشَأَ جَامِعَ قَرطبة الشَّهير؛ لتحويل أنظار العرب عن مكَّة.

في قوله: ((ولم يكد عبد الرَّحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانيا حتَّى أخذ يسعى في حمل العرب على عدِّ إسبانيا وطناً حقيقيّاً لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشَّهير الَّذي هو من عجائب الدُّنيا؛ لتحويل أنظار العرب عن مكَّة)).^(٢)

٩- اتهام عبد الرحمن الغافقي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ حين دخل فرنسا لم يفكّر بغير الغنائم.

في قوله: ((واستطاع عبد الرَّحمن الغافقي أن يسير، إذن، منتصراً غيرَ هيَّابٍ إلى الأمام، وأن يحزّب الحقول الخصبّة الواقعة بين مدينة بوردو ومدينة تُور، وأن يأخذ غنائم كثيرة من المدن، ونحن إذا علمنا أنّه لم يكن من عادة العرب أن ينهبوا البلدان التي يرغبون في استيطانها، كما ذكرنا ذلك غير مرّة، رأينا أنّ سلوك عبد الرحمن الغافقي يدلُّ على أنّه بدخوله فرنسا لم يفكّر في غير الغنائم...)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٤.

المطلب الثاني

أبرز المواقف والآراء المنصفة الواردة في كتابات لوبون تجاه الإسلام والمسلمين وأثر المسلمين العرب على بقية الشعوب الأخرى

أولاً: نظرة لوبون لعقيدة التوحيد وتعاليم الإسلام

١- اعتقاده أن هذه العقيدة سر قوة الإسلام لسهولةها، وخلوها من

التناقضات والغموض

بقوله: ((وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم. وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم - غالباً - من المتناقضات والغموض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يُعرض عنها.

وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة؛ رأيتَه يعرف ما يجب عليه أن يعتقدَه، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل)).^(١)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٥.

٢- يرى لوبون أن وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان ساعد على انتشاره في العالم، واعتناق الكثير من الشعوب النصرانية له

بقوله: ((وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نُفسر السبب في عدم تنصُر أمةٍ بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة)).^(١)

٣- يقرر لوبون أن الإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهدياً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح؛
بقوله:

((والإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهدياً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح، والبُدْهيَّة، وإن فاقت جميع الأديان السَّامية فلسفة، تراها مضطرةً إلى التَّحول لتستمرئها الجموع، وهي، لا شك، دون الإسلام في شكلها المُعدَّل هذا)).^(٢)

٤- يقرر في كتابه روح الاجتماع في سياق حديثه عن الإسلام وتمدنه؛
فيقول:

((كل ما جاء في الإسلام يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه المسيحيين)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٣) لوبون: غوستاف، روح الاجتماع، ص ٥٤.

ثانياً: نظرة لوبون إلى النبي ﷺ

١- في سياق حديثه عن النبي ﷺ يقول:

((وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصفون محمدًا، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخيهم عن الاعتراف بفضله، قال العلامة بارتلمي سنت هيلر: كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاءً، وأشدّهم تدبُّرًا، وأعظمهم رُفَّةً، ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوّقه عليهم، ونعُدُّ دينه الذي دعا النَّاسَ إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته)).^(١) ويقول أيضاً: ((وكان محمد كثير المسامحة لليهود والنصارى خلافاً لما يُظن)).^(٢)

٢- يقول لوبون في كتابه (حياة الحقائق) معترفاً بجهل النصارى لسيرة عيسى عليه السلام

خلاف سيرة النبي ﷺ المعروفة:

فيقول: ((نعرف ما فيه الكفاية عن حياة محمد، أما حياة المسيح فمجهولة تقريباً، وإنك لن تطمع أن تبحث عن حياته في الأناجيل)).^(٣)

٣- يتحدث عن أخلاق النبي ﷺ في كتابه (الدين والحياة)

فيقول: ((لقد كان محمد ذا أخلاق عالية، وحكمة ورقة قلب، ورأفة ورحمة، وصدق وأمانة)).^(٤)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٣) لوبون: غوستاف، حياة الحقائق، ص ٧٥.

(٤) لوبون: غوستاف، الدين والحياة، ص ١١١.

ثالثاً: نظرة لوبون إلى الفتوحات الإسلامية، وتسامح المسلمين مع أعدائهم

١- يقرر لوبون أن الإسلام لم ينتشر بالقوة، واعتناق الناس للإسلام كان بسبب ما رأوه من عدل المسلمين الذي لم يروا مثله عند ساداتهم السابقين؛ بقوله:

((وسيرى القارئ حين نبحت في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أنَّ القوَّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوام النَّصرانيَّة الإسلاميَّة واتَّخذوا العريية لغةً لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، مما لم يروا مثله من ساداتهم السَّابقين، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة التي لم يعرفوها من قبل)).^(١)

٢- نقل كلاماً في الحاشية بهذا الخصوص عن بعض العلماء الأوروبيين المنصفين -بحد زعمه-؛ فيقول:

((إنَّ مسامحة محمد لليهود والنَّصارى، كانت عظيمة إلى الغاية، مما لم يقل بمثله مؤسِّسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنَّصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنَّته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المنصفون القليلون، الذين أنعموا النَّظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثير منهم تثبت أنَّ رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا، قال (روبرتسون) في كتابه: (تاريخ شارلكن): إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التَّسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحراراً في التَّمسُّك بتعاليمهم

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٧-١٢٨.

الدِّينِيَّة. وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): إِنَّ الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فقد أعفى البطارقة والرهبان، وخدمهم من الضرائب، وحرّم محمّد قتل الرهبان على الخصوص؛ لعكوفهم على العبادات، ولم يمَسَّ عمر بن الخطاب النَّصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين... بلا رحمة وقتما دخلوها. وقال الرَّاهب (ميشود) في كتابه: (رحلة دينية في الشرق): "ومن المؤسف ألا تقتبس الشعوب النَّصرانيَّة من المسلمين التَّسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوَّة".^(١)

٣- قوله كذلك رداً على من يقول أن الإسلام انتشر بالسيف:

((وقد أثبت التاريخ أنَّ الأديان لا تُفرض بالقوَّة، فلما قهر النَّصارى عرب الأندلس، فضَّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر الإسلام بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالتُّرك والمغول، وبلغ من انتشار الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غيرَ عابري سبيل، أن زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً، مع أنَّ الإنكليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يُجهِّزون البعثات التبشيرية، ويرسلونها تبعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، الحاشية (١)، ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

٤- يقرر لوبون أن الفتوحات الإسلامية كان لها طابع خاص لا تجد مثله لدى الآخرين، حيث أن الحضارة تنتشر وبسرعة بمجرد دخولهم لأي بلد؛ وذلك في قوله:

((وللفتوح العربيّة طابعٌ خاصٌّ لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب، وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الرُّوماني والتُّرك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمةً، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعةٍ حضارةً جديدةً كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكّنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة...)).^(١)

٥- يقرر أيضاً بأن الدولة الإسلامية بدت أكثر دول الأرض هيبة وتمدناً؛ بقوله:

((والحقُّ أنّ هؤلاء القوم الشُّجعان الذين لبّوا دعوة محمد وغدوا أُمَّةً واحدة، أقاموا دولةً بلغت ما بلغته دولة الرُّومان من الاتّساع في أقلّ من قرنين، وأنّ هذه الدّولة بدت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدناً)).^(٢)

يقول أيضاً: ((وفي المدرسة العربية تمدّن المغول، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متفني العرب وعلماءهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولة قويّة عربيّة المناحي، فأحلّوا

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٦.

بذلك حضارة العرب محلّ حضارة الهند القديمة، فترى سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتى اليوم)).^(١)

٦- دفاعه عن المسلمين العرب بخصوص إحراق مكتبة الإسكندرية،
واتهامه النصارى بأنهم هم من أحرق المكتبة؛ وذلك في قوله:

((وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التي تأبأها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟، وهذه القصة دُحضت في زماننا، فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أنّ النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية، كالتى هدموا بها التماثيل ولم يبق منها ما يُحرق)).^(٢) ثم قال: ((ولما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسميّ أمر القيصر النصارى ثيودور، لا الخليفة عمر بن الخطاب، بإبادة معابدها - (أي: الإسكندرية) - وتماثيلها وكتبها الوثنية كما ذكرنا ذلك آنفاً)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٣.

٧- رده على بعض المؤرخين الذين يقولون إن العالم تقرر مصيره بعد

انتصار شارل مارتل^(١) على المسلمين في معركة بواتيه (بلاط

الشهداء)، فلو غلب الفرنج، لكانت الأرض قبضة محمد ﷺ، يقول:

((ولكن لنفرض جدلاً أنَّ النَّصارى عجزوا عن دحر العرب، وأنَّ العرب وجدوا جَوْ

شمال فرنسا غير بارد، ولا ماطر كجَوْ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان

يصيب أوروبا؟ كان يصيب أوروبا النَّصرانية المتبريرة مثلُ ما أصاب إسبانيا الحضارة الزاهرة

تحت راية النَّبيِّ العربيِّ، وكان لا يحدث في أوروبا التي تكون قد هُذِّبت ما حدث فيها من

الكبائر، كالحرب الدَّينيَّة، وملحمة سان بارتلمي، ومظالم محاكم التفتيش، وكلِّ ما لم يعرفه

المسلمون من الوقائع التي ضرَّجت أوروبا بالدماء عدَّة قرون.

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقاً ليوافق على ما زعمه ذلك

المؤرِّخ العالم^(٢) من (أنَّ النَّشاط الذي يحفز النَّاس إلى التَّقدُّم ليس مما تجده في عبقرية المسلمين)،

ومن (أن أوروبا والدنيا كانتا تخسران مستقبلهما)، فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان

التَّقد عندما يُعلم أنَّ التمدُّن اللَّامع حلَّ بالبلاد التي خضعت لأتباع الرِّسول محلَّ المهمجيَّة، وأنَّ

النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التَّقدُّم، لم يكن قوياً في أُمَّة مثل قوَّته في العرب)).^(٣)

(١) شارل مارتل (٦٨٨-٧٤١م). حكم الفرنجة (٧١٦-٧٤١م)، استخدم فقط لقب عمدة القصر

ولكن كانت له في الواقع سلطة ملك. في عام ٧٣٢م كَوَّن لنفسه جيشاً، وهو الذي أوقف تقدم

الفتح الإسلامي، وعاق انتشار الإسلام في أوروبا. انظر: الموسوعة العربية العالمية، ١٦/١٤.

(٢) وهو (هنري مارتن) في كتابه تاريخ فرنسا الشعبي. انظر: لوبون: غوستاف، حضارة العرب،

ص ٣١٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٧.

٨- يقرّر (لوبون) ويجزم أنّ للعرب أثر بالغ في تمدين الأقطار التي خضعت لسلطانهم؛ بقوله:

((..وأنّ كلّ بلد خفقت فوقه راية النّبيّ تحوّل بسرعة فزدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصّناعة والزّراعة أيّما ازدهار)).^(١)

٩- مقارنة بين الفتح الإسلامي والحملات الصليبية؛ حيث يقول:

((كان سلوك الصّليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطّاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون)).^(٢)

١٠- يقرر لوبون أن التسامح الإسلامي كان سبباً في ازدهار حضارة العرب؛ بقوله:

((ويمكن القول إنّ التسامح الدّينيّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب)).^(٣)

١١- تقرير لوبون بأن النصارى في أوروبا تخلصوا من همجيتهم بسبب اتصالهم بالمسلمين العرب؛ بقوله:

((لا نعود إلى ما فصلناه في فصل سابق عن تأثير العرب الخُلقيّ في أوروبا، وإنّما نذكر أنّنا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين سنيورات النصارى وأشياء النّبيّ في ذلك الزّمن، وأنّ النصارى تخلصوا من همجيتهم بفضل اتّصالهم بالعرب، واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم، وما تؤدّي إليه هذه المبادئ من الالتزامات، كمرعاة النّساء والشيوخ

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٧٠.

والأولاد واحترام العهود.. إلخ، ونذكر أننا في فصلنا عن الحروب الصليبية أنّ أوروبا النصرانية، كانت دون الشرق الإسلامي أخلاقاً بمراحل، فإذا كان للديانات ما يُسند إليها من التأثير في الطبائع على العموم، أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى، التي تزعم أنّها أفضل منه على الخصوص»^(١).

١٢ - اعتراف لوبون بأن الحضارة الإسلامية لم تقتصر على المسلمين أنفسهم بل تعدت ليلبغ أثرها الشرق والغرب؛ فيقول:

«لم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم، فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، والمشرق والمغرب مدينان لهم في تمدنهما، ولم يتفق لأمةٍ فيهما ما للعرب من التفوذ»^(٢).

ويقول أيضاً: «وبالعرب - لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأستراليين - أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلّت ثمانية قرونٍ مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا»^(٣).

١٣ - هنا يبين تأثير العرب على بقية الشعوب، وكيف أن الشعوب تقبلتهم وتقبلت لغتهم العربية؛ فيقول:

«وتعرّبت البربرية، كما تعرّب البربر أنفسهم، نتيجةً لارتباطها باللغة العربية، ويتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها سكان منطقة القبائل الكبرى من كلماتٍ غريبة، وأمرٌ طريف مثل هذا يُثبت لنا مرّةً أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يُكتب مثله لأية أمة

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٨.

أخرى، ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم في شمال إفريقيا دوام سلطان العرب من غير أن يتفق للغتهم أيُّ أثرٍ في اللغة البربرية)).^(١)

١٤- هنا ينقل كلاماً لمسيو بارتلمي سانت هيلر يقرر فيه أن الأوروبيين تعلموا الأخلاق الكريمة من فرسان المسلمين الفاتحين؛ فيقول:

((تكلّمنا في ذلك الفصل بدرجة الكفاية عن تأثير العرب الخُلُقِيّ في أوروبا، فنحيل القارئ عليه، وإمّا ندكّر القارئ بالنتيجة التي توصل إليها العلامة المُتدبّن مسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن، حيث يقول: أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع أمرائنا الإقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى، وتعلّم فرساننا أرقّ العواطف وأنبهها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، فأشكّ في أن تكون النَّصْرانيّة وحدها قد أوحّت إليهم بذلك، مهما بُولغَ في كرمها.

وقد يسأل القارئ بعدما تقدّم: لماذا يُنكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر، الذين يضعون مبدأ حرّيّة الفكر فوق كلّ اعتبار ديني كما يلوح؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذه السُّؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً، وهو أنّ استغلالنا الفكريّ لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧٦.

١٥- اعتراف لوبون بأن النظرة العدائية ضد الإسلام والمسلمين سببها

الأوهام والموروثات الثقافية التي ورثوها من أسلافهم، وثقافتهم

المدرسية البغيضة حسب قوله؛ فيقول:

((لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضدَّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، فصارت جزءاً من مزاجنا، فأضحت طبيعة متأصلة فينا، تأصلت حقد اليهود على النَّصارى الخفي أحياناً، والعميق دوماً.

فإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة ضدَّ المسلمين وهمنا الموروث الذي زاد مع القرون بفضل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة: إنَّ اليونان واللاتين وحدهم منبعُّ العلوم والآداب في الزَّمن الماضي، أدركنا بسهولة سرَّ جحودنا العامِّ لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوروبا، ويتراءى لبعض الفضلاء أنَّ من العار أن يُفكَّر في أنَّ أوروبا النَّصرانيَّة مدينةٌ في خروجها من دور التوحُّش لأولئك الكافرين، فعازَّ ظاهر كهذا لا يُقبل إلاَّ بصعوبة)).^(١)

١٦- في معرض حديث (لوبون) عن: (ورثة العرب في الأندلس)، أي بعد أن

غاب العرب المسلمون عن أرضها، يقول:

((لم يفكَّر النَّصارى، بعد أن استردَّوا غرناطة، التي كانت معقل الإسلام الأخير في أوروبا، في السَّير على سُنَّة العرب في التَّسامح الذي رأوه منهم عدَّة قرون، بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوة عظيمة على الرَّغم من العهود)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ٥٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٨١.

١٧- في سياق حديثه عن تأثير المسلمين العرب في أسبانيا مادياً وثقافياً

وأخلاقياً مما جعلها على رأس الممالك الأوروبية؛ يقول:

((واستطاع العرب أن يحوّلوا إسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوروبية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا على هذين الأمرين، بل أثروا في أخلاق الناس -أيضاً-، فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها، التسامح الذي هو أثن صفات الإنسان، وبلغ حلمُ عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عُقد في سنة ٧٨٢م ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد في سنة ٨٥٢م، وتُعدُّ كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربيّ من الأدلّة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم كثيرٌ من النصارى، ولكنهم لم يُسلموا طمعاً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهودُ مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانيا العربية بلدَ أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيراً جداً)).^(١)

يقول أيضاً: ((كان عرب إسبانيا يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخراً، فتؤثّر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثّره الديانة)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

رابعاً: آراء لوبون وموقفه من المرأة في الإسلام

١ - شهادة لوبون بأن الإسلام رفع من شأن المرأة؛

بقوله: ((إنَّ الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسيَّة، وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام إذن؛ لا النَّصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع، فإذا نظرت إلى سنيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى، رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحُرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر، وعلمت أن رجال الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى)).^(١)

يقول أيضاً: ((ومن الأدلَّة على أهميَّة النساء أيَّام نضارة حضارة العرب، كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلميَّة والأدبيَّة، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العبَّاسي في المشرق، والعصر الأموي في إسبانيا)).^(٢)

٢ - يقرر لوبون أن حالة النساء في الإسلام أفضل من حالة النساء في

أوروبا، وأن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.

فيقول: ((وما تقدَّم يثبت أنَّ نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كلِّ حال... لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نُضيف إلى هذا، أنَّه أوَّل

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا بياننا أن جميع الأديان^(١)، والأمم التي جاءت قبل العرب، أساءت إلى المرأة^(٢).

٣- يذكر لوبون في سياق رده على الأوروبيين الذين يفترون الكذب على النساء في الشرق:

((كلمة الحریم لفظٌ عام يدلُّ عند العرب على كلِّ ما هو مقدَّس، فإذا ما طبقت هذه الكلمة على منزل دلت على أمنع قسم منه وأشدّه حرمة لدى المسلم، أي على المكان الذي تسكنه نساؤه، وينسج الأوروبيون على العموم، أفسد الآراء حول دوائر الحریم في الشرق)).^(٣)

٤- رأي لوبون في مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام

يقول لوبون: ((لا يدرك المرءُ نُظْمَ أمةٍ أجنبيةٍ إلا إذا تناسى قليلاً مبادئ البيئة التي يعيش فيها، وفرض نفسه من أبناء تلك الأمة، ولا سيّما إذا كانت تلك النُّظْم من نوع مبدأ تعدد الزوجات الذي لما تُعلم حقيقة أمره إلا قليلاً فأسىء الحكم فيه.

ولا نذكر نظاماً أنحى الأوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات، كما أننا لا نذكر نظاماً أخطأ الأوروبيون في ادراكه كذلك المبدأ، وذلك أن أكثر مؤرخي أوروبا اتزاناً يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية في الإسلام، وأنه سبب انتشار القرآن، وأنه علة انحطاط الشرقيين...

(١) الدين الإلهي لا يسيء؛ بل فيه كل الخير والهداية والصلاح للبشرية، ولكن الأديان المحرفة والمبدلة هي التي تفعل ذلك.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٣.

ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يُثبت عند القارئ الذي يقرأ هذا الفصل، بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوروبية جانباً، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادةً لا تراهما في أوروبا.

وأقول قبل إثبات ذلك: إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تر الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غمماً جديداً إذن، ولا نعتقد مع ذلك وجود ديانة قوية تستطيع أن تحول الطباع فتبتدع أو تمنع مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد جوّ الشرقيين وعروقهم وطرق حياتهم^(١).

خامساً: آراء لوبون وموقفه من اليهود

يصف غوستاف لوبون اليهود؛ فيقول: ((وبقي بنو إسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدواً أفاكين مفاجئين سفاكين... مندفعين في الخصام الوحشي)).^(٢) يقول أيضاً: ((اليهود عاشوا عيشة الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً، ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات)).^(٣)

يصف تاريخهم؛ فيقول: ((إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر... وهم لم يستحقوا أن يُعدّوا من الأمم المتمدّنة بأي وجه)).^(٤) يصف غوستاف لوبون عادات اليهود القبيحة، وخرافاتهم؛ فيقول: ((أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين لم يقتبسوا من تلك الأمم سوى أحسن ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧.

الضارة ودعارتها وخرافاتهما فقربوا لجميع آلهة آسيا، قربوا لعشوتوت^(١) ولبعل^(٢) ولمولوخ^(٣) من القرابين ما هو أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم يهوه^(٤). **يقول أيضاً:** ((إن مزاج اليهود النفسي ظل على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب بدائية، فقد كان اليهود عنداً مندفعين، غفلاً سذجاً جفاة كالوحوش والأطفال)).^(٥) **ويقول:** ((ولا تجد شعباً عُطّل عن الدّوق الفني كما عُطّل اليهود)).^(٦)

يلاحظ مما ورد في هذا المبحث أن مواقف وآراء غوستاف لوبون تباينت وتناقضت تجاه الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية في كتابه حضارة العرب وكذلك من خلال كتاباته الأخرى والتي لها علاقة بموضوع الدراسة، فأحياناً تجد له مواقف وآراء منصفة للإسلام والعرب وحضارتهم، وأحياناً أخرى تجد الطعون والشبه الخطيرة، وسيتم مناقشة هذه الآراء والأفكار بالتفصيل في الأبواب القادمة من الدراسة إن شاء الله تعالى.

(١) عشوتوت: اسم في الأساطير الإغريقية لأشهر الآلهة في الشرق الأوسط، وكانت تُعبد في سوريا ومصر وفي كل المستعمرات الفينيقية في غربي البحر الأبيض المتوسط. الموسوعة العربية العالمية، ٢٦٠/١٦.

(٢) بعل: صنم عبده الإسرائيليون في حقبة التوراة. وكلمة بعل تعني الرب أو السيد أو الزّوج. وقد استعملت أحياناً للإشارة إلى الإله عند بني إسرائيل، وهي تشير عموماً إلى إله العاصفة أو الصنم الذي عبده الإسرائيليون، والذي وهبهم الأمطار في فصل الخريف ليجعل التربة خصبة كما زعموا. الموسوعة العربية العالمية، ٤٨٢/٤.

(٣) مولوخ: صنم عبده اليهود، وكانوا يجعلون الأطفال قرابين له. خان: ظفر الإسلام، التلمود تاريخه وتعاليمه، ص ٩٠.

(٤) لوبون: غوستاف، اليهود في الحضارات الأولى، ص ٣١.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٦٨.

المبحث الرابع

موارده في كتابه وأشهر من نقل عنهم من المستشرقين

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: غوستاف لوبون والموروث الثقافي الغربي

المطلب الثاني: مصادر ومراجع غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب

المطلب الأول

غوستاف لوبون والموروث الثقافي الغربي

تنوعت موارد ومصادر غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب، واعتمد على كثير من المصادر الأجنبية والعربية، وقد كان لتلك المصادر أثر في دقة دراسته وصحتها أو انحرافها، لذا فقد حرصت على حصر تلك المصادر ومدى إمكان الاعتماد عليها، وما خلفته من أثر سلبي أو إيجابي بإجمال في كتابات غوستاف لوبون، ومن ثم الكشف عن إمكانية الاعتماد على تلك الدراسات، لا سيما أن الكثير من المفكرين المسلمين يرون أن اهتمام الاستشراق بالثقافة الإسلامية لم يبدأ من منطلق حسن، وأنه اعتمد على ((خلفية غير إيجابية تجاه الإسلام والمسلمين، وذلك حينما نظر الغرب -منشأ ظاهرة الاستشراق- إلى الإسلام على أنه التهديد العقدي والثقافي الأول للوجود الثقافي والحضاري للغرب...ومن منطلق هذه النظرة وهذه الخلفية درس معظم المستشرقين الإسلام قصداً إلى الإساءة إليه، وذلك لتحقيق رغبة الكنيسة في الحد من انتشار الإسلام في الأوساط الغربية بخاصة، ثم على المستوى العالمي بعامه، ومن ثم حماية الكنيسة لمزاحمة المسجد لها)).^(١)

وهناك من ينظر إلى أن بعض المستشرقين لم يسلكوا هذا الاتجاه العدائي ضد الإسلام، وأنهم لم يتأثروا بهذه الخلفية الغير إيجابية تجاه الإسلام والمسلمين؛ ومن أمثلة هؤلاء المستشرقين "غوستاف لوبون" فيرى البعض فيه الإنصاف والتجرد والموضوعية وعدم التأثير بالمبدأ الذي انطلق منه المستشرقون.

ولكن عند الرجوع إلى مصادر غوستاف لوبون وموارده في كتابه حضارة العرب يتبين أن معظم مصادره كانت من كتب المستشرقين الذين سبقوه، وأما المصادر العربية التي نقل

(١) النملة: علي، الاستشراق والدراسات الاستشراقية، ص ١٩.

منها فهي كذلك تُرجمت من قِبَل مترجمين ومستشرقين غربيين؛ إذن فالمنبع الذي يغرف منه هو وغيره من المستشرقين واحد. وسيتبين من خلال أبواب الدراسة وفصولها مدى تأثير لوبون بمن سبقه من المستشرقين وتقليده لهم في الكثير من الآراء والمعلومات المغلوطة عن الإسلام.

ورغم محاولات التجرد والموضوعية التي حاول فيها غوستاف لوبون دراسة الحضارة الإسلامية؛ إلا أن طبيعة دراسة الإسلام والمسلمين مهما كانت درجة التجرد والموضوعية فيها فإنها ((تستلزم توافر الانتماء العقدي فيها الذي يفرض جانباً كبيراً من التوثيق والتوثق من الأخبار والروايات، والتثبت من مصادر المعلومات التي تكون عادة مادة دسمة لتقرير موقف ما يعين على الخروج بحكم على الإسلام)).^(١)

واعتماد لوبون في معلوماته حول دراسة الإسلام والمسلمين على من سبقه من المستشرقين أدى إلى وقوعه في الأخطاء نفسها التي وقع فيها المتقدمون؛ سواء عن قصد أو عن غير قصد، ويؤيد ذلك اعتراف المستشرقين أنفسهم بذلك؛ يقول المستشرق مونتجمري وات: ((جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام، وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل؛ فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنبها)).^(٢)

(١) النملة: علي، الاستشراق والدراسات الاستشراقية، ص ٢٢.

(٢) اللبان: إبراهيم، المستشرقون والإسلام، ص ٣٦-٣٧، (ملحق مجلة الأزهر).

ويقول المستشرق نورمان دانييل: ((على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام؛ فإنهم لم يتمكنوا أن يتجرّدوا منها تجرّداً تاماً)).^(١)

قرر غوستاف لوبون ذلك، واعترف بالحقد الدفين الذي يكنه الغربيون على الإسلام والمسلمين، وأن سبب ذلك هو الموروث الثقافي الذي أثر على إنتاجهم الفكري عن الإسلام والمسلمين، فقال: ((لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، فصارت جزءاً من مزاجنا، فأضحت طبيعة متأصلة فينا، تأصلت حقد اليهود على النصارى الخفي أحياناً، والعميق دوماً)).

فإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضدّ المسلمين مبتسراتنا الموروثة الذي زاد مع القرون بفضل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة: إنّ اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزّمن الماضي، أدركنا بسهولة سرّ جحودنا العامّ لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوروبا، ويتراءى لبعض الفضلاء أنّ من العار أن يُفكّر في أنّ أوروبا النصرانيّة مدينةً في خروجها من دور التوحّش لأولئك الكافرين، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقبل إلاّ بصعوبة)).^(٢)

ويعترف أيضاً بعد أن ذكر فضل المسلمين على أوروبا؛ أن الأوروبيين ليسوا من أحرار الفكر؛ فيقول: ((تكلّمنا في ذلك الفصل بدرجة الكفاية عن تأثير العرب الخُلقيّ في أوروبا، فنحيل القارئ عليه، وإمّا ندكّر القارئ بالنتيجة التي توصل إليها

(١) السامرائي: قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص ٦٩.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٧٨.

العلامة المتمدّن مسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن، حيث يقول: أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع أمرائنا الإقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى، وتعلّم فرساننا أرقّ العواطف وأنبأها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، فأشكُّ في أن تكون النصرانيّة وحدها قد أوحى إليهم بذلك، مهما بُولغ في كرمها.

وقد يسأل القارئ بعدما تقدّم: لماذا يُنكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر، الذين يضعون مبدأ حرّيّة الفكر فوق كلّ اعتبار ديني كما يلوح؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذه السُّؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً، وهو أنّ استغلالنا الفكريّ لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وأنّنا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد^(١).

مع هذا الاعتراف من غوستاف لوبون ومحاولته تجنب هذا الموروث الثقافي البغيض -بحسب قوله- إلا أنه وقع في أخطاء ومغالطات كبيرة وعظيمة تدل على تأصّل هذا الموروث داخل كل مستشرق وإن حاول الإنصاف والتجرد.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٧٦.

المطلب الثاني

مصادر ومراجع غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب

قمت بحصر أهم المصادر التي رجع إليها لوبون سواء المصادر العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية، وسواء كانت كتباً أو تقارير أو مقالات أو موسوعات أو رسائل علمية.

يُلاحظ من خلال منهج غوستاف لوبون في التعامل مع المصادر التي رجع إليها أن يذكر اسم المؤلف فقط ولا يشير إلى اسم الكتاب الذي نقل عنه، وربما أشار إلى اسم الكتاب أو موضوع الكتاب أحياناً دون ذكر رقم الجزء والصفحة، وكثيراً ما يكتب بصيغة التمريض فيقول: قيل ويقال ويروى.

من الأمثلة الكثيرة على ذلك؛ قوله: ((قال الكاتب الفاضل مسيو رينان: إن العلوم الافتراضية تنقض بعد أن توضع...))^(١) هكذا ولا يذكر اسم المرجع أو الجزء والصفحة.

وقوله: ((فاستعرت رسوماً كثيرة من مجموعات كوست وبريس الأفيني وجونس، ولا سيما الكتابان الرائعان اللذان نشرنا حديثاً في إسبانيا عما فيه من الآثار الفنية والعمارات...))^(٢) هنا ذكر أسماء المؤلفين وأشار إشارة مبهمة عن الكتابين.

وقوله: ((قال هيردر: لا يزال الأعراب محافظين على طبائع أسلافهم البدوية...))^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.

وقوله: ((وروى مؤرخو العرب أن ملك الحبشة سأل هؤلاء المهاجرين عن دينهم الجديد...))^(١)

وقوله: ((ويقال إن محمداً كان قليل التعليم ونرجح ذلك...))^(٢)

وقوله: ((وقيل إن محمداً كان مصاباً بالصرع))^(٣)

وقد أحصيت أكثر من خمسمائة موضع لم يذكر فيها لوبون أسماء المراجع التي نقل منها، وأحصيْتُ كذلك أسماء المؤلفين الذين رجع إليهم، وورد ذكرهم في ثنايا الكتاب دون ذكر أسماء كتبهم، ولكنه أثبت بعض مصادره ومراجعته التي نقل منها في فهرس المصادر الذي ذيل به كتابه هذا.

وسأذكر أسماء المؤلفين والكتّاب الذين نقل منهم لوبون، وترتيب الأسماء هنا حسب ورود اسم المؤلف في الكتاب، وإذا تكرر النقل من المصدر أو المؤلف فإني أضيف في الحاشية رقم الصفحة التي تكرر فيها اسم المصدر أو المؤلف.

١. ميسو رينان^(٤).

٢. كتاب ميسو بيرو عن مصر^(٥).

٣. كتاب ميسو إيبر وميسو مَسْبِيرُوا عن مصر^(٦).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١١١.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣١.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٦.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٦.

٤. "فاستعرتُ رسوماً كثيرةً من مجموعات كوست وبريس الأفينيّ وجونس، ولا سيما الكتابان الرائعان اللذان نُشرا حديثاً في إسبانيا عمّا فيهما من الآثار الفنّيّة والعمارات"^(١).
٥. مسيو ديفرّجيه^(٢).
٦. نيبوهر^(٣).
٧. بلغريف^(٤).
٨. التّوراة^(٥).
٩. بُركهارد^(٦).
١٠. هيرودتس^(٧).
١١. إسترابون^(٨).
١٢. ديودورس الصّقلّيّ^(٩).
١٣. بطليموس^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص٣٦، ٣٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص٤١.

(٤) المصدر السابق، ص٤١، ٤٤.

(٥) المصدر السابق، ص٤٢، ٥٠، ٩٠.

(٦) المصدر السابق، ص٤٤، ٤٧، ٥٣.

(٧) المصدر السابق، ص٤٧، ٧١.

(٨) المصدر السابق، ص٤٧.

(٩) المصدر السابق، ص٤٧.

(١٠) المصدر السابق، ص٤٧.

١٤. والين^(١).

١٥. بُرتُون^(٢).

١٦. ميسو دو لا بورد^(٣).

١٧. جغرافيو العرب^(٤).

١٨. كتب العبريين^(٥).

١٩. صادق بك^(٦).

٢٠. مؤرّحو الشّرق^(٧).

٢١. رحلة ناصر خُسْرُو (١٠٣٥م-١٠٤٢م) نشرها حديثاً مديرُ اللغات الشّرقيّة العالم: مسيو شيفر^(٨).

٢٢. العالم الجغرافي العربيّ الأدرسي^(٩)، الذي ألّف كتاب رحلته الكبير في بَلْرَم في عهد الملك روجر الثاني^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٥١.

(٧) المصدر السابق، ص ٥٢.

(٨) المصدر السابق، ص ٥٢.

(٩) المصدر السابق، ص ٥٥.

(١٠) المصدر السابق، ص ٣١١.

٢٣. غروتندن^(١).
٢٤. مسيو هاليقي^(٢).
٢٥. كتب اليهود^(٣).
٢٦. مسيو شليمان^(٤).
٢٧. مسيو جيرار^(٥).
٢٨. مسيو كوت^(٦).
٢٩. روتا^(٧).
٣٠. ليدي بلنت في رحلتها إلى بلاد نجد سنة ١٨٧٨م^(٨).
٣١. الجراح الأول السّابق في الجيش المصري لاري^(٩).
٣٢. هيردر^(١٠).

-
- (١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٥.
- (٢) المصدر السابق، ص ٥٥.
- (٣) المصدر السابق، ص ٥٦.
- (٤) المصدر السابق، حاشية ص ٦٠.
- (٥) المصدر السابق، ص ٦٥.
- (٦) المصدر السابق، حاشية ص ٦٦.
- (٧) المصدر السابق، ص ٦٨.
- (٨) المصدر السابق، ص ٦٨.
- (٩) المصدر السابق، ص ٦٩-٧٠.
- (١٠) المصدر السابق، ص ٧٢.

٣٣. ديفرجه^(١).

٣٤. هيروتس^(٢).

٣٥. مسيو دوفو غويه^(٣).

٣٦. شانبوليون^(٤).

٣٧. مسيو كارتز^(٥).

٣٨. مسيو دابري دوتيرسان، في كتاب نشره عن الإسلام في الصين^(٦).

٣٩. رينان مؤلف (تاريخ اللغات السامية) الشهير^(٧).

٤٠. "ومصادر تاريخ العرب قبل ظهور محمد هي كتب العبريين وروايات العرب والنصوص القليلة التي وردت في كتب بعض اليونان واللاتين وما جاء في الخطوط الآشورية وما أسفرت عنه الاكتشافات التي تمت في موقع الصفا القريب من دمشق"^(٨).

٤١. المسعودي^(٩).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٤، ٩٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٢.

(٥) المصدر السابق، حاشية ص ٨٣.

(٦) المصدر السابق، ص ٨٥.

(٧) المصدر السابق، ص ٨٧.

(٨) المصدر السابق، ص ٩٠.

(٩) المصدر السابق، ص ٩٤.

- ٤٢ . مسيو ماريت ^(١)
- ٤٣ . ثم تواتر الوحي عليه كما ذكر أبو الفداء ^(٢).
- ٤٤ . مسيو كازيميرسكي ^(٣).
- ٤٥ . إيبر ^(٤).
- ٤٦ . مسيو مارسل ^(٥).
- ٤٧ . الفيلسوف بيل ^(٦).
- ٤٨ . (روبرتسون) في كتابه: (تاريخ شارلكن). ^(٧)
- ٤٩ . (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية). ^(٨)
- ٥٠ . (ميشود) في كتابه: (رحلة دينية في الشرق). ^(٩)
- ٥١ . المصلح الدينيُّ القدير لوثر ^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٣، ١١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٦) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٧) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٨) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٩) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٢٩.

- ٥٢ . العلامة لابلاس^(١) .
- ٥٣ . المؤرخ العربي المكين^(٢) .
- ٥٤ . مجموعة مسيو مارسيل^(٣) .
- ٥٥ . الواقدي^(٤) .
- ٥٦ . مسيو دافيد في تاريخه عن سوريا^(٥) .
- ٥٧ . مسيو دو فوغيه^(٦) ، في مجلد له في وصف جامع عمر .
- ٥٨ . خصص أوين جونس مجلدين مصورين ضخمين لوصف الحمراء وحدها^(٧) .
- ٥٩ . وخصص بريس الأفيني ثلاثة مجلدات لوصف مباني القاهرة^(٨) .
- ٦٠ . فلانندان^(٩) .
- ٦١ . أبو الفرج^(١٠) .

-
- (١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٩ .
- (٢) المصدر السابق، ص ١٣٤ .
- (٣) المصدر السابق، ص ١٣٢ .
- (٤) المصدر السابق، ص ١٥٠ .
- (٥) المصدر السابق، ص ١٥٤، ١٦٦ .
- (٦) المصدر السابق، ص ١٥٧، وحاشية ص ١٥٨ .
- (٧) المصدر السابق، حاشية ص ١٥٨ .
- (٨) المصدر السابق، حاشية ص ١٥٨ .
- (٩) المصدر السابق، ص ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠ .
- (١٠) المصدر السابق، ص ١٧٤ .

٦٢. صديقي العالم الأستاذ دالي^(١).
٦٣. رشيد الدين في تاريخه عن المغول، الذي ألفه في القرن الثالث عشر^(٢).
٦٤. قطب الدين الحنفي^(٣).
٦٥. مسيو دوكانيكوف^(٤).
٦٦. كوست^(٥).
٦٧. فريث^(٦).
٦٨. السيد أحمد خان، الذي عرف عنه مسيو غراسين دوتاسي مخطوطاً هندوسياً مهماً خاصاً بدهلي^(٧).
٦٩. تافرنيه^(٨).
٧٠. مسيو روسله^(٩).
٧١. كتاب لصائغ فرنسي اسمه تافرنيه^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٦) المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٧) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٨) المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(١٠) المصدر السابق، ص ٢٠١.

٧٢. المقرئزي^(١).
٧٣. غليوم الصوريّ في كتابه التاريخي عن حروب أمراء النصارى في فلسطين^(٢).
٧٤. وروي فريسكو بالدي الفلورنسي...^(٣).
٧٥. الدكتور إيزانبر^(٤).
٧٦. باتيسيه^(٥).
٧٧. "وكان يلحق بجامع قلاوون مشفىً، وليس هذا المشفى موجوداً في الوقت الحاضر مع وصفه مطولاً في دليل نُشر حديثاً في الشرق"^(٦).
٧٨. الجغرافي سِلاكسُ في رحلته التي قام بها في أطراف البحر المتوسط قبل الميلاد بقرنين^(٧).
٧٩. جايزر^(٨).
٨٠. مسيو دو ويفالفي^(٩).
٨١. تَرْتُولِيَان^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٥) المصدر السابق، حاشية، ص ٢٣١.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٩) المصدر السابق، حاشية ص ٢٤٧.

(١٠) المصدر السابق، ص ٢٤٨.

٨٢. وروى بعض علماء العرب^(١).

٨٣. ابن خلدون^(٢).

٨٤. مورفي^(٣).

٨٥. سيديو^(٤).

٨٦. مسيو فيازدو^(٥).

٨٧. جيرول دوبرانجه^(٦).

٨٨. جونس^(٧).

٨٩. العالم الثبث: مسيو سيديو^(٨).

٩٠. كونده^(٩).

٩١. "وإنَّ الضَّبَطَ الذي وصف به كَتَّابُ العربِ جامع قرطبةً لدليل على صدق ما وصفوا به قصر الزهراء من الأوصاف..."^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٧٩، ٢٨٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٨٢.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(١٠) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

٩٢. صاحب المشرقيات (فكتور هوغو)^(١)
٩٣. مسيو دڤليه في كتابه عن إسبانيا^(٢).
٩٤. "وذلك في الكتابين المهمين اللذين نشرنا حديثاً في إسبانيا عمّا فيها من الآثار القديمة،..."^(٣).
٩٥. الذي اطلع عليه: مسيو دُو لابرموديري في وثائق رهبان جبل كاسينو^(٤).
٩٦. الدومينيكي كورادين^(٥).
٩٧. "وإنني أنقل العبارة الغربية الآتية التي وردت في كتاب تاريخي لاتيني،... قال المؤرخ:..."^(٦).
٩٨. "قال مسيو هنرى مارتن في كتابه عن تاريخ فرنسا الشعبي..."^(٧).
٩٩. "ونرى في كل صفحة من الكتب التي ألفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين،... قال المؤرخ الراهب التقي روبرت:..."^(٨).
١٠٠. "قال كاهن مدينة لوبوي، ريموند داجيل!..."^(٩).
١٠١. برنارد الخازن^(١٠)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٦.

(٣) المصدر السابق، حاشية ص ٢٩٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٠٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٣١٢.

(٧) المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(١٠) المصدر السابق، ص ٣٢٧.

١٠٢. بودان رئيس أساقفة دُول^(١).

١٠٣. "وإليك ما قاله أسقف عكا الصليبي جاك دوفيتري عن أنباء الصليبيين الأولين، وذلك في تاريخه عن القدس:..."^(٢).

١٠٤. غيلوم الصوري^(٣).

١٠٥. الكاهن أنكتيل في تاريخه^(٤).

١٠٦. سان برنارد^(٥).

١٠٧. "وفي الوصف الآتي الذي أقتطفه من كتاب لكوست..."^(٦).

١٠٨. "والذين أجاد مسيو لوبليه درس شؤونهم في كتابه الممتع عن عمال الشرق..."^(٧).

١٠٩. فترشتاين^(٨).

١١٠. مسيو ديبله^(٩).

١١١. الفيكونت فوغيه^(١٠).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٤٤.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٤٧.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٤٧.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٤٨.

(١٠) المصدر السابق، ص ٣٥٨.

- ١١٢ . سباه^(١) .
- ١١٣ . مسيو لوته ومسيو غيران^(٢) .
- ١١٤ . بورغوان^(٣) .
- ١١٥ . أوميروس^(٤) .
- ١١٦ . مسيو أبو^(٥) .
- ١١٧ . مسيو شارم^(٦) .
- ١١٨ . مدير مدرسة اللغات في القاهرة مسيو دو فوجاني^(٧) .
- ١١٩ . "واسمع ما قالته السيدة الإنكليزية بَلَنْتُ في كتاب رحلتها في بلاد نجد..."^(٨) .
- ١٢٠ . "قال المؤلف الإنجليزي ج. كُوبر في كتابٍ حديث درس فيه أمر النَّخاسة في أفريقية:..."^(٩) .
- ١٢١ . سولون^(١٠) .

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٦١، ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق، حاشية ص ٣٦٣ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٩ .

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧٠ .

(٥) المصدر السابق، ص ٣٧٦ .

(٦) المصدر السابق، ص ٣٧٧ .

(٧) المصدر السابق، ص ٣٧٧ .

(٨) المصدر السابق، ص ٣٧٨ .

(٩) المصدر السابق، ص ٣٧٨ .

(١٠) المصدر السابق، ص ٣٨٤ .

- ١٢٢ . الرَّحَّالَة مَسِيو هَالِيْفِي الَّذِي سَاح فِي الْيَمْن حَدِيثًا ^(١) .
- ١٢٣ . "وَالْمَفْسَّرُون نَصُّوْا عَلَي أَحْكَام الدِّيَّة،... " ^(٢) .
- ١٢٤ . "وَالِيك -مَثَلًا- مَا جَاء فِي كِتَاب ثَمِين وَضَعَهُ الْعَالَم الْمَتْدِين مَسِيو لُوْبِلِه الَّذِي هُو مِّنْ أَجَادُوا دَرَس الشَّرْق... " ^(٣) .
- هَكَذَا كَانَ مِنْهَج لُوبُون فِي التَّوْثِيْق، وَتَلِك الْأَسْمَاء كَانَتْ عَلَي رَأْس قَائِمَة مَصَادِرِه وَمَوَارِدِه فِي كِتَابِه حَضَارَة الْعَرَب .

* * * * *

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٨٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٨٧ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩١ .

المبحث الخامس

أبرز الملاحظات المنهجية على كتابه حضارة العرب

جاء كتاب حضارة العرب كغيره من كتب المستشرقين؛ يحمل بين صفحاته الكثير من الهفوات والأخطاء المنهجية التي لم يستطع غوستاف لوبون التحرر منها، رغم محاولاته المضنية في إنصاف الحضارة الإسلامية والعربية.

وتطرت للكثير منها في المباحث السابقة، وسأعرض بعض هذه الملاحظات المنهجية التي وردت في كتاب حضارة العرب إجمالاً؛ وسيأتي التفصيل فيها لاحقاً إن شاء الله: أولاً: عدم استيعاب غوستاف لوبون لمسألة الوحي، وعدم إدراكه لبعض الأمور المتعلقة بال عقيدة الإسلامية.

ثانياً: جهله للأديان، وكذلك جهله لعادات، وتقاليد، وأحوال العرب قبل البعثة وبعدها، ومغالطاته والخلط فيها.

ثالثاً: الحكم المسبق على الوقائع والأحداث تقليداً لمن سبقه من المستشرقين.

رابعاً: كثرة تناقضاته.

خامساً: استخدامه الكثير من الألفاظ والعبارات غير المناسبة، والتي قد تغير المعنى وتحمل الكثير من المغالطات.

سادساً: عدم اهتمامه بالتوثيق من المصادر والمراجع.

سابعاً: الاستنتاج الخاطئ، وعدم الموضوعية في تحليله للكثير من الوقائع والأحداث.

ثامناً: استخدامه لعبارات الشك، والتمريض عند النقل من المصادر الإسلامية.

الفصل الثاني

موقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية

وكيفية فهمها والتعامل معها

ويشتمل على مبحثين؛

المبحث الأول: موقف المسلمين من مطاعن وافتراءات المستشرقين

المبحث الثاني: موقف المسلمين من اعترافات وشهادات المستشرقين والمثقفين

الغربيين على سماحة الإسلام وعدالته وحفظه للحقوق

المبحث الثالث: الآثار العلمية المستفادة من دراسة الكتب الاستشراقية وأوجه

الإفادة منها في تدعيم مسيرة الدعوة الإسلامية

المبحث الأول

موقف المسلمين من مطاعن وافتراءات المستشرقين

ويشتمل على ثلاثة مطالب؛

المطلب الأول: الحركة الفكرية الاستشراقية وتأثيرها على الفرد والمجتمع

المطلب الثاني: منهج الرد على المستشرقين تصحيحاً وتقويماً

المطلب الثالث: المقومات لمواجهة تحدي الاستشراق والمستشرقين

المطلب الرابع: سبل مواجهة مطاعن وافتراءات الدراسات الاستشراقية

المطلب الأول

الحركة الفكرية الاستشراقية وتأثيرها على الفرد والمجتمع

من خلال استعراض تاريخ الاستشراق وعوامل نشأته وتطوره وما أثاره من شبهات حول الإسلام والأمة الإسلامية؛ يلاحظ أنه أصبح حركة فكرية هائلة متشعبة شملت مناطق واسعة جداً من العالم، وركزت جهودها على العالم الإسلامي بخاصة، سواء النواحي العقديّة أو التاريخيّة أو الاجتماعيّة أو السياسيّة وغير ذلك؛ فهي حركة متعددة المجالات ومتنوعة في دوافعها وأهدافها ونتائجها، ((وقد ساهم في تلك الحركة آلاف من المستشرقين، عبر العصور التاريخيّة المختلفة، وكانت جهودهم متفاوتة مختلفة في صورها)).^(١)

وكذلك في وسائلها، وأساليبها وتبعاً لذلك جاءت كتابات المستشرقين عن الإسلام ((تتراوح بين الجهل التام، والمعرفة الموجهة، بين الإسفاف الشنيع والموضوعية النسبية، بين الافتراء والإنصاف، بين الاستعلاء والنزاهة، بين الفحش الصارخ والتسامح العاقل)).^(٢)

فكان لهذه الكتابات أثر على الأمة الإسلامية، لاسيما بعد ما اتضح مدى تحامل المنهج الاستشراقي على الإسلام وأمته، ومخالفاته للحقيقة وما يحمل في طياته من أخطار جعلت منه أداة بشعة لتصوير الإسلام وتزييف حقائقه لمنع عبوره إلى الحياة الأوروبية ((وكان -الاستشراق- منطلق ومخطط الغزو الفكري في بلاد الإسلام، استطاع أن يخترق حياة المسلمين ويشوه أمام أجيالهم -التي تربت في ظل ثقافة الخمود والجمود- الإسلام بكل معانيه من خلال الاحتكاك الحضاري بالمسلمين في القرن الأخير، ولاسيما في مرحلته الأخيرة التي اختفى فيها وراء براقع العلمية والموضوعية والحياد، فاستطاع في هذه المرة أن

(١) الخربوطي: علي حسين، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص ٩٧.

(٢) العفاني: أبو التراب سيد بن حسين، ومحمداه (إن شانك هو الأبت)، ٣/٣٩.

يقوم بمنع تسرب الإسلام الحق إلى حياة الثقافة الجديدة، سواء عن طريق الإعلام العام أو المؤسسات الثقافية في البلاد الغربية أو المراكز والمدارس والجامعات في البلاد الإسلامية)).^(١) ثم ((إن الاستشراق قام بدور تضليلي تاريخي ضخم في حياة المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ودينهم، ولقد تغلغت الكتابة الاستشراقية المتعددة الجوانب في حياة الأمة خلال قرن كامل بحيث نفذت إلى كل جزئية من جزئياتها، لا يدرك خطرها إلا العالم الخبير الموازن بين حقائق الإسلام وأوضاعه الحضارية وبين مزاعم المستشرقين ودراساتهم لها)).^(٢)

وقد اتضح جلياً ارتباط الاستشراق بالتنصير والاستعمار كما ارتبط بالصهيونية العالمية المعادية للأمة الإسلامية وتاريخها؛ وعلى هذا فإن أعمال المستشرقين وافتراءاتهم ومطاعنهم في الإسلام والمسلمين تحتاج إلى مواجهه دقيقة وعميقة بأساليب مجدية ووسائل نافعة ومنهج محكم يحيط بأبعاد القضية ويناقشها بروح علمية موضوعية.

وقد حذر ابن باز رَحِمَهُ اللهُ مِنْ هذا الغزو الفكري فقال: ((..إن أخطر ما تواجهه المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر هو ما يسمى بالغزو الثقافي بأسلحته المتنوعة من كتب وإذاعات وصحف ومجلات وغير ذلك من الأسلحة الأخرى، ذلك أن الاستعمار في العصر الحديث قد غير من أساليبه القديمة لما أدركه من فشلها وعدم فعاليتها، ومحاربة الشعوب واستماتتها في الدفاع عن دينها وأوطانها ومقدراتها وتراثها حيث إن الأخذ بالقوة، وعن طريق العنف والإرهاب مما تأباه الطباع، وتنفر منه النفوس، لاسيما في الأوقات الحاضرة بعد أن انتشر الوعي بين الناس، واتصل الناس بعضهم ببعض، وأصبح هناك منظمات وهيئات كثيرة تدافع عن حقوق الشعوب، وترفض الاستعمار عن طريق القوة، وتطالب بحق تقرير المصير لكل شعب، وأن لأهل كل قطر حقهم الطبيعي في سيادتهم على

(١) عبد الحميد: محسن، أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣١.

أرضهم واستثمار مواردهم، وتسيير دفة الحكم في أوطانهم حسب ميولهم ورغباتهم في الحياة، وحسب ما تدين به تلك الشعوب من معتقدات ومذاهب وأساليب مختلفة للحكم مما اضطر معه إلى الخروج عن هذه الأقطار بعد قتال عنيف، وصدامات مسلحة وحروب كثيرة دامية^(١).

بعد ذلك حذر رَحْمَةُ اللهِ مِنْ وسائل الاستعمار وخططه التي تحقق أهدافه بعد خروجه من البلدان المستعمرة؛ فقال: ((ولكنه قبل أن يخرج من هذه الأقطار فكر في عدة وسائل، واتخذ كثيراً من المخططات بعد دراسة واعية وتفكير طويل وتصور كامل لأبعاد هذه المخططات، ومدى فعاليتها وتأثيرها، والطرق التي ينبغي أن تتخذ للوصول إلى الغاية التي يريد، وأهدافه تتلخص في إيجاد مناهج دراسية على صلة ضعيفة بالدين، مبالغة في الدهاء والمكر والتلبيس، ركز فيها على خدمة أهدافه ونشر ثقافته وترسيخ الإعجاب بما حققه في مجال الصناعات المختلفة، والمكاسب المادية في نفوس أغلب الناس حتى إذا ما تشربت بها قلوبهم، وأعجبوا بمظاهر بريقها ولمعانها، وعظيم ما حققته وأنجزته من المكاسب الدنيوية والاختراعات العجيبة، لاسيما في صفوف الطلاب والمتعلمين الذين لا يزالون في سن المراهقة والشباب، اختارت جماعة منهم ممن انطلق عليهم سحر هذه الحضارة؛ لإكمال تعليمهم في الخارج في الجامعات الأوروبية والأمريكية وغيرها حيث يواجهون هناك بسلسلة من الشبهات والشهوات على أيدي المستشرقين والملحدون بشكل منظم، وخطط مدروسة، وأساليب ملتوية، في غاية المكر والدهاء، وحيث يواجهون الحياة الغربية بما فيها من تفسخ وتبذل وخلاعة وتفكك ومجون وإباحية.

(١) ابن باز، عبدالعزيز، فتاوى ابن باز، ١/٣٨٥.

وهذه الأسلحة وما يصابها من إغراء وتشجيع، وعدم وازع من دين أو سلطة، قل من ينجو من شباكها ويسلم من شرورها، وهؤلاء بعد إكمال دراستهم وعودتهم إلى بلادهم وتسلمهم المناصب الكبيرة في الدولة أخطر من يطمئن إليهم المستعمر بعد رحيله، ويضع الأمانة الخسيصة في أيديهم لينفذوها بكل دقة، بل بوسائل وأساليب أشد عنفا وقسوة من تلك التي سلكها المستعمر، كما وقع ذلك فعلاً في كثير من البلاد التي ابتليت بالاستعمار أو كانت على صلة وثيقة به^(١).

لذا وجب علينا أن نواجه هذا الخطر الذي يهدد أمتنا الإسلامية، وأن يكون لنا موقف إسلامي من هذه الدراسات الاستشراقية وآثارها في المجتمعات الإسلامية.

(١) المصدر السابق، ٣٨٥/١.

المطلب الثاني

منهج الرد على المستشرقين تصحيحاً وتقويماً

المنهج الذي ينبغي أن يُتبع في مواجهة مطاعن وافتراءات المستشرقين تصحيحاً وتقويماً هو منهج الإسلام وهو منهج واضح بيّن، وهو المنهج الذي جاء به الوحي الكريم في مجادلة أهل الكتاب وغيرهم ممن كان يثير الشبهات على هدي الإسلام وتعاليمه.

وقد وردت النصوص العديدة في الكتاب والسنة تبين ذلك المنهج، وقد سار سلف الأمة عليه ((وهو منهج يقوم على أسس رصينة تحقق النزاهة والموضوعية والقوة والأصالة والعدل والإحسان والعفو والصفح)).^(١)

هذا المنهج عبارة عن: ((عملية بناء متكاملة لطريقة الدعوة المستقيمة، تشتمل على الأصول والمحتويات والأساليب والوسائل الموصلة للدعوة، والمعينة لعمل الداعية في مخاطبة الناس مع مراعاة الظروف الملائمة، والأحوال المناسبة)).^(٢)

ومن أهم الركائز التي يركز عليها هذا المنهج ما يلي:

أولاً: بيان الحق والدعوة إليه

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) السعدي: إسحاق، تمييز الأمة الإسلامية، ١١٥١/٢.

(٢) المغدوي: عبدالرحيم بن محمد، الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، ٧٠/١.

ثانياً: إدراك السنن الإلهية في النفس والكون والحياة وتلافي الاصطدام بها

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثالثاً: مناقشة الدراسات الاستشراقية مناقشة موضوعية نزبهة تكشف ما فيها

من وجود الزلل والزيغ والبطلان وتبين الحق في ذلك كله

من الأمثلة على ذلك أن الله قد أشار إلى مقالة الملاحدة واللذين ينكرون البعث واليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجنانية: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٥﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْلًا ۖ إِنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاهَاتَ هَيَّاهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤-٣٧].

في سياق التحذير من الكذب على الله ووصفه بما هو منزه عنه، قال سبحانه: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٠-٩٢].

هذا الأسلوب وما أدى إليه من نتائج وأحكام صورة واضحة جلية على المنهج

القرآني الجدلي وما يتسم به من نزاهة وقوة في البيان والأصالة.

رابعاً: التزام الأدب والجدال بالتي هي أحسن

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، جاء في تفسير هذه الآية ((ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد، ببيان الحق وهداية الخلق))^(١)، أما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فقد جاء في تفسير ذلك: ((إلا الذين ظلموا من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله، أنه لا إرادة له في الحق وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع))^(٢).

خامساً: أخذ الحيطة والحذر من المستشرقين مع الالتزام بآداب المجادلة معهم، والتنبه لما قد يلجأون إليه من:

- أ) التحريف: قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].
- ب) التلبيس والكتمان: قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].
- ت) المخادعة: قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفُّرًا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].
- ث) الحسد: قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءَٰخِرٍ﴾

(١) السعدي: عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن، ٩٢/٦.

(٢) المرجع السابق: ٩٣/٦.

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتُلُونَكَمَّ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

(ج) **التعصب لما هم عليه من الباطل:** قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

(ح) **تزكية النفس وادعاء التفوق:** قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

سادساً: النهي عن موالاتهم، والإعلان لهم بأننا مسلمون

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

سابعاً: الإشادة بفئة من أهل الكتاب عرفت الحق فأمنت به وتعاطفت معه

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

هذه أهم ركائز المنهج الإسلامي القويم في المجادلة بعامة؛ ومجادلة المستشرقين من أهل الكتاب بخاصة، وقد انتهجه الرسول ﷺ مع المجادلين، ورسخه في الواقع، وسار السلف الصالح عليه، واهتم العلماء المسلمون من بعدهم اهتماماً بالغاً بدراسة أديان الأمم، وعقائدها، وطقوسها، وعقدوا لذلك كتباً مفردة أو فصولاً مطولة في مصنفاتهم، وقد برز كذلك في العصر الحديث مؤلفات تُعنى بهذا الجانب، لذا ينبغي أن يكون منهج الإسلام في مواجهة الاستشراق والمستشرقين من علماء الأمة الإسلامية وباحثيها ومفكريها محدد المعالم، راسخ الأسس، واضح السمات، ملائم للتطبيق، يكشف الزيف، ويهدم الباطل، ويهدي للتي هي أقوم.

المطلب الثالث

المقومات لمواجهة تحدي الاستشراق والمستشرقين

بعد الإمام بطبيعة المنهج الاستشراقي في دراسة الإسلام وأمته وأنه يهدف بطرق مباشرة وغير مباشرة إلى طمس معالم هوية الأمة الإسلامية، والنيل من ذاتيتها المتميزة واستقلالها، والتشكيك في عقيدة الإسلام وشريعته وتاريخه وحضارته وتراثه، فإن التصدي لهذا الفكر الغازي يحتاج إلى مواجهة تعتمد على الآتي:

أولاً: الثقة في الله ﷻ، وإخلاص النية له

الثقة في الله قبل كل شيء، وإخلاص النية له ثم تحديد الهدف من اتخاذ أي أسلوب أو التدرع بأي وسيلة لمكافحة هذا الفكر الغازي والتصدي له أو لغيره من الأخطار المحدقة بالأمة، وأن يكون الهدف هو إعلاء كلمة الله والانتصار له تعالى لتكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

ثانياً: الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ

وهذا شرط جوهرى لمواجهة الاستشراق وغيره من الأخطار التي تهدد الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال الرسول ﷺ: ((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابُ اللَّهِ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ))^(١)

إذا تحقق هذا ((هضت الأمة الإسلامية من كبوتها وحقت بذلك تميز شخصيتها وتفرد ذاتيتها؛ لأنها بذلك تحدد هدفها بالحياة، وترتكز على عقيدة قوية سليمة واضحة، وتنطلق

(١) أخرجه الإمام مالك: الموطأ، كتاب القدر، باب: النهي عن القول بالقدر، رقم ١٨٧٤، ٦٨/٢.

والحديث حسنه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ١٧٦١، ٣٥٥/٤.

في مسيرتها على جادة بينة في منهج محدد مرسوم مستقيم؛ وهو صراط الله المستقيم»^(١)، الذي فسره عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حينما سُئل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، بقوله: (تَرَكْنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَدْنَاهُ وَطَرَفَهُ فِي الْجَنَّةِ).^(٢)

بهذا التمسك وعلى ذلك المنهج سادت الأمة الإسلامية وانتصرت وقادت البشرية ربحاً من الزمان.. ((وإذا جدد المسلمون في هذا العصر سيرة سلفهم الصالح عادوا أقوياء بقوة الإسلام أعزاء بعزته، منتصرين باتباع كتابه وسنته)).^(٣)

ثالثاً: إدراك واقع الأمة

مراعاة أن الأمة في ضعف، وهذا الضعف حدث واشتد بسبب بُعد المسلمين عن كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بسبب تمسكهم بهما؛ كما يصور ذلك أعدائها ومنهم عامة المستشرقين.. وهذا الضعف الذي تعاني منه الأمة الإسلامية شكّل مناخاً ملائماً وبيئة خصبة لنشوء قوى وتيارات تعادي عقيدة الإسلام، وشريعته، وتاريخه، وحضارته، ((ولابد لنا أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته، فالاستشراق في حد ذاته دليل وصاية فكرية، ويوم يعي العالم الإسلامي ذاته وينهض من عجزه.. سيجد الاستشراق نفسه في أزمة وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذي يخاطبه لا في أوروبا ولا في العالم الإسلامي)).^(٤)

(١) السعدي: إسحاق، تمييز الأمة الإسلامية، ١١٦٠/٢.

(٢) الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ٦٧١/٩.

(٣) جمال: أحمد محمد، التحديات الدينية واللا دينية وموقف الإسلام منها، مجلة كلية أصول الدين، العدد: [١]: ص ٢٦.

(٤) زقروق: محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٢٧-١٢٨.

رابعاً: إدراك خطورة الصراع الفكري ضد الأمة الإسلامية

إن ما يقوم به الاستشراق يعد صراعاً فكرياً خطيراً، ويعد خطره أشد فتكاً من الصراعات الحربية، مهما كان حجمها، لأن هذا الصراع صراع أفكار حول إثبات الذات، وهو بذلك يسهم في ((صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما)).^(١)

ويتساءل بعض الباحثين: ((هل نحن حريصون حقاً على الحفاظ على هويتنا وعقائدنا وتراثنا واستقلالية شخصيتنا الإسلامية أم لا؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب فنحن إذن أصحاب قضية مصيرية من أجل إثبات الذات.. قضية صراع حضاري مرير، والاستشراق طرف في هذه القضية)).^(٢)

والحرب على الإسلام وأمته في هذا المجال حرب عقديّة فكرية لها منطقتها وأساليبها ووسائلها، وقد تظهر في أحيان كثيرة بالمظهر الحضاري والرقّي الفكري، بينما هي في الحقيقة تأكيد للأمة الإسلامية؛ فقد وصف إدوارد سعيد مكانة الاستشراق في الثقافة الغربية وأنها استطاعت ((عن طريقه أن تدبر الشرق - بل حتى - أن تنتج سياسياً، واجتماعياً، وعسكرياً، وعقائدياً، وعلمياً، وتحليلاً في مرحلة ما بعد عصر التنوير))^(٣)، وسواء حقق الاستشراق أهدافه أو لم يحققها فقد ((أصبح يشكل ما يشبه الوصاية الفكرية على الأمة الإسلامية وأوضاعها العامة الخاصة)).^(٤)

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ١/١٣٢.

(٢) زقزوق: محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٣٠.

(٣) سعيد: إدوارد، الاستشراق، ص ٣٩.

(٤) السعدي: إسحاق، تميز الأمة الإسلامية، ٢/١١٦٢.

المطلب الرابع

سبل مواجهة مطاعن وافتراءات الدراسات الاستشراقية

إن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته، فعندما ينهض العالم الإسلامي من عجزه، ويرجع لكتاب ربه وسنة نبيه ﷺ ويسلك ما سلكه وسار عليه السلف الصالح؛ عندها سيجد الاستشراق نفسه في أزمة وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذي يخاطبه.

وحتى نكون في مستوى الحوار الفكري مع المستشرقين، لا بد أن نتهدي إلى السبل التي تجعلنا قادرين على امتلاك الأدوات المناسبة لهذا الحوار، وتجعلنا ((قادرين على الإنتاج الفعلي لمواد ثقافية؛ تمثل ثقافتنا، وتأتي استجابة لها، وتغري الناس بها، وبذلك وحده نكون في مستوى الحوار، والتبادل المعرفي، فالمواجهة لا تكون بإدانة الآخرين، والنظر إلى الخارج دائماً، وإنما تبدأ حقيقة من النظر إلى الداخل أولاً لملء الفراغ، بعمل بنائي مستمر، وتحصين الذات)).^(١)

من أهم هذه السبل في مواجهة الدراسات الاستشراقية؛ ما يلي:

أولاً: استيعاب وحصر شامل للإنتاج الاستشراقي، في كل ما يخص الإسلام، فمن حق الأمة الإسلامية أن يعرف أبنائها ما يقوله الآخرون عنها؛ ليكون أبناء الأمة على بينة مما يقوله أو يتقوله المستشرقون، وهذا الحصر يحتاج إلى علماء وخبراء مسلمين متخصصين، مع الاستعانة بالمترجمين لكل اللغات المعنية بالدراسة؛ وبذلك يشكل هذا الحصر مكتبة استشراقية تحت إشراف ونظر العلماء والخبراء، ويتم تصنيف موضوعاتها وفهرسة عناوينها

(١) حسنة: عمر عبيد، مقدمة كتاب الأمة، العدد: [٢٧]، ص ٢٩.

ليسهل الوصول لكل قضية مطروحة للنقد أو النقاش، وكذلك لا بد من حصر جميع المصادر التي اعتمدت عليها الدراسات الاستشراقية للمقابلة وللتأكد من مصداقيتها.

ولابد من بيان المنهج الذي التزم به المستشرقون في كتاباتهم؛ لأن ذلك يكشف عن الأخطاء الجسيمة في مناهجهم ومن ثم في النتائج التي توصلوا إليها.

ثانياً: نقد المنهج الذي التزم به المستشرقون في دراساتهم الاستشراقية تجاه الإسلام؛ وذلك يعتبر خطوة ضرورية وحاسمة قبل البدء في نقد ما جاء من أخطاء وافتراءات وطعون، لأن المنهج هو الذي تقوم عليه أبحاث هؤلاء، فلو استطعنا أن نبين عيوب هذا المنهج استطعنا أن نضع أيدينا على المنبع الذي يتمخض عنه تيار الأخطاء الموضوعية في الدراسات الاستشراقية؛ فبالتالي نستطيع خلخلة هذه المناهج واقتلاعها من أسسها.^(١)

ثالثاً: نقد الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون تجاه الإسلام نقداً علمياً، موضوعياً، بعيداً عن النزعات الهجومية؛ ((حتى يكون لهذا العمل العلمي أثره الإيجابي لدى المثقفين من المسلمين، وغير المسلمين؛ وحتى يكون كذلك دافعاً للمستشرقين إلى إعادة النظر في أقوالهم، وعوناً لهم على تصحيح اتجاهاتهم، وفي النهاية يكون هذا العمل بمثابة تعريف بالإسلام لكل راغب في التعرف عليه)).^(٢)

والعمل العلمي القائم على النقد السليم لاشك أن له أثره على المتلقي؛ لأنه يأخذه إلى العلم، والمعرفة، وإثراء فكره الإنساني بكل حق، وبكل مفيد.

(١) السايح: أحمد عبدالرحيم، الاستشراق ومنهج نقده، ص ٤٥٦. خليل: عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية، ص ٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٦.

رابعاً: الإفادة مما ورد عند بعض المستشرقين من نقد لمستشرقين آخرين، أو نقد لمناهج الدراسات الاستشراقية، أو نقد لبعض مدارس الاستشراق؛ فإن هذه النقود العلمية التي ذكرها المستشرقون لها دلائلها، وقد تكون أبلغ في النقد، والتصدي، والمواجهة. وتشكل ثروة مفيدة.

خامساً: إثبات أن مصادر الدراسات الاستشراقية تجاه الإسلام والمسلمين غير أصيلة في موضوعها، وإثبات الخلل في منهج النقل والتوثيق في هذه الدراسات، وأن الكثير من المستشرقين يتبنون آراء مستشرقين سابقين وينقلون عنهم دون تثبت من صحة النقل.

سادساً: أن يقوم نقد الدراسات الاستشراقية على أدلة عقلية مقنعة تخاطب المستشرقين والمتقنين الغربيين، وكذلك أدلة نقلية تخاطب المسلمين.

سابعاً: أن يتوفر لهذا العمل بيئة مناسبة، وعمل جاد، وجهود مخصصة؛ لكي تتمكن الأمة من مواجهة هذا الفكر، وذلك لا يكون إلا بتضافر الجهود، والتكاتف، والتعاون مع الجميع؛ سواء الحكومات، والمنظمات الإسلامية، والمؤسسات الدعوية، والهيئات والمؤسسات العلمية، والأكاديمية، ومراكز الأبحاث، ووسائل الإعلام، ودور النشر... بذلك نستطيع أن نكون بالمستوى المقنع كي نتصدى للتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، ونستطيع أن نكشف أهداف المستشرقين المغرضة، التي اتسمت بالكذب، والافتراء، والمغالطة.

المبحث الثاني

موقف المسلمين من اعترافات وشهادات المستشرقين

والمتقنين الغربيين على سماحة الإسلام

وعدالته وحفظه للحقوق

المبحث الثاني

موقف المسلمين من اعترافات وشهادات المستشرقين والمتقنين

الغربيين على سماحة الإسلام وعدالته وحفظه للحقوق

إن من منهج علماء الأمة الإسلامية في الاحتجاج على الطوائف التي أثارت بعض الشبهات على عقائد الإسلام؛ أنهم كانوا يردون على بعضهم بما قال بعضهم الآخر، ويحتجون بما تورد طائفة من الحق أو ما هو أقرب إليه على الطائفة الأخرى، حتى تضيق دائرة الخلاف ويتجلى الحق من خلال تحرير محل النزاع، وعن هذا يقول ابن تيمية: ((ومما ينبغي-أيضاً- أن يعرفوا أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقه، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه، فيكون محموداً فيما رده من الباطل، وقال من الحق، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق، وقال بعض الباطل ويكون قد رد بدعة كبيرة بدعة أخف منها، ورد باطلاً بباطل أخف منه وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين لأهل السنة والجماعة)).^(١)

ويمكن أن يفيد علماء الأمة الإسلامية من هذه الركيزة المنهجية -التي ألمح إليها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي الرَّدِ عَلَى بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ بِمَا قَالَهُ بَعْضُهُمُ الْآخَرَ، وَفِيمَا رُدُّ بِهِ عَلَى الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ.

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الفتاوى: ٣/٣٤٨.

والحوار مع هؤلاء المستشرقين المعتدلين قد يكون له أثره الإيجابي ((ومن المفيد جداً أن يكون للمؤسسات العلمية الإسلامية صلات بالمستشرقين المعتدلين إلى إجراء حوار مستمر معهم وعقد لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين.

وليس هناك شك في أن مثل هذا الحوار سيكون له أثره الإيجابي على كلا الجانبين. فمن ناحية سيكون دعماً لمواقف هؤلاء المستشرقين وتقوية لجانبهم وتشجيعاً لاتجاهاتهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة في يوم من الأيام تياراً عاماً في الغرب يكون له تأثيره الفعال في تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام في العالم الغربي.

ومن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم وتقليدهم لهذه الأفكار وإعادةهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة)).^(١)

وخلاصة القول: إن منهج الإسلام في مواجهة الاستشراق والمستشرقين من علماء الأمة الإسلامية وباحثيها ومفكريها محدد المعالم راسخ الأسس واضح السمات ملائم للتطبيق يكشف الزيف ويهدم الباطل ويهدي للتي هي أقوم.

(١) زقزوق: محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٥٩.

المبحث الثالث

الآثار العلمية المستفادة من دراسة الكتب الاستشراقية وأوجه الاستفادة منها في
تدعيم مسيرة الدعوة الإسلامية

المبحث الثالث:

الآثار العلمية المستفادة من دراسة الكتب الاستشراقية وأوجه الاستفادة

منها في تدعيم مسيرة الدعوة الإسلامية

دراسة الكتب الاستشراقية والنتائج الاستشراقية عامة له آثاره السلبية الواضحة في المجتمعات الإسلامية؛ كونه يمثل حركة فكرية غريبة مضادة للإسلام والمسلمين، وارتباطه بالاستعمار والتنصير أصبح واضحاً، وقد استُغِلَّ من قبل هاتين القوتين لتحقيق أهدافهما الاستعمارية والتنصيرية في العالم عامة والعالم الإسلامي خاصة.

لكن مع زوال الاستعمار في شكله التقليدي، ومع استقلال الاستشراق عن التنصير نوعاً ما؛ نستطيع أن نكوّن تصوراً أكثر موضوعية عن الدراسات الاستشراقية، وقد نرى فيها بعض الآثار العلمية المستفادة التي يمكن الاستفادة منها في تدعيم مسيرة الدعوة الإسلامية.

تتلخص هذه الجوانب المستفادة فيما يلي:

أولاً: الاستفادة من الجانب الوصفي في الدراسات الاستشراقية؛

كالمناهج، والوسائل العلمية الوصفية التي تناولت الإسلام والحضارة الإسلامية، ((فالجانب الوصفي في الدراسات الاستشراقية أقرب ما يكون إلى الموضوعية العلمية، ويزخر بالمعلومات التي تكشف الضوء عن العديد من مجالات الفكر الإسلامي توصل إليها المستشرقون من خلال مناهج ووسائل علمية ربما لم تكن متاحة للعلماء المسلمين في القرون الثلاثة الأخيرة بسبب التخلف العلمي العام الذي تسبب فيه الاستعمار)).^(١)

(١) حسن: محمد خليفة، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ص ١٣٠.

ثانياً: الإفادة من الدراسات الاستشراقية للشعوب الشرقية غير الإسلامية؛

وبذلك نقوم بتوسيع النظرة الإسلامية للاستشراق؛ لمعرفة موقف الشعوب الأخرى غير الإسلامية من الدراسات الاستشراقية، ولتكوين موقف إسلامي واضح تجاه الاستشراق وتجاه تلك الشعوب التي تهم العالم الإسلامي عامة وتهم الداعية المسلم بخاصة؛ لأنها تدخل ضمن مجاله الدعوي، ((ولا يخفى على الدارسين أن حجم الأعمال الاستشراقية المرتبطة بشعوب الشرق غير الإسلامية؛ كإلهند، والصين، واليابان، وإفريقيا؛ يعتبر أضعاف ما كتبه المستشرقون عن الشعوب الإسلامية، وفي هذه المعرفة الاستشراقية بالشعوب الشرقية غير الإسلامية فوائد عظيمة للمسلمين؛ فهذه الشعوب المجاورة للعالم الإسلامي في شرقه وجنوبه وشماله تهم العالم الإسلامي؛ فهي مجاله الدعوي، وامتداده الطبيعي، وسوقه الاقتصادي، وساحته الفكرية الحقيقية، وأهمية هذا الجزء من العالم الشرقي للمسلمين تفوق بمراحل أهميته بالنسبة للغرب)).^(١) وهذا الجانب من المعرفة مهم بالنسبة للداعية المسلم ليتعرف على أحوال المدعوين وأوضاعهم المختلفة؛ الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والجغرافية، وغير ذلك من المعلومات الضرورية التي يحتاجها الداعية لكي يقوم بدعوته على أسس علمية واضحة.

ثالثاً: الإفادة من تأثير الدراسات الاستشراقية في الغرب

إن المعرفة الإسلامية التي نقلها الاستشراق إلى الغرب كان لها دور كبير في تطوير الفكر الغربي، وإدخاله في مرحلة النهضة العلمية، والتقدم الصناعي، والتقني، الذي لا يزال يعيشه الغرب حالياً، وتوضح هذه الأعمال فضل المسلمين على أوروبا وحضارتها ونهضتها، وكذلك كان لها تأثير على الجانب الديني والأدبي والفني؛ مما ساعد الغرب كثيراً في التعرف

(١) المصدر السابق، ص ١٣٢.

على الإسلام وحضارته، وساعد كذلك في تحديد مكانة التراث الإسلامي بين الشعوب الأخرى؛ لذا لابد من الإفادة من هذه الأعمال الاستشراقية وتصحيحها وتنقيتها مما شابها.

رابعاً: الإفادة من تأثير الدراسات الاستشراقية في المستشرقين أنفسهم؛

تأثر الكثير من المستشرقين بالإسلام وتعاليمه، وحضارته، وسماحته؛ من خلال دراساتهم الاستشراقية للإسلام والمسلمين، وشهد الكثير منهم بذلك، ومنهم من تغلغل الإسلام في نفسه فأسلم، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ونشر مثل هذه الشهادات بين المثقفين الغربيين والمثقفين من أبناء المسلمين الذين تأثروا بالفكر الاستشراقي قد يكون له أثر كبير في التأثير عليهم إيجاباً.

خامساً: الإفادة من جهود المستشرقين في تحقيق التراث الإسلامي؛

قامت الدراسات الاستشراقية بالكشف عن الكثير من المخطوطات الإسلامية، وتحقيقتها، ونشرها، وترجمة بعضها، وعمل الفهارس لها، وحفظ المتهاك منها وترميمه، وتصنيف المعاجم اللغوية... وهذا لاشك أنه عمل ذو قيمة علمية كبيرة ساعد في إحداث النهضة العلمية الحديثة في العالم الإسلامي.

والإفادة من هذه الجهود أمر مهم جداً؛ خاصة بعد نقد وتنقية وتصفية هذا الإنتاج مما شابه من هفوات وأخطاء ودسائس، وهذا كذلك يساعد على ((إيقاظ الوعي المنهجي لدى المسلمين الذين دفعهم هذا إلى النظر في الأصول المنهجية والمبادئ البحثية في الكتابات الإسلامية الأولى من أجل تأصيل منهج إسلامي ينافس المنهج الاستشراقي)).^(١)

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

سادساً: الإفادة من دراسة المستشرقين لواقع العالم الإسلامي؛

الدراسات الاستشراقية لواقع العالم الإسلامي اعتلاها الكثير من التضييل، والترفيف، والافتراء، مع أنها وجهت أنظار المسلمين لمواطن الضعف والقصور في حياتهم ومجتمعاتهم، فهذا قد يشجع المسلمين على دراسة أوضاعهم بأنفسهم، والاهتمام بواقعهم، وحل المشاكل المختلفة التي تواجههم، والرد على المستشرقين بمنهج إسلامي أصيل ومعاصر.

سابعاً: الإفادة من الدراسات الاستشراقية في تطوير النظام التعليمي والعلمي؛

تستطيع المؤسسات التعليمية والهيئات العلمية الإسلامية أن تفيد من الدراسات الاستشراقية من حيث مناهج البحث العلمي ووسائله، وأساليبه؛ وبالتالي تنافس الغرب ومؤسساته العلمية والتعليمية؛ دون أن تضحى بشخصيتها الإسلامية، وبقيمها الدينية، وتستطيع أن تقوم بتأصيل هذه العلوم وربطها بالتراث الإسلامي، وتوجيهها إسلامياً.

الباب الثاني

نظرة غوستاف لوبون تجاه مصادر الإسلام عرض ونقد.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول

موقف لوبون من القرآن الكريم،

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شبهات لوبون حول مصادر القرآن الكريم.

المبحث الثاني: نظرة لوبون لمسألة جمع القرآن وترتيبه.

المبحث الثالث: آراء لوبون تجاه بعض نصوص القرآن.

الفصل الثاني

موقف لوبون من العقيدة الإسلامية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظرة لوبون لعقيدة التوحيد.

المبحث الثاني: شبهات لوبون حول الطواف بالكعبة وتقدير الحجر الأسود.

المبحث الثالث: آراء لوبون في الفرق الإسلامية.

الفصل الثالث

آراء لوبون في التشريعات والنظم الإسلامية والمذاهب الفقهية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: آراء لوبون تجاه بعض الشعائر الإسلامية.

المبحث الثاني: آراء لوبون تجاه النظام الاجتماعي والسياسي في الإسلام.

المبحث الثالث: موقف لوبون من المذاهب الأربعة.

الفصل الأول

موقف لوبون من القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شبهات لوبون حول مصادر القرآن الكريم.

المبحث الثاني: نظرة لوبون لمسألة جمع القرآن وترتيبه.

المبحث الثالث: آراء لوبون تجاه بعض نصوص القرآن.

المبحث الأول شبهات لوبون حول مصادر القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زعمه أن القرآن مقتبس من اليهودية والنصرانية

المطلب الثاني: زعمه أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

المطلب الثالث: شهادات بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين تجاه القرآن الكريم

المطلب الأول

زعمه أن القرآن مقتبس من اليهودية والنصرانية^(١)

لا تكاد تخرج شبهات المستشرقين حول القرآن الكريم ومصادره قديماً أو حديثاً عن الشبهات التي أثارها كفار قريش، فالكفر ملة واحدة، مهما تباعدت أزمانه واختلفت ألوانه، ولأن أعداء الله عرفوا أهمية كتاب الله تعالى في نفوس المسلمين، ومدى تعلقهم به، وعلموا أنه باعث نهضتهم، ومحي همتهم، وموحد كلمتهم، وسبب نجاحهم وقوتهم؛ من هنا بدأت

(١) القول بأن القرآن مقتبس من اليهودية أو النصرانية من أبرز مزاعم المستشرقين، ويكاد لا يخلو كتاب من كتب المستشرقين الذين درسوا الإسلام إلا وتناول هذه المزاعم والشبه؛ ومن ذلك: يقول بروكلمان: ((..تذهب الروايات إلى أنه ﷺ اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها؛ فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالإنجيل هزيلة إلى حد بعيد)) بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٤. ويقول أيضاً: ((اقتبس النَّبِيُّ عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية... وإنما ترجع معتقداته ﷺ فيما يتعلق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة)) المصدر السابق، ص ٧٠-٧١. يقول فيليب حتى: ((لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكليس، إلا أنه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البيع)) حتى: فيليب، تاريخ العرب المطول، ص ١٨١. ويقول الحريري: ((..ومحمد كان لا يملك بين يديه سوى إنجيل القس ورقة، وهو لا يؤمن بألوهية ولا بصلب، فصدقه ودعا إليه قومه)) الحريري: أبو موسى، قس ونبي، نقلا عن شوقي: أبو خليل، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، ص ٢٩. ويقول جرجس: ((هذه الشذرات الإلهية، من أين أتى بها شعراء الجاهلية [التي اقتبسها القرآن منهم] لو لم يطلعوا من أهل الكتاب، وخاصة النصارى على إيمانهم وما يشمله هذا الإيمان)) داود: جرجس، أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، نقلا عن المصدر السابق، ص ٢٩. ((والسر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والإنجيلية، وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد، ابن عم السيدة خديجة في جوار النَّبِيِّ، وهو الذي زوجه ابنة عمه، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية، فهو إذن عالم مسيحي كبير، وقد عاش محمد إلى جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه، ألا تكفي هذه المدة لنا بركة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ شيئاً من علوم التوراة والإنجيل)) حداد: يوسف، القرآن والكتاب (القسم ٢، أطوار الدعوة القرآنية)، ص ٤١٢. بتصرف يسير.

الافتراءات والشبه بشتى صورها، فتارة يزعمون أن القرآن مستمد من المصادر اليهودية، أو النصرانية، وتارة يزعمون أنه من تأليف النبي ﷺ. وللأسف لم يسلم غوستاف لوبون من الانزلاق إلى مهاوي هؤلاء المستشرقين الحاقدين الذين لم يحكموا العقل، أو المنطق، أو التاريخ؛ عندما لفقوا هذه الشبه، ورغم ما يتصف به غوستاف لوبون -عند البعض- من الإنصاف والموضوعية؛ إلا أنه تأثر بهذه الشبهات وتخبّط فيها كثيراً؛ ومن أبرز هذه الشبهات التي جاءت في كتابه حضارة العرب ما يلي:

الشبهة الأولى: الزعم بأن رسول الله ﷺ تلقى علم التوراة من راهب نسطوري

في بصرى، بما يعني أن ذلك هو مصدر القرآن الكريم.

يتضح ذلك في قوله: «وتقول القصة إنَّ محمداً سافر مرّة مع عمّه إلى سوريا، فتعرّف

في بصرى براهبٍ نسطوري في دَيْرٍ نصراني، فتلقّى منه علم التوراة»^(١).

ويقول: «...وتهيأ له السفر إلى سوريا بذلك، والاجتماع مرّة ثانية بالراهب الذي

أطلعه على علم التوراة سابقاً...»^(٢).

الرد على الشبهة:

قبل الشروع في الرد على هذه الشبهة سأورد النصوص التي يستند إليها غوستاف

لوبون والمستشرقون عامة في ادعاءاتهم ومزاعمهم بخصوص هذه الشبهة؛

النص الأول:

عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ: (خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاحٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمْزُونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ، قَالَ: فَهُمْ يَحْلُونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاحٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عَلِمْنَاكَ فَقَالَ:

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣.

إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يُبَقَّ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا، وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيِّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ عُضْرُوفٍ كَنَفِهِ مِثْلَ التُّفَاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الْإِبِلِ، قَالَ: أَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ نُظِّلَتْ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فِيءِ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: انظُرُوا إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ فَإِنَّ الرُّومَ إِذَا رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ، فَالْتَمَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ قَالُوا جِئْنَا إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يُبَقَّ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأَنَاسٍ، وَإِنَّا قَدْ أَخْبَرْنَا خَبْرَهُ بُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا، فَقَالَ: هَلْ خَلَفَكُمُ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا إِنَّمَا أَخْبَرْنَا خَبْرَهُ بِطَرِيقِكَ هَذَا، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدُّهُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَبَايَعُوهُ، وَأَقَامُوا مَعَهُ، قَالَ: أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ، فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا، وَرَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكَ وَالزَّيْتِ).^(١)

(١) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، كتاب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، رقم ٣٦٢٠، ٥٥٠/٥. وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه الحاكم: محمد بن عبد الله، المستدرک، رقم ٤٢٢٩، ٦٧٢/٢. وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بقوله: ((أظنه موضوعاً، فبعضه باطل))، وقال الذهبي في تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٥٧/١: ((حديث منكر جداً، وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بستين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث، وأيضاً فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب وردّه، كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجراً لخديجة؟ وفي الحديث ألفاظ منكرة تشبه ألفاظ الطرقية)). اهـ. بتصرف

ورواه أبو نعيم: أحمد بن عبد الله، دلائل النبوة، رقم ١٠٨، ١٦٨/١. والبيهقي: أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ٢٤/٢. وابن سعد: محمد، الطبقات الكبرى، ١٢٠/١، وذكره ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ٢١٣/٢، ٢٦٦، وقال: ((فيه من الغرائب أنه من مراسلات الصحابة، فإن أبا موسى الأشعري راوي الحديث إنما قدم في سنة خيبر، سنة سبع من الهجرة =

النص الثاني:

عَنْ نَفِيسَةَ بِنْتِ مُنَيَّةَ قَالَتْ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَلَيْسَ لَهُ بِمَكَّةَ اسْمٌ إِلَّا الْأَمِينُ لِمَا تَكَامَلَ فِيهِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي أَنَا رَجُلٌ لَا مَالَ لِي وَقَدْ اشْتَدَّ الرِّمَانُ عَلَيْنَا وَأَلَحَّتْ عَلَيْنَا سُنُونَ مُنْكَرَةٌ وَلَيْسَتْ لَنَا مَادَّةٌ وَلَا تِجَارَةٌ، وَهَذِهِ عَيْرُ قَوْمِكَ قَدْ حَضَرَ خُرُوجُهَا إِلَى الشَّامِ، وَخَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدٍ تَبَعَتْ رِجَالًا مِنْ قَوْمِكَ فِي عَيْرَاتِهَا، فَلَوْ تَعَرَّضْتَ لَهَا، وَبَلَغَ خَدِيجَةَ ذَلِكَ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ، وَأَضَعَفَتْ لَهُ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ، فَخَرَجَ مَعَ غُلَامِهَا مَيْسِرَةً حَتَّى قَدِمَا بُصْرَى مِنَ الشَّامِ فَنَزَلَا فِي سُوقِ بُصْرَى فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ قَرِيبًا مِنْ صَوْمَعَةِ رَاهِبٍ مِنَ الرُّهْبَانِ يُقَالُ لَهُ نُسْطُورٌ، فَاطَّلَعَ الرَّاهِبُ إِلَى مَيْسِرَةٍ وَكَانَ يَعْرِفُهَا قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ: يَا مَيْسِرَةُ مَنْ هَذَا الَّذِي نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؟ فَقَالَ مَيْسِرَةُ: رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطُّ إِلَّا نَبِيٌّ، ثُمَّ قَالَ فِي عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ؟ قَالَ مَيْسِرَةُ: نَعَمْ، لَا تُفَارِقُهُ، قَالَ الرَّاهِبُ: هُوَ هُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ يَا كَيْتَ أَبِي أُدْرِكُهُ حِينَ يُؤْمَرُ بِالْخُرُوجِ)).^(١)

هاتان القصتان اللتان وردتا في بعض كتب السنة وكتب السير والتاريخ بمختلف الروايات التي جاءت فيهما ، وبمختلف أقوال المحدثين في صحتها وضعفها؛ تعتبران أعظم

=ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة. وعلى كل تقدير فهو مرسل. فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر فيما ذكره بعضهم اثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ، فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة)) أهد.

وصحح الحافظ العسقلاني: ابن حجر (رواية الترمذي بإسناد قوى) فتح الباري، رقم ٤٩٥٣، ٥٨٧/٨. وكذا الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح فقه السيرة للغزالي، ص ٦٨، وفي مشكاة المصابيح، رقم ٥٩١٨، وقال: ((ذُكِرَ بلال في الحديث منكر؛ إذ لم يكن خُلِقَ بعد)).

(١) أخرج ابن سعد: محمد، الطبقات، ١/١٣٠، وعنه أبو نعيم: أحمد بن عبد الله، دلائل النبوة، ص ١٧٢، وابن إسحاق: محمد، السيرة النبوية، ١/٢٤٢. وذكره السيوطي: جلال الدين، الخصائص، ١/١٥٣، وابن عساكر: علي بن الحسين، تاريخ دمشق، ٦١/٣١٦.

مستند يعوّل عليه المستشرقون قديماً وحديثاً في تلفيق شبههم حول مصدر القرآن، وأن النبي ﷺ تعلم من الراهب بحيرا^(١) أو الراهب نسطور^(٢)، وأنه أخذ عنهما علم التوراة بزعمهم.

لو افترضنا صحة هذه القصص والروايات، فإن الاستدلال بها باطل من عدة

أوجه؛ ومن ذلك:

أولاً: هذه دعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة، وإلا فليخبرنا غوستاف لوبون وإخوانه المستشرقين ما الذي سمعه محمد ﷺ من بحيرا الراهب؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟.

ثانياً: إذا كان غوستاف لوبون وإخوانه المستشرقون يقرّون بهذه القصة، فعليهم أن يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ؛ لأنه جاء في روايات هذه القصة أن الراهب عرف في ذلك الولد الصغير محمد ﷺ علامات النبوة، وحذّر عمّه من كيد اليهود له، وكذلك حدث مع الراهب نسطور أثناء حديثه مع ميسرة غلام خديجة ﷺ، وهذا يلزمهم الأخذ بكل ما جاء في القصتين من التبشير بالنبي ﷺ ورسالته المذكورة في الكتب السابقة.

ثالثاً: زمن الزيارة قصير، فما في القرآن من عقائد وشرائع وقصص تحتاج إلى فترة زمنية طويلة؛ بل المنطق يقول: إن أي إنسان لن يستطيع تأليف تشريعات مماثلة لتلك الموجودة في القرآن الكريم، ولو افترضنا جدلاً أنه يستطيع؛ فإنه يحتاج أن يمكث سنوات طويلة من التعلم، (وهل بقيت تلك الرسالة، أو العلوم، كامنة خمسة عشر عاماً، لتظهر بعد ذلك على شكل رسالة جديدة، تختلف اختلافاً كبيراً بتشريعاتها الدينيّة، والاجتماعيّة،

(١) بحيرا : راهب. قيل إنه كان يهودياً من يهود تيماء، وقيل كان نصرانياً من عبد القيس، يقال له جرحس، لقيه النبي ﷺ قبل البعثة، ترجم له: ابن الأثير: علي بن أبي الكرم، أسد الغابة، ٣٥٥/١، رقم ٣٧١. وابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ٢/٢١٣-٢١٤.

(٢) هو: بطريك الإسكندرية سنة ٤٣١م، وهو الذي قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان، فهي بذلك أم الإنسان، وليست أمّاً لإله، وأتباعه هم النساطرة، ومذهبهم وضع الأساس للقول بطبيعتين في المسيح. انظر: الشهرستاني: أبو الفتح محمد، الملل والنحل ٢/٢٩-٣٠، والموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ٢/٥٨٤.

والسياسية، والاقتصادية، عن تلك التي كان يدعو لها ذلك الراهب النسطوري وأمثاله؟^(١) وأين بحيرا من أحداث البعثة، وما بعد الهجرة، وهذا السيل المزدحم من الأحداث؟

رابعاً: لماذا وقع الاختيار على النبي محمد ﷺ دون غيره من العرب أو العجم؟ فلو أنه اختار رجلاً ذا منصب أو جاه أو قارئاً متعلماً لتسهل عليه المهمة؛ لكان أولى!! ((وهل بحيرا رئيس أكاديمية لتخريج أنبياء، وكتب معجزة؟ ولماذا لم يخرج عشرات الأنبياء، واكتفى بواحد فقط؟ وتقول القصة هنا: إنه تلقى منه علم التوراة، فلماذا لم يتلق منه الإنجيل، خصوصاً وأن الراهب نصراني نسطوري؟ فلماذا قصرت الرواية قولها على التوراة؟)).^(٢)

خامساً: كان عمر النبي ﷺ في الرحلة الأولى عندما لقي بحيرا لا يتعدى اثنتي عشر عاماً، ولا يعقل أن يتحمل طفل في هذه السن كتاب بهذا الحجم.

وكان حديث بحيرا مع أبي طالب، وليس مع النبي ﷺ، وكذلك الحال عندما مر النبي ﷺ بالراهب نسطور في رحلته الثانية وفي صحبته ميسرة؛ فإن الذي تحدث به الراهب عن النبي ﷺ كان مع ميسرة وليس مع النبي ﷺ.

ولو حدث أن أخذ النبي ﷺ علم التوراة من الراهب؛ ((لأثار ذلك جدلاً في قريش، لكننا لا نجد صدق لهذا؛ مما يؤكد بطلان هذا الزعم)).^(٣) فقد كان رجال القافلة القرشيون خلال اللقاء، فلو أعطاه علم التوراة، لقالوا ذلك لقريش خاصة، والعرب عامة، عندما أعلن ﷺ نبوته!!

سادساً: بحيرا ونسطور بشراً بنبوة النبي ﷺ، ((فليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها، ثم ينصب نفسه معلماً ومرشداً لصاحبها الذي سيأخذ عن الله، ويتلقى عن جبريل، ويكون هو أستاذ الأستاذين، وهادي الهداة المرشدين!! وإلا كان هذا الراهب

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٣.

(٣) العمري: أكرم ضياء، مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، ص ٦٠.

متناقضاً مع نفسه!!^(١)، ولو كان هذا الراهب هو مصدر هذا القرآن المعجز لكان هو الأحرى بالرسالة والنبوة، والانتداب لهذا الأمر العظيم.

سابعاً: هذه الشبهة فيها اتهام للراهب النصراني بالكذب والخداع، ومن غير المعقول أن يكون أواخر عهد هذا الراهب، تسهيل مهمة شخص يدعي أنه موحى له من عند الله. **ثامناً:** التوراة والإنجيل لم يترجما كاملين إلى العربية إلا بعد قرنين من عصر الرسالة، وكان يهود المدينة في عصر الرسالة يقرؤون بالعبرانية، ((فلم تكن هناك كتب بالعربية إلى ذلك الحين، ولم تكن في العربية ترجمة للكتاب المقدس، ولم يكن هناك قداس باللغة العربية))^(٢) ولو افترضنا جدلاً أنهما ترجما في عصر الرسالة فإن أمية النبي ﷺ الثابتة تحول دون إفادته منهما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩]، وكلنا يعلم أن أحداً من المشركين لم يشكك في أمية النبي ﷺ مع توافر الدواعي لذلك عندهم؛ تكديماً للقرآن، وتشكيكاً بصدق النبي ﷺ.

تاسعاً: القرآن الكريم كتاب معجز في لفظه ومعناه، والتحدي بالإتيان ولو بآية من مثله قائم إلى قيام الساعة، وهو فوق طاقة الخلق أجمعين، فأين لأعجمي كبحيرا هذا الإعجاز اللغوي وقد عجز عنه أفحاح العرب؟ عندما تحداهم الله سبحانه في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣] وفي قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، ((والتحدي قائم لكل البشر، وفي كل زمان ومكان، والباحث عن هوية النص القرآني، علمياً وفكرياً، وبتجرّد وموضوعية، بعيداً عن داء الأحكام المسبقة، يجد نفسه أمام نصّ موحى، إلهي سماوي، نزل على قلب المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ)).^(٣)

(١) الزرقاني: محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ٤٢١/٢.

(٢) أوليري: لاسي، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ص ٩٠.

(٣) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٧٣.

الشبهة الثانية: الزعم بأن أصول القرآن نصرانيّة.

يتضح ذلك في قوله: ((إذا رجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية، أمكننا عدّ الإسلام

صورة مبسّطة عن النّصرانيّة)).^(١)

هذه الشبهة كسابقتها تتردد كثيراً في كتابات المستشرقين، وقد سلكوا في هذه الشبهة مسلك أعداء الإسلام قديماً من اليهود وكفار قريش حينما زعموا أن غلاماً نصرانياً في مكة كان يعلم النبي ﷺ النصرانية، وقد سجّلها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ((فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبيّ أرسل؛ كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل)).^(٢)

الرد على الشبهة:

أولاً: هذه الشبهة كسابقتها مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه المزاعم والشبه لا تقبل ما دامت غير مدللة، وإلا فليخبرنا غوستاف لوبون وكل من يزعم ذلك ما الأصول المقتبسة من النصرانية التي جعلت من القرآن صورة مختصرة منها؟

هذه الشبهة الخبيثة التي يتداولها المستشرقون ومنهم غوستاف لوبون وإن لم يصرّح بها لوبون تصريحاً واضحاً إلا أنها تُوهّم أن النبي ﷺ اقتبس القرآن من الأديان السابقة؛ وخاصة النصرانية، وكل هذا مجرد استنتاجات باطلة، لا تستند إلى حقائق تاريخية، أو روايات

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٥.

(٢) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٥١٨/٤.

صحيحة أو ضعيفة، ولذا يجب الإعراض عنها؛ وقد جاء في الرد على الشبهة الأولى ما يدفع هذه الشبهة أيضاً.

ثانياً: جميع الأديان التي أنزلها الله سبحانه في كتبه وبعث بها رسله كانت تدعو إلى أساس واحد وأصل واحد وهو وحدانية الله سبحانه، فهي بهذا الأساس تلتقي مع الإسلام؛ ولكن الأديان السابقة ومنها النصرانية اعترها التحريف والتشويه والتبديل مما أخرجها عن جوهرها، فكيف يزعم غوستاف لوبون أن أصول القرآن تعتبر صورة مختصرة من النصرانية؟ ومعلوم أن النصرانية المحرفة خالية من التوحيد، وتعتبر خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية والفلسفة اليونانية والتحريف اليهودي، وتقوم على عقيدة التثليث، وتقديس الرهبان ورجال الكنيسة، والصلب والفداء وتقديس الصليب، والعهد القديم والعهد الجديد... وما إلى ذلك من الأصول الفاسدة التي لا يربطها بالإسلام أو القرآن شيء.

يقول شوقي أبو خليل: ((الإسلام لا يشكّل تلك الصورة المختصرة، بل نريد أن نعكس الأمر لنقول: إذا كانت النصرانية تدعو إلى وحدانية الله، فهي بهذا الأساس -الذي شوّهته عقائد وثنية دخيله- تلتقي مع الإسلام، ومع كلّ ديانة سماوية أخرى من عهد إبراهيم أبي الأنبياء، إلى محمد ﷺ خاتمهم، ذلك أنّ من الطبيعي أن يكون التوحيد هو جوهر كلّ دين سماوي، لكن النصرانية لم تعرف التشريعات التي تقوم عليها حياة البشر، لهذا اعتمدت القول: "دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"، وهذا ما لا نجده في الإسلام، حيث كلّ شيء لله، وهو الذي أرسل محمداً ﷺ لبيان التشريعات التي تضمن سعادة البشر في دنياهم وأخراهم، حين احتاجت النصرانية بعض تشريعاتها، أخذتها من توراة اليهود وتشريعاتهم، بعد أن كان أحبارهم قد غيروا فيها، وبدّلوا ما شاء لهم أن يبدّلوا ويغيروا، ومن

هنا دخلت الأفكار التوراتية إلى العقلية النصرانية لتلعب دورها عن طريق الإيمان والتسليم بما أوردته التوراة، مما أصبح يعتقد وكأنه من الله، وما هو منه في شيء)).^(١)

ثالثاً: لا شك أن القرآن جاء مصدقاً ومهيماً على ما سبقه من الكتب السماوية؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ومن معاني الهيمنة أي: ((جعل الله القرآن مهيمناً على الكتب، يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المخرفون إليها، فيصحح الحقائق، ويُبطلُ التحريفَ، وهذا هو معنى مُهَيِّمِنًا، أي: شاهدٌ، ومصدِّقٌ، ومؤمَّنٌ، وأمِينٌ حسب اختلافِ عبارة المفسرين في اللفظة))^(٢) ويقول ابن كثير في بيان شرف القرآن على كل كتاب أنزله الله: ((جعلهُ مهيمناً عليه، وناسخاً له، وخاتماً له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه)).^(٣)

بناءً على ذلك، فإن الناظر والمتأمل فيما جاء في التوراة والإنجيل (المخرفين)، وما جاء في القرآن الكريم، لا يعجزه أن يقف على بطلان هذه الشبهة من أساسها، ويتبين له عناصر الجدة التي تضمنها القرآن الكريم، والتي اشتملت على جوانب عدة، كالعقيدة والتشريع، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والآداب مما ليس في غيره من الكتب.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٢١-١٢٢.

(٢) الثعالبي: أبو زيد عبدالرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٢/٣٩٠.

(٣) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ١/٥٨.

الشبهة الثالثة: الزعم بأن نصوص خَلْق السَّمَاوَات والأَرْض في سِتَّة أَيَّام، وخلق آدم، والجنَّة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب في القرآن مقتبسة من التَّوراة. يتضح ذلك في قوله: ((وما جاء في القرآن من نصٍّ على خَلْق السَّمَاوَات والأَرْض في سِتَّة أَيَّام، وخلق آدم، والجنَّة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب مقتبسٌ من التَّوراة)).^(١)

الرد على الشبهة:

أولاً: معلوم أنّ دينَ الله واحدٌ من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنَّ رسل الله تعاقبت وكتبه تتالت في سياق الدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك والمعاصي، وأخبار الخلق، والبعث، والجنَّة، والنار، وأنَّ الشرائع اختلفت لِحِكْمِ أَرَادِهَا الحَكِيم العَلِيم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وعلى هذا ((فلا يتصور ذو عقل أنه إذا أتى في القرآن الكريم شيء مما في كتب الله السابقة، كان ذلك مطعناً ومأخذاً؛ بل ما كان من قصص الأنبياء مع أقوامهم، أو غيرها من الأخبار؛ لو ورد في كتاب ثم تكرر في القرآن، لكان وروده في القرآن على وجه المطابقة التامة متى جزمنا بخلو الخبر الأول من التحريف، ووصوله إلينا كما أنزل.

بل إنَّ القرآن ينص صراحة على تكرار معان في كتب سبقت، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [١٨] صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨-١٩]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [٣٧] أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿[النجم: ٣٦-٤٠].

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٠.

وعليه؛ فإنَّ الطَّعن في القرآن الكريم لورود أمرٍ فيه سبق ذكره في التوراة أو الإنجيل أو الزُّبور أمرٌ غيرُ مُسلِّمٍ.^(١)

ثانياً: أصل التوراة والإنجيل والقرآن حق لا ريب فيه، لأن المصدر واحد فجميعها من عند الله سبحانه، ومن ثم لا يمكن لهذه الكتب أن يناقض بعضها بعضاً، ولكن التوراة والإنجيل طراً عليهما من التحريف والتبديل الكثير؛ يقول شوقي أبو خليل رداً على هذه الشبهة: ((لماذا يؤكِّد (لوبون) على أنَّ ما يرد من آيات فيها تشابه، وقد وردت في القرآن الكريم وفي التوراة أنَّها مقتبسة من التوراة؟ إنَّ في ذلك مجانبة للحقِّ، فلماذا لا يقول: إنَّ المصدر الإلهي الواحد أوجد هذا التشابه في بعض الآيات؟ وماذا يقول يا ترى في الآيات الأخرى العظيمة المختلفة كُلياً؟ وماذا يقول بآيات القرآن الكريم التي تحدَّثت عن تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم، فهل ورد مثلها في التوراة أو الإنجيل؟

إنَّ الأمور الأخروية والغيبية المتعلقة بالخلق والجنَّة والنار والحساب، وبعض الأحداث التاريخية في خطوطها الرئيسية، يجب أن تكون متشابهة، أمَّا الآيات الأخرى، أو الجزء الكبير منها، فقد اعترافاً بالنسبة للتوراة تبديل وتحريف كبيران، حيث كُتبت التوراة على أيدي أحبار اليهود في سنوات متأخرة جداً عن عهد نزول التوراة، أي بعيدة عن عهد موسى عليه السلام، فكتبها أولئك الأحبار كما أرادوها هم، وكما أرادوا أن يصوِّروا من خلالها تاريخهم ومستقبلهم، فجاءت كثيرة الأخطاء، بعيدة عن روح التسامح والمساواة التي عرفت بهما الديانات السماوية، بل وامتلاَّت بما في نفوسهم من عقد الذُّنوب والآثام والأحقاد والتعصُّب والعنصرية.. مما لا يمكن أن يصدر عن ربِّ السَّمَاوَات والأرض، خالق البشرية).^(٢)

كيف يقبل لوبون أن القرآن جاء مصدقاً لكثير من العقائد النصرانية، وفي نفس الوقت لا يقبل ما جاء في القرآن من بيان تحريف وكفر عقائد النصارى كاتخاذ عيسى عليه السلام

(١) الجممي: محمد موسى، التنصير عبر الخدمات التفاعلية لشبكة المعلومات العالمية، ص ٢٢١.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٢٠-١٢١.

إلهاً، وعقيدة التثليث وغيرها من العقائد الفاسدة؛ كقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ أين لوبون من هذه الآيات التي جاءت في القرآن الكريم والتي تبين انحراف العقيدة النصرانية عن الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام؟ وأين لوبون من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، يقول محمد رشيد رضا: ((أما المجاحدون من أهل الكتاب لا سيما دعاة النصرانية في هذا الزمان، فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم إنه مأخوذ منها بدليل موافقته لها، وفيما خالفها إنه غير صحيح بدليل أنه خالفها، وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به إنه غير صحيح لأنه لم يوجد عندنا، وهذا منتهى ما يكابر به مناظرٌ مناظرًا، وأبطل ما يرد به خصمٌ على خصمٍ)).^(١)

(١) رضا: محمد رشيد، تفسير المنار، ٢٤٨/٣.

الشبهة الرابعة: زعمه بأن رسول الله ﷺ أقام ديناً سهلاً يستمره قومه مستفيداً فيه من اليهودية والنصرانية.

يتضح ذلك في قوله: ((كان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يستمره قومه، وقد وُقِّق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم)).^(١)

الرد على الشبهة:

وهذه الشبهة كالتشبه السابقة مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه المزاعم والشبه لا تقبل ما دامت غير مدللة، وإلا فليخبرنا غوستاف لوبون ما الذي أخذه النبي ﷺ من الأديان السابقة؟ وأين درس محمد ﷺ هذه الأديان؟ ومتى؟ ومن علمه؟ ولماذا لا يوجد تلاميذ لهؤلاء المعلمين غير محمد ﷺ؟ وكيف لرجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة أن يستوعب كل هذا العلم؟... وقد تقرر سابقاً أن كل هذه المزاعم مجرد استنتاجات باطلة لا تستند إلى حقائق تاريخية، أو روايات صحيحة أو ضعيفة، ولذا يجب الإعراض عنها؛ وقد جاء في الرد على الشبه السابقة ما يدفع هذه الشبهة أيضاً.

وكيف يأخذ النبي ﷺ من الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية، وهو يأمر بمخالفتهم، بل إن ((جنس مخالفتهم، وترك مشابحتهم، أمر مشروع، ودل على أنه كلما بعد الرجل عن مشابحتهم فيما لم يشرع لنا، كان أبعد عن الوقوع في نفس المشابهة المنهي عنها، وهذه مصلحة جلية)).^(٢) والنصوص في مخالفة اليهود والنصارى كثيرة.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٨.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، اقتضاء الصراط المستقيم، ١/١٠١.

وكان الأولى أن يقول لوبون: لا يأتي بمثل هذا القرآن وهذا الدين إلا نبي مرسل من الله سبحانه، وأن ما جاء في القرآن إنما هو كلام الله أوحاه لنبية ﷺ، وأن التوافق بين بعض ما جاء في القرآن مع الشرائع السابقة يدل على وحدة المصدر، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

المطلب الثاني

زعمه أن القرآن من تأليف النبي ﷺ

التشكيك في نسبة القرآن الكريم إلى الله تعالى، والزعم أنه من تأليف النبي ﷺ من أقدم شبهات أعداء الإسلام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١٠١]، أي: ((أنك متقول على الله)).^(١) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: ٤٣]، ولا زال الطاعنون يرددون هذه الشبه إلى اليوم.^(٢)

(١) البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٤١٩/١.

(٢) فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية: ((القرآن ليس من عند الله)) نقلاً عن: أبو خليل: شوقي: الإسقاط في مناهج المستشرقين، ص ٤٧. ويقول المستشرق ويلز: ((محمد هو الذي صنع القرآن)) ويلز: هربرت جورج، معالم تاريخ الإنسانية، ٦٢٦/٣. ويقول يوليوس فلهاوزن: ((القرآن من عند محمد)) فلهاوزن: يوليوس، تاريخ الدولة العربية، ص ٨. ويقول درمنغم: ((وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق، حتى ليحسب المرء أنه يسمع بصيص ضوئها، وكأنه نغم نار موقدة. حقاً إن في السماء لشارات للمدركين، وفي العالم غيب بل العالم غيب كله؛ لكن ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينيه ليرى وأن يرهف أذنه ليسمع ويرى الحق ويسمع الكلام الخالد، لكن للناس عيوناً لا ترى وأذاناً لا تسمع، أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى، وهل تحتاج لكي =

وفي هذا المطلب سأورد شبهة غوستاف لوبون؛ وأقوم بالرد عليها إجمالاً:

الشبهة الأولى: الإيهام بأن بعض مواضع في القرآن الكريم من وضع النبي ﷺ.

يتضح ذلك في قوله: ((وكان محمدٌ قليل المسامحة نحو النساء، مع ضعفه نحوهن، وهو، مع أنه لم يبلغ في شدته درجة رجال التّوراة، وصفهن في القرآن بأثمنّ ينشأن في الحليّة، ويخاصمن من غير سبب)).^(١)

الشبهة الثانية: زعمه أن محمداً ﷺ أقام ديناً سهلاً يستمره قومه

يتضح ذلك في قوله: ((كان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يستمره قومه، وقد وُقِّق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدّمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى

=تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب مخلص ملئ إيماناً...)) نقلاً عن التهامي: عمر، القرآن والمستشرقون، ص ٢٨. ويقول نولدكه: ((كانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجّة، والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج، فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه، مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة)) نولدكه: تيودور، تاريخ القرآن، ١/٥. ويقول نصر أبو زيد: ((القرآن ينتمي إلى ثقافة البشر)) أبو زيد: نصر حامد، مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن)، ص ٢٧... هذه بعض افتراءات المستشرقين والمتأثرين بفكرهم حول هذه المسألة وسيأتي الرد عليها إن شاء الله.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢-١١٣. وسيأتي الرد على ما جاء من مغالطات في هذه العبارات لاحقاً إن شاء الله في موضعها.

عيسى قائلاً إن ما أُوحى إليهم صحيح، والحقُّ أنَّ اليهودية والنصرانية والإسلام فروعٌ ثلاثة لأصل واحد، وهي ذات قُرْبَى وشيخة)).^(١)

الشبهة الثالثة: الزعم بأن رسول الله ﷺ كان يجذب كلَّ يوم أصحاباً آخرين ببلاغته.

يتضح ذلك في قوله: ((كان محمدٌ يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر، وكان يجتذب ببلاغته في كلِّ يومٍ أصحاباً آخرين)).^(٢)

الشبهة الرابعة: نسبة آيات القرآن الكريم إلى أقوال النبي ﷺ

يتضح ذلك في قوله: ((وإنني أنقل من القرآن بضع آيات في كلِّ موضوع مهمٍّ، وأرتب ما نقلته من آياته بحسب الموضوعات))^(٣) ثم يقول (لوبون): "قال محمدٌ... ويذكر آيات من القرآن الكريم.

كقوله: ((وإله محمدٍ واحد في السماء، وسمع تعريف النبي له: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]...))^(٤) ثم يذكر آيات أخرى.

وقوله: ((وإليك وصف محمدٍ ليوم الحساب: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ [٣٣] يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْحَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ [عبس: ٣٣-٣٦]...))^(٥) ثم يذكر آيات أخرى.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٠.

وقوله: «وفي النار ضروب العذاب كما يرى محمد، ومن ذلك: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]...»^(١) ويذكر آيات أخرى.

الرد على هذه الشبه:

أولاً: لو كان القرآن من صنع البشر ومن تأليف النبي ﷺ لاستجاب العرب للتحدي القائم من الله ﷻ على أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته؛
قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٣] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٣] فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

مع ذلك لم يستطع أحد منهم معارضته ((وحكمة هذا التحدي، وذكره في القرآن، إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد^(٢)، والفصحاء اللسن... حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مولد^(٣)، أو أعجمي كاذب أو منافق، أو ذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله، وأنه غير معجز^(٤)) والتحدي قائم ليس على آحاد البشر بل إنه قائم حتى على متسوى الجماعات فلو اجتمع بلغاء العرب وأدبائهم وشعارهم لكي يأتوا بمثل هذا القرآن لن يأتوا بمثله، ولو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل والجن ما كان لهم أن يأتوا بمثل سورة منه قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢١.

(٢) الألد: الشديد الخصومة الجدل، ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: [لد]، ٣/٣٩٠.

(٣) رجل مولد: إذا كان عربياً غير محض. المصدر السابق، مادة: [ولد]، ٣/٤٦٧.

(٤) الرفاعي: مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ١١٨.

ثانياً: تبرُّء النَّبِيِّ ﷺ من نسبة القرآن إليه؛ وهذا دليل على أن القرآن من عند الله، فما جاء في القرآن من تحدي ومعجزات وقصص الأولين والآخريين تجعل من كل مرید للزعامة أن ينسب ذلك لنفسه؛ ولكن النبي ﷺ نسبه إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ آيَاتُكَ أَتَىٰكَ الْكَلْبُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] أي: لولا تقولتها، وأتيتنا بها من قبل نفسك،^(١) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتْهُمْ بَقَرَاتٌ غَيْرُ هَذِهِ أَوْ بَدَّلَهُمْ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [يونس: ١٥]؛ علماً أنه يستطيع أن ينسب ذلك لنفسه فيزداد بذلك رفعة وفخامة شأن؛ ولن يجد من البشر أحد يعارضه، ولكنه ﷺ ما هو إلا متلقي لهذا الوحي من لدن حكيم عليم ((ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا الوعي والحفظ ثم الحكاية والتبليغ ثم البيان والتفسير ثم التطبيق والتنفيذ))^(٢)، أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل وليس له من أمرهما شيء ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]؛ هكذا سماه القرآن.

((وفي الحقيقة أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس الدعاوى فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع الإقرار الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه.

أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ

(١) الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ١٠/٦٥٥.

(٢) دراز: عبدالله، النبأ العظيم، ص ١٥.

منها انسلخاً؟! على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحد يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثير من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه من تلك الأبواب المستعارة؛ أمّا أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأعلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلبده الدهر بعد^(١).

ثالثاً: القرآن كتاب معجز في الفاظه ومعانيه؛ عجز عنه الأولون والآخرون ((لأنه

بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله؛ فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] أي: من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] أي: وبيان الأحكام، والحلال والحرام؛ بيانا شافيا كافيا، حقا لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب:

(١) دراز: عبدالله، النبأ العظيم، ص ١٤.

(فِيهِ خَبْرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَنَبَأٌ مَا بَعْدَكُمْ وَفَصْلٌ مَا بَيْنَكُمْ) ^(١) أي: خبر عما سلف، وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يجه الله ويرضاه. ^(٢)

وقد شهد بإعجاز القرآن فصحاء العرب وأدباؤهم؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ الْوَلِيدَ ابْنَ الْمُغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْ رَقًّا لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنَّ يَجْمَعُونَ لَكَ مَالًا. قَالَ: لَمْ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتَعْرِضَ لِمَا قَبْلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ فُرَيْشُ أَيُّ مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارٍ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجُرْنِ، وَاللَّهِ مَا يُشْبَهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثَمِّرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ» قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعَنِي حَتَّى أَفَكَّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: " هَذَا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ بِأَثَرِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١]. ^(٣)

هكذا كان شأنهم مع رسول الله ﷺ حيث أنهم يقرون الحق في ضمائرهم دون النطق به، بل ينكرونه ويححدونه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤] وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّهَمُوا لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: عبدالله بن محمد، المصنف، رقم ٣٠٦٢٩، ٤٨٢/١٠. والدارمي: عبدالله بن عبدالرحمن، السنن، رقم ٣٣٧٥، ٢٠٩٩/٤.

(٢) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٢٣٤/٤.

(٣) أخرجه الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان، ٤٢٩/٢٣. والحاكم: محمد بن عبدالله، المستدرک، رقم ٣٨٧٢، ٥٥٠/٢. وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم: أحمد بن عبدالله، دلائل النبوة، رقم ١٨١، ٢٣٤/١.

رابعاً: عتاب القرآن للنبي ﷺ في عدة مواطن فيه دلالة على أنه من عند الله؛

فلو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لما كان يُجد هذا العتاب؛ ولو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لسكت النبي ﷺ عن هذا وستر على نفسه، ولكن ما كان للنبي ﷺ أن يبدل كلام الله؛ ومن أمثلة هذا العتاب؛ قوله تعالى في قصة أسارى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِيَ مَرْضَاتَ زَوْجِكَ﴾ [التحریم: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْفَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يُسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ١-١٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٥﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حٰزِزِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، فلو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لما كان أظهر هذه الآيات التي فيها عتاب له، وما كانت موجودة في هذا القرآن، ولكن النبي ﷺ ما كان ليكتبتم كلام الله تعالى، تقول عائشة رضي الله عنها: (... وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ

كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].^(١)

لو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لكان السكوت عن مثل هذه الآيات مقدّم على إظهارها، ((ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى؛ إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتفم شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كائناً شيئاً لكتفم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانها ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]).^(٢)

خامساً: كانت تمر على النبي ﷺ مواقف يكون فيها أشد حاجة إلى القرآن، مع

ذلك لم يتقوله، ولم يكن ﷺ يكذب ويتقول على الناس؛ فكيف يتقول ويكذب على

الله سبحانه؟ ((بل لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس؛ ومع هذا لم يتقوله ولم ينزل عليه شيء)).^(٣)

(١) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، رقم ٤٥٧، ١/١١٠.
(٢) دراز: محمد عبدالله، النبأ العظيم، ص ٥٥.
(٣) رضوان: عمر إبراهيم، آراء المستشرقين، ١/٣٨٥. المطيري: عبدالمحسن، دعاوى الطاعنين في القرآن، ص ١٩٦.

من الأمثلة على ذلك:

المثال الأول: أسئلة اليهود للنبي ﷺ: (١)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بعثت قُرَيْشُ النَّضْرَ بنَ الحَارِثِ وَعَقَبَةَ بنَ أَبِي مَعِيظٍ إِلَى أَحْبَارِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: سلوهم عن مُحَمَّدٍ، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا الْمَدِينَةَ، فسألا أَحْبَارَ يَهُودٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ووصفا لهم أمره، وَبَعْضُ قَوْلِهِ، وَقَالَا: إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا.

فَقَالُوا لَهَا: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإلا فهو متقول.

فَأَقْبَلَ النَّضْرَ وَعَقَبَةَ حَتَّى قَدَمَا قُرَيْشٍ فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، قَدْ أَمَرْنَا أَحْبَارَ يَهُودٍ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنِ أُمُورٍ؛ فَأَخْبَرُوهُمْ بِهَا، فَجَاؤُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا - فَسَأَلُوهُ عَمَّا أَمَرُوهُمْ بِهِ - فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أخبركم عدا بما سألتهم عنه) - ولم يستثن - فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرحف أهل مكة،

(١) وردت هذه القصة في معظم كتب التفسير، وكتب السير والتاريخ، إلا أني لم أقف عليها في كتب السنة، ولم أجد من حكم عليها بالصحة، انظر: الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٤٣/١٥، والبيهقي: أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ٢٧٠/٢، وابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، ٣٠١/١.

وأحزن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاء جبريل من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥].

المثال الثاني: فترة الوحي في حادث الإفك^(١):

فقد أرحف المنافقون بحديث الإفك عن زوج النبي ﷺ عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، والنبي ﷺ لا يقول إلا (وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي) ومكث الرسول ﷺ ما يزيد عن شهر كامل يسمع الأذى في أهله، وكاد أن يقتل الأنصار فيما بينهم (الأوس والخزرج) بهذا الخصوص؛ مما زاد في ثقل هذه القضية على النبي ﷺ؛ مع هذا كله لم يزد على أن قال لعائشة آخر الأمر: (يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيِّئْتُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَّتْ بِذَنْبٍ فَاسْتَعْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ).

فلو كان أمر القرآن إليه ﷺ فماذا كان يمنعه من أن يتقول كلمات يحمي بها عرضه، ويذب عن أهل بيته، ويقطع السنة المتحرصين الأفاكين؟ لكنه ﷺ ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

بعد ذلك جاءه جبريل ﷺ ببراءة عائشة من السماء، في العشر الآيات من أول سورة النور ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١].

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٢٦٣٧، ١٦٧/٣. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب: التوبة، باب: حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم ٧١٩٦، ١٢٢/٨.

المثال الثالث: تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام

كان الرسول ﷺ يتحرَّق شوقاً إلى التوجه بالصلاة إلى الكعبة، ومكث يصلي هو والمسلمين نحو بيت المقدس أكثر من ستة عشر شهراً، ولكن ذلك لا يكون إلا بأمر من الله سبحانه، فلو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لما مكث كل هذه المدة يصلي إلى بيت المقدس مع محبته وتلهفه التوجه إلى الكعبة، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ).^(١)

سادساً: توقف الرسول ﷺ أحياناً في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان

من الأدلة الواضحة على أن القرآن وحي من عند الله سبحانه وليس من وحي النبي ﷺ أنه كان يأتيه الأمر أحياناً من الله بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليهم بيانه.

وهذا دليل على أن النبي ﷺ ناقل وليس قائل، مبلغ لأوامر الله سبحانه؛ ومن الأمثلة على ذلك:

المثال الأول: موقفه ﷺ من قضية المحاسبة على حديث النفس في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

عندما نزلت هذه الآية أزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها؛ قال أبو هريرة رضي الله عنه: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم ٣٩٩، ١/٨٨. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم ١٢٠٤، ٢/٦٥.

﴿ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ، فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ كُفَلْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؛ بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ). قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا افْتَرَاهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا ﴿عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ. (١)

((وهنالک علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطبقون من شأن القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا من الخواطر والأمانى الجارية على النفس بغير اختيار... وموضع الشاهد منه أن النبي ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر؛ لبين لهم خطأهم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن ليركهم لهذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم؛ وهو بهم رؤوف رحيم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها، ولأمر ما أحر الله عنهم هذا البيان، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [١٩: القيامة]). (٢)

(١) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: (وَإِنْ تُبْدُوا

مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا)، رقم ٣٤٤، ٨٠/١.

(٢) دراز: محمد عبدالله، النبأ العظيم، ص ٥٨.

المثال الثاني: مسلكه ﷺ في صلح الحديبية: (١)

عندما منعت قريش النبي ﷺ والصحابة ﷺ من الدخول إلى مكة لأداء العمرة في السنة السادسة من الهجرة النبوية، وأملت على النبي ﷺ والمسلمين شروطاً قاسية كان لها وقعها السيء في نفوس المسلمين، وكادت تزيغ قلوب فريق منهم، حتى أن عمر رضي الله عنه راجع النبي ﷺ في ذلك فقال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ بَلَى، قَالَ: أَلَيْسَ قِتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ بَلَى. قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ...) فرد عليه رسول الله ﷺ بقوله: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَأَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي). وأمرهم بالتحلل من الإحرام، فكاد بعضهم يقتل بعضاً أثناء الحل ذهولاً وغماً.

ولكن النبي ﷺ قبل تلك الشروط التي في ظاهرها أنها لصالح المشركين وضد المسلمين؛ طاعة لله سبحانه، وتنفيذاً لأوامره. ((وساروا راجعين إلى المدينة، وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح؛ فبينت لهم الحكمة الباهرة، والبشارات الصادقة، فإذا الذي ظنوه ضيماً وإجحافاً في بادئ الرأي؛ كان هو النصر المبين والفتح الأكبر))، (٢) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّعْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح: ٢٤-٢٧].

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، رقم ٢٧٣١، ٣/١٩٣. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم ٤٧٣٣، ٥/١٧٥.
(٢) دراز: محمد عبدالله، مصدر سابق، ص ٦٠.

سابعاً: ما جاء في القرآن الكريم من أخبار الغيب، وما أخبر به النبي ﷺ من أمور ستحصل بعد موته؛ دليل على أن هذا القرآن لا يأتي إلا من علام الغيوب سبحانه؛ ((فهو ﷺ يخبر بأمر فلكية، وأخرى طبية، وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقاً لما قال، ولا يأتي العلم -على تقدمه الكبير- إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر والنجوى، الذي لا تخفى عليه خافية؟)).^(١)

تقول بوتتر^(٢): ((كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأمي، الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ)).^(٣)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((والقرآن مملوء من إخباره عن الغيب الماضي، الذي لا يعلمه أحد من البشر، إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك، ليس هو الشيء الذي تزعمه ملاحدة المتفلسفة، فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبي، كموسى، ومحمد، وليس أحد ممن يدعي المكاشفات؛ لا من أولياء الله، ولا من غير أولياء الله يخبر بشيء من ذلك؛ ولهذا كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم التي لا يشركهم فيها غيرهم.

(١) المطيري: عبدالمحسن، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم، ص ٢٠٤.

(٢) ديورا بوتتر: ولدت عام ١٩٥٤ بمدينة ترافيز في ولاية ميتشغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة ميتشغان، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٥٥.

(٣) العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، ١٠٩/٨.

وأهل الملل متفقون على ما دل عليه العقل الصريح من أن هذا لا يعلم إلا بنجر نبي.
فإذا كان محمد قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء، وأخبر بما يعلمونه
مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم، وقد عرف أن محمداً لم يتعلم هذا من بشر، كان هذا
آية وبرهاناً قاطعاً على نبوته^(١).

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٣٨٧/٥.

المطلب الثالث

شهادة بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين تجاه القرآن الكريم

سأورد في هذا المطلب بعضاً من شهادات المستشرقين والمثقفين الغربيين تجاه القرآن الكريم، ومصدره، وأنه كتاب ربّاني منزل من الله سبحانه على محمد ﷺ، وأنه كتاب معجز بكل ما فيه، وهذا من باب "الحق ما شهد به المخالف".

وأبدأ بشهادة غوستاف لوبون نفسه، وأبين تناقضه في بعض آرائه تجاه القرآن الكريم، ومصدره:

يقول لوبون: «القرآن هو كتاب المسلمين المقدّس، ودستورهم الدّيني والمدني والسّياسي النّاطم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدّس قليل الارتباط، مع أنّه أنزل وحيّاً من الله على محمّد، وأسلوب هذا الكتاب، وإن كان جديراً بالذّكر أحياناً، عاطل من التّرتيب، فاقد السّياق كثيراً، ويسهّل تفسير ذلك عند النّظر إلى كيفة تآليفه، فهو قد كُتب بالحقيقة، تبعاً لمقتضيات الزّمن، فإذا ما اعترضت محمّداً معضلةً أتاه جبريل بوحي جديد حلاً لها، فدوّن ذلك في القرآن... ويعدّ العربُ القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان، ومع ما في ذلك من مبالغة شريقيّة، نعرف بأنّ في القرآن آياتٍ موزونة رائعة، مما لم يسبقه إليه كتاب ديني آخر»^(١).

ويقول أيضاً في سياق حديثه عن زواج النّبي ﷺ بزَيْنَب بنت جحش رضي الله عنها: «... فأوحى إلي محمّد، بواسطة جبريل الذي كان يتّصل به يومياً، آياتٌ تسوّغ ذلك...»^(٢).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٧. وسيأتي الرد على هذه المغالطات الواردة في هذا النقل - إن شاء الله - في المباحث القادمة.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٢.

ويقول أيضاً في سياق حديثه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حادثة الإفك: ((...وأصبحت ذات مرّة موضع قالة سوء، فشهد بعصمتها جبريل)^(١) المحبّ للخير دائماً، ودوّنت شهادته في هذه المسألة الحسّاسة في القرآن، فَحُظِرَ الشُّكُّ)).^(٢)

ومن شهادات المستشرقين والمثقفين الغربيين وبعض القساوسة ما يلي:

يقول إبراهيم خليل^(٣): ((يرتبط هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح عَلَيْهِ السَّلَام في قوله عنه: (ويخبركم بأمر آتية)، وهذا الإعجاز هو القرآن الكريم، معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان، فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه؛ من طب وملك وجغرافيا وحيولوجيا وقانون واجتماع وتاريخ ... ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف...)).^(٤)

وقال: ((أعتقد يقيناً أنني لو كنت إنساناً وجودياً، لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث في كل مناحيه؛ لآمنت برب العزة والجبروت خالق السماوات والأرض، ولن أشرك به أحداً)).^(٥)

(١) الشهادة ببراءة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت من الله عَلَيْكُمْ، وليست من جبريل عَلَيْهِ السَّلَام.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

(٣) قس مبشر من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية، عمل أستاذا بكلية اللاهوت في أسيوط، كما أرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيراً عاماً للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام، لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وأشهر إسلامه عام ١٩٥٩، ومن مؤلفاته: (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) و(المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي) و(تاريخ بني إسرائيل). انظر: خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٤٩.

(٤) خليل: إبراهيم، محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ص ٤٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٨.

قال بلاشير^(١): ((إن القرآن ليس معجزةً بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة، تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف، إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعارض للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن، وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رتلته المؤمنون)).^(٢)

قال بوكاي^(٣): ((لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة؛ بحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرةً من الظواهر الطبيعية، لكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي، استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها، أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل، أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا، وأما بالنسبة للأنجيل، فإننا نجد نص إنجيل متي يناقض

(١) ريجي بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣) مستشرق فرنسي، ولد في باريس، وسافر مع والديه إلى المغرب، ودرس في الدار البيضاء، وعين أستاذاً للغة العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس، وتولى عدة مناصب كبيرة وألف كتباً كثيرة عن الإسلام. بدوي: عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ١٢٧.

(٢) بلاشير: ريجي، تاريخ الأدب العربي، ٢/٢٢.

(٣) د. موريس بوكاي: الطبيب والعالم الفرنسي، ألف كتابه المشهور "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم" وهو من أكثر المؤلفات التي عاجلت هذا الموضوع (تعارض الكتب المقدسة مع العلم الحديث) أصالة واستيعاباً وعمقاً، ويبدو أن هذا الكتاب القيم منحه قناعات مطلقة بصدق الكتاب، وبالتالي صدق الذي جاء به. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٥٦.

بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض)).^(١)

قالت بوتر: ((عندما أكملت قراءة القرآن الكريم، غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وإنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية، نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع، وأسلوب قاطع، لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة)).^(٢)

قالت بوتر أيضاً: ((كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأمي، الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ)).^(٣)

قال حتي^(٤): ((إن أسلوب القرآن مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد، وهذا في أساسه. هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى)).^(٥)

(١) بوكاي: موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٣.

(٢) العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، ١٠٠/٨.

(٣) المصدر السابق، ١٠٩/٨.

(٤) حتي: د. فيليب حتي، ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥م)، وتنقل في عدة مناصب كبيرة. من مؤلفاته: (أصول الدولة الإسلامي) و(تاريخ العرب) وغيرها. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٥٨.

(٥) حتي: فيليب، الإسلام منهج حياة، ص ٦٢.

قال أرنولد^(١): ((...إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار (الإسباني) الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به)).^(٢)

((ولقد ألف الدكتور مراد هوفمان -سفير ألمانيا السابق بالرباط- كتاب (الإسلام كبديل)^(٣)، وفيه شهادات كثيرة على إعجاز القرآن وصدقه، وصدق النبي ﷺ وكمال التشريع. إلى آخر تلك الشهادات الطويلة على صدق القرآن وإعجازه)).^(٤)

(١) توماس أرنولد [١٨٦٤-١٩٣٠]: مستشرق إنجليزي التحق بكلية المجدلية في جامعة كامبردج عام ١٨٨٢م حيث اجتذبه الدراسات الشرقية، وبعد أن أجز بنجاح دراسته أمضى السنة الرابعة عاكفاً على دراسة الإسلام، واختير لتدريس الفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية في الهند، فقضى فيها عشر سنوات، كان لها تأثير بالغ في نظره تجاه الإسلام، وكان يدعو إلى التوفيق بين الثقافة الإسلامية والفكر الأوروبي، وتولي عدة مناصب، وقبل وفاته بعام دعتة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) أستاذاً زائراً. وبعد أن أمضى النصف الثاني من العام الدراسي ١٩٢٩-١٩٣٠ في التدريس بقسم التاريخ عاد إلى لندن وتوفي فيها في ٣٠ يونيو ١٩٣٠، من مؤلفاته (الدعوة الإسلامية) و(الخلافة) وغيرها. بدوي: عبدالرحمن، ص ٩، الزركلي: خير الدين محمود، الأعلام، ٩٤/٢.

(٢) أرنولد: توماس، الدعوة إلى الإسلام، (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ص ١٦٢.

(٣) من منشورات مكتبة العبيكان.

(٤) المطيري: عبدالحسن، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم، ص ١٦٠.

المبحث الثاني

نظرة لوبون لمسألة جمع القرآن وترتيبه

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تناقض غوستاف لوبون في الحكم بأن القرآن وحي من الله أو

من عند رسول الله ﷺ، ونقده لترتيب سور القرآن وآياته، وسياقه

المطلب الثاني: شهادات المستشرقين والمثقفين الغربيين بأن القرآن الكريم

كتاب معجز في ألفاظه ومعانيه

المطلب الأول

تناقض غوستاف لوبون في الحكم بأن القرآن وحي من الله أو من عند

رسول الله ﷺ، ونقده لترتيب سور القرآن وآياته، وسياقه

كتابات غوستاف لوبون في مسألة الوحي فيها من التناقضات الشيء الكثير؛ فمرة يقول عن القرآن: إنه أنزل وحيًا من الله على النبي ﷺ: وإذا ما اعترضت النبي ﷺ معضلة أتاه جبريل بوحى جديد، ومرة يقول بعد نقد سياقه وترتيبه: ويسهل تفسير ذلك عند النظر إلى كيفية تأليفه.

ومرة يقول: إنه كتاب قليل الارتباط، عاطل من الترتيب، فاقد السياق، ومرة أخرى يناقض كلامه فيقول: نعتف بأن في القرآن آياتٍ موزونة رائعة، مما لم يسبقه إليه كتاب ديني آخر، وأنه كتاب مقدس.

ويقول: إن العرب يعدون القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان، ولكن لوبون يرى أن ذلك فيه مبالغة شرقية؛ ومن شبهه في ذلك:

الشبهة الأولى:

يقول غوستاف لوبون: ((القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي الناظم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط، مع أنه أنزل وحيًا من الله على محمد، وأسلوب هذا الكتاب، وإن كان جديرًا بالذكر أحيانًا، عاطل من الترتيب، فاقد السياق كثيرًا، ويسهل تفسير ذلك عند النظر إلى كيفية تأليفه، فهو قد كتب تبعاً لمقتضيات الزمن بالحقيقة، فإذا ما اعترضت محمدًا معضلة أتاه جبريل بوحى جديد حلاً لها ودون ذلك في القرآن... ويعُدُّ العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان، ومع ما في ذلك من مبالغة شرقية، نعتف بأن في القرآن آياتٍ موزونة رائعة، مما لم يسبقه إليه كتاب ديني آخر)).^(١)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٧.

الشبهة الثانية:

يقول لوبون: «وإني أنقل من القرآن بضع آيات في كلِّ موضوع مهمٍّ، وأرتب ما نقلته من آياته على حسب الموضوعات، نظراً إلى أن ما ورد فيه من الآيات في الموضوع الواحد مبثَّر فيه اتفاقاً».^(١)

الرد على هاتين الشبهتين:

إذا كان قد شهد للقرآن أقحاح العرب وأدباؤهم من المسلمين والكفار بأنه أفصح كتاب وفيه من البيان والإعجاز ما عجز عنه الثقلين، فكيف اكتشف غوستاف لوبون هذه المبالغة الشرقية؛ ولسانه أعجمي لا يعرف في العربية إلا بعض كلمات؟ يقول شوقي أبو خليل: «عبارتان متناقضتان في مقطع واحد: "مع أنه أنزل وحياً من الله على محمد"، "ويسهل تفسير ذلك عند النظر إلى كيفية تأليفه"، تناقض كنتناقض من يقول: "دائرة مربعة" !!

وهل أصبح (لوبون) أحد كبار علماء اللغة العربية، وأحد أساطين الأدب العربي الذين أتقنوا معرفة أساليب الفصاحة والبلاغة والبيان، حتى يجعل من نفسه حكماً على أسلوب القرآن الكريم، فيقول إنَّ في قول العرب عن فصاحة القرآن مبالغة أو غير مبالغة، وإنَّ في آياته آيات موزونة رائعة لم يسبق إلى مثلها كتاب آخر؟. إنَّ مثل هذا القول يُقبل^(٢) من علماء العربية وجهابذتها، ومن عرفوا كنماذج عليا في فقه اللغة وآدابها.

(١) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٢) لعله يقصد أنه قد يُقبل من غير المسلمين، وإلا فإنه يستحيل على المسلم أن يضع القرآن على طاولة النقد، لأنه يؤمن بأن القرآن كتاب الله الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٢]. ولكن الذين لا يؤمنون بهذا القرآن هم الذين يوجهون نقدهم إليه على أنه نص أدبي كغيره من النصوص، مع ذلك فهم عاجزون عن القدح والطعن فيه.

ويقول (لوبون): "إنه كُتِبَ تبعاً لمقتضيات الزّمن، ويضيف بأنّ جبريل يأتي بوحى ليحلّ كلّ معضلة تواجه الرّسول ﷺ، إذن كان من الأجدر به أن يقول بأنّ القرآن الكريم لم يؤلّف تأليفاً، بل نزل به الوحي الأمين جبريل على قلب محمّد ﷺ، فكان يتلوه على أصحابه، فيحفظونه ويكتبونه، فجاءت آيات حسب تطوّر الأحداث وضرورات التشريع، وأي حرج أو مأخذ في ذلك؟!".^(١)

ويناقض لوبون نفسه أيضاً بقوله: ((وشرع محمّد، منذ وصوله إلى المدينة، ينظّم شؤون دينه، وأخذ القرآن -الذي كان في دور التكوين- يكتمل بفضل تواتر نزول الوحي على محمّد في جميع الأحوال الصّعبة خلا مبادئه الأساسية التي كانت قد عُرضت)).^(٢)

وقول لوبون: "بأن القرآن كتاب قليل الارتباط، عاطل من الترتيب، فاقد السياق؛ فهذا من قصور علمه وفهمه، وبعده عن إدراك الإعجاز القرآني في ترتيب المصحف، والوحدة الموضوعية في السورة، وهذا باب عظيم لا تسعه العجالة من الرد على هذه الشبهات بإسهاب، ولكن سأبين باختصار الكيفية التي جُمع بها القرآن، وكيفية ترتيب سورته وآياته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٨]، ذكر الله في هذه الآية أن جمع القرآن وترتيبه عليه سبحانه، فكأنّ الله تعالى قد تكفل بجمع القرآن وترتيبه، والواقع الذي يعرفه كل أحد أن القرآن لم يرتب على الترتيب الذي نزل عليه؛ بل رتب كما أمر ﷺ بترتيبه، فحقيقة الأمر أن ترتيب القرآن قد تكفل الله به، وقام النبي ﷺ

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١١٢.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٦.

بهذا الترتيب. فلا يمكن الجمع بين هذا التكفل وهذا الترتيب إلا على القول بأن النَّبِيَّ ﷺ إنما قام به بوحي من الله تعالى وهو الوحي غير المتلو وهو السنّة.

وأجمع العلماء سلفاً وخلفاً على أن ترتيب الآيات في السورة توقيفي، أي اتبع فيه الصحابة أمر النَّبِيِّ ﷺ، وتلقاه النَّبِيُّ ﷺ عن جبريل، لا يشتهبه في ذلك أحد.^(١)

يقول السيوطي: ((الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وأما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ، وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين)).^(٢)

يقول السعدي: ((كان النَّبِيُّ ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النَّبِيُّ ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقراه، ويجمعه الله في صدره، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك فلا موجب لذلك. ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] أي: إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] أي: بيان

(١) السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، الإتيقان في علوم القرآن، ٢١١/١. والزركشي: بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، ٢٥٦/١.

(٢) السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، الإتيقان في علوم القرآن، ٢١١/١.

معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه)).^(١)

والأحاديث في إثبات التوقيف في ترتيب الآيات في السور كثيرة جداً تفوق حد التواتر، إلا أنني أذكر منها ما يلي:

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، قَدْ نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدْعُهَا؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي؛ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.^(٢)

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا إِذْ شَخَّصَ بِبَصَرِهِ ثُمَّ صَوَّبَهُ، حَتَّى كَادَ أَنْ يُلْزِقَهُ بِالْأَرْضِ، قَالَ: ثُمَّ شَخَّصَ بِبَصَرِهِ فَقَالَ: (أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].^(٣)

وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ عِنْدَهُ، يَقُولُ: (ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا) وَيُنْزَلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَقُولُ: (ضَعُوا

(١) السعدي: عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٩٩.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب: تفسير القرآن، باب (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا)، رقم: ٤٥٣٠، ٢٩/٦.

(٣) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم: ١٧٩١٨، ٤٤١/٢٩.

هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذًا وَكَذًا) وَيُنزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ، فَيَقُولُ: (ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذًا وَكَذًا)... الحديث. (١)

وجماهير العلماء على أن ترتيب سور القرآن توقيفي (٢)، وليس باجتهاد من الصحابة، والأدلة على أن ترتيب السور كلها توقيفي كثيرة جداً؛ أذكر منها:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْكَهْفِ، وَمَرْيَمَ: ((إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولَى، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي (٣)). (٤) فذكر ابن مسعود رضي الله عنه السور نَسَقًا كما استقر ترتيبها.

(١) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ٣٩٩، ٤٦٠/١. وغيره من أصحاب السنن،

وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، مشكاة المصابيح، رقم: ٢٢٢٢.

(٢) الزركشي: بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، ٢٥٨/١. والسيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، الإتيان في علوم القرآن، ٢١٦/١.

(٣) أراد بالعتاق الأول: السور التي أنزلت أولاً بمكة، وأنها من أول ما تعلمه من القرآن. والتأيد: المال القديم الذي ولد عندك. ابن الأثير: أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/١٩٤ - ١٧٩/٣.

(٤) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم ٤٩٩٤، ١٨٥/٦.

المطلب الثاني

شهادات المستشرقين والمثقفين الغربيين بأن القرآن الكريم كتاب معجز في ألفاظه ومعانيه

قال حتى: ((إن أسلوب القرآن مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد، وهذا في أساسه. هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى)).^(١)

يقول أيضاً: ((إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات)).^(٢)

قال بلاشير: ((لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والحرس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد ﷺ قد أخطأوا عندما لم يشاؤوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويدية، وبالرغم من أننا على علم - استقراءياً فقط - بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطأ هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألقاً وجلالة؛ تخلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر، كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعية التي وصلتنا)).^(٣)

يقول أيضاً: ((إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب ﷺ المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن. وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رثله المؤمنون)).^(٤)

(١) حتى: فيليب، الإسلام منهج حياة، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٣) بلاشير: ريجي، تاريخ الأدب العربي، ٣١/٢.

(٤) بلاشير: ريجي، القرآن الكريم، ص ١٠٢-١٠٣.

يقول بوازار^(١): «لابدّ عند تعريف النصّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعاً أصلياً، وينبوع إلهام أساسي.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجاً رفيعاً للأدب العربي تستحيل محاكاته إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه لأن الدين الذي أوحى به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب»^(٢).

يقول ريسلر^(٣): «لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقراً ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً ﷺ كان ملهماً بجلال الله وعظمته»^(٤).

قال بوكاي: «لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة؛ بحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل

(١) مارسيل بوازار M. Poizar مفكر، وقانوني فرنسي معاصر. أولى اهتماماً كبيراً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين. يعتبر كتابه (إنسانية الإسلام)، الذي انبثق عن الاهتمام نفسه، علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا بأسرها التحيز والهوى. فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٥٣.

(٢) بوازار: مارسيل، إنسانية الإسلام، ص ٥٢.

(٣) جاك . س . ريسلر J. S. Restler باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي

بباريس. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٦٦.

(٤) ريسلر: جاك، الحضارة العربية، ص ٣٠-٣١.

هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرةً من الظواهر الطبيعية، لكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي، استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها، أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل، أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا، وأما بالنسبة للأنجيل، فإننا نجد نص إنجيل متي يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحةً أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض^(١).

يقول حنا^(٢): «إنه لا بد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحة. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تختمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة^(٣)».

يقول ديكاستري^(٤): «إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى. آيات

(١) بوكاي: موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، ص ١٣.

(٢) الدكتور جورج حنا G. Hanna مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الإنسان). نقلاً عن: خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٥٨.

(٣) حنا: جورج، قصة الإسلام، ص ٧٩.

(٤) الكونت هنري دي كاستري (١٨٥٠-١٩٢٧) مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردهاً من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب)، (الأشراف السعديون)، (رحلة هولندي إلى المغرب)، وغيرها... خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٦١.

لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب [ﷺ] فأمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسس أن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى [ﷺ].. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب. ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمداً [ﷺ] يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب.. لخر ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار).. وكيف يعقل أن النبي [ﷺ] ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب)).^(١)

قال آرنولد: ((...إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار Alvar (الإسباني) الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به)).^(٢)

يقول درمنغم^(٣): ((كان محمد [ﷺ] يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أميناً مصعباً أو سجعاً صادقاً أو حاكياً معصوماً لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة. ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بد له من

(١) دي كاستري: هنري، الإسلام (خواطر وسوانح)، ص ١٨-٢٠.

(٢) آرنولد: توماس، الدعوة إلى الإسلام، (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص ١٦٢.

(٣) إميل درمنغم E. Dermenghem مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) وهو من أدق ما صنّفه مستشرق عن النبي [ﷺ]، و(محمد والسنة الإسلامية)، ونشر عدداً من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الأفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٦٠.

معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد ﷺ الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. وكان محمد ﷺ يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياة الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه)).^(١)

قالت بوتر: ((عندما أكملت قراءة القرآن الكريم، غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية، نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع، وأسلوب قاطع، لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة)).^(٢)

(١) درمنغم: إميل، حياة محمد، ص ٢٨٩.

(٢) العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، ١٠٠/٨.

المبحث الثالث

آراء لوبون تجاه بعض نصوص القرآن.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ملاءمة القرآن الكريم لاحتياجات الأمم، والتقدم الحضاري

المطلب الثاني: تأثير القرآن الكريم في علوم المسلمين واكتشافاتهم

المطلب الثالث: شهادات وتجارب العلماء الغربيين والشرقيين بتأثير القرآن

في المذاهب العلمية والفلسفية

المطلب الأول

ملاءمة القرآن الكريم لاحتياجات الأمم، والتقدم الحضاري

تتردد كثيراً في كتابات المستشرقين شبهة أن القرآن أو الإسلام لم يعد يتلاءم وينسجم مع تطورات الحياة والتقدم الحضاري؛ وأنه قد يتواءم مع بعض الأمم دون غيرها، وبينون أحكامهم هذه بسبب مقارنة واقع المسلمين في القرون الأولى مع واقع المسلمين في القرون المتأخرة. ومن شبه غوستاف لوبون في ذلك؛ ما يلي:

الشبهة: الرَّعْمُ بأنَّ القرآن الكريم ونظمه لاءم جميع الأمة العربية واحتياجاتها

أيام محمد ﷺ ملاءمة تامة، ولكنه لم يعد ملائماً لها بعد بضعة قرون.

يتضح ذلك في قوله: «فإذا كان القرآن ملائماً لاحتياجات بعض الأمم؛ فإنه لم

يلائم احتياجات بعضها الآخر»^(١).

وفي قوله: «وعاد القرآن الذي لاءم مشاعر الأمة العربيّة واحتياجاتها أيام محمد ملاءمة

تامة، غير ما كان عليه بعد بضعة قرون، ولو كان القرآن دستوراً دينياً فقط ما كان هنالك

كبير محذور، ولكن القرآن، إذ كان دستوراً سياسياً ومدنياً أيضاً، وكان بطبيعته ثابتاً، بدت

عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجات الدائمة التحول والأمم ونظمها الثابتة، وحالت هذه

النظم دون تقدم تلك الأمم التي قُيِّدت بقيود الماضي»^(٢).

وقوله: «وعادت نظم القرآن -التي كانت عنوان احتياجات العرب في زمن محمد- لا

تكون هكذا بعد بضعة قرون، والقرآن، إذ كان دستوراً دينياً ومدنياً وسياسياً في آن واحد،

وكان لا يتبدل بسبب مصدره الإلهي، تعدّر تعديل أحكامه الأساسية»^(٣).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٠٨.

الرد على الشبهة:هذا كلام باطل من عدة أوجه:

أولاً: باعتراف غوستاف لوبون نفسه في عدة مواضع من كتابه بأن عوامل الضعف التي أصابت المسلمين إنما هي بسبب بعدهم عن القرآن وعدم تمسكهم بالتعاليم الإسلامية، وليس بسبب عدم ملاءمة القرآن لاحتياجات الأمم، فيقول: «ويمكن عدّ نظم العرب السياسية والاجتماعية، التي ذكرنا أنها من أسباب تقدمهم السريع، من عوامل انحطاطهم أيضاً، وبيان ذلك أن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التي جاء بها محمد وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها، وهي التي كان يمكنها وحدها أن تجمع القوى المبعثرة في جزيرة العرب».^(١)

ثانياً: تناقض لوبون الواضح في هذه المسألة؛ فقد قرر في أكثر من موضع أن الإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهدياً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح؛ بقوله: «والإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهدياً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح، والبُدْهيَّة».^(٢)

ويقرر أيضاً بأن الدولة الإسلامية بدت أكثر دول الأرض هيبة وتمدناً بسبب دعوة النبي ﷺ بقوله: «والحقُّ أنَّ هؤلاء القوم الشُّجعان الذين لبَّوا دعوة محمد وغدوا أُمَّةً واحدة، أقاموا دولةً بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع في أقلِّ من قرنين، وأنَّ هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدناً».^(٣)

ثالثاً: باعترافه واعتراف جميع الأمم التي دخلت في الإسلام أن بالإسلام وحده تمدنت الأمم وازدهرت حضارتهم؛ يقول لوبون: «وفي المدرسة العربية تمدَّن المغول، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متفني العرب وعلماءهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولة قويَّة عربيَّة المناحي، فأحلُّوا بذلك حضارة العرب محلَّ حضارة الهند القديمة، فترى سلطان حضارة العرب

(١) المصدر السابق، ص ٦٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٦.

بادياً في الهند حتى اليوم)).^(١) ويقول أيضاً: ((وإنَّ كلَّ بلد خفقت فوقه راية النَّبِيِّ تحوَّل بسرعة فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصَّناعة والزَّراعة أيَّما ازدهار)).^(٢)

ويقول أيضاً: ((وبالعرب - لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأستراليين - أنشأ خلفاء محمَّد تلك المدن الزاهرة التي ظلَّت ثمانية قرونٍ مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا)).^(٣)

من خلال هذا العرض لاعترافات لوبون وتناقضاته في هذه المسألة يتبين لكل طالب حق أن الإسلام هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده، وتوالت رسل الله للدعوة إليه من عهد آدم إلى خاتمهم محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

الإسلام ملائم لفطرة الإنسان السليمة، لذلك فهو شامل لجميع مجالات حياة الإنسان من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، فيلي حاجة الإنسان الروحية والعقلية والمادية.. بعقائده الواضحة في الكون والحياة وما بعد الحياة.. وفي أحكامه العادلة وأخلاقه الفاضلة، وهو مع ذلك قابل للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان لسهولة أحكامه ومرونتها وملاءمتها لطبيعة الإنسان لأنه من عند خالق الإنسان وخالق الأكوان الحكيم العليم، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المملك: ١٤].

لهذا فدعوة الإسلام شاملة للناس جميعاً أبيضهم وأحمرهم... قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٨.

علم أعداء الله في القديم والحديث أثر القرآن على المجتمع المسلم، فحرصوا على إبعاد الأمة الإسلامية عنه؛ ليحل محله حب الدنيا، والتطلع إلى الشهوات والملذات، فتصبح الأمة أمة شهوانية بعيدة عن الدين، وحينئذ لا يستحقون النجاة، ولا النصر على الأعداء.

يقول شوقي أبو خليل: ((أخطأ لوبون) في فهمه وتعليقه في هذه العبارة، فالقرآن الكريم لم يلائم مشاعر الأمة العربيّة، بل لاءم منها الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، أمّا من غرقت نفوسهم في شهواتها، وتغلّبت عليها غرائزها، وانسأقت وراء أهوائها، فلم يكن القرآن الكريم، وتعاليمه السّميحة مما يتلاءم مع نفوسهم، ولهذا امتنعوا وحاربوا، إلى أن عادوا إلى صوابهم، وأخذوا يفكّرون فيما رأوه من تأثير القرآن على أصحابهم وأقاربهم وأبنائهم، وحكّموا في ذلك عقولهم، فاعتنقوه، لا لأنّه لاءم ما في نفوسهم، بل لأنّهم وجدوا الخير فيه، وعرفوا الشرّ الذي كان يملأ نفوسهم.

وأخطأ (لوبون) ثانية حين قال: إنّ القرآن لم يعد ملائماً للنّاس بعد بضعة قرون، القرآن أصبح غريباً بعيداً عن نفوس فئات من المجتمعات الإسلاميّة، التي أبعدت التّيّارات المعادية للإسلام -وفي مقدمتها المستعمرون والمبشّرون المتعصّبون- أفرادها عن تعاليم القرآن المجيد، فصاروا يرون فيه قيلاً يمنعهم من تحقيق ما يظنونهم سعادة ومنتعة وتقدّمًا، وصاروا يصعدون على القرآن الكريم أحكام أولئك المعادين له، كما لُقّنوها، دون وعي أو دراسة أو تفكير، وحين بدأت عودة المسلمين إلى مراجعة حساباتهم، ودراسة قرآنهم، تغيرت الحال، وبدأت صحوة المسلمين إلى واقعهم، وعودتهم إلى قرآنهم)).^(١)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٤٥-١٤٦.

المطلب الثاني

تأثير القرآن الكريم في علوم المسلمين واكتشافاتهم

لقد عني الإسلام بالعلم، وعظّم مكانته، وبين أهميته، وحث على الازدياد منه بشكل دائم، ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام حجر عثرة أمام التطور المعرفي والثقافي، وإنما جعل لكل علم ضوابطه وآدابه الشرعية، يلزم الرجوع إليها والالتزام بها؛ وهي بحد ذاتها لا تحارب أو تؤخر التطور المعرفي والثقافي في جميع جوانبه، ومن شبهات غوستاف لوبون في ذلك ما يلي:

الشبهة: نفي لوبون تأثير القرآن الكريم في جميع مذاهب العرب العلمية

والفلسفية التي نشرها في العالم في خمسة قرون.

يتضح ذلك في قوله: ((ولم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية التي نشرها في العالم في خمسة قرون... غير أنّ العلماء كانوا لا يباليون -أبداً- بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدّس (القرآن) من الاختلاف، فإذا ما بلغت أفكارهم الحرة عامّة الناس اضطّرّ حماهم من الخلفاء -عادةً- إلى نفيهم لأجل محدود احتراماً للشعور العام، وإذا ما هدأت الزّوبعة بسرعة استدعاهم الخلفاء)).^(١)

وقوله: ((لم يكن للإسلام -ديانة- تأثير في آثار العرب العلمية والفلسفية))^(٢)

الرد على الشبهة:

أولاً: هذا أيضاً من تناقضات غوستاف لوبون، وما جاء في الرد على الشبهة السابقة يكفي لدحض هذه الشبهة أيضاً.

ثانياً: لماذا لم تظهر تلك الحركة الفكرية والعلمية عند العرب قبل ظهور الإسلام؟

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧١.

ثالثاً: الكثير من آيات القرآن الكريم تدعو الناس إلى التفكير وإعمال العقل في آيات الله الكونية، فكيف لا يكون للقرآن تأثير وجميع مذاهب المسلمين واكتشافاتهم وأفكارهم هي نتيجة مناقشة آراء الإسلام التي دارت حول آيات القرآن الكريم!؟

رابعاً: الفلسفة وعلم الكلام الذي يعتمد أصحابه^(١) على أرسطو ونظرياته الإلحادية كنفى وجود الخالق، وإنكار النبوات، وغير ذلك من المعتقدات الفاسدة؛ هذا العلم ليس من الإسلام في شيء، وعلماء الكلام والفلاسفة لا يمثلون الإسلام وإن كانوا من العرب، لذلك لم يكن للقرآن تأثير في اكتشافاتهم لأنهم خالفوا السنن الإلهية والكونية التي جاء بها القرآن، وتخطوا كثيراً تبعاً لأستاذهم أرسطو.

يقول شوقي أبو خليل: ((أما من اعتبرهم لوبون مخالفين بأفكارهم الحرة للمجتمع الإسلامي، ويحميهم الخلفاء، ونسي أن يقول ويضطهدهم أحياناً الخلفاء، فهم بين أحد رجلين، فإما عالم رفض أن يقول بما يقول به الخليفة من آراء واجتهادات، رأي فيها مخالفة لما توصل إليه من اعتقاد، كمخالفة الإمام أحمد بن حنبل للمأمون، ورفضه آراء المعتزلة في أمور فلسفية، فناله الاضطهاد والسجن أيام المعتصم.

أو رجل خرج بأعماله وأفكاره عن معتقدات قومه زندقة وإلحاداً، والزندق أو الملحد على أغلب الأحيان، لا يحمل نظرية، إنه يحمل تحلاً وانقلاباً، وفي كل مجتمع نفر من هذا القبيل، تلاحقهم عادة نقمة المجتمع وغضبه.

فأين (لوبون) من الحقيقة في مجال تأثير القرآن الكريم في المجتمع العربي خاصة، والإسلامي عامة؟ بل نستطيع القول غير مبالغين بأن الإنسانية عبر تاريخها الطويل لم تعرف كتاباً أثر في الناس، في حياتهم وأفكارهم وعلومهم وفلسفاتهم كما أثر القرآن الكريم.

ونردُّ على عبارة (لوبون) الأخيرة بقولنا: ربما لا نجد لدى علماء المسلمين كتاباً علمياً أو فلسفياً إلا وأثر الإسلام واضح فيه إلى درجة كبيرة، حتى كان العلماء في جميع مجالات

(١) كالرازي، وابن رشد الحفيد، والفارابي، وابن سينا، وغيرهم من الفلاسفة وعلماء الكلام.

العلم هم أولاً علماء في الدين والفقهاء والحديث، ثم علماء في الطب والفلك والرياضيات وغيرها^(١).

قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ((أُنزِلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلُّ عِلْمٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَدْ بُيِّنَ لَنَا فِي الْقُرْآنِ))^(٢). ويقول محمد السحيم: ((فيه الدعوة إلى توحيد الله، وذكر أسمائه وصفاته وأفعاله، ويدعو إلى صحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، ويقرر المعاد والجزاء والحساب، ويقيم الحجج والبراهين على ذلك، ويذكر أخبار الأمم الماضية وما حل بها من المثالات في الدنيا، وما ينتظرهم من العذاب والنكال في الآخرة، وفيه من الآيات والدلائل والبراهين الشيء الكثير مما يدهش العلماء، ويناسب كل عصر، ويجد فيه العلماء والباحثون ضالتهم))^(٣).

ويقول أيضاً: ((فشمل هذا الدين كل ما يتعلق بالخالق من أسماء الله وصفاته وحقوقه، وكل ما يتعلق بالمخلوق من شرائع وتكاليف وأخلاق وتعامل، وأحاط هذا الدين بخبر الأولين والآخرين، والملائكة والأنبياء والمرسلين، وتحدث عن السماء والأرض والأفلاك والنجوم والبحار والأشجار والكون، وذكر سبب الخلق وغايته ونهايته، وذكر الجنة ومآل المؤمنين، وذكر النار ونهاية الكافرين))^(٤).

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٥٧.

(٢) الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ١٤/٣٣٤.

(٣) السحيم: محمد بن عبد الله، الإسلام أصوله ومبادئه، ١١٧/٢.

(٤) المصدر السابق، ١٤٩/٢.

المطلب الثالث

شهادات وتجارب العلماء الغربيين والشرقيين بتأثير القرآن في المذاهب العلمية والفلسفية

لو رجعنا إلى بعض أقوال العلماء في مختلف العلوم كعلم الأجنة، والتشريح، وعلم الفلك والفضاء، وعلم البحار، وغير ذلك من العلوم، نجد أننا نزداد يقيناً بأن القرآن الكريم لا يكون إلا وحياً من الله، وأنه معجزة النبي الخالدة.

وهذه بعض شهادات وتجارب العلماء في بيان أثر القرآن في العلوم بمختلف أشكالها، فقد أبدى موريس بوكاي إعجابه عندما تبين له التوافق التام بين النص القرآني ومعطيات العلم الحديث، ثم سرعان ما قرر أنه لا داعي للعجب أو الدهشة في هذا ((إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان، فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا)).^(١)

((والبروفيسور كيث مور رئيس قسم الأجنة في جامعة تورنتو بكندا، أعلن إسلامه عندما درس علم الأجنة كما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة، لتطابقه كما ورد بهما مع العلم الحديث وحقائقه في هذا المجال.

والبروفيسور تاجاناتا جوسون، رئيس كلية الطب في تايلاند، بوذي أسلم بعد دراسة المضغة المخلفة وغير المخلفة.

والياباني البروفيسور بوشيكي قال بعد أن درس الآيات التي تتحدث عن خلق الكون: القرآن لا يمكن أن يكون من مصدر بشري، لقد عرفت منهجاً جديداً في دراسة الكون، النظرة الشمولية، لا النظرة الضيقة، القرآن حجة محمد الباقية، التي تقنع المسلمين، وغير المسلمين، وكل الأجيال إلى يوم الدين.

(١) بوكاي: موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٤.

والبروفسور جولي سمس من جامعة نورث وسترن (شيكاغو) تأكّد بنفسه إلى نصوص القرآن والسنة، فيما يتعلّق بالإنسان وخلقة، فقال: بإمكان الإسلام اليوم أن يقود العلم قيادة ناجحة.

والبروفسور هيبه، مختص بعلم البحار، درس ما جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن، فقال: شيءٌ مثيرٌ جداً، إنّها آياتٌ ليس من مصدر بشري، إنّها من الله، إنّهُ من العلم الإلهي.

والدكتور بالمار، مختص بالجيولوجيا، قال: القرآن كتاب عجيب، وأنا لا أعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه النَّاسُ أيّام محمّد، ولكنّه كان متواضعاً، فعلم القرآن نورٌ من العلم الإلهي، أوحى الله به إلى محمّد).^(١)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٥٧.

الفصل الثاني

موقف لوبون من العقيدة الإسلامية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظرة لوبون لعقيدة التوحيد

المبحث الثاني: شبهات لوبون حول الطواف بالكعبة، وتقبيل الحجر الأسود

المبحث الثالث: آراء لوبون في الفرق الإسلامية

المبحث الأول

نظرة لوبون لعقيدة التوحيد

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: مقارنة لوبون بين الإسلام والنصرانية وتناقضاته

المطلب الثاني: نظرة لوبون لعبادات العرب قبل الإسلام وموقف النبي ﷺ منها

المطلب الثالث: مقارنة لوبون للإسلام بالديانات الوثنية

المطلب الرابع: الزعم بأن المدينة مكان حج وزيارة بسبب قبر النبي ﷺ

المطلب الأول

مقارنة لوبون بين الإسلام والنصرانية وتناقضاته في ذلك

يكاد لا يخلو كتاب من كتب المستشرقين إلا وفيه شبهات ومغالطات حول اقتباس القرآن من النصرانية أو اليهودية، وما ذلك إلا لنزع ثوب قداسة الوحي القرآني، وجعل القرآن بشري المنشأ، ولم يسلم غوستاف لوبون من هذه المغالطات والشبه، ومنها ما يلي:

الشبهة: زعم لوبون بأن أصول الإسلام صورة مبسطة من النصرانية.

يتضح ذلك في قوله: «(إذا رجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية، أمكننا عدُّ الإسلام

صورة مبسطة عن النصرانية)»^(١).

الرد على هذه الشبهة:

أولاً: إضافة إلى ما جاء من رد على هذه الشبهة سابقاً^(٢)، فإن جميع الأديان التي أنزلها الله سبحانه في كتبه وبعث بها رسله كانت تدعو إلى أساس واحد وأصل واحد وهو وحدانية الله سبحانه، فهي بهذا الأساس تلتقي مع الإسلام؛ ولكن الأديان السابقة ومنها النصرانية اعتراها التحريف والتشويه والتبديل مما أخرجها عن جوهرها، فكيف يزعم غوستاف لوبون أن أصول القرآن تعتبر صورة مبسطة أو مختصرة من النصرانية؟ ومعلوم أن النصرانية المحرفة خالية من التوحيد، وتعتبر خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية والفلسفة اليونانية والتحريف اليهودي، وتقوم على عقيدة التثليث، وتقديس الرهبان ورجال الكنيسة، والصلب والفداء وتقديس الصليب، والعهد القديم والعهد الجديد... وما إلى ذلك من الأصول الفاسدة التي لا يربطها بالإسلام أو القرآن شيء.

ثانياً: غوستاف لوبون يرد على هذه الشبهة ويتناقض مع نفسه؛ بقوله: «(...ومع ذلك، فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمٌ على كلِّ

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٥.

(٢) جاء الرد بالتفصيل على هذه الشبهة في المبحث الأول من هذا الفصل.

شيء، ولا تحفُّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يُفرض تقديسهم، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أوّل دين أدخل التّوحيد إلى العالم.

وتشتقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التّوحيد المحض، وفي هذه السّهولة سرُّ قوّة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهلاً، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذّوق السّليم من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقلّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إلهٍ واحد، وبمساواة جميع النّاس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنّة من يقوم بها، ويدخل النّار من يُعرض عنها، وإنّك إذا ما اجتمعت بأيّ مسلم من أيّة طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو ذلك على عكس النّصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التّليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل^(١).

وهذا من تناقضات غوستاف لوبون الكثيرة، فأحياناً ينفث من فمه وقلمه سمّاً زعافاً، وأحياناً أخرى تجده يناقض ذلك كله ويظهر بمظهر المنصف القائل بالحقّ المعترف بالفضل لهذا الدين.. فسبحان الله!!

(١) لوبون: غوستاف، المصدر السابق، ص ١٢٥.

المطلب الثاني

نظرة لوبون لعبادات العرب قبل الإسلام وموقف النبي ﷺ منها

امتألت كتب التاريخ وكتب السِّيَر بأخبار العرب قبل الإسلام وبعده، وتناولت هذه الأخبار أحوال العرب من جميع النواحي، وخاصة أحوالهم الدينية، وتناولت كذلك مواقف النبي ﷺ من عبادات العرب قبل مبعثه وبعد مبعثه، ولكن غوستاف لوبون له وجهة نظر مختلفة كعادة إخوانه المستشرقين، ومن شبهه في ذلك؛ ما يلي:

الشبهة: الزعم بأن رسول الله ﷺ لم يَنْفِر من عبادات قومه قبل البعثة، ولم ينكرها.

يتضح ذلك في قوله: «ولم يخبرنا التَّاريخ عن سيرة مُحَمَّد في السنين الخمس عشرة التي انقضت بعد زواجه بخديجة، ويفترض - وإن لم يَقم دليلٌ على ذلك - أنه كان يفكر في أنائها في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه، ولم يَبْد منه في تلك السنين أيُّ نفور من عبادات العرب مع ذلك، كما أنه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عَقَب»^(١).

الرد على الشبهة:

أولاً: تناقض آخر من تناقضات غوستاف لوبون؛ حيث يقول: إن محمداً ﷺ كان يفكر في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه، ثم يقول: إنه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عَقَب.

لو افترضنا جدلاً حدوث هذا الأمر؛ فكيف يتفق دين محمد ﷺ الذي يقوم على التوحيد وإخلاص العبادة لله؛ مع عبادة الأصنام والأوثان والشرك بأنواعه؟!

(١) لوبون: غوستاف، المصدر السابق، ص ١٠٣.

ما الذي يقصده لوبون بقوله: إن محمداً ﷺ كان يفكر في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه؟ هذه من هفوات، وسقطات، وتناقضات، وجهالات غوستاف لوبون الكثيرة، فهل يظن غوستاف لوبون أن أحداً من البشر بيده أن يختار أن يكون نبياً أو رسولاً؟ ألا يعلم غوستاف لوبون أن الله تعالى هو الذي يتولى اختيار الأنبياء والرسل، ويصطفاهم من بين خلقه؟ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] فالرسالة عطية إلهية مجردة، واختيار إلهي صرف، بحيث لا ينفع فيها التمني، ولا تنال بالسعي، والتخطيط، والتفكير، والاكتساب، ولا بالاقتراح والترشيح.

الأنبياء والرسل يختارهم الله لحكمة سامية هو المنفرد بعلمها قبل ظهورها للخلق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهو سبحانه ((لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً)).^(١)

قال السعدي في تفسير هذه الآية؛ أي: ((فيمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه، عند من لا يستأهله، ولا يزكو عنده.

في هذه الآية، دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه، وإن كان تعالى رحيماً واسع الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله)).^(٢)

ثانياً: دلت النصوص الثابتة على أن النبي ﷺ معصومٌ منذ نشأته من الكفر والشرك؛ فلم يعهد عنه ﷺ أنه سجد لصنم، أو استلمه، أو إلى غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلها قومه؛ فقد فطره الله على معرفته والاتجاه إليه وحده وهذا هو المعلوم من سيرته.

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٢٠٧/٧.

(٢) السعدي: عبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٢٧١.

لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي: ظُهُرُهُ - ^(١) فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَفِعٌ اللَّوْنُ قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ). ^(٢)

هذا النص يدل على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وأن جبريل عليه السلام أخرج حظ الشيطان من قلب النبي صلى الله عليه وسلم وغسل قلبه، فلا يقدر الشيطان على إغوائه، إذ لا سبيل له عليه. وهذا دليل على تنزيهه صلى الله عليه وسلم من الشرك منذ صغره.

عن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: (...وَكَانَ صَنَمَانٍ مِنْ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُمَا إِسَافٌ وَنَائِلَةٌ، يَتَمَسَّحُ بِهِمَا الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا، فَطَافَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ تَمَسَّحْتُ بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَمَسَّهُ»، فَطُفْنَا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَمَسَّنَّهُ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَقُولُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلَمْ تُنْه؟» قَالَ زَيْدٌ: فَوَالَّذِي هُوَ أَكْرَمُهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا حَتَّى أَكْرَمَهُ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم بِالَّذِي أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ). ^(٣)

هذا الحديث نص في بعده صلى الله عليه وسلم عن عبادة الأوثان التي كان عليها أهل مكة فنهيه لزيد - الذي كان ابنه بالتبني في ذلك الحين - يؤكد نفرتة صلى الله عليه وسلم من تلك الأوثان التي كان يعكف عليها أهل مكة.

(١) أي: مرضعته، انظر: الزحشري، أبو القاسم محمود، الفائق في غريب الحديث والأثر، ٣/٣٨٤.

(٢) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٤٣١، ١/١٠١.

(٣) أخرجه النسائي: أحمد بن شعيب، السنن (الكبرى)، كتاب المناقب، باب زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه، رقم ٨١٨٨، ٥/٥٤. والحاكم: محمد بن عبدالله، المستدرک، رقم ٤٩٥٦، ٣/٢٣٨. وابن منده: محمد بن إسحاق، كتاب التوحيد، رقم ١٤٨، ١/٣٠٦.

فكيف يقول غوستاف لوبون: إن النَّبِيَّ ﷺ لم يَبْد منه في تلك السنين أيُّ نور من عبادات العرب.

ولقد كان النَّبِيَّ ﷺ لا يحضر مع أهل مكة ما يقيمونه من أعياد لأصنامهم، ولم يكن يحلف بتلك الأصنام، كما كان يفعل قومه تعظيماً لها، والنصوص في مثل هذا كثيرة وقد عني بجمعها أهل السير، والتاريخ، ومن ألف في دلائل النبوة.^(١)

ثالثاً: لقد أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء من الكفر والشرك قبل وبعد النبوة، ونقل الجرجاني هذا الإجماع حيث قال: ((وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها ولا خلاف لأحد منهم في ذلك)).^(٢)

وبهذا يتبين أن النَّبِيَّ ﷺ لم يكن على دين قومه من عبادة الأصنام وتعظيمها، ولم يكن ليرضى بها، وإذا كان الله قد عصم نبيه ﷺ فيما هو دون الشرك من الأمور المنكرة التي كان عليها أهل الجاهلية ففي ذلك دليل على أن عصمته من أمور الشرك من باب أولى.

(١) مثل الحافظ أبي نعيم الأصبهاني فقد عقد فصلاً في كتابه دلائل النبوة بعنوان: "ذكر ما خصه الله ﷺ به من العصمة وحماه من التدين بدين الجاهلية"، ١/١٨٥. وقد أورد تحت هذا العنوان العديد من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن. وكذلك فعل البيهقي في دلائل النبوة أيضاً، فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: "باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله ﷺ في شيبته عن أقدار الجاهلية ومعائبها، لما يريد به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولا"، ٢/٣٠. ومثلها السيوطي في الخصائص الكبرى، حيث قال: "باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عما كان فيه أهل الجاهلية"، ١/١٤٨.

(٢) الجرجاني: علي بن محمد، شرح المواقف، ص ١٣٤.

المطلب الثالث

مقارنة لوبون بالإسلام بالديانات الوثنية

عجيبٌ أمر غوستاف لوبون، يكاد أن لا يستقر على رأي واحد، فتجد له وجهات نظر متباينة، ومتناقضة، وهذا من الاضطراب المنهجي والفكري الذي يُلاحظ على كتاباته، ويظهر ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: تفضيل الديانة الهندوسية الوثنية على الإسلام.

يتضح ذلك في قوله: ((... فإذا كان العرب أفضل من الهندوس علماءً، كما هو واضح، فأئهم دونهم فلسفة وديانة، فليس في عامية القرآن ولاهوتيته الصيبانية - التي هي من صفات الأديان السامية أيضاً - ما يقاس بنظريات الهندوس التي أُتيح لي أن أُبين عمقها العجيب في كتاب آخر)).^(١)

الرد على الشبهة:

كلام غوستاف لوبون هذا فيه من التخبطات والتناقضات الشيء الكثير، فهو القائل: ((... وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أوّل دين أدخل التوحيد إلى العالم. وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوّة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى وبأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقلّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يُعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأيّ مسلم من أيّة طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو ذلك على عكس النصرايين الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما مثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ٥٦٦.

(٢) لوبون: غوستاف، المصدر السابق، ص ١٢٥.

فأين عامية القرآن، ولاهوتيته الصبائية فيما قررت سابقاً، وما المقصود من ذلك؟ ومتى وكيف أصبحت الهندوسية، الوثنية، الخرافية أعمق ديانة من الأديان الإلهية؟ ومتى وكيف أصبحت عبادة البقر وآلاف الآلهة؛ أعمق ديانة من عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الخالق المدبر؟.. (لم نفهم ما يريد (لوبون) من عبارة: عامية القرآن ولاهوتيته الصبائية"، ليته شرح لنا مقاصده، كما أننا لم نفهم العمق العجيب في نظريات الهندوس الدينية).

هل تخلى يا ترى غوستاف لوبون عن ديانته السماوية ذات اللاهوتية الصبائية كما يصفها، فيقول: إن هذه الصفة من صفات الأديان السامية، وديانته -لاشك- ديانة سامية، فلماذا لم يتركها، وتنكر لها وينتقل إلى عبادة قوى الطبيعة، كالشمس والقمر والهواء والعاصفة.. وإلى تقديس البقرة إن كان حقاً ما يقول ويدعي؟

أمّا أن يقارن عالم فيلسوف مؤرخ بهذه البساطة والسذاجة بين دين سماوي له من التشريعات، ما ملأ المكتبات لها شرحاً وتفصيلاً وثناءً واقتباساً.

واعترف خصومها قبل أصدقائها بعظمتها وتقدمها وعدالتها وإنسانيتها، وبين ديانات وثنية لا تمت إلى الفطرة السليمة بصلة، ولا يقبلها منطق أو عقل.

التوحيد الخالص بلا غوامض أو خرافات، أو أسرار أو خزعات، مع تقديس العقل واحترام محاكمته، لا عمق فيه، بل إنه لاهوتية صبائية، وانتساب إلى الجنس السامي المفطور على إدراك الجزئيات وحدها، ومن العبث أن تلتبس عند هذا الجنس آراء علمية أو دروساً فلسفية، أو عمقاً كما هو عند الهندوس الآريين!! وهكذا، فإن تعدد الآلهة، والوثنية، وضبابية الرؤية، وإبعاد العقل، "وأقبل وأنت أعمى، واسمع وأنت أعمى، وأطع وأنت أعمى..."، عمق ولاهوتية ناضجة مكتملة^(١).

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٤٨-١٤٩.

المطلب الرابع

الزعم بأن المدينة أصبحت مكان حج وزيارة بسبب قبر النبي ﷺ

يثبت غوستاف لوبون ما يريد من الأخبار والروايات، ويؤوّل ويدلّس في الروايات التي لا توافق هواه أحياناً، ويستند على الضعيف والمنكر من الروايات، فتجده ينتقي الشبه انتقاءً، ويدسها بين السطور، وهذا يلاحظ كثيراً في كتاباته، ومن هذه الشبه والمغالطات ما يلي:

الشبهة: زعم لوبون أن المدينة صارت بفضل قبر النبي ﷺ مكان حج وزيارة

يتضح ذلك في قوله: ((وصارت المدينة -بفضل قبر الرسول- مكان حج وزيارة

مهمّ مثل مكة تقريباً)).^(١)

الرد على الشبهة:

لو أن غوستاف لوبون يريد الإنصاف والحق، فإن مثل هذه الشبهة لا يمكن أن يقول بها، لأن القرآن الكريم نهى وحذر من هذا الغلو، وكتب السنّة وكتب التاريخ مليئة بالروايات التي حذر فيها النبي ﷺ من اتخاذ قبره عيداً أو مزاراً أو ضريحاً يتقرب إليه من دون الله كما يفعل اليهود والنصارى والجهلة من المسلمين، والآيات في ذلك كثيرة جداً فقد نهى الله سبحانه عن الغلو والإفراط في تعظيم الأنبياء والصالحين، فقال تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّهُمُ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٥﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٨.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة: ٣٠-٣١] والأحاديث في ذلك كثيرة، منها؛ قوله ﷺ: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)،^(١) وقوله ﷺ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ).^(٢) وقوله ﷺ: (لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى).^(٣) وقد حذر النبي ﷺ من الغلو فيه كما يفعل النصارى فقال: (لَا تُظْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ).^(٤)

المشروع في زيارة المسلمين للمدينة النبوية إنما هو بقصد الصلاة في المسجد النبوي وليس القصد منها زيارة قبر النبي ﷺ، ومن أراد زيارة القبر بعد الصلاة فيستحب له ذلك، وليس بواجب عليه.

ما يفعله بعض طوائف المبتدعة وبعض جهال المسلمين من جعل زيارة القبر هي المقصد الأعظم من السفر، فهذا مخالف لشرع الله، ومن البدع التي لا يقرها الإسلام،

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، رقم ١٣٣٠، ١١٨/٢. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم ١٢١٢، ٦٧/٢.

(٢) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم ٢٠٤٢، ٣٨٥/٣. وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ٨٨٠٤، ٤٠٣/١٤. وغيرهما من أصحاب السنن، وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، أحكام الجنائز، ٢١٩/١.

(٣) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم ١١٨٩، ٦٠/٢. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم ٣٤٥٠، ١٢٦/٤.

(٤) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، رقم ٣٤٤٥، ١٦٧/٤.

والآيات والأحاديث السابقة تدل دلالة واضحة على ذلك، ولم يصح حديث في مشروعية السفر بقصد زيارة قبر النبي ﷺ. (١)

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن زيارة قبر النبي ﷺ وهل صحَّ في ذلك شيء من الأحاديث؟ فأجاب: ((الحمد لله رب العالمين، أما زيارة القبور فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان قد نهى عنها نهياً عاماً ثم أذن في ذلك. فقال: (كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَرُورُواهَا. فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ) (٢) وقال ﷺ: (اسْتَأْذَنْتَ رَبِّي فِي أَنْ أُرُورَ قَبْرِ أُمِّي فَأَذَنَ لِي وَاسْتَأْذَنْتَ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فَرُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ). (٣)

هنا مسألتان: إحداهما: متفق عليها والأخرى متنازع فيها؛

فأما الأولى: فإن الزيارة تنقسم إلى قسمين: زيارة شرعية وزيارة بدعية؛ فالزيارة الشرعية: السلام على الميت والدعاء له بمنزلة الصلاة على جنازته، كما ثبت في الصحيح (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إِذَا زَارُوا الْقُبُورَ أَنْ يَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ وَلَا تَقْتِنَا بَعْدَهُمْ وَاعْفُزْ لَنَا وَهُمْ) (٤) وهذا الدعاء يروى بعضه في بعض الأحاديث وهو مروى بعدة ألفاظ، كما رويت

(١) انظر: ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى، ٣٣٣/٢٤-٣٥٦/٢٤-٢٩٣/٢٧. القرعاوي: محمد، الجديد في شرح كتاب التوحيد، ٢٠٥. عثمان: عبدالرؤوف، محبة الرسول بين الاتباع والابتداء، ٢٧٤.

(٢) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٢٣٧. ٣٩٨/٢. وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة، رقم ٨٨٦، ٥٤٥/٢. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، رقم ٢٣٠٥، ٦٥/٣.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، رقم ٢٣٠٤، ٦٥/٣.

(٤) هذا النقل عبارة عن عدة أحاديث متداخلة، بعدة ألفاظ، وردت جميعها في كتب السنة، وقد صححها أهل الحديث.

ألفاظ التشهد وغيره وهذه الزيارة هي التي كان النَّبِيُّ ﷺ يفعلها إذا خرج لزيارة قبور أهل البقيع. وأما الزيارة البدعية: فمن جنس زيارة اليهود والنصارى وأهل البدع الذين يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد وقد استفاض عن النَّبِيِّ ﷺ في الكتب الصحاح وغيرها أنه قال عند موته: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَدِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِرَ قَبْرُهُ وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) ^(١)، وثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ). ^(٢) فالزيارة البدعية مثل قصد قبر بعض الأنبياء والصالحين للصلاة عنده، أو الدعاء عنده، أو به، أو طلب الحوائج منه، أو من الله تعالى عند قبره، أو الاستغاثة به، أو الإقسام على الله تعالى به، ونحو ذلك هو من البدع التي لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا سن ذلك رسول الله ﷺ ولا أحد من خلفائه الراشدين بل قد نهي عن ذلك أئمة المسلمين الكبار... و"الزيارة البدعية" هي من أسباب الشرك بالله تعالى، ودعاء خلقه، وإحداث دين لم يأذن به الله. و"الزيارة الشرعية" هي من جنس الإحسان إلى الميت بالدعاء له كالإحسان إليه بالصلاة عليه، وهي من العبادات لله تعالى التي ينفع الله بها الداعي والمدعو له؛ كالصلاة والسلام على النَّبِيِّ ﷺ وطلب الوسيلة والدعاء لسائر المؤمنين: أحيائهم وأمواتهم...)). ^(٣)

(١) سبق تخريجه، ص ٢٣١.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم ١٢١٦، ٢/٦٧.

(٣) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى، ٣٣٣/٢٤ وما بعدها.

المبحث الثاني

شبهات لوبون حول الطواف بالكعبة، وتقبيل الحجر الأسود

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: زعم لوبون أنه لا فضل لمكة المكرمة بين بقية المدن

المطلب الثاني: نظرة لوبون للكعبة والحجر الأسود، ومغالطاته في ذلك

المطلب الأول

زعم لوبون أنه لا فضل لمكة المكرمة بين بقية المدن

عالم كبير مثل غوستاف لوبون، أَلَّف العشرات من الكتب، ودرس حضارات الشعوب، وكتب في حضارة العرب، بعد ذلك أيعقل أنه لا يعرف فضل مكة عن بقية المدن؟ هل يجهل فضلها ومكانتها أم يتجاهل؟

الشبهة: قَصُرُ فضل مكة على بقية المدن العربيَّة على نظامها الكبير فقط.

يتضح ذلك في قوله: ((ولا تفضل مكة على المدن العربيَّة بغير نظامها الكبير)).^(١)

الرد على الشبهة:

ألا يعلم غوستاف لوبون أن الله ﷻ جعل في مكة أول بيت وضع للناس؟ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] وجعله حرماً آمناً، فقال: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب، فقال سبحانه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] وشرف مقام إبراهيم، بقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وأمر إبراهيم وإسماعيل ((بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر، والمعاصي، ومن الرجس، والنجاسات، والأقذار))^(٢) فقال سبحانه: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وأمر إبراهيم

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥١.

(٢) السعدي: عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٦.

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ [الحج: ٢٧] وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وأما أحب البقاع إلى الله وخيرها، قال النبي ﷺ: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ).^(١) وأما محفوظة بحفظ الله، قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ وَجَّكَ حَبَسَ الْفِيلَ عَنْ مَكَّةَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ، ثُمَّ هِيَ حَرَامٌ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُحْتَلَى شَوْكُهَا، وَلَا يُلْتَقَطُ سَاقِطُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِحَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُقْتَلَ وَإِمَّا أَنْ يَفْدِيَ) فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو شَاهٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اكْتُبُوا لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اَكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ) ثُمَّ قَامَ الْعَبَّاسُ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْحَرَ، فَإِنَّا بَجَعَلُهُ فِي قُبُورِنَا وَفِي بُيُوتِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِلَّا الْإِذْحَرَ).^(٢)

فكل هذه الفضائل التي عرفها الناس منذ القدم، هل غابت عن غوستاف لوبون؟! يقول شوقي أبو خليل: ((عالمٌ كبير، نستغرب أن يقع بهذا الخطأ، والتَّصَوُّرُ الخاطيء لوضع مكة، فلا يرى بأهمها تفضل غيرها من المدن العربيَّة بغير نظامها الكبير، وربما كان سبب ذلك أنه بعيد عن حياة مكة الدنيئة ومكانتها بين العرب حتى قبل الإسلام، فنسي أنها تفضل أئمة

(١) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب المناقب عن رسول الله، باب في فضل مكة، رقم ٣٩٢٥، ٧٢٢/٥. وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب المناسك، باب فضل مكة، رقم ٣٠٩٩، ٢٨٩/٤. والحاكم: محمد بن عبدالله، المستدرک، رقم ٤٢٧٠، ٨/٣. وغيرهم. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، المشكاة، رقم ٢٧٢٥، وصحيح الجامع، رقم ٢٤١٨، ١١٩٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم ١١٢، ٣٣/١. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها ولقطنها، رقم ٣٣٧١، ١١٠/٤.

مدينة أخرى بما عرفته منذ نشأتها من قيام أول بيت وضع للناس لعبادة الله، وقد أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت الله الحرام -الكعبة المشرفة- فبقيت، وما تزال، عبر تاريخها الطويل مركزاً لعبادة الواحد، أي مركزاً للتوحيد، ثم أصبحت قبلة للمسلمين، ومحجاً لهم، إحياءً لعقيدة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وجاء محمد ﷺ ليؤكد هذا المعنى، وهذا الدور العظيم لمكة المكرمة)).^(١)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٦٥.

المطلب الثاني

نظرة لوبون للكعبة والحجر الأسود، ومغالطاته في ذلك

كثيراً ما يشغب أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم على المسلمين في قضية استلام الحجر الأسود وتقبيله، والطواف حول الكعبة ويقولون إن هذا من بقايا الوثنية التي كانت عند العرب قبل الإسلام. ولم يسلم غوستاف لوبون من هذا الشغب، ومن شبهه في ذلك ما يلي:

الشبهة الأولى: تسمية الكعبة معبداً.

يتضح ذلك في قوله: «ويقع المعبد الصَّغِير (الكعبة) في باحة الحرم المكي»^(١).

الرد على الشبهة:

الكعبة بناء من حجر وطنين، وسط المسجد الحرام، وهي قبلة المسلمين والأنبياء أجمعين،^(٢) يتوجّه إليها المسلمون في صلاتهم ودعائهم، ويطوف حولها المسلمون، تعبداً لله وطاعة له سبحانه وامتثالاً لأمره، والمسلمون يعبدون رب الكعبة، وليست الكعبة هي المعبودة؛ ولم يكن تعظيم المسلمين للكعبة تعظيم عبادة، إنما كان تعظيماً لشعائر الإسلام وهي منها، فقد أمر الله نبيه إبراهيم ببناء هذا البيت وتطهيره لعبادته فقال سبحانه: ﴿وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

هذا ولم يُعرف في العرب قط رغم عبادتهم للأصنام أن أحداً منهم عبد الكعبة أو الحجر الأسود، وتعظيم الكعبة من تعظيم شعائر الإسلام ((كتعظيم بيته الحرام بالحج إليه،

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٢.

(٢) تفصيل الكلام حول أن الكعبة قبلة الأنبياء، انظر: السهيلي: أبو القاسم عبدالرحمن، الروض الأنف، ١١٦/٤. وابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، ١٧٠/٤.

وتعظيم شعائر الله من المشاعر والمواقف وغيرها؛ فإن ذلك تعظيم لله ﷻ الذي أمر بذلك؛ لا لتلك البقعة ذاتها)).^(١)

الشبهة الثانية: مغالطات لوبون تجاه الحجر الأسود.

يتضح ذلك في قوله: ((والحجر الأسود الأشهرُ مُدْمَجٌ في أحدِ جُدُرِ الكعبةِ الخارجيةِ، ولا يزيد قطر الحجر الأسود - وهو الذي يقول العرب إن الملائكة أتوا به من الجنة؛ ليكون موطئاً لإبراهيم حين بنائه البيت الحرام - على سبعة قراريط، ولا نعلم شيئاً^(٢) كَرَّمه النَّاسُ زمناً طويلاً كالحجر الأسود، الذي كان موضع احترامٍ وتبجيلٍ قبل ظهور محمد بقرون كثيرة)).^(٣) وقوله: ((... ذلك الحجر الأسود الشهير الذي كان العرب يعتقدون أن ملكاً جاء به من السماء إلى إبراهيم...)).^(٤)

الرد على الشبهة:

أولاً: نعم يعتقد المسلمون أن الحجر الأسود والمقام من أحجار الجنة، فقد جاءت الروايات عن النبي ﷺ بأن الحجر الأسود والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، قال رسول الله ﷺ: (الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَواقِيتِ الْجَنَّةِ وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ طَمَسَ عَلَي نُورَهُمَا لَأَضَاءَتَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ).^(٥)

(١) الحكمي: حافظ، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، ٥١٣/٢.

(٢) جاءت الترجمة في بعض الطبقات بلفظ (نُصْباً). انظر: طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. ترجمة: عادل زعيتر.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١١١.

(٥) أخرجه ابن خزيمة: الصحيح، كتاب المناسك، باب صفة الركن والمقام وبيان أنهما ياقوتتان، رقم ٢٧٣١، ١٢٩٢/٢. والبستي: محمد بن حبان، الصحيح، كتاب فضل مكة، باب ذكر البيان بأن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، رقم ٣٧١٠، ٢٤/٩. وغيرهما من أهل السنن. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع، رقم ٣٥٥٩، ٦٦٥/١.

وقال ﷺ أيضاً: (نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ) (١).

أما الحجر الذي كان موطناً لإبراهيم عليه السلام فليس هو الحجر الأسود كما يظن لوبون، وإنما هو مقام إبراهيم.

ثانياً: كثيراً ما يشغب أعداء الإسلام على المسلمين في قضية استلام الحجر الأسود وتقبيله، ويقولون إن هذا من بقايا الوثنية التي كانت عند العرب قبل الإسلام، ويُرد عليهم بقول عمر رضي الله عنه حين قبل الحجر الأسود؛ فقال: (إِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، مَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ، مَا قَبَّلْتُكَ) (٢) ((ولو كان في استلام الحجر وتقبيله مظاهرة الوثنيين لم يشرع الله ورسوله ما يوهم الناس ويوقعهم في مظاهرة الوثنية، بل قد بين لهم ما يتقون)). (٣)

ثالثاً: تقبيل الحجر الأسود واستلامه إنما هو من تعظيم شعائر الله التي أمرنا الله سبحانه بتعظيمها طاعة له وامثالاً لأمره، ((وإذا كان رسول الله ﷺ قد قبله واستلمه، وعمل بذلك الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا، كان الواجب على المسلم أن يؤمن بما شرعه الله ورسوله، ويعمل به سواء عرف الحكمة في ذلك أو لم يعرفها.

(١) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ٣٥٣٧، ٤٧٢/٥. والترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب أبواب الحج، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام، رقم ٨٧٧، ٢١٧/٣. وغيرهما من أهل السنن، وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٢٦١٨، ١٢٠/٦.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، رقم ١٥٩٧، ١٤٩/٢. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، رقم ٣١٢٨، ٦٦/٤.

(٣) النجدي: سليمان بن سحمان، إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل، ص ٢٢.

من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن رسول الله ﷺ كان أحرص الناس على هداية الخلق، وتحذيرهم، وإبعادهم عما يوقعهم في الشرك ومظاهرة الوثنيين حتى في الألفاظ، وكذلك الصحابة بعده ﷺ فلو كان في استلام الحجر وتقبيله ما يوقع أو يقارب مظاهرة الوثنيين لنهى عن ذلك، ولين للناس ما يتقون، فكان هذا من نتائج أوضاع الزنادقة، الذين يصدّون عن سبيل الله من آمن به ويغونها عوجاً، ويسعون في الأرض فساداً والله لا يجب (المفسدين)).^(١)

ونقل العيني في شرحه لحديث عمر ﷺ السابق كلام العلماء في بيان مراد عمر ﷺ عند استلامه وتقبيله للحجر؛ فقال: ((تكلم الشارحون في مراد عمر ﷺ بهذا الكلام، فقال محمد بن جرير الطبري: إنما قال ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر ﷺ أن يظن الجهال بأن استلام الحجر، هو مثل ما كانت العرب تفعله، فأراد عمر ﷺ أن يُعلم أن استلامه لا يقصد به إلا تعظيم الله ﷻ والوقوف عند أمر نبيه ﷺ وأن ذلك من شعائر الحج التي أمر الله بتعظيمها، وأن استلامه مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم الأصنام، لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقرهم إلى الله زلفى، فنبه عمر على مخالفة هذا الاعتقاد، وأنه لا ينبغي أن يُعبد إلا من يملك الضر والنفع، وهو الله ﷻ، وقال المحب الطبري: إن قول عمر لذلك طلب منه للآثار وبحث عنها وعن معانيها. قال: ولما رأى أن الحجر يُستلم ولا يُعلم له سبب يظهر للحس، ولا من جهة العقل، ترك فيه الرأي والقياس، وصار إلى محض الاتباع، كما صنع في الرمل. وقال الخطابي: في حديث عمر من الفقه أن متابعة النبي ﷺ واجبة وإن لم يوقف فيها على علل معلومة وأسباب معقولة، وأن أعيانها حجة على من بلغته وإن لم يفقه معانيها، ومن المعلوم أن تقبيل الحجر إكرام وإعظام لحقه. قال: وفضل الله بعض الأحجار على بعض، كما فضل بعض البقاع على بعض، وبعض الليالي والأيام على بعض. وقال النووي: الحكمة في كون الركن الذي فيه الحجر الأسود يجمع فيه بين التقبيل والاستلام، كونه على قواعد إبراهيم، وفيه الحجر الأسود، وأن الركن اليماني اقتصر فيه على الاستلام لكونه على قواعد إبراهيم ولم يقبل، وإن الركنين الغربيين لا يقبلان ولا يستلمان لفقد الأمرين المذكورين فيهما)).^(٢)

(١) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٢) العيني: بدر الدين محمود، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٥٤/٩.

الشُّبهة الثالثة: زعمه أنَّ اليهود كانوا شديديَّ التعظيم للكعبة.

يتضح ذلك في قوله: ((وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيين الكعبة التي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضاً)).^(١)

الرد على الشبهة:

لم يرد في كتب التاريخ أبداً ما يفيد أن اليهود كانوا يعظمون الكعبة، ولم تربط اليهود على مر التاريخ صلة بالكعبة، بل إن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة جاء مخالفة لهم ((فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة، فإن الكافر إذا اتبع في شيء من أمره كان له من الحجّة مثل ما كان أو قريب مما كان لليهود من الحجّة في القبلة)).^(٢) وقد كانوا يعلمون بما تقرر عندهم في كتبهم أن القبلة ستُحول من بيت المقدس إلى الكعبة، ولكنهم عاندوا وكابروا، قال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٥].

يقول ابن كثير: ((اليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرفكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٩٩.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، اقتضاء الصراط في مخالفة أصحاب الجحيم، ١/١٥.

(٣) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ١/٤٦١. وانظر تفصيل هذه المسألة عند فخرالدين الرازي: أبو عبد الله محمد، مفاتيح الغيب، ٤/٩٤.

المبحث الثالث آراء لوبون في الفرق الإسلامية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مقارنة لوبون أهل السنة بالشيعة

المطلب الثاني: اتهام لوبون الإسلام بالجبرية

المطلب الثالث: جعل لوبون الوهابية فرقة ليست من أهل السنة

المطلب الأول

مقارنة لوبون أهل السنة بالشيعة

أهل السنة هي الفرقة التي تمثل الإسلام الحق، وأي فرقة خرجت عن منهج أهل السنة فهي من الفرق الضالة المضلة التي أخبر عنها النبي ﷺ وعلى رأسهم الشيعة الروافض، والكثير من المستشرقين يعدّون أهل السنة فرقة من الفرق الإسلامية، وهذا من مغالطاتهم الشائعة، وذهب غوستاف لوبون إلى ذلك أيضاً، ويتضح ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: زعمه أن فرقة أهل السنة وفرقة الشيعة من أقدم الفرق، وأن الخلاف بينهما يقتصر على أحقية الخلافة بعد النبي ﷺ لأبي بكر أم لعلي رضي الله عنهما.

يتضح ذلك في قوله: ((وفرقة أهل السنة وفرقة الشيعة أقدم الفرق الإسلامية وأهمها، فأما الشيعة فيزعمون أن الخلافة لصهر النبي عليّ ويحترمون عليّاً كاحترامهم لمحمد تقريباً، وأما أهل السنة فيرون خلافة الخلفاء صحيحة وفق ترتيبهم، ويمثّل أهل السنة الفريق الصحيح)).^(١)

الرد على الشبهة:

أولاً: لكي يتضح الفرق بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة (الروافض)؛ لا بد من التعريف بأهل السنة والجماعة.

أهل الشيء: هم أخص الناس به، يقال في اللغة: وأهل الرجل: أخص الناس به، وأهل البيت: سكّانه، وأهل الإسلام: من يدين به، وأهل المذهب من يدين به.^(٢)

السنة لغة: الطريقة والسيرة.^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤١٨.

(٢) ابن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، مادة: [أهل]، ١/١٥٠. وابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: [أهل]، ١١/٢٩.

(٣) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: [سنن]، ١٣/٢٢٥.

السنة اصطلاحاً: الهدي الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، علماء واعتقاداً وقولاً وعملاً، وهي السنّة التي يجب اتباعها، ويحمد أهلها، ويُذم من خالفها.^(١)

وتُطلق السنّة على سنن العبادات والاعتقادات، كما تطلق على ما يُقابل البدعة.^(٢) فمعنى أهل السنة أي: أخص الناس بها وأكثرهم تمسكاً بها واتباعاً لها قولاً وعملاً واعتقاداً.

الجماعة لغة: من الاجتماع، وهو ضد التفرق، والجماعة هم القوم الذين اجتمعوا على أمر ما.^(٣)

الجماعة في الاصطلاح: هم سلف الأمة، من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين اجتمعوا على الكتاب والسنة وعلى أئمتهم، والذين ساروا على ما سار عليه النبي ﷺ، وأصحابه والتابعون لهم بإحسان.^(٤)

فأهل السنّة والجماعة: ((هم المستمسكون بسنة رسول الله ﷺ الذين اجتمعوا على ذلك، وهم الصحابة والتابعون، وأئمة الهدى المتبعون لهم، ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد والقول والعمل إلى يوم الدين، الذين استقاموا على الاتباع، وجانبوا الابتداع في أي مكان وزمان، وهم باقون منصورون إلى يوم القيامة.

فأهل السنة والجماعة هم المتصفون باتباع السنة ومجانبة محدثات الأمور والبدع في الدين. ولا يُقصد بالجماعة هنا مجموع الناس وعامتهم، ولا أغلبهم ولا سوادهم ما لم يجتمعوا على الحق، لأن النبي ﷺ ذكر أن الطائفة المنصورة (أهل السنة والجماعة) فرقة واحدة من

(١) انظر: ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الوصية الكبرى في عقيدة أهل السنة والجماعة، ص ١٨. هراس: محمد خليل، شرح العقيدة الواسطية، ص ١٦.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٧٧.

(٣) ابن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، مادة: [جمع]، ٤٧٩/١. وابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: [جمع]، ٥٣/٨.

(٤) انظر: الشاطبي: إبراهيم بن موسى، الاعتصام، ٢٨/١. هراس: محمد خليل، شرح العقيدة الواسطية، ص ١٦. وله أيضاً: شرح العقيدة الطحاوية، ص ٣٣.

ثلاث وسبعين فرقة، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اِفْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ، وَتَفَرَّقَ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً) ^(١) ((٢))

ولفظ (أهل السنة) أصبح مصطلحاً يطلق ويراد به أحد معنيين:

المعنى الأول: معنى عام يدخل فيه جميع المنتسبين إلى الإسلام عدا الرافضة؛ فيقال:

هذا رافضي، وهذا سني، وهذا هو اصطلاح العامة؛ لأن الرافضة هم المشهورون عندهم بمخالفة السنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السنّي إلا الرافضي؛ فإذا قال أحدهم: أنا سنّي فإنما؛ معناه: لست رافضياً. ^(٣)

وقد ورد عن بعض السلف ما يشير إلى هذا المعنى فقد قيل لسفيان الثوري: ((يا أبا عبد الله! وما موافقة السنة؟ قال: تقدمة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما)) ^(٤)، فالسني عنده من قدّمهما على غيرهما في الخلافة والفضل، ومن لم يقدمهما فليس بسني، ولم يؤخرهما عن مرتبتهما إلا الرافضة.

المعنى الثاني: معنى أضيق من المعنى العام، ويراد به أهل السنة المحضة

الخالصة من البدع، ويخرج به سائر أهل الأهواء والبدع، كالخوارج والجهمية والمرجئة، والشيعية وغيرهم من أهل البدع.

(١) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم ٤٥٩٦، ٥/٧. وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم ٣٩٩١، ٥/١٢٨. والترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب الإيمان، باب افتراق هذه الأمة، رقم ٢٦٤٠، ٥/٢٥. وقال: "حديث حسن صحيح". وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠٣، ٤٠٢/١.

(٢) العقل: ناصر، مباحث في العقيدة، ص ٩.

(٣) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الفتاوى، ٣/٣٥٦.

(٤) اللالكائي: هبة الله، ١/١٥٢.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية معنى لفظ "أهل السنة" فقال: ((لفظ "أهل السنة" يراد به من أثبت خلافة الثلاثة، فدخل في ذلك -أي: في لفظ أهل السنة- جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به: أهل الحديث والسنة المحضة؛ فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول: القرآن غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث والسنة)).^(١)

يتضح مما سبق أن أهل السنة هي الفرقة التي تمثل الإسلام الحق، وأي فرقة خرجت عن منهج أهل السنة فهي من الفرق الضالة المضلة التي أخبر عنها النبي ﷺ وعلى رأسهم الشيعة الروافض.

ثانياً: ذكر لوبون أن الفرق بين أهل السنة والشيعة يقتصر على مسألة تقديم أي بكر وعمر على علي ﷺ أو العكس؛ لكن هذا التفريق وإن كان هو أصل الخلاف بين أهل السنة والروافض إلا أن هناك مسائل عقدية كثيرة ضلّت فيها الرافضة وخالفت فيها منهج أهل السنة والجماعة، من أهمها؛^(٢)

- ١- القول بوجوب إمامة علي ﷺ، وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة ﷺ وأن الرسول ﷺ نص على إمامته.
- ٢- القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبراء والصغائر.
- ٣- القول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً؛ أي: تولي علي ﷺ والتبري من أصحاب رسول الله ﷺ ولا سيما الخلفاء الثلاثة ﷺ.

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، منهاج السنة النبوية، ٢/٢٢١.

(٢) الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، ١/١٤٦.

المطلب الثاني

اتهام لوبون الإسلام بالجبرية

تخبَّط غوستاف لوبون كثيراً في هذه المسألة واتهم الإسلام بالجبرية، ولعله وكعادة المستشرقين ينقل من كتب أهل البدع والضلال، ويبرز شبهات الفرق الضالة وكأنها هي التي تمثل الإسلام، وهذا ديدن المستشرقين وأعداء الإسلام قديماً وحديثاً، ومن شبه غوستاف لوبون في هذه المسألة؛ ما يلي:

الشبهة: زعمه أن الإسلام يُوصم بالجبرية وأن جميع كتب الأديان الأخرى مفعمة بالجبرية، وتناقضه في ذلك.

يتضح ذلك في قوله: «لم أجد في القرآن ما يُعاب به الشرقيون، وما يُمكن أن يعاب به - كذلك - كثير من العلماء المعاصرين من الجبرية المزعومة، فيجوز أن يُعدَّ به محمدٌ أكثرَ جبريةً مما في التوراة، وإليك مع ذلك ما استطعت أن أجده جوهرياً في القرآن حول هذه المسألة»^(١).

ثم استدل ببعض الآيات من القرآن الكريم...

ويقول مؤكداً جبرية الإسلام والأديان الأخرى: «وليس فيما يُوصم به الإسلام من الجبرية ما يزيد خطراً على ما ردّدنا عليه، وليس في آي القرآن التي ذكرناها أنفاً من الجبرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلاً... وكُتِب جميع الأمم الدينية مفعمةً بالجبرية التي يسميها القدماء بالقدر، ووضع القدماء القدر الذي لا رادَّ لحكمه على رأس كلِّ أمر، عادّين إياه سلطةً مطلقة لا مناص للناس والآلهة من إطاعتها»^(٢).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٩.

وهنا يؤكد أن النبي ﷺ كان جبرياً، ولكنه أقل جبرية من الأنبياء قبله، وأقل جبرية من علماء الحاضر: «ولم يكن محمّد، إذن جبرياً، أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا قبله، ولم يسبق محمد في جبريته علماء الوقت الحاضر...»^(١).

الرد على الشبهة:

سأبين وسطية أهل السنة في هذا الباب كونهم يمثلون الإسلام الحق، وذلك بإبراز جوانب وسطية أهل السنة بمقابلة ومقارنة قولهم بأقوال كل من الطائفتين (الجبرية والقدرية)؛ وذلك في بعض أمهات مسائل هذا الباب.

وقبل ذلك سأبين أركان القدر أو مراتبه الأربع، التي لا يعد المرء مؤمناً بالقدر حقاً؛ إلا إذا حقق الأيمان بها جميعاً وهي:

١- علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها.

٢- كتابته لها بعد علمه بها.

٣- مشيئته وإرادته لها أنها لا تقع إلا بمشيئته وإرادته.

٤- خلقه لجميع الأعمال وتكوينه وإيجاده لها، وأن كل ما سواه مخلوق.

فأما العلم والكتابة؛ فلم ينازع فيهما إلا غلاة القدرية، الذين يقولون بنفي العلم، وقد انقرض هذا الصنف.^(٢)

وأما القدرية الذين جاءوا بعدهم، وهم المعتزلة، فلم ينازعوا في العلم والكتابة، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: «فغلاتهم أنكروا العلم والكتابة، ومقتصدتهم، أنكروا عموم مشيئة الله وخلقته وقدرته وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم».^(٣)

(١) المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٢) انظر: ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، التدمرية، ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

وإنما حصل النزاع والتفرق والاختلاف والضلال، في مرتبتي (خلق أفعال العباد) وكونها تقع بمشيئته وإرادته، وفي ما تفرع عنهما، وتعلق بهما من مسائل.

ولذلك سوف أقصر حديثي عن وسطية أهل السنة في هذا الباب، على هاتين المرتبتين لأهميتهما.

أولاً: وسطيتهم في خلق أفعال العباد

هذه المسألة من أهم وأخطر مسائل القدر، ولقد زلت فيها أقدام، وحاترت عقول وأفهام؛ فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله ﷻ مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا في ذلك إلى طرفين ووسط:

الطرف الأول (الجبرية):

سموا بذلك نسبة إلى الجبر لقولهم به في باب القدر.

والجبر هو: ((إسناد فعل العبد إلى الله)).^(١) وعرفه الشهرستاني بأنه: ((نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى)).^(٢)

والجبرية صنفان: (جبرية متوسطة) و(جبرية خالصة).

فأما الجبرية الخالصة: فلا تثبت للعبد قدرة على الفعل أصلاً^(٣)، وهؤلاء هم الجهمية أتباع جهم بن صفوان الذي كان يقول: ((إنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه)).^(٤)

(١) الجرجاني: علي بن محمد، التعريفات، ص ٧٤.

(٢) الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، ١/٨٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤) الأشعري: أبو الحسن، مقالات الإسلاميين، ص ٢٧٩.

ويرى جهم: ((أن الإنسان لا يقدر على شيء. ولا يوصف بالاستطاعة؛ وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار؛ وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات))^(١)، وعنده أن الفاعل حقاً هو الله، ومن سواه ليس بفاعل على الحقيقة.^(٢)

فهذا قول الجبرية الخالصة، وهو صريح في نفي قدرة العبد على فعله، وأن الفاعل هو الله وحده.

وأما الجبرية المتوسطة: فهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة.^(٣)

والأشعرية من هذا الصنف، وإذا رجعنا لمصادر الأشاعرة لتبين حقيقة قولهم في أفعال العباد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((فإن الأشعرية وبعض المثبتين للقدر وافقوا الجهم بن صفوان في أصل قوله في الجبر، وإن نازعوه في بعض ذلك نزاعاً لفظياً أتوا بما لا يعقل، وبالغوا في مخالفة المعتزلة في مسائل القدر حتى نسبوا إلى الجبر)).^(٤)

الطرف الثاني (القدرية):

غلاة القدرية الأوائل انقضوا، والمعتزلة تبنت القول بنفي القدر، وجعلته أحد أصول مذهبها؛ فعرفوا لأجل ذلك بالقدرية. وكان قولهم في أفعال العباد أنها غير مخلوقة لله ﷻ، وأنهم هم المحدثون لها من دونه.

يقول القاضي عبد الجبار -وهو من أئمة القدرية-: ((اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم، وقيامهم وقعودهم، حادثة من جهتهم، وأن الله ﷻ أقدرهم على

(١) الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، ١/٨٧.

(٢) ابن القيم: محمد بن أبي بكر، شفاء العليل، ص ٥١.

(٣) الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، ١/٨٥.

(٤) ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، منهاج السنة، ١/٤٦٣.

ذلك، ولا فاعل لها، ولا محدث سواهم، وأن من قال: إن الله سبحانه خالقها ومحدثها؛ فقد عظم خطؤه)).^(١)

الواسطة بين الطرفين (أهل السنة):

وقولهم في أفعال العباد هو:

- أنها مخلوقة لله ﷻ على الحقيقة.

- وهي فعل للعباد على الحقيقة.

- وأنهم قادرون على أفعالهم بقدره حقيقة مؤثرة في وقع الفعل منهم، والله هو الذي أقدرهم على ذلك.

هذا مجمل قول أهل السنة في هذه المسألة، الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، كما يتضح ذلك من خلال النقول التالية عنهم:

يقول الإمام الصابوني رَحِمَهُ اللهُ: ((ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد إنها مخلوقة لله تعالى، لا يمترون فيه، ولا يعدُّون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه)).^(٢)

وعقد الإمام اللالكائي رَحِمَهُ اللهُ باباً في سياق ما فسر من الآيات في كتاب الله ﷻ، وما روي من سنة رسول الله ﷺ في إثبات القدر، وما نقل من إجماع الصحابة والتابعين والخالفين لهم من علماء الأمة: إن أفعال العباد كلها مخلوقة لله ﷻ طاعاتها ومعاصيها.^(٣)

(١) القاضي: عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ٣/٨.

(٢) الصابوني: أبو عثمان، عقيدة السلف وأصحاب الحديث، ص ٧٥.

(٣) اللالكائي: هبة الله، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ٥٣٤/٣.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ((وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون: إن فعل العبد فعل له حقيقة؛ ولكنه مخلوق لله ومفعول لله، لا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول)).^(١)

وقال في موضع آخر: ((وأما سائر أهل السنة فيقولون: إن أفعال العباد فعل لهم حقيقة. ويقول جمهورهم الذين يفرقون بين الخلق والمخلوق: أنها مخلوقة لله ومفعولة له، ليست هي نفس فعله وخلقته الذي هو صفته القائمة به)).^(٢)

ويقول شارح "الطحاوية" بعد أن ذكر قول الجبرية والقدرية في ذلك: ((وقال أهل الحق: أفعال العباد بما صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق رَحِمَهُ اللهُ منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه)).^(٣)

فمن خلال هذا العرض لأقوال الجبرية، والقدرية، وأهل السنة، نرى أن أهل السنة جمعوا ما في قول الطائفتين من حق فقالوا به، ولم يوافقوا أيّاً منهما فيما عندهما من خطأ.

فالجبرية: محقون في قولهم: إن الله خالق أفعال العباد، ومخطئون في قولهم: إن العبد ليس بفاعل لأفعاله في الحقيقة؛ وإنما الفاعل هو الله.

والقدرية: محقون في: إثباتهم قدرة العبد على أفعاله، وفعله لها ومسئوليته عنها. ومخطئون في قولهم: إن العبد خالق أفعاله، وأن الله ليس بخالق لأفعال العبيد، فأثبتوا خالقين مع الله.

وأهل السنة: قالوا بما مع الطائفتين من حق فقالوا: الله خالق أفعال العباد على الحقيقة؛ لأن العباد خلق له، وأفعال المخلوقين مخلوقة، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، منهاج السنة، ٢/٢٩٨.

(٢) المصدر السابق، ١/٤٥٩.

(٣) الحنفي: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٩١.

تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ [الصفات: ٩٦]، وقول النَّبِيِّ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتِهِ) ^(١)، وقالوا: العبد فاعل لفعله حقيقة، وقادر عليه بإقدار الله له عليه، والله أثبت للعبيد فعلاً فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] ونحو ذلك، وردوا ما مع الطائفتين من باطل، فلم ينفوا فعل العبد أصلاً كما قالت الجبرية، ولم يجعلوا العباد خالقين لأفعالهم من دون الله ﷻ، كما قالت القدرية.

فإذا ضمنت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى؛ فإنما يدل على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال. وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم.

وهذا ما فعله أهل السنة؛ فكانوا بذلك وسطاً بين الطائفتين، وجاء قولهم هدى بين الضاللتين، ضلالة الجبر المفضي إلى تعطيل الأمر والنهي، وإبطال الثواب والعقاب، وضلالة نفي القدر الذي حاصله وجود خالقين من دون الله وتجويز أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا يريد.

وبهذا يتضح لغوستاف لوبون وكل من أراد تشويه الإسلام الحق، أن ليس في الإسلام جبرية؛ وعليه فمن يريد أن يكتب عن الإسلام الصحيح فعليه أن يرجع إلى مصادر المسلمين الذين يطبقون الإسلام كما جاء به محمد ﷺ وعلى ضوء فهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، خلق أفعال العباد، ص ٧٣.

المطلب الثالث

نظرة لوبون لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب

شاعت الكثير من المفتريات والأكاذيب والشبهات حول دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ وَأَتْبَاعُهَا وَعُلَمَائُهَا ودولتها (الدولة السعودية)، وأسهم في ترويجها الحاسدون والمنائون والكائدون وربما صدقها الجاهلون بحقائق الأمور. ومن شبهات غوستاف لوبون في ذلك؛ ما يلي:

الشبهة: جعل لوبون (الوهابية) فرقة تختلف عن أهل السنة.

يتضح ذلك في قوله: «وإذا ما استثنينا تينك الفرقتين^(١) رأينا فرقا ثانوية في الإسلام، وأهمها الوهابية التي ظهرت منذ قرن فأقامت دولة قوية في وسط جزيرة العرب، وتزعم الوهابية أنها تعيد إلى الإسلام صفاءه القديم، والوهابيون بروتستان الإسلام في الحقيقة... والفرس من الشيعة، والعرب والترك من أهل السنة، وأهل نجد من الوهابيين»^(٢).

الرد على الشبهة:

(الوهابية) كما يسميها غوستاف لوبون وغيره من المفترين على هذه الدعوة هي تلك الدعوة الإصلاحية المباركة، ودعوة التوحيد والسنة، التي قام بها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وأيدها الأمير الصالح محمد بن سعود رَحِمَهُ اللهُ التي ظهرت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري في قلب نجد، ثم سائر جزيرة العرب، ثم امتدت آثارها الطيبة إلى كل أقطار العالم الإسلامي، بل إلى كل أرجاء المعمورة. ولا تزال بحمد الله كذلك.

(١) يقصد فرقة أهل السنة وفرقة الشيعة.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤١٩.

((ومن الحقائق الثابتة الجليّة أن هذه الدعوة الإصلاحية إنما هي امتداد للمنهج الذي كان عليه السلف الصالح أهل السنة والجماعة على امتداد التاريخ الإسلامي، وهو منهج الإسلام الحق الذي كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام والتابعون وأئمة الدين من الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل الحديث والفقهاء وغيرهم.

إذن فهذه الحركة المباركة لم تكن إلا معبرة عن الإسلام نفسه، مستهدفة إحياء ما اعترى تطبيقه من قبل كثير من المسلمين من غشاوة وجهل وإعراض وبدع.

وحيث قد اشتهرت عند غير أهلها، وعند الجاهلين بحقيقتها باسم (الوهابية) فإن هذا الوصف انطلق أولاً من الخصوم، وكانوا يطلقونه على سبيل التنفير واللمز والتعيير، ويزعمون أنه مذهب مبتدع في الإسلام، أو مذهب خامس. وهذا ظلم)).^(١)

فهي ليست فرقة أو مذهب - كما يزعم لوبون - أو أنها مقتصرة على جماعة معينة أو منطقة ما، بل هي دعوة الإسلام الحق، وقد تقبلها المسلمون في جميع أنحاء العالم.

((وقد شاعت الكثير من المفتريات والأكاذيب حول هذه الدعوة وأتباعها وعلمائها ودولتها (الدولة السعودية)، وأسهم في ترويجها الحاسدون والمناوئون والكائدون وربما صدقها الجاهلون بحقائق الأمور.

وإن الباحث في حقيقة هذه الدعوة ومفتريات خصومها، وتحفظات بعض ناقدتها، والكم الهائل مما قيل في ذلك وكتب، وما حشي في أذهان الناس تجاهها من تنفير وتضليل؛ سيصاب بالذهول والحيرة - لأول وهلة.

(١) العقل: ناصر، إسلامية لا وهابية، ص ٥.

لكن ما إن يلج المنصف في عمق القضية فسيجد الأمر أيسر وأبين مما يتصوره، وحين يتجرد من الهوى والعصبية ستتكشف له الحقيقة، وهي: أن هذه الدعوة الإصلاحية الكبرى، إنما تمثل الإسلام الحق، ومنهاج النبوة، وسبيل المؤمنين والسلف الصالح في الجملة.

كما سيظهر له جلياً أن ما يثار حولها وضدها من الشبهات، إنما هو من قبيل الشائعات والمفتريات، والأوهام والخيالات، والبهتان. ومن الزبد الذي يذهب جفاء عند التحاكم إلى القرآن والسنة، والأصول العلمية المعتبرة، والنظر العقلي السليم.

وما أظن حركة من الحركات الإصلاحية واجهت من التحديات، والظلم والبهتان، كما واجهت هذه الدعوة، ومع ذلك علت وانتصرت وآتت ثمارها الطيبة - ولا تزال بحمد الله - في كل مكان.

وما ذلك إلا لأنها قامت على ثوابت الدين الحق (الإسلام) لكن هذه الحقيقة خفيت على كثير من الناس^(١).

(١) العقل: ناصر، إسلامية لا وهابية، ص ٥.

الفصل الثالث

آراء لوبون في التشريعات والنظم الإسلامية والمذاهب الفقهية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: آراء لوبون تجاه بعض الشعائر الإسلامية

المبحث الثاني: آراء لوبون تجاه النظام الاجتماعي والسياسي في الإسلام

المبحث الثالث: موقف لوبون من المذاهب الأربعة

المبحث الأول

آراء لوبون تجاه بعض الشعائر الإسلامية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: آراء لوبون حول صلاحية الشريعة الإسلامية لكل الأزمنة

المطلب الثاني: اعتقاد لوبون أن الشريعة جاءت لتلائم مشاعر العرب، وتوافق عاداتهم

المطلب الأول

آراء لوبون حول صلاحية الشريعة الإسلامية لكل الأزمنة

الشريعة الإسلامية وبشهادة كل من عرفها هي شريعة شاملة لكل جوانب الحياة، ومتكاملة، ومترابطة، وسهلة التطبيق، وواضحة الغاية، وصالحة لكل زمان ومكان، ولكن غوستاف لوبون يرى خلاف ذلك، ويزعم أنها أصبحت ثقلاً على معتنقيها، ويتضح ذلك من خلال شبهته التالية:

الشبهة: الرَّعْمُ بَأَنَّ نَظْمَ الْإِسْلَامِ كَانَتْ مَلَائِمَةً لِحَاجَاتِ الْأُمَّةِ فِي الْقَدِيمِ، ثُمَّ صَارَتْ فِيمَا بَعْدَ ثِقَلًا لَا يُمْكِنُ زَحْزَحَتَهُ.

يتضح ذلك في قوله: ((نيرُ هذه الشريعة الحازم ظلّ طيباً ما بقيت نُظْمُ النَّبِيِّ مَلَائِمَةً لِحَاجَاتِ أُمَّتِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ تَعْدِيلُ تِلْكَ النُّظْمِ ضَرْبَةً لِأَزْبٍ بِسَبَبِ مَبْتَكِرَاتِ حَضَارَةِ الْعَرَبِ، كَانَ نِيرُ التَّقَالِيدِ مِنَ الثَّقَلِ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ زَحْزَحَتَهُ)).^(١)

الرد على الشبهة:

لم تكن الشريعة الإسلامية يوماً ثقلاً على معتنقيها لأنها جاءت بالعدل والمساواة والتسامح والإخاء والصدق وكل المعاني السامية للبشرية، وجاءت للمحافظة على الضروريات الخمس (الدين والنفس والمال والنسل والعرض) وضبط حقوقها، والأخذ على يد من ينتهك شيئاً منها، وقد قال النبي ﷺ في مجمع عظيم من أعظم مجامع المسلمين: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦٠٨.

لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ).^(١) فكيف تكون بذلك ثقلاً لا يمكن زحزحته؟ ومن قال من المسلمين إن الشريعة الإسلامية أصبحت ثقلاً عليه؟

ولكن هذا إسقاط من إسقاطات الغربيين، فإذا كانت الكنيسة ودينها المحرف ثقلاً على أتباعها، وكانت تعاليمها المحرفة تعارض مبتكرات الحضارة وتتصادم مع العلم والتطور؛ فإن الدين الإسلامي يختلف؛ لأنه دين إلهي جاء لتحقيق مصالح البشرية والدينية.

((وهذه الشريعة المعصومة ليست تكاليفها موضوعة حيثما اتفق؛ مجرد إدخال الناس تحت سلطة الدين، بل وُضعت لتحقيق مقاصد الشارع في قيام مصالحهم في الدين والدنيا معاً، وروعي في كل حكم منها:

إما حفظ شيء من الضروريات الخمس (الدِّينُ، والنفْس، والعقل، والنسل، والمال) التي هي أسس العمران المرعية في كل ملة، والتي لولاها لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، ولفاتت النجاة في الآخرة.

وإما حفظ شيء من الحاجيات؛ كأنواع المعاملات، التي لولا ورودها على الضروريات لوقع الناس في الضيق والحرج.

وإما حفظ شيء من التحسينات، التي ترجع إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

وإما تكميل نوع من الأنواع الثلاثة بما يُعين على تحقيقه)).^(٢)

ودين الله لم يكن يوماً ثقلاً على معتنقيه لأنه جاء موافقاً للفطرة؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] أما الأديان المحرفة والعقائد الوثنية التي تقوم

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم ٤٤٠٦، ١٧٧/٥. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم ٤٤٧٨، ١٠٨/٥.

(٢) الشاطبي: إبراهيم بن موسى، الموافقات، مقدمة المحقق، ٥/١.

على الخرافات والأسرار ونبذ العقل والاستعباد للبشر والمخلوقات هي التي تكون ثقلاً على معتنقيها.

يقول شوقي أبو خليل: ((إنَّ طبيعة الشريعة الإسلامية لا تجعل منها نيراً على معتنقيها مهما تطوّرت الحضارة، وكثرت مبتكراتها واختراعاتها، وذلك لأن شريعة الإسلام كما وردت في مصدرها الأساسيين، القرآن الكريم والسنة الشريفة، لم تتعرض إلاّ للأمور العامة في حياة المجتمع، وإلى الأمور الخالدة في حياة الأفراد، فالقيود التي تفرض العدل والحق والمساواة والصدق.. وتمنع الغشّ والضّرر والجريمة.. إنّما هي أمور لا تعرف التبدّل مهما تطوّرت الحضارات وتقدّمت البشريّة، وكذلك حين تفرض على الإنسان ما يحفظ عليه صحّته وعقله، وتمنعه من تجاوز حقوقه وحرّياته، فإنّما تقرّر أموراً خالدة خلود البشريّة، ترتفع وترتقي عبر تاريخها ومسيرتها وتطوّرها، وهذه هي الأمور التي وردت فيها التشريعات الإسلامية، أمّا الأمور التي تتقبّل وتتطلّب التقدّم والتطوّر والتبدّل تبعاً لتطوّر الأمم، فقد تركها الإسلام دون قيود ملزمة، ليجد لها الإنسان ما يناسبها من أحكام وقوانين، والأصل في الأشياء الإباحة، ومن هذه الزاوية يبقى الإسلام تشريعاً صالحاً لكلّ زمان ولكلّ مكان، وهذه حكمة الله في آخر رسالاته إلى البشريّة، فمن الطّبيعي أن تتّصف بصفة ديمومة صلاحها، وخلود تشريعاتها، لما فيه صالح الإنسان، أي إنسان)).^(١)

الشريعة الإسلامية وبشهادة كل من عرفها هي شريعة شاملة لكل جوانب الحياة، ومتكاملة، ومترابطة، وسهلة التطبيق، وواضحة الغاية، قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

والشريعة الإسلامية قسمان: ((قسم مبادئها ثابت لا يتغيّر بتغيّر الزّمان والمكان والنّاس، أحكام قطعيّة كحرمة الزّنا والخمر والميسر والزّنا، وكأنصبة الورثة من مورثهم، وكالحدود، والضوابط العامة، والقواعد العامة التي يُعرف بها الحلال والحرام.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٦٢-١٦٣.

وقسم متغيّر للمتطلّبات الآتية في كلّ زمان ومكان، وتفسير الأحكام أو تأويلها يكون من لدن رجال الفقه الإسلامي، ما دام التّفسير مؤيّدًا بالقرائن والدلائل، فالاجتهاد فهم قواعد الشريعة وأصولها العامّة فهماً دقيقاً واعياً، ثمّ تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السّابق.

وهذا القسم المتغيّر هو الذي يتيح لأهل الرّأي وأصحاب الحلّ والعقد من المسلمين أن يضعوا من النّظم والقوانين لكلّ عصر ما يناسبه، ولكلّ زمان ما يليق به، متجاوبين في ذلك مع مصالح المسلمين المتجدّدة المتغيّرة.

فكيف تُتّهم هذه النّظم بالقصور، وعلى عدم القدرة على مواكبة ركب التّحضّر والتّقدّم^(١).

(١) المصدر السابق، ص ١٦٥.

المطلب الثاني

اعتقاد لوبون أن الشريعة جاءت لتلائم مشاعر العرب، وتوافق عاداتهم

جاءت تعاليم القرآن والسنة متوافقة مع الفطرة البشرية السليمة، ومتوافقة مع ما يحفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة، ومن شبهات ومغالطات غوستاف لوبون في هذه المسألة؛ ما يلي:

الشبهة: الزعم بأن رسول الله ﷺ هو الذي يحل ويحرم، وأن بعض ما حرّمه من العادات جاء موافقاً لمشاعر كثير من العرب.

يتضح ذلك في قوله: ((ومثل ذلك شأن محمد، فهو قد عرف كيف يختار من نظم العرب القديمة، ما كان يبدو أقومها، فدعمها بنفوذ النبي العظيم، ولكن شريعة محمد لم تنسخ جميع العادات التي قامت مقامها، كما أن قانون الألواح الاثني عشر لم يقض على قوانين الرومان القديمة، ومحمد حين رأى أن يُجرّم بعض العادات القديمة كالوَأَد، لم يفعل غير ما يلائم المشاعر المنتشرة بدرجة الكفاية فلا تقرّه)).^(١)

الرد على الشبهة:

كثيرة هي عبارات لوبون: (أحل محمد، وحرّم محمد، وفكر محمد، ورأى أن يحرم أو يحلل، وعرف كيف يختار...) وكأن النبي ﷺ هو الذي يحل ويحرم من عند نفسه، وبحسب هواه ورأيه واختياره، وهذا أسلوب خبيث يتوصل من خلاله أن الشريعة الإسلامية ليست من عند الله سبحانه وإنما من تأليف النبي ﷺ.^(٢)

وزعم لوبون بأن التحريم للعادات جاء موافقاً لمشاعر العرب المنتشرة، هذا غير صحيح، فالإسلام جاء بالتوحيد وعبادة الله وحده، ونبتد الشرك وهذا أعظم ما خالف به

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٨٤.

(٢) جاء الرد على هذا في الفصل الأول من هذا الباب.

العرب، فقد كانوا عبّاداً للأصنام والأوثان، وخالف بذلك أهم ما هم عليه وهو عقيدتهم. وجاء الإسلام بتكريم المرأة بعد أن كانت لا شأن لها، وتحريم الزنا، وتحريم الخمر، وتحريم الربا، وكل ذلك كان منتشراً عند العرب ومما تعلقت به قلوبهم، وجاء الإسلام كذلك بنبذ العصبية والتفاخر بالأنساب والأحساب، وهذا كذلك كان سائداً في المجتمعات العربية قبل الإسلام.

فكيف يزعم لوبون أن النَّبِيَّ ﷺ كان يجلل ويحرم من نفسه ليوافق ما يتلاءم مع مشاعر الناس؟ بل كان ﷺ يبلغ رسالة ربه ﷻ وينفذ أوامره عن طريق الوحي، قال تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُنَادِينَا بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

لكن لو هَدَّب غوستاف لوبون كلماته، وأعاد صياغتها بأسلوب صحيح لقال: إن الإسلام حرّم كل ما كان يخالف الفطرة السليمة، وكل ما لا يقبله العقل السليم، وكل ما تأنفه النفس، وأحل كل ما يوافق الفطرة السليمة، وكل ما يحافظ على مصالح الناس (الدين والنفس والعقل والمال والنسل). فبذلك يمكننا القول بأن الإسلام جاء موافقاً لمشاعر الناس التي تتوافق والفطرة السليمة. هذا الذي كان ينبغي لغوستاف لوبون أن يقر به ويعترف به.

وما كان من عادات العرب فيه خير لم يحرمه الإسلام، كتعظيم البيت الحرام، والطواف بالكعبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كحلف الفضول، وقد كان حلفاً لنصرة المظلوم، قال ﷺ: (شَهِدْتُ حِلْفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ، لَوْ

دُعِيتَ إِلَى مِثْلِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجْبَتِ).^(١) وذلك أن ((قبائل من قريش اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتعاقدوا وتحالفوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى يردوا عليه مظلمته، فسَمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول)).^(٢)

نعم؛ مثل هذه القيم والعادات الحسنة هي التي كان يتبناها النَّبِيُّ ﷺ ويقرّها، أمّا أنه كان يختار منها ما يوافق مشاعر الناس، فهذا لم يحصل.

(١) أخرجه البيهقي: أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، كتاب قسم الفياء والغنيمة، باب إعطاء الفياء على الديوان ومن يقع به على البداية، رقم ١٢٨٥٨، ٣٦٦/٦. وانظر: الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح السيرة النبوية، ص ٣٥.

(٢) الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، ٢٢٠/١٥.

المبحث الثاني

آراء لوبون تجاه النظام الاجتماعي والسياسي في الإسلام

المبحث الثاني

آراء لوبون تجاه النظام الاجتماعي والسياسي في الإسلام

يحاول الكثير من المستشرقين الطعن في الإسلام عن طريق مقارنة واقع المسلمين السياسي والاجتماعي والمالي في العصور المتأخرة وحال المسلمين في الصدر الأول من العهد الإسلامي، وبذلك يحاولون التوصل لاستنتاجات خاطئة ومغلوبة؛ فيها من التلبس والتدليس والتشويه للإسلام وأحكامه وشرائعه الشيء الكثير.

ومن تلك الاستنتاجات الخاطئة؛ قولهم: بأن الإسلام لم يعد صالحاً لاحتياجات الأمم، وأنه لم يعد قابلاً للتطبيق بعد عصر الصدر الأول من العهد الإسلامي.

ولم يسلم غوستاف لوبون من مثل هذه الشبهات، ومنها ما يلي:

قوله: ((فإذا كان القرآن ملائماً لاحتياجات بعض الأمم؛ فإنه لم يلائم احتياجات

بعضها الآخر)).^(١)

وفي قوله: ((وعاد القرآن الذي لاءم مشاعر الأمة العربيّة واحتياجاتها أيّام محمّد

مُلائمة تامّة، غير ما كان عليه بعد بضعة قرون، ولو كان القرآن دستوراً دينياً فقط ما كان

هنالك كبير محذور، ولكن القرآن، إذ كان دستوراً سياسياً ومدنياً أيضاً، وكان بطبيعته ثابتاً،

بدت عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجات الدائمة التحول والأمم ونظمها الثابتة، وحالت

هذه النظم دون تقدم تلك الأمم التي قُيّدت بقيود الماضي)).^(٢)

وقوله: ((وعادت نظم القرآن - التي كانت عنوان احتياجات العرب في زمن محمد - لا

تكون هكذا بعد بضعة قرون، والقرآن، إذ كان دستوراً دينياً ومدنياً وسياسياً في آن واحد،

وكان لا يتبدل بسبب مصدره الإلهي، تعدّر تعديل أحكامه الأساسية)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٠٨.

الرد على الشبهة:

هذه الأقوال من غوستاف لوبون تم الرد عليها سابقاً^(١)، وأقواله هذه فيها الكثير من التناقض لما قرره هو في كتابه (حضارة العرب) حيث يقول: «إن العرب لم يقدرُوا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التي جاء بها محمد وجمعوا كلمتهم المنفرقة تحت لوائها، وهي التي كان يمكنها وحدها أن تجمع القوى المبعثرة في جزيرة العرب»^(٢).

ويقول أيضاً: «والإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهدياً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح»^(٣).

وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبين تناقضاته، وتقرر شهادته واعترافاته، ولكن هذا هو منهج المستشرقين ومن تأثر بهم من أبناء المسلمين، فإن مثل هذه الشبه تتردد كثيراً من هؤلاء، فيزعمون «أن القرآن جاء بشريعة قاصرة لا تصلح لكل زمان ومكان»^(٤) ويهدفون من ذلك علمنة المجتمعات العربية والإسلامية، وتبديل أحكام الشريعة، التي نزلت بزعمهم - في وقت معين، وأنها لا بد وأن تتطور لتوافق النمط الاجتماعي الجديد.

وهذا ديدن المستشرقين يحاولون بشتى الطرق الطعن في الإسلام، فقد علم أعداء الإسلام قديماً وحديثاً أثر الإسلام على المجتمعات، فحرصوا على إبعاد الأمة الإسلامية عن تعاليم القرآن والسنة؛ ليحل محلها حب الدنيا، والتطلع إلى الشهوات والملذات؛ حينئذ لا يستحقون النجاة ولا النصر على الأعداء، عند ذلك يزعم أعداء الإسلام أن الإسلام لم يعد صالحاً أو قابلاً للتطبيق، ولم يعد ملائماً لحياة الشعوب؛ سواء السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية...

والشريعة الإسلامية شريعة كاملة، تامة، صالحة لكل زمان ومكان؛ قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل

(١) انظر: ص ٢١١.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦٠٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٤) السالوس: علي أحمد، مع الإثناعشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، ص ٨٢١.

عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

الدين الإسلامي دين عظيم ارتضاه الله للبشرية جمعاء ديناً، قيماً، خالداً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كان له الأثر الواضح في تغيير النفوس والأفكار نحو الأفضل والأصلح بالنسبة لمعتنقيه، والمتبع لكل من أسلم وحسن إسلامهم في مختلف الأماكن والأزمان يلاحظ مستغرباً كيف انقلبت حال هؤلاء الأشخاص من حال إلى حال؟ وكيف نبذوا ما حملوه من أفكار وقيم بمجرد الدخول في هذا الدين، وفور تسلسل شعاع النور إلى قلوبهم؟.

يقول ابن قيم الجوزية: ((إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهده الذي به اهتدى المهتدون، وشفائوه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرّة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعته، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس، وقوام العالم، وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله ﷻ خراب الدنيا وطوي العالم رفع إليه ما بقي من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة)).^(١)

والشمول من خصائص هذه الشريعة الإسلامية، يقول عبدالله العجلان: ((إن حَتَمَ الرسالات بهذه الرسالة ونسخ رسالات الأنبياء من قبله بها يستلزم أن تكون هذه الشريعة

(١) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العلمين، ١١/٣.

وافية بمتطلبات الحياة كلها، ومن لم يؤمن بهذه الحقيقة فإنه يلزم من كلامه أن هذا الدين جاء بالضيق والحرَج والجور وهو ما لا يقول به مسلم، ومضاد لقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

وكما جاءت الشريعة الإسلامية عامة لكل البشر على اختلاف أجناسهم، لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فإنها كذلك رسالة شاملة لكل جوانب الحياة ومناحي الاجتماع لم تترك شاردة ولا واردة إلا ذكرت فيها خيرا أو شملتها حكما أو كانت مندرجة تحت أصل أو قاعدة.

فقد تناولت تحديد الغاية من خلق الإنسان ووظيفته في الحياة ومركزه في هذا الكون، ونظمت علاقته بربه وصلته بإخوانه والمجتمع الذي يعيش فيه، وحددت الحقوق والواجبات، ووضعت أصولا لفض المنازعات وإبصال كل ذي حق حقه، وإقامة العدل بين الناس في كل جانب من جوانب نشاطاتهم وأعمالهم.

فهي منهج حياة كامل جمع بين الدنيا والدين، وبين العمل والعبادة وبين الظاهر والباطن... فضمن بذلك للإنسان خيري الدنيا والآخرة^(١).

ويقول أيضاً في حديثه عن صلاحية الشريعة للناس في كل زمان ومكان: ((مصادر الشريعة الإسلامية هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وما يتفرع عنهما من مصادر وأصول مرتبطة بهما، وهي محددة في كتب الأصول، والكتاب والسنة بما تضمنناه من نصوص وأحكام، جاءت على قدر كبير من الدقة والأحكام الموروثة والمبادئ العامة والقواعد المقررة، مما يجعل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، تتسع لكل تطور وتتطور الحياة في ظلها بلا أي توقف أو وقوع حرج أو ضيق، بل إنها تحفظ للإنسان توازنه في بنائه وتكوينه وتلبية مطالب حياته في شكل متكامل واضح ومرن.

وأمر الناس في الحياة: إما ثابتة مستقرة لا يتطرق إليها التحول أو التغيير باختلاف الزمان أو المكان، وإما أمور قابلة للتغيير والتبدل والانعطاف، وتختلف النظرة إليها من وقت لآخر، وتختلف فيها الأفهام، وهذا يحتاج إلى ضبط وتقييد يتسع لكل المتغيرات والظروف،

(١) العجلان: عبدالله محمد، صلاحية التشريع الإسلامي للبشر كافة، مجلة البحوث الإسلامية، ٩/ ٢٧٢.

ويحفظ فيها الحق وحسن الأداء تحت كل الظروف والمتغيرات.

وتبعا لهذه الأمور الموجودة في الحياة جاءت نصوص الشريعة على ضربين متميزين ينتهيان إلى مصب واحد وهو جلب المصالح للعباد ودفع الضرر عنهم في كل زمان ومكان. أما الضرب الأول من النصوص فإنها جاءت أحكامها نصية لا مجال للاجتهاد فيها، وقد شملت أقساما من أحكام الدين وأصول التعامل لأن هذه الأحكام لا تتغير ولا تتبدل مع اختلاف الزمان أو المكان، وهذا واضح في مجال العقيدة في الله وتوحيده وإخلاص العمل له، لأن الإنسان يحتاج إلى هذه العقيدة كحاجته إلى الطعام والشراب والنكاح وقد فطر على ذلك، والألوهية ومقتضياتها لا تتغير ولا تتبدل لا باختلاف الزمان ولا المكان... أما الضرب الثاني من الأحكام الشرعية فقد جاءت على شكل قواعد وأصول ومبادئ عامة فيها مجال لاجتهاد المجتهدين، وفي ذلك غاية التكريم للعقل الذي ميز الله به الإنسان ودعا إلى استخدامه في إطار العقيدة السليمة والقيم الإسلامية الأصيلة التي لا تتبدل ولا تتغير بتغير الزمان والمكان.

ولكي يكون الاجتهاد أصيلا ، لا تعبت به الأهواء والغايات ، فإنه ينبغي ألا يتعرض له ويمارسه إلا القادرون عليه، وهم أولئك الذين توفرت فيهم شروط الأهلية لمثل هذا العمل، وهي أحكام تتعلق بقضايا تختلف تطبيقاتها من وقت لآخر ومن جيل إلى جيل، ويحتاج البشر إلى التفكير في الوصول إلى ما يلائم حياتهم في كل زمان ومكان)).^(١)

(١) العجلان: عبدالله محمد، صلاحية التشريع الإسلامي للبشر كافة، مجلة البحوث الإسلامية، ٢٧٤/٩.

المبحث الثالث

موقف لوبون من المذاهب الأربعة

المبحث الثالث

موقف لوبون من المذاهب الأربعة

الشريعة الإسلامية متمثلة في الكتاب والسنة شريعة كاملة شاملة جامعة مانعة، لا ترى فيها عوجاً، ولا نقصاً؛ لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ومن شبه غوستاف لوبون في هذه المسألة؛ ما يلي:

الشبهة: زعم لوبون أن المذاهب الأربعة ظهرت لتكميل القرآن والسنة لأنهما

غير كافيين.

يتضح ذلك في قوله: «ثم ظهر بعد زمن قصير أن القرآن والحديث غير كافيين، ورئي إتمامهما بوضع دستور مدني وديني مشتق من تفسير القرآن، وقامت بذلك جماعة كبيرة من الأئمة في القرن الأول والقرن الثاني من الهجرة، واعترف بأربعة منهم؛ وهم: أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل»^(١).

الرد على الشبهة:

المذاهب الأربعة مشتقة من القرآن والسنة وإجماعات الصحابة وعملهم، والقياس على الكتاب والسنة وغيرها من مصادر الاستدلال، ولقد مر الفقه الإسلامي بعدة مراحل وأدوار، كان منها دور ظهور المذاهب الفقهية وذلك في أوائل القرن الثاني الهجري، وفي هذا الدور ظهر نوابغ الفقهاء؛ فاجتهدون العظام ظهوروا في هذا الدور وأسسوا مذاهبهم الفقهية، واشتهر منها المذاهب الأربعة المنسوبة لأئمة عظام كان لهم بالغ الأثر في ازدهار الفقه ونمائه وتقدمه، وقد أسسوا مدارس فقهية انضوى تحت لوائها فقهاء كبار، وهذه المذاهب الأربعة

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٨٥.

ليست تجزئة للإسلام ولا إحداث تشريع جديد، وإنما هي مناهج لفهم الشريعة، وأساليب في تفسير نصوصها، وطرق في استنباط الأحكام من مصادرها: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق حديثه عن العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ: ((وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة - قبل مبعث نبينا محمد ﷺ - علماءؤها شرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم؛ فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة - المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً - يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته؛ دقيق ولا جليل.

فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه، وجميع الأعدار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. (١) ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ الأسباب المتعددة التي

تتفرع عن هذه الأصناف.

المذاهب الأربعة هي مذهب أبي حنيفة، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ اللهُ، ((وكل واحد منهم استنبط ما فتح الله عليه به من فقه كتاب الله وسنة

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص ٨.

رسوله ﷺ، وإجماع الأمة وقياس بعض الأمور على بعض إذا كانت متشابهة ومشاركة في العلة، وأنه لا يوجد فارق مؤثر بينها، وهم مجتهدون، والمجتهد إن أصاب فله أجران: أجر اجتهاده وأجر إصابته، وإن أخطأ فله أجر اجتهاده، وخطؤه معفو عنه، وما استنبطوه من الفقه يعرض على مصادر التشريع، فما وجد له مستند شرعي أخذ به، وما لم يوجد له مستند من الأدلة رد، فإن كلاً يُؤخذ من قوله ويرد إلا محمداً ﷺ.

فمن استطاع أن يأخذ الأحكام بأدلتها وجب عليه ذلك، ومن لم يستطع وجب عليه أن يسأل أهل العلم عما أشكل عليه، وبهذا يعلم أنه يتبع من المذاهب ما استند إلى دليل شرعي ما لم يخالفه ما هو أقوى منه، وأنه لا يجوز أن يعتمد شخص على مذهب ويعمل بجميع ما فيه، بصرف النظر عن المستند الشرعي لما يأخذ به، وأنه لا يلزمه الأخذ بمذهب واحد منهم، بل عليه إن كان من أهل العلم أن يأخذ بالدليل، وإلا سأل أهل العلم عما أشكل عليه كما سبق^(١).

(١) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة، ٥١/٥.

الباب الثالث

آراء غوستاف لوبون تجاه أحداث السيرة النبوية عرض ونقد

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول

موقف لوبون من شخصية النبي ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مولد النبي ﷺ ونشأته

المبحث الثاني: أخلاق النبي ﷺ وصفاته الحميدة

المبحث الثالث: حياة النبي ﷺ وعلاقاته الاجتماعية

الفصل الثاني

موقف لوبون من أحداث الدعوة المكية وأحداث ما بعد الهجرة النبوية

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أحداث الدعوة المكية وما جاء فيها من مغالطات عند لوبون

المبحث الثاني: آراء لوبون في أحداث ما بعد الهجرة النبوية

الفصل الأول

موقف لوبون من شخصية النبي ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مولد النبي ﷺ ونشأته

المبحث الثاني: أخلاق النبي ﷺ وصفاته الحميدة

المبحث الثالث: حياة النبي ﷺ وعلاقاته الاجتماعية

المبحث الأول

مولد النبي ﷺ ونشأته

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: موقف غوستاف لوبون من الأحداث التي صاحبت مولد النبي ﷺ

المطلب الثاني: موقف غوستاف لوبون من أحداث سيرته ﷺ في بادية بني سعد

المطلب الأول

موقف غوستاف لوبون من الأحداث التي صاحبت مولد النبي ﷺ

غوستاف لوبون والكثير من المستشرقين يقرّون بنبوة النبي محمد ﷺ؛ ولكنهم يشككون في الأحداث والمعجزات التي صاحبت ميلاد النبي ﷺ، وأحياناً ينكرونها؛ مع أنه ليس بمستغرب أن تصاحب ميلاد نبي بعض الآيات، وهذا ليس مقتصراً على النبي محمد ﷺ؛ بل إن الآيات والمعجزات صاحبت ميلاد بعض الأنبياء كموسى وعيسى عليهما السلام، ولم نجدهم يشككون في ذلك، فلماذا هذا الشغب؟! ومن شبه غوستاف لوبون في ذلك؛ ما يلي:

الشبهة: التشكيك في روايات الأحداث التي صاحبت مولد النبي ﷺ

يتضح ذلك في قوله: ((ورأى العرب أن يقرنوا ميلاد زعيمهم الأعظم بالآيات، فرؤوا أنّ العالم اهتزّ لولادته، وأن نارَ الجحوس المقدّسة خبّت، وأنّ شياطين الشرّ دُحرت من أعلى الشّهب، وأن تصدّع من أبراج إيوان كِسرى (ملك الملوك) أربعة عشر بُرجاً إيذاناً بقرب انهيار دولة الفرس العظمى)).^(١)

الرد على الشبهة:

لم يبيّن لوبون هنا من يقصد بالعرب؟ فإن كان يقصد عامة العرب من قريش وغيرهم، فهذا غير مقبول؛ لأن العرب عند مولده ﷺ وقبل مبعثه لم يكن لينخطر ببال أحدهم أن يكون محمدٌ ﷺ نبياً؛ باستثناء توقع جدّه عبدالمطلب بأنه سيكون له شأن، وعامة العرب وعلى رأسهم قريش ناصبوه العداء بعد مبعثه، ولم يسلموا له بالرسالة!!

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠١.

جاء ذكر بعض الآيات في أشعار العرب قبيل وبعد ولادة النبي ﷺ كالرمي بالشهب، دون علمهم المسبق بولادة نبي الأمة محمد ﷺ؛ بل إن بعض هؤلاء الشعراء لم يؤمن برسالة النبي ﷺ. فكيف يزعم لوبون أن العرب رأوا أن يقرنوا ميلاد النبي ﷺ بالآيات؟ يقول ابن الجوزي: ((وقد روي عن ابن عباس أنه قال: إن الشياطين كانت لا تحجب عن السموات، فلما ولد عيسى ﷺ منعت من ثلاث سموات، فلما ولد رسول الله ﷺ منعت من السموات كلها. وقال الزهري: قد كان يرمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله ﷺ، ولكنها غلظت حين بعث رسول الله ﷺ، وهذا مذهب ابن قتيبة. قال: وعلى هذا وجدنا الشعر القديم، قال بشر بن أبي خازم:

وَالْعَيْر يَرْهَقُهَا الْعُبَارُ وَجَحَشَهَا..... يَنْقُضُ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الْكَوْكَبِ

وقال أوس بن حجر، وهو جاهلي:

فَانْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ ... نَقَعٌ يَثُورُ تَحَالُهُ طُنْبًا^(١)

قلت: وقد ذكر في شعره انقضاض الكوكب الأفوه الأودي، وأمّية ابن أبي الصلت، وعوف بن الخرع وغيرهم، إلا أن الذي أميل إليه أنه لم ترم بالشهب إلا قبيل مولد رسول الله ﷺ، ثم استمر ذلك وكثر حتى بعث، وكان ذلك من التأسيس لأمره، والتفخيم لشأنه، كما جرى على أصحاب الفيل، وكما انبعث الماء من تحت خف راحلة عبد المطلب حين خرج هو وجماعة إلى الكاهن ليشير إلى أحدهم بالتخصيص بزمن. وعلى هذا يحمل شعر بشر بن أبي خازم، فإنه قد أدرك الفجار ورسول الله ﷺ قد أدرك الفجار، وأمّية أدرك النبوة وكذلك أشعار الباقيين، فإنها قيلت قبل مولد رسول الله ﷺ.^(٢)

(١) طُنْبٌ وَطُنْبٌ، الطَّنْبُ: حَبْلٌ طَوِيلٌ يُشَدُّ بِهِ الْبَيْتُ وَالسُّرَادِقُ، بَيْنَ الْأَرْضِ وَالطَّرَائِقِ. وَقِيلَ: هُوَ الْوَتْدُ، وَالْجُمُعُ: أَطْنَابٌ وَطِنْبَةٌ. ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ٥٦١/١، مادة: [طنب].

(٢) ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ٣٧٠/٢.

والله سبحانه ذكر ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا
مُلَكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ
لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨-٩]

من الآيات كذلك ما ورد من بعض أحبار اليهود ورهبان النصارى؛ فعن حسان بن
ثابت رضي الله عنه، قَالَ: (إِنِّي لَعُلَّامٌ يَفْعَةُ^(١))، ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ، أَعْقَلُ كُلِّ مَا سَمِعْتُ،
إِذْ أَشْرَفَ يَهُودِيٌّ عَلَى أُطْمِ^(٢) يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، فَاجْتَمِعُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا:
مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: طَلَعَ اللَّيْلَةَ بَحْمُ أَحْمَدَ الدِّيِّ وَلَدِ بَه).^(٣)

وعن أسامة بن زيد قال: قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ: قَالَ لِي حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ
الشَّامِ: (قَدْ خَرَجَ فِي بَلَدِكَ نَيْيٌّ، أَوْ هُوَ خَارِجٌ، قَدْ خَرَجَ بِحُمُهُ، فَارْجِعْ فَصَدَّقْهُ، وَاتَّبِعْهُ).^(٤)
وإن كان يقصد لوبون بالعرب أي: علماء المسلمين في كتب السيرة والتاريخ^(٥)،
فهذا غير مقبول أيضاً؛ لأن أحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إن صححت الروايات فيها فهي حق،
وهي ليست من أقوالهم ورواياتهم؛ إنما هي من أقول النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعاله، وتقريراته، وهي وحي
من الله سبحانه، وعلماء السيرة لم يضعوا هذه الروايات من عند أنفسهم.

(١) عَلَّامٌ يَفْعُ وَيَفْعَةُ، وَيَفْعَةُ الْعُلَّامُ فَهُوَ يَفْعُ، إِذَا شَارَفَ الْإِحْتِلَامَ وَلَمَّا يَحْتَلِمُ. ابن الأثير: مجد الدين
أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢٩٩/٥.

(٢) الْأُطْمُ بِالضَّمِّ: بِنَاءٍ مُرْتَفِعٍ، وَجَمْعُهُ أُطَامٌ. ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب
الحديث والأثر، ٥٤/١.

(٣) ابن إسحاق: محمد، السيرة النبوية، ص ٨٤. والألباني: محمد ناصر الدين، صحيح السيرة، ص ١٣.

(٤) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ٣/٣٩٤. والألباني: محمد ناصر الدين، صحيح
السيرة، ص ١٣.

(٥) لأنه ذكر في موضع آخر: ((ورأى أبواه من الرضاعة ما رأيا من الخوارق التي كانت تلازمه، -على زعم
كتب السيرة- خافا مغبة الأمر، ولم يريدوا بقاءه عندهما)). لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠١.

وقد ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: (إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِحَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعَاهُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةَ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعْتَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ).^(١)

والمسلمون يرفضون ويردون جميع الروايات المكذوبة، والتي لا أصل لها، فهذا منهج المحدثين قديماً وحديثاً، والآيات التي ذكرها لوبون منها ما هو ثابت في السنة النبوية فنحن نؤمن بها ونصدقها، ومنها ما ليس بثابت فلا نأخذ بها.

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، رقم ١٧٣٦، ٦/٦٨. وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٧١٥٠، ٢٨/٣٧٩. والبستي: محمد بن حبان، الصحيح، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره، رقم ٦٤٠٤، ١٤/٣١٢. والآجري: محمد بن الحسين، الشريعة، رقم ٩٦٤، ٣/١٤٢٧. وغيرهم من أصحاب السنن والسيرة والتاريخ. والألباني: محمد ناصرالدين، صحيح السيرة، ص ١٦. والصحيحة، رقم ١٥٤٥، ٤/٥٩.

المطلب الثاني

موقف غوستاف لوبون من أحداث سيرته ﷺ في بادية بني سعد

كثيراً ما يتلاعب غوستاف لوبون بالألفاظ، والمصطلحات، واستخدامه لعبارات الشك والتمريض عند النقل من المصادر الإسلامية؛ ولعل هذا بسبب عدم استيعابه للنبوة والرسالة، وعدم استيعابه كذلك لمسألة الوحي، والمعجزات، والغيبات؛ ومن شبهه في ذلك ما يلي:

الشبهة: التشكيك في الأحداث التي حصلت للنبي ﷺ في بادية بني سعد.

يتضح ذلك في قوله: ((ورأى أبواه من الرضاة ما رآه من الخوارق التي كانت تلازمه -على

زعم كتب السيرة- خافا مغبة الأمر، ولم يريدوا بقاءه عندهما)).^(١)

الرد على الشبهة:

لو كان غوستاف لوبون مستوعباً لمسألة الوحي، والمعجزات، والغيبات، لما عارض أو شكك في هذه الروايات؛ فقد ثبت في كتب السنة: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَهُ، فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً، فَقَالَ: هَذَا حِطُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ -يَعْنِي ظَهْرَهُ- فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُتَنَفِّعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ ذَلِكَ الْمَخِيطَ فِي صَدْرِهِ).^(٢)

والكثير من المستشرقين يشككون، وأحياناً ينكرون المعجزات التي حصلت للنبي ﷺ وذلك إما عناداً واستكباراً منهم، وإما أنهم لا يؤمنون بالمعجزات والغيبات أصلاً، فيرون أن الرسالة تتوقف على المعجزة، والمعجزة حرق للعادة، وحرق للعادة محال.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠١.

(٢) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله

ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم ٤٣١، ١/١٠١.

المبحث الثاني

أخلاق النبي ﷺ وصفاته الحميدة

ويشتمل على ثلاثة مطالب؛

المطلب الأول: وصف غوستاف لوبون النبي ﷺ بالهوس

المطلب الثاني: وصف غوستاف لوبون النبي ﷺ بالقسوة

المطلب الثالث: زعم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ كان قليل التعليم ولم يكن عالماً

المطلب الأول

وصف غوستاف لوبون النبي ﷺ بالهوس

حاول غوستاف لوبون محاولات مضنية للظهور بمظهر العالم المنصف لحضارتنا الإسلامية؛ إلا أنه وقع في نفس هفوات وأخطاء المستشرقين الذين كان همهم الأول وشغلهم الشاغل الطعن في الإسلام، والقرآن، والنبي ﷺ، فتراه يستخدم العبارات والنبزات نفسها التي كان يستخدمها المستشرقون لتشويه الإسلام، ويظهر ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: وصفُ النبي ﷺ بالمتهوس، وبالهُوس، وأنه من فصيلة المتهوسين.

يتضح ذلك في قوله: «حقاً أنّ من أعاجيب التّاريخ أن يُلبّي نداء ذلك المتهوس الشّهير شعبٌ جامعٌ شديد الشّكّيمة لم يقدر على قهره فاتحٌ ... ويجب احترام أعاضم مؤسّسي الأديان والدُّول، وإن وصفهم العلم الحديث بذوي الهوس، وحُقّ له ذلك،...».^(١)

وفي قوله: «وإذا عدوت هوس محمد ككلّ مفتون، وجدته حصيلاً سليماً الفكر».^(٢)

وفي قوله: «ويجب عدُّ محمدٍ من فصيلة المتهوسين من النّاحية العلميّة كأكثر مؤسّسي الدّيانات، ولا كبير أهميّة لذلك، فأولو الهوس وحدهم، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين يُنشئون الدّيانات ويقودون النّاس، ومتى يُبحث في عمل المفتونين في العالم يُعترف بأنّه عظيم، وهم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدُّول، وأثاروا الجموع وقادوا البشر، لو كان

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٤.

العقل، لا الهوس، هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرىً آخر... ومحمد كان يجد في هوسه ما يحفزُه إلى اقتحام كلِّ عائق...^(١).

الرد على الشبهة:

كلمة "هوس" من نبرات المستشرقين، وتتنافى مع كرامة النبي ﷺ، ولا يوجد لها شاهد من الواقع، ولم يرد في كتب التاريخ والسير أن النبي ﷺ عُرف بشيء من ذلك سواء قبل البعثة أو بعدها؛ بل كان ﷺ لا يتصف إلا ((بأئزاز، وحسن تفكير، وبُعد نظر، ثمَّ جاءه الوحي السَّماوي، فقام بتأدية رسالته كما أَرادها الله تعالى أن تؤدَّى، وامتلاء قلبه تصديقاً بها، وإيماناً وإخلاصاً في تنفيذها حسب أمر الله له، فهل يصح أو يليق لمؤرِّخ منصف أن يكتب عن محمد ﷺ، صاحب الأثر العميق في أُمَّته والبشريَّة جمعاء، كما يكتب عن أناس دفعتهم أنانيَّاتهم وعصبيَّاتهم ومطامعهم إلى ادِّعاء نبوَّة كاذبة، مثل الأسود العنسي، أو طليحة بن خويلد الأَسدي، أو مسيلمة الكذَّاب!؟)).^(٢)

لكن تشابحت قلوب المستشرقين وقلوب أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ فقد اتهم المشركون النبي ﷺ بالجنون ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، أي: ((قال كفارُ مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه، مع إنكارهم لذلك في الواقع أشد إنكار، وفيهم له أبلغ نفي، أو أرادوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه، وعلى وفق ما يدعيه إنك لجنون أي: إنك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لجنون، فإنه لا

(١) المصدر السابق، ص ١١٤-١١٥.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٦٣.

يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].^(١)

وقد برأه الله سبحانه من هذا الوصف بقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم: ٢-٤].

لكن عدم إدراك واستيعاب الكثير من المستشرقين لمسألة الوحي، والنبوة، والإعجاز القرآني يجعلهم يتخبطون في كتاباتهم وأطروحاتهم، هذا إن أحسننا الظن بهم، وإلا فهم غالباً ما يغفلون أو يتغافلون عن ذلك، ويتعمدون في كثير من الأحيان وصف هذه الظواهر بالتخيلات، ونوبات الصرع، والجنون، والهوس، وغير ذلك.

بعضهم يتحدث عن النبي ﷺ ((وكانه يتحدث عن بطلٍ مصلح، أو قائد فاتح، أو مبدع موهوب، ويغفلون أو يتغافلون عن (الظاهرة القرآنية) أو عن (الوحي والنبوة)، وعندما يجدون أنفسهم قبالها يقولون: القرآن تحيلاً في نوبات صرع، مع أنّ المصروعين حافظتهم معطلة في نوبات صرعهم، ومحمد ﷺ حافظته أجود ما تكون عند هبوط الوحي، وهم لا ينكرون الوحي ظاهرة، لقد اعترفوا به للأنبياء.

فلا هوس، ولا صرع .. ولو نزل القرآن العظيم اليوم، بعد اكتشافات العلم المذهلة، مع سبر أغوار الأرض والمحيطات، والتخليق في أعماق الكون، لما اختلفت نظراته إلى الكون، أو الحياة، أو الإنسان، والمكابرة في هذه الحقيقة، هي مكابرة في المحسوس الملموس ليس غير)).^(٢)

(١) الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير، ١٤٧/٣.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٦٣-٦٤.

المطلب الثاني

وصف غوستاف لوبون النبي ﷺ بالقسوة

اعترف غوستاف لوبون في عدة مواضع من كتابه حضارة العرب بأن النبي ﷺ كان رحيماً، متسامحاً، رؤوفاً، ولكنه هنا يتناقض ويزعم أن النبي ﷺ كان قاسياً في حكمه على يهود بني قريظة حين أمر أن تضرب رقابهم، وغوستاف يعلم جيداً من هم اليهود؟ وما صفاتهم؟ وكيف كان تاريخهم؟^(١)، ومن شبهه في ذلك؛ ما يلي:

الشبهة: الزعم بأن رسول الله ﷺ كان قاسياً في حكمه على يهود بني قريظة
يتضح ذلك في قوله: ((... وهو لم يَفْسُسْ على أعدائه إلا مرةً واحدةً، حين أمر بأن تُضرب رقابُ سبع مئة يهوديٍّ خانوه)).^(٢)

الرد على الشبهة:

عُرِف اليهود قديماً وحديثاً بأنهم أهل غدر وخيانة ونقض للعهود والمواثيق، وهذا مسلكهم منذ بعث فيهم موسى ﷺ إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، ((فهم أغدر الناس بالعهد، وأخونهم بالأمانة، ولذلك لا يوثق منهم أبداً لا صرفاً، ولا عدلاً، ومن وثق بهم أو وثق منهم فإنه في الحقيقة لم يعرف سيرتهم منذ عهد قديم)).^(٣)

وقد شبههم الله سبحانه بالدواب لكفرهم ونقضهم للعهود، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

(١) انظر: آراء لوبون وموقفه من اليهود، ص ١١١، من هذه الرسالة.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٦.

(٣) العثيمين: محمد بن صالح، شرح رياض الصالحين، ٢/٣٦٣.

وعندما قدم النبي ﷺ إلى المدينة أبرم معاهدة مع اليهود جاء فيها: ((أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة؛ غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومواليهم، وأنفسهم؛ إلا من ظلم نفسه وأثم، فإنه لا يوتغ^(١) إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يشرب، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وأنه يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم...)).^(٢)

ولكن يهود بني قريظة نقضوا هذه المعاهدة، وغدروا، وتحزبوا مع الأحزاب في قتال المسلمين، ولكن الله نصر رسوله والمؤمنين، ورد كيد الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ۝ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

هنا وبعد أن نصر الله المؤمنين على أعدائهم من الأحزاب، توجه النبي ﷺ والمسلمون إلى أعدائهم الملاصقين لهم، الذين كان ضررهم والخوف منهم - بسبب المجاورة - أشد من غيرهم، والذين ما فتئوا ينقضون العهود، ولكن هذه المرة نقضوا العهد في أخرج موقف، حيث ظهرت بوضوح نواياهم الخبيثة ورغبتهم في استئصال المسلمين كما هي رغبة المشركين من كفار قريش.

(١) الوتغ بالتحريك: الهلاك. وقد وتغ وتوغ وتغاً، أي أثم وهلك. وأوتغ الله، أي أهلكه. وأوتغ فلان دينه بالإثم. الجوهري: أسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة: [وتغ]، ٤/١٣٢٨.

(٢) انظر: الهروي: القاسم بن سلام، الأموال، ٤٧٩/١. وابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، ٥٠٣/١. السهيلي: أبو القاسم عبدالرحمن، الروض الأنف، ٤/٢٤٣.

فحاصرهم النَّبِيُّ ﷺ حتى استسلموا على أن يحكم فيهم أحد حلفائهم من المسلمين؛ ظناً منهم أنه سيكون أرفأً بخيانتهم من غيره، وكان هذا الحليف سعد بن معاذ ﷺ، فحكم فيهم بحكم الله سبحانه، حُكْمٌ يستحقه كل خائن للخيانة العظمى، فهم حكموا على المسلمين بالقتل من غير جرم؛ فنقضوا العهد وتحزبوا مع الأحزاب لقتل المسلمين، فكيف لا يكون الحكم عليهم بمثل ذلك وقد ارتكبوا أعظم جرم، وفي أخرج وقت، وعلى غفلة من المسلمين، فنقضوا العهد والميثاق، وخانوا وغدروا؟

لذا فقد كان حكم سعد بن معاذ ﷺ فيهم من أعظم العدل، وهو حكم بالمثل وجزاء بالمثل، وهم الذين اختاروا هذا القاضي ليحكم على خيانتهم وغدرهم، فحَكَمَ فيهم سعدُ بن معاذ بقتل القادرين على القتال منهم، وأن يُسبى النساء والأطفال، ونُفِّدَ فيهم هذا الحكم، فقتل نحو ستمائة أو سبعمائة، وسُبي النساء والأطفال.

فكيف يزعم غوستاف لوبون أن النَّبِيَّ ﷺ كان قاسياً في حكمه على هؤلاء الخونة؟ وقد اعترف في أكثر من موضع بأن النَّبِيَّ ﷺ كان متسامحاً رحيماً رؤوفاً؛ وذلك في قوله: ((وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم، كان محمدٌ من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصفون محمدًا، مع أنَّ التعصُّب الدينيَّ أعمى بصائر مؤرِّخيهم عن الاعتراف بفضله، قال العلامة بارتلمي سنت هيلر: كان محمدٌ أكثر عرب زمانه ذكاءً، وأشدَّهم تدبُّراً، وأعظمهم رأفةً، ونال محمدٌ سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم، ونَعُدُّ دينه الذي دعا النَّاسَ إلى اعتقاده جزيل النَّعم على جميع الشُّعوب التي اعتنقته)).^(١) ويقول أيضاً: ((وكان محمدٌ كثير المسامحة لليهود والنصارى خلافاً لما يُظن)).^(٢) ويتحدث عن أخلاق النَّبِيِّ ﷺ في كتابه (الدين والحياة) فيقول: ((لقد كان محمد ذا أخلاق عالية، وحكمة ورقة قلب، ورأفة ورحمة، وصدق وأمانة)).^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٣) لوبون: غوستاف، الدين والحياة، ص ١١١.

يقول شوقي أبو خليل: ((فقصاص بني قريظة، يتناسب مع ضخامة الجرم، وعندما حاصرهم ﷺ في صياصيهم^(١)، وحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه لم يسأل بنو قريظة رسول الله والمسلمين، لماذا هذا الحصار؟ ولماذا هذه الحرب؟ وبالتالي: لماذا هذا القصاص، وهذا العقاب؟

والجواب على هذا التساؤل في عبارة واحدة موجزة قصيرة: إنهم بما صنعوا؟! فأئى قسوة يتحدث عنها (لوبون)؟!^(٢).

معلوم في جميع الأديان والملل والعادات والأعراف والديساتير أن جزاء الخائن للخيانة العظمي هو القتل^(٣)؛ ولكن المجرم دائماً لا يرضى بعقوبة إجرامه.

(١) الصِّيَصِيَّةُ: الحِصْنُ، والجَمْعُ الصِّيَاصِي، ومنه قوله تعالى (مَنْ صَيَّاصِيهِمْ)، أي: من حُصُونِهِم التي حَصَّنَّا بها. وكُلُّ ما امْتَنَعَ به: فهو صِيَصِيَّةٌ "ج. صَيَّاصٍ" بحذف الياء على التَّخْفِيف. الزبيدي: محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة: [صيص]، ٢٧/١٨.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٨٦.

(٣) كان قياصرة الرومان يحكمون على رعاياهم بأشد العقوبات؛ ومنها الخيانة العظمى لأسباب تافهة لا تستلزم ذلك، ولا زالت بعض الدول في العصر الحاضر يحكمون على بعض المخالفين للأنظمة بعقوبة الخيانة العظمى، التي تصل إلى التعذيب، والسجن، المؤبد والأعمال الشاقة، والقتل. انظر: ديورانت: ول، قصة الحضارة، ٣٦٧/١٠، ٣٧٢/١٠، ١٨٣/١٣، ١٣/١٧، ٦٧/٢٢. وعودة: عبدالقادر، التشريع الجنائي الإسلامي، ٣١١/١. والفاضل: محمد، الجرائم الواقعة على أمن الدولة، ص ١٤٧.

المطلب الثالث

زعم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ كان قليل التعليم ولم يكن عالماً

قصور العلم وقلة الفهم عند الكثير من المستشرقين جعلهم لا يستوعبون مسألة الإعجاز القرآني، ولا يدركون الإعجاز القرآني في ترتيب المصحف، والوحدة الموضوعية في السورة؛ مما جعلهم يتهمون النبي ﷺ بأنه كان قليل التعليم فألف كتاباً خال من الترتيب.

وغوستاف لوبون من هؤلاء الذين قَصُرَ علمهم، وقلَّ فهمهم وإدراكهم عن استيعاب مثل هذه الأمور؛ ويظهر ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: الزعم بأن محمداً ﷺ كان قليل التعليم، وليس عالماً، وأنه ألف القرآن بترتيب أقل من المطلوب، بما يوحي أن القرآن من عنده.

يتضح ذلك في قوله: ((ويقال إن محمداً كان قليل التعليم، ونرجح ذلك، وإلا وجدت في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه، ونرجح أيضاً أن محمداً لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً، فالأميون وحدهم هم الذين يعرفون كيف يُدرك أمر الأميين)).^(١)

الرد على الشبهة:

نعم إن النبي ﷺ أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة، وهذه صفته ﷺ في القرآن الكريم وفي الكتب المتقدمة، ولكن الله سبحانه علّمه علماً عجز عنه الأولين والآخرين، وهذا دليل على صدق النبي ﷺ وأنه أعلم الخلق؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١١.

الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيَّ آيَاتٌ مِّن رَّبِّيَ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٤٧-٥١].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ لا تحسن الكتابة؛ بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم)).^(١)

وأنبأ الله سبحانه أعلم الخلق وأصدقهم وأعظمهم نصحاً وإرشاداً وهداية، وإنَّ ((من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفصيل أحوالها، تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاءوا به من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق)).^(٢)

والتَّبَيُّنُ ﷺ أعلم الخلق أجمعين، وكلامه أصدق الكلام، فكل ما يقوله وحي من الله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٣-٥]، ((فليس بعد كلام الله أصدق ولا أنفع ولا أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلام رسوله وخليله محمد ﷺ، إذ هو أعلم الخلق، وأعظمهم نصحاً وإرشاداً وهداية، وأبلغهم بياناً وتأصيلاً، وأحسنهم تعليماً، وقد أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، بحيث

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٦/٢٨٥.

(٢) الحنفي: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٨١.

كان يتكلم بالكلام القليل لفظه الكثيرة معانيه، مع كمال الوضوح والبيان الذي هو أعلى رتب البيان)).^(١)

فكيف لرجل قليل التعليم أو ليس بعالم ويستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن ويمثل ما جاءت به السنة من أخبار الأولين والآخرين، وما كان وما سيكون، بأسلوب واضح وفي غاية البيان والصدق والكمال؟

وأما زعم لوبون: "إنَّ مُحَمَّدًا كَانَ قَلِيلَ التَّعْلِيمِ، وَنَرَجَّحُ ذَلِكَ، وَإِلَّا وَجَدْتَ فِي تَأْلِيفِ

القرآن ترتيباً أكثر مما فيه"؛ فهذا من قصور علمه وفهمه، وبعده عن إدراك الإعجاز القرآني

في ترتيب المصحف، والوحدة الموضوعية في السورة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ [القيامة: ١٧-١٨]، ذكر الله في هذه الآية أن جمع القرآن وترتيبه عليه سبحانه، فكأن الله تعالى قد تكفل بجمع القرآن وترتيبه، والواقع الذي يعرفه كل أحد أن القرآن لم يرتب على الترتيب الذي نزل عليه؛ بل رتب كما أمر ﷺ بترتيبه، فحقيقة الأمر أن ترتيب القرآن قد تكفل الله به، وقام النبي ﷺ بهذا الترتيب. فلا يمكن الجمع بين هذا التكفل وهذا الترتيب إلا على القول بأن النبي ﷺ إنما قام به بوحي من الله تعالى وهو الوحي غير المتلو وهو السنة.^(٢)

يقول شوقي أبو خليل: ((وهل أصبح المؤرِّخون الحَكَم في أمر ترتيب كتاب الله، حتَّى يحكموا على دقَّة ترتيبيه أو عدم ذلك، وهل يصحُّ قول (لوبون) بأنَّ مُحَمَّدًا لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً؟ فهل إقامته للدين الجديد تعود إلى علمه أو عدمه؟ مُحَمَّدٌ ﷺ كأخيه المسيح عليه السلام، وكبقية الأنبياء والرُّسل الكرام، جاء برسالة الله يحملها إلى النَّاس، ويبلِّغها لهم كما بلَّغهم إيها الوحي الأمين، فلماذا نعترف بأنَّ يحمل السيِّد المسيح رسالة الله إلى البشر،

(١) السعدي، عبدالرحمن، بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، ص ١١.

(٢) سبق الرد على شبهة ترتيب المصحف، انظر: (ص ١٩٩) من هذه الرسالة.

علماً بأن المسيح عليه السلام رافقت بعثته أمورٌ يرفضها العقل ويقبلها التسليم، أقول: لماذا نؤمن هناك ونكفر هنا.

نعم، إنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم أُمِّيُّ، لكنَّه جاء بما يُعجزُ العلماء، وبما يفتح أمام عقول العلماء آفاق البحث والتفكير، فكان بما جاء به معجزة خالدة أبد الدهر، لا تنقضي بموت صاحبها، فليس شأنها شأن المعجزات والخوراق التي أمست تاريخاً ليس غير. يقول سبحانه في محكم التنزيل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].^(١)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٩٧-٩٨.

المبحث الثالث

حياة النبي ﷺ وعلاقاته الاجتماعية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زعم غوستاف لوبون أن ضعف النبي ﷺ الوحيد هو حبه للنساء

المطلب الثاني: تشكيك غوستاف لوبون في وفاء زوجات النبي ﷺ له

المطلب الثالث: زعم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ كان قليل المسامحة نحو النساء

المطلب الأول

زعم غوستاف لوبون أن ضعف النبي ﷺ الوحيد هو حبه للنساء

أراد المستشرقون الشغب على الإسلام والمسلمين، وتشويه صورة النبي ﷺ عند الغربيين وعند الجهلة من أبناء المسلمين، فاتهموا النبي ﷺ بأنه (شهوائي)، وهذه من شبه المستشرقين الحديثة؛ وللأسف أن غوستاف لوبون انساق وراء هذه الشبهات كغيره من المستشرقين^(١) وأعداء الدين، ومن شبه غوستاف لوبون في ذلك؛ ما يلي:

الشبهة الأولى: اتّهام النبي ﷺ بالضعف أمام النساء.

يتضح ذلك في قوله: ((وضعف محمد الوحيد هو حُبُّه للنساء، فقد قال: (حُبُّبٌ إِلَى من دنياكم ثلاث: الطَّيِّبُ والنَّسَاءُ، وجُعِلت قُرَّةٌ عيني في الصَّلَاةِ))^(٢))).^(٣)

الرد على الشبهة:

يظهر أن غوستاف لوبون لم يسأل نفسه لماذا ومتى تزوج النبي ﷺ؟ وهل هو الوحيد في زمنه تزوج هذا العدد من النساء، أم أن ذلك كان سائداً في المجتمع الذي عاش فيه؟ وما ظروف زواجه ﷺ من كل منهن؟ وما الأمور التاريخية والتشريعية التي رافقت زواجه ﷺ منهن؟

(١) يقول المستشرق الفرنسي إميل درمنغم متهماً النبي ﷺ بشدة ميله الجنسي تجاه النساء: ((شعر محمد في العقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء)) ويقول: ((بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب، فأقام لنفسه بيتاً كيبوتات السادات العرب، فأبرم كهؤلاء السادات عقود نكاح كثيرة، عن حب أو عن سياسة، فضلاً عن عدم زهده في سراري جميلات؛ عرض عليه هدية أو ناهن سيباً، فزاد لذلك الميل الجنسي القوي الذي كان محصوراً قبل ذلك)) درمنغم: إميل، حياة محمد، ص ٢٩١.

(٢) سبق تخريجه: ص ٨٦.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

فلو أن غوستاف لوبون كان منصفاً، بعيداً عن التعصب، والحقد، والظعن، والتحيز لكان درس ظروف زواج النبي ﷺ، ودرس عادات المجتمع والبيئة التي كان يعيش فيها، واطلع على تراجم رجال ذلك العصر، وعرف أن هذا الزواج متعارف عليه.

لو أن غوستاف لوبون أنصف ((لقام بدراسة موضوعية لمحمد ﷺ، فيما يتعلق بالنساء، ولو أنصف لتحدث عن عفته ﷺ في شبابه، وقبل زواجه، وقد أشار فيما كتب إلى اقتصاره ﷺ على زوجة واحدة حتى بلغ الخمسين من عمره، أليس في هذه الأقوال مؤشّر عن محمد ﷺ وعلاقته بالنساء؟ أليس في هذه الأقوال ما يدعو إلى دراسة ما ورد عن زواجه ﷺ من عدد من النساء ليس في معظمهنّ ما يغري بالزواج منهنّ؟!))^(١).

فكيف يكون النبي ﷺ مطلقاً العنان لشهوته وهو لم يتزوج إبان شبابه وفتوته سوى خديجة رضى الله عنها حيث كان عمره خمساً وعشرين سنة وهي امرأة كبيرة؟ فلو كان شهوانياً لما اكتفى بها وهي المرأة الكبيرة في السن، فلم يتزوج عليها حتى توفيت رضى الله عنها.

وليعلم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرة قط إلا عائشة رضى الله عنها؛ إكراماً لصديقه وأحب الناس إليه وأوفاهم له وأكثرهم إخلاصاً له ولدعوته.

كذلك كان زواجه بحفصة بنت عمر بن الخطاب إكراماً لأبيها ثاني رجل في الإسلام وثاني وزراءه.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٩٨.

وأما زواجه بأُم حبيبة وأُم سلمة وسودة وميمونة وأُم المساكين رضي الله عنهن وهن أرامل فكان إيواؤهن لما فقدن أزواجهن ولما أصابهن من عذاب واضطهاد في ذات الله تعالى.

وزوجه ربه تبارك وتعالى زينب بنت جحش رضي الله عنها وهو كاره لذلك خشية من قول الناس: «محمد تزوج امرأة ابنه زيد» الذي تبناه قبل الإسلام فأراد الله ﷻ أن يمحو قاعدة التبني التي كانت متأصلة في المجتمع الجاهلي حيث كان للابن المتبني عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء، فكان أقوى معول لهدم هذه القاعدة أن أمر الله ﷻ نبيه أن ينكح زوجة زيد رضي الله عنه بعدما طلقها وقد كان ابناً له بالتبني قبل البعثة.

وكان زواجه لصفية رضي الله عنها وجويرية رضي الله عنها مسحاً لدموعهما وإذهاباً لحزنهما لموت زوجيهما في معركة قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما.

كما أن من فوائد زواجه ﷺ ما كان شائعاً عند العرب من احترام للمصاهرة إذ كانوا يرون مناواة ومحاربة الأصهار سبباً وعاراً على أنفسهم؛ فلما تزوج النبي ﷺ بأُم سلمة المخزومية رضي الله عنها لم يقف خالد بن الوليد المخزومي من المسلمين موقفه الشديد الذي وقفه بأحد، وكذلك أبو سفيان قائد المشركين لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة، وكذلك لا نرى من قبيلتي بني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية.

ولو لم يكن هذا شائعاً عند العرب ومرغوباً فيه لكان المشركون شنعوا على النبي ﷺ في ذلك، وهم أشد أعدائه، ولكن لم نجد في كتب التاريخ أنهم عابوا عليه كثرة التزويج، ولو لم يكن كثرة التزويج هو المرغوب فيه لما آثر النبي ﷺ غيره، فقد كان يرغب المسلمين في

التكثير من التزويج فعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: (قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ تَزَوَّجْتَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً).^(١)

يقول ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: ((وكانه أشار إلى أن ترك التزويج مرجوح إذ لو كان راجحاً ما آثر النَّبِيُّ ﷺ غيره، وكان مع كونه أخشى الناس لله وأعلمهم به يكثر التزويج لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يطلع عليها الرجال، ولإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة؛ لكونه كان لا يجد ما يشبع به من القوت غالباً، وأن وجد كان يؤثر بأكثره ويصوم كثيراً ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف على نساءه في الليلة الواحدة، ولا يطاق ذلك الا مع قوة البدن؛ وقوة البدن كما تقدم في أول أحاديث الباب تابعة لما يقوم به من استعمال المقويات من مأكول ومشروب وهي عنده نادرة أو معدومة، ووقع في الشفاء أن العرب كانت تمدح بكثرة النكاح لدلالته على الرجولية، إلى أن قال: ولم تشغله كثرتهم عن عبادة ربه؛ بل زاده ذلك عبادة لتحسينهن، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن، وكأنه أراد بالتحسين قصر طرفهن عليه، فلا يتطلعن إلى غيره؛ بخلاف العزبة فإن العفيفة تتطلع بالطبع البشري إلى التزويج، وذلك هو الوصف اللائق بهن)).^(٢)

هناك حِكْمٌ من استكثار النَّبِيِّ ﷺ من النساء؛ ذكرها أهل العلم، ولخصها ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في عشرة أوجه؛ فقال: ((والذي تحصّل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النساء عشرة أوجه تقدمت الإشارة إلى بعضها:

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب كثرة النساء، رقم ٥٠٦٩، ٣/٧.

(٢) العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري، ١١٤/٩.

أحدها: أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة، فينتفي عندما يظن به المشركون من أنه ساحر، أو غير ذلك.

ثانيها: لتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم.

ثالثها: للزيادة في تألفهم لذلك.

رابعها: للزيادة في التكليف حيث كلف أن لا يشغله ما حجب إليه منهن عن المبالغة في التبليغ.

خامسها: لتكثر عشيرته من جهة نساءه، فتزداد أعوانه على من يحاربه.

سادسها: نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال؛ لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله.

سابعها: الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة، فقد تزوج أم حبيبة رضي الله عنها وأبوها إذ ذاك يعاديه، وصفية رضي الله عنها بعد قتل أبيها وعمها وزوجها، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه، بل الذي وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن.

ثامنها: ما تقدم مبسوطاً من خرق العادة له في كثرة الجماع مع التقلل من المأكول والمشروب، وكثرة الصيام والوصال، وقد أمر من لم يقدر على مؤن النكاح بالصوم، وأشار إلى أن كثرته تكسر شهوته، فانخرقت هذه العادة في حقه صلى الله عليه وسلم.

تاسعها وعاشرها: ما تقدم نقله عن صاحب الشفاء من تحصيلهن والقيام بحقوقهن،

والله أعلم)).^(١)

(١) المصدر السابق، ٩/١١٤.

هل من المعقول أن رجلاً يدع الزواج في شبابه من النساء ويقتصر على امرأة كبيرة في السن كخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو كسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حتى يصل الخمسين من عمره ثم فجأة يجد في نفسه شهوة عارمة فيتزوج بمثل هذا العدد الكبير من النساء؟! هذا لا يقوله إنسان عاقل بل لا يقوله إلا مكابر فاجر.

لو كان المراد من كثرة زواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشهوة والاستمتاع لكان تزوج بالأبكار النواهد، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أين طريق الاستمتاع والشهوة؛ يحكي جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: (أَتَزَوَّجْتَ؟) قال: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ثَيِّبًا، قَالَ: فَهَلَا بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ).^(١) فهل يعقل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتزوج الأراامل ويترك الأبكار، ويتزوج في سن الشيخوخة، ويترك سن الشباب، إذا كان غرضه الاستمتاع والشهوة؟!.

معلوم أن الصحابة كانوا يفدون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل ما يملكون، فلو أنه طلب الزواج من فتياتهم لما تأخر أحد منهم عن تزويجه بمن شاء من الأبكار الجميلات.

هذا يدحض شبهة كل مفتر أفاك أثيم يريد أن يطعن في سمعة وكرامة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان زواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا لحكم جليلة، وغايات نبيلة، وأهداف سامية.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة، رقم ٥٢٤٧، ٣٩/٧.

الشبهة الثانية: اتهامه النَّبِيِّ ﷺ أنه رأى زوجة ابنه بالتبني وهي عارية، فوقع حبّها في قلبه، فطلقها زيد ليتزوجها النَّبِيُّ ﷺ.

يتضح ذلك في قوله: ((وأطلق محمّد العنان لذلك الحب، حتّى إنّه رأى زوجة ابنه بالتبني وهي عارية، فوقع في قلبه منها شيءٌ فسرحها بعلمها ذلك ليتزوجها محمّد، فاغتمّ المسلمون، فأوحى إلى محمّد، بواسطة جبريل الذي كان يتّصل به يومياً، آياتٌ تسوّغ ذلك، فانقلب الانتقاد إلى سكوت)).^(١)

الرد على الشبهة:

شغب غوستاف لوبون وإخوانه المستشرقين في قضية زواج النَّبِيِّ ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وهمزوا ولمزوا وطعنوا في النَّبِيِّ ﷺ من خلال هذه القضية فوصفوه رضي الله عنه بأمر لا تليق بمقام النبوة.

واعتمدوا في طعنهم هذا بما ورد من روايات في بعض كتب التفسير وكتب السير لهذه القصة، وكأنهم يقولون نحن لا نفتري عليكم، فها هي كتب التفسير وكتب السير تحكي ذلك، وقد أورد أصحاب هذه الكتب ذلك صراحة في كتبهم وتفسيرهم.^(٢)

والرد عليهم سيكون كالتالي:

أولاً: ظاهرة التبني كانت شائعة بين العرب في الجاهلية واستمرت في أول الإسلام حتى أراد الله إلغاء تلك الظاهرة المضرة بكيان الأسر وما يتبعها من خلافات في الموارث

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

(٢) انظر: الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١١٦/١٩. والرازي: فخرالدين، مفاتيح الغيب، ٣٥٤/١٢. وابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، الجواب الكافي، ص ٢٣٧. والزنجشيري: أبو القاسم محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٥٤٠/٣.

والنزاعات الأسرية، فأنزل الله في إبطال التبني قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، كما قصد الإسلام إذابة الفوارق الطبقية بين الناس وإقامة العلاقات الأسرية على أساسها الصحيح، فألمه الله نبيه محمد ﷺ أن يخاطب زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وهي من أشرف قريش - لمولاه زيد ابن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووافقت زينب على ذلك، فتزوجها زيد ومكثت عنده ما يقرب سنة. (١) وكان زواج زيد بن حارثة لزینب بنت جحش بمنزلة التمھید لإلغاء التبني كما كان كسراً لعنفوان النزعات الطبقية.

ثم نشأت بينهما خلافات لم يطبقا معها تحمل الحياة الزوجية، وقد استشار زيد رسول الله ﷺ في طلاق زينب وأوضح له بعض الأسباب الداعية إلى ذلك فأشار عليه رسول الله ﷺ بأن يمسك زوجته، علماً بأن الله تعالى قد أخبر رسوله ﷺ بأن زينب ستكون من أزواجه بعد أن يطلقها زيد، ولكن رسول الله ﷺ كان يستحي من إظهار ذلك إذ لم يأمره الله بإظهاره، كما كان يخشى أن يقول المنافقون: تزوج محمد بزوجة ابنه بالتبني، وكان يرجو من الله تعالى أن يعفيه من هذا التكليف ولكن كان أمر الله مفعولاً.

ثم صمم زيد على مفارقة زوجته زينب فطلقها، وبعد انقضاء عدتها تزوجها رسول الله ﷺ لحكمة تشريعية بيّنها ﷺ في كتابه العزيز فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

هذه كانت لمحة سريعة عن زواج النبي ﷺ بزينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثانياً: إن ما نقله بعض المفسرين في أسباب زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، منها الصحيح الذي يتفق مع نصوص القرآن الكريم وصحيح السنة، ومنها ما يتعارض مع القرآن الكريم ويتناقض مع الواقع التاريخي والمنطق العلمي الصحيح لسير الأنبياء وعصمتهم،

(١) انظر: ابن كثير: أبو الفداء أسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٤٢٤/٦.

وقد تساهل بعض المفسرين في إثبات بعض الروايات البعيدة عن منطق الوقائع وروح الآيات القرآنية. ولقد أثار هذا الخلط في الروايات مزاعم ينفر منها الحق ويأبأها الواقع، ثم جاء خصوم الإسلام فتلقفوا هذا التخليط وضموه إلى مآخذهم التي يحاولون بها إثارة الغبار حول نزاهة رسول ﷺ، ولقد دس المنافقون على زواج النبي ﷺ من زينب أباطيل كثيرة، وللأسف أن بعض المسلمين سجل هذه الأباطيل في كتبهم.

هذه الروايات التي وردت في كتب بعض الأئمة الأعلام كابن جرير وابن سعد والبعغوي والرازي وغيرهم، وأمثالها كالتالي جاء بها غوستاف لوبون، جميعها روايات واهية سنداً وامتناً، وقد انبرى وتصدى لهذه الروايات بعض الأئمة وناقشوها وردوها وبينوا ضعفها ووهنها؛ إما لانقطاع في السند، أو ضعف في الرواة، أو نكارة واضطراب في المتن.^(١)

من هؤلاء العلماء والأئمة ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ قَالَ: ((ووردت آثار أخرى أخرجها بن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها))^(٢) وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثاراً عن بعض السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها))^(٣).

ثالثاً: تتفق تلك الروايات الواهية على أن إعجاب النبي ﷺ بزينب ووقوع حبها في قلبه جاء متأخراً، أي بعد أن تزوجها زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهذا يخالف الواقع، لأن ((زينب بنت عمه، رُئيت تحت نظره، وشملها برعايته، وكان يعرفها ويراها، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة، وهو ﷺ الذي اختارها لمولاه زيد بن حارثة زوجة، ولم يبال بإبائها ورغبتها عن زيد، ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر في رواه ونضرة جُدته.

فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لمولاه، يرفض

(١) للتوسع في نقد هذه الروايات سنداً وامتناً؛ انظر: الألمي: زاهر بن عواض، مع المفسرين

والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش، ص ١٩ وما بعدها.

(٢) العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري، ٥٢٤/٨.

(٣) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٤٢٥/٦.

العاقل مثل هذا لمؤمن عادي أن ينظر إلى زوجة جاره أو صديقه نظرة بشهوة، هذا قد يكون في مجتمع الغرب اليوم، أما في مجتمع الإسلام وبيئته لا يكون^(١)؛ فلو كان يهواها أو وقعت في قلبه لما منعه شيء من الزواج بها، فإشارة منه ﷺ كافية لأن يقدموها له، بل قد ورد أنها ((وهبت نفسها له)).^(٢)

رابعاً: لو افترضنا جدلاً أن حبّها وقع في قلبه ﷺ متأخراً بعد رؤيته لها عند زيد بن حارثة، فما الدليل على وقوع حبها في قلبه ﷺ؟ وكيف فهم زيد ذلك؟ وكيف عرفت زينب رضي الله عنها أن حبّها وقع في قلبه؟

فإن قالوا: لقوله ﷺ - في بعض الروايات الضعيفة -: (سبحان مصرف القلوب) عندما رآها فهذا لا يلزم - وإن صحت الرواية - أنه يفهم منها أنه ﷺ وقع حبّها في قلبه، وكيف ذلك وهو الذي نهى عن أن يحب الرجل امرأة غيره عليه؟ أفيعمل ما قد نهى أمته عنه؟! فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَبَبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا).^(٣)

خامساً: لا يصح تفسير هذه الآية على ضوء هذه الروايات الساقطة سنداً وامتناً، خاصة أنه قد وردت روايات أخرى في تفسير الآية تفسيراً منطقياً لا إشكال فيه ولا نكارة، فالذي يخفيه ﷺ هو ما أعلمه ربه أنه ستصبح زوجة له، والذي يخشاه هو مقولة الناس إنه تزوج حليمة من كان يدعى إليه.

فلا يصح ترك هذه الروايات الصحيحة والتي لا مطعن فيها، والذهاب إلى تلك الروايات الشاذة الغريبة، وتفسير الآيات على ضوئها.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٠٤.

(٢) ابن العربي: محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، ٣٥٩/٦.

(٣) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب الطلاق، باب من حبيب امرأة على زوجها، رقم ٢١٧٥، ٥٠٣/٣. وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي. انظر: الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح أبي داود، رقم ١٨٩٠، ٣٨٥/٦.

المطلب الثاني

تشكيك غوستاف لوبون في وفاء زوجات النبي ﷺ له

درج أعداء الإسلام قديماً وحديثاً على الطعن في أمهات المؤمنين، وتشكيك المسلمين في وفاء زوجات النبي ﷺ له، وسلك غوستاف لوبون المسلك نفسه؛ ويتضح ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: التشكيك في وفاء زوجات النبي ﷺ له، خصوصاً عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

يتضح ذلك في قوله: ((ولم يثبت تماماً وفاء زوجات محمد الكامل له، ويظهر أن محمداً لاقى من المكاره الزوجية ما يندر وجوده عند الشرقيين، ويكثر وقوعه لدى الأوروبيين، وكانت عائشة، على الخصوص، موضوع قلق له، وأصبحت ذات مرّة موضع قالة سوء، فشهد جبريل، المحب للخير على الدوام، بعصمتها، فدوّنت شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن، فَحُظِرَ الشُّكُّ)).^(١)

الرد على الشبهة:

كيف يرى البعض غوستاف لوبون أنه من المنصفين والمعتدلين والمحايدين، وهو يزعم هذه المزاعم الباطلة التي لا أساس لها في كتب التاريخ أو كتب السيرة؛ هذه المزاعم المتعصبة الحاقدة البعيدة كل البعد عن الحقائق التاريخية.

فمن أين جاء لوبون بهذه المزاعم، وما الدليل على قوله: أنه "لم يثبت تماماً وفاء زوجات محمد الكامل له"؟ وما الدليل على قوله: أن النبي ﷺ "لاقى من المكاره الزوجية ما يندر وجوده عند الشرقيين"؟ ومن أين جاء بقوله: إن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا "كانت موضوع قلق للنبي"؟!

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

ألا يعلم غوستاف لوبون المؤرخ الكبير وعالم الاجتماع أن كتب التاريخ والسيره تتنافى مع أقواله ومزاعمه؟ ألا يعلم أن كتب السنة والتاريخ والسيره تزخر بذكر فضائل أمهات المؤمنين وحسن عشرتهن.

لكن لا عجب أن يصدر مثل هذا التشكيك والتضليل والافتراء في حق رسول الله ﷺ، فقد درج أعداء الإسلام منذ القدم على ذلك، ليشككوا المؤمنين في دينهم، ويبعدوا الناس عن الإيمان بالدين الحق؛ ولكن هي سنة الله في خلقه؛ ولن تجد لسنة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

لقد رضي الله سبحانه عن أزواج النبي ﷺ وارتضاهن لنبيه ﷺ، ولقد عاش النبي ﷺ ومات وهو راضٍ عن أزواجه، وكرمهن الله سبحانه في كتابه الكريم بأن جعلهن أمهات للمؤمنين، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فكان هذا وساماً على صدورهن تكريماً وتشريفاً وتوقيراً لهن؛ لدورهن في مسيرة الدعوة.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ((أي: في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام))^(١). فكيف يكرمهن الله ﷺ هذا التكريم وفي نفس الوقت لم يكن أوفياء للنبي ﷺ، وكن يسبين للنبي ﷺ من المكاره والقلق الشيء الكثير على زعم غوستاف لوبون؟!!

إضافة إلى فضل الأمومة التي أكرمهن الله بها؛ فلهن كذلك فضل صحبة النبي ﷺ، ومن مناقبهن أنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة إيثاراً منهن لذلك على الدنيا وزينتها، فأعد الله لهن على ذلك ثواباً جزيلاً وأجرًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِّأَزْوَاجِكَ إِن

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٦/٣٨٠.

كُنْتُ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٣٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٩﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي فَقَالَ: إِنِّي
ذَاكِرٌ لِكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبِيكَ، قَالَتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبِيَّ لَمْ
يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ تَنَاوُهُ قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ
كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٣٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٩﴾ قَالَتْ: فَقُلْتُ:
فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبِيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ
ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ. ^(١))

من المناقب التي شرفهن بها رب العالمين وأخبر بها عباده في كتابه العزيز أنهم لسن
كأحد من النساء في الفضل والشرف وعلو المنزلة، قال تعالى: ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ
النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٢] فقد بين المولى ﷺ في هذه الآية أنه لا يلحقهن من نساء الناس
في الشرف والفضل، كما بين أن هذا الفضل إنما يتم لمن بشرط التقوى لما منحهن الله من
صحبة الرسول ﷺ وعظيم المحل منه ونزول القرآن في حقهن، يقول السعدي رحمته الله في
تفسير هذه الآية: ((يقول تعالى: ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ خطاب لمن كلهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وَإِنْ) كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)، رقم ٤٧٨٦، ١١٧/٦.

النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ ﴿٣٣﴾ اللهُ، فإنكن بذلك، تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكمّلن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها. (١)

من مناقبهن أن الله أخبر أنه طهرهن من الرجس تطهيراً، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

يكفي هؤلاء النسوة أنهن عشن في بيت النبوة، وكن من أهل بيت النبي ﷺ، وقد كان النبي ﷺ يوصي بهن خيراً، قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدعى حُمًا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد؛ ألا أيها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورعّب فيه، ثم قال: وأهل بيّتي؛ أذكركم الله في أهل بيّتي، أذكركم الله في أهل بيّتي، أذكركم الله في أهل بيّتي. (٢)

هذا كله يرد ويدحض مزاعم وافتراءات غوستاف لوبون، وكل من أراد النيل من النبي ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

أما قول غوستاف لوبون بأن عائشة رضي الله عنها كانت موضوع قلق للنبي ﷺ، فهذا القول

يدحضه كل ما جاء سابقاً؛ إضافة إلى شهادة النبي ﷺ لها بأنها أحب أزواجه إليه بعد خديجة رضي الله عنها، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ: (أيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ:

(١) السعدي: عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٦٣.

(٢) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم ٦٣٧٨، ١٢٢/٧.

عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ فَقَالَ أَبُوهَا).^(١) وهذا الحديث فيه منقبة عظيمة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهي أنها أحب الناس إلى قلبه، قال الحافظ الذهبي: ((وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض، وما كان عليه السلام ليحب إلا طيباً... فأحب أفضل رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حري أن يكون بغيضاً إلى الله ورسوله، وحببه عليه السلام لعائشة كان أمراً مستفيضاً)).^(٢)

هي المبرأة من فوق سبع سماوات؛ الصديقة بنت الصديق، ونزل القرآن ببراءتها وطهرها عندما رميت بالإفك؛ آيات تتلى حتى قيام الساعة، ((هل يجوز لإنسان ما أن يفترى على امرأة رآها في ظرف معين مع رجل غريب، فيتهمها بشرفها؟ فكيف إذا كانت هذه المرأة زوجة لرسول كعائشة، أو أمّاً لنبيّ كريم، إنَّ عائشة برّأها ربُّ السَّماء، وليس جبريل، كما برّأ مريم ربُّ السَّماء ممّا اتَّهمها به اليهود)).^(٣)

يقول ابن القيم: ((ومن خصائصها أن الله سبحانه برّأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحياً يتلى في محارِبِ المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعدّها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شراً لها، ولا عائباً لها، ولا خافضاً من شأنها؛ بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسما، فيا لها من منقبة ما أجلها.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب لو كنت متخذاً خليلاً، رقم ٣٦٦٢، ٥/٥.

(٢) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ١٤٢/٢.

(٣) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٠٨.

وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها؛ حيث قالت: ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله رؤيا يرئني الله بها).^(١)

من مناقبها وفضلها ومكانتها عند رسول الله ﷺ قوله ﷺ: (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ).^(٢) ولم ينزل الوحي عليه ﷺ في لحاف امرأة سواها، وبسببها شرع التيمم، وكانت أعلم نساء النبي ﷺ بل هي أعلم النساء على الإطلاق؛ فقد كان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى قولها ويستفتونها، وكان جبريل ﷺ يقرئها السلام، ومن مناقبها عدم قبول النبي ﷺ الشكوى في حقها، ومن فضائلها أن النبي ﷺ لما لحق بالرفيق الأعلى كان في بيتها، وبين سحرها ونحرها، وكان مسنداً ظهره إلى صدرها، وجمع الله بين ريقه وريقها في آخر ساعة من ساعاته في الدنيا وأول ساعة من الآخرة، ودفن في بيتها...

لولا خشية الإطالة لكنت أوردت الأحاديث والأدلة من كتب السنة في فضلها ومناقبها ﷺ، ولكنت أوردت أقوال أهل العلم وشروحاتهم وتعليقاتهم على هذه الأحاديث وعلى سيرتها الطاهرة.

كيف جهل لوبون كل ذلك، بل كيف تجاهل كل هذه النصوص والآثار المتناثرة في كتب السنة والتاريخ والسيرة؟ وكيف بعد هذا كله يزعم أنها كانت موضوع قلق للنبي ﷺ؟!.

(١) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، جلاء الأفهام، ص ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، رقم ٣٤١١، ١٥٨/٤.

المطلب الثالث

زعم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ كان قليل المسامحة نحو النساء

غوستاف لوبون كعادته يحلل النصوص والروايات والأحداث بعقليته الغربية المستمدة عن الفهم القاصر والمغلوط الذي يجهل حقيقة الإسلام، والهوى والبعد عن التجرد العلمي واضح وضوح الشمس في أقواله، ويظهر ذلك من خلال شبهته التالية:

الشبهة: اتهام الرسول ﷺ بأنه كان قليل المسامحة نحو النساء مع ضعفه نحوهن.

يتضح ذلك في قوله: «(وكان محمدٌ قليل المسامحة نحو النساء، مع ضعفه نحوهن، وهو، مع أنه لم يبلغ في شدته درجة رجال التوراة، وصفهن في القرآن بأهنّ ينشأن في الحلية، ويخاصمن من غير سبب)»^(١).

الرد على الشبهة:

ما الدليل على أن النبي ﷺ كان قليل المسامحة مع النساء؟ ألا يعلم غوستاف لوبون أن الله ﷻ هو الذي وصف النساء بهذا الوصف في القرآن؛ وليس النبي ﷺ؟ فلماذا المغالطات في ذلك؟ ولماذا لا يرجع إلى المفسرين المسلمين لمعرفة معاني تلك الآيات ومناسبتها؟

إن الله ﷻ تكلم بهذه الآيات في سياق إنكاره على كفار قريش؛ كونهم جعلوا الله الإناث دون الذكور وذلك في زعمهم إن الملائكة بنات الله، فأنكر الله عليهم ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ أم اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ١٩﴾ [الرُّحُوف: ١٥-١٩]. فهذا إنكار من الله ﷻ على كفار

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٢.

قريش حيث زعموا أن الله اتخذ لنفسه البنات واصطفاهم بالبنين. وفي قوله ﷻ: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزحرف: ١٨] أي: أو جعلوا لله من شأنه أن يترى في الزينة من الذهب والفضة والحرير ونحوها؛ مع أنه في الجدل غير قادر على تقرير دعواه بالحجة والبرهان، ولذا يلجأ إلى البكاء إذا عجز عن الدفاع. أليق أن ينسب هذا إلى الله؟ إذا كنتم لا تحبون أن تنسب إليكم الإناث؛ فكيف تصفون الملائكة بالإناث وتقولون أنهم بنات الله وتنسبون ذلك له ﷻ؟ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﷻ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من حجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟.

ثم قال: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلبي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟! فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلبي وما في معناه، ليحبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الْحَلِيُّ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيصَةٍ ... يُتَمَّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصْرًا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالُ مُؤَفَّرًا ... كَحُسْنِكَ لَمْ يَخْتَجِ إِلَى أَنْ يُزَوَّرَا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بُشِّرَ بِنْت: ما هي بنعم الولد؛ نصرها بالبكاء، وبرها سرقة^(١).

هذا الوصف للأنتى ليس ذمًا، وإنما هو حق؛ فالأنتى من فطرتها أنها تحب الزينة وتترى عليها، وأنها لا تحسن الدفاع عن نفسها في الخصام.

يقول أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللهُ: ((قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ أي: يُرى وينبت. وقرئ: أَوْ مَنْ يَنْشَأُ أَي: يَنْبِت. وقوله: ﴿فِي الْحَلِيَّةِ﴾ أي: في الحلبي، والحلية: الزينة، والمعنى: أنها مشغولة بزينتها ليس لها رأي في الأمور، ولا تصرف في الأشياء.

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: في الجدل ضعيف القول. وفي التفسير: قلما تكلمت امرأة بحجة فأمكنها أن تبلغ حجتها، ويقال: قلما تكلمت امرأة بحجة إلا وتكلم ما يكون حجة عليها، والآية وردت للإنكار عليهم، يعني: أنكم جعلتم نصيبي من عبادي مثل هؤلاء، وجعلتم نصيبيكم البنين^(٢).

هل هذا يعني أن النَّبِيَّ ﷺ كان قليل التسامح مع النساء؟! سبحان الله! لا ينفك غوستاف لوبون عن التلاعب بالمصطلحات والألفاظ، والتحريف في تفسير الأحداث، وعرضها عرضاً مشوهاً.

إن المرأة في الإسلام بلغت منزلة عالية، لم تبلغها ملّة ماضية، ولم تدركها أمة تالية، إذ إن تكريم الإسلام للإنسان تشترك فيه المرأة والرجل على حد سواء، فهم أمام أحكام الله في هذه الدنيا سواء، كما أنهم أمام ثوابه وجزائه في الدار الآخرة سواء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال ﷺ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٧/٢٢٣.

(٢) السمعاني، أبو المظفر منصور، تفسير القرآن، ٥/٩٥. وانظر: الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٠/٥٦٤-٥٦٥.

وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ [النساء: ٧]،
 وقال ﷺ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
 وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ
 لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
 صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ
 مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال ﷺ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]،
 وقال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]

هذا التكريم الذي حظيت به المرأة في الإسلام لا يوجد له مثيل في أية ديانة أو ملة أو
 قانون، وسأورد كلاماً لغوستاف لوبون يقرر ذلك بنفسه، ويعترف به؛ حيث يقول: ((إنَّ
 الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسيَّة، وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام إذن؛
 لا النَّصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد
 الشائع، فإذا نظرت إلى سنيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى، رأيتهم لم يحملوا
 شيئاً من الحُرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في
 هذا الأمر، وعلمت أن رجال الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من
 العرب أمر معاملتهن بالحسنى)).^(١)

يقول أيضاً: ((ومن الأدلَّة على أهميَّة النَّساء أيَّام نضارة حضارة العرب، كثرة من اشتهر
 منهن بمعارفهن العلميَّة والأدبيَّة، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العبَّاسي في
 المشرق، والعصر الأموي في إسبانيا)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

يقرر لوبون أن حالة النساء في الإسلام أفضل من حالة النساء في أوروبا، وأن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.

فيقول: ((وما تقدّم يثبت أنّ نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كلِّ حال... لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل تُضيف إلى هذا، أنّه أوّل دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا ببياننا أنّ جميع الأديان^(١)، والأُمم التي جاءت قبل العرب، أساءت إلى المرأة)).^(٢)

يذكر لوبون في سياق رده على الأوروبيين الذين يفترون الكذب على النساء في الشرق: ((كلمة الحرّيم لفظٌ عام يدلُّ عند العرب على كلّ ما هو مقدّس، فإذا ما طبقت هذه الكلمة على منزل دلت على أمنع قسم منه وأشدّه حرمة لدى المسلم، أي على المكان الذي تسكنه نساؤه، وينسج الأوروبيون على العموم، أفسد الآراء حول دوائر الحرّيم في الشّرق)).^(٣)

فإذا كان هذا موقف لوبون من المرأة في الإسلام، فلماذا التناقض والمغالطات ما بين حين وآخر؟.^(٤)

(١) الدين الإلهي لا يسيء؛ بل فيه كل الخير والهداية والصلاح للبشرية، ولكن الأديان المحرفة والمبدلة هي التي تفعل ذلك.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٣.

(٤) وسيأتي الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام في الباب الرابع من هذه الدراسة إن شاء الله.

الفصل الثاني

موقف غوستاف لوبون من أحداث الدعوة المكية وأحداث ما بعد الهجرة النبوية

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أحداث الدعوة المكية وما جاء فيها من مغالطات

عند غوستاف لوبون

المبحث الثاني: آراء غوستاف لوبون في أحداث ما بعد الهجرة النبوية

المبحث الأول

أحداث الدعوة المكية وما جاء فيها من مغالطات عند

غوستاف لوبون

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: نظرة غوستاف لوبون للوحدة السياسية والدينية عند العرب

قبل البعثة

المطلب الثاني: سر قوة النبي ﷺ عند غوستاف لوبون

المطلب الثالث: المعجزات ونظرة غوستاف لوبون لها

المطلب الرابع: نظرة غوستاف لوبون لأحداث بيعة العقبة

المطلب الأول

نظرة غوستاف لوبون للوحدة السياسية والدينية عند العرب قبل البعثة

أحوال العرب في الجزيرة العربية قبل مبعث النَّبِيِّ ﷺ معلومة لدى كل المثقفين المسلمين وغير المسلمين، ومدونة في كتب التاريخ والسير، حيث لم تكن للعرب أي وحدة سياسية أو دينية أو اجتماعية؛ بل كانوا في ظلمات بعضها فوق بعض، والغريب أن غوستاف لوبون خالف كل هذه الحقائق التاريخية وزعم أن العرب كانت لديهم وحدة سياسية ودينية قبل البعثة؛ ويتضح ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: الزعم بأنَّ العرب اتَّجَّهوا إلى الوحدة السياسيَّة والدينيَّة قبل الإسلام.

يتضح ذلك في قوله: «(وعلائم اتَّجَّاه العرب أيَّام ظهور محمَّد إلى الوحدة السَّياسِيَّة والدينيَّة كثيرة، وما حدث من الثُّورة على الأوثان في عهد قياصرة الرُّومان، حدث مثله في جزيرة العرب، حيث ضعفت المعتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها، ودبَّ الهرم في آلهتها، والآلهة مما يجب ألاَّ يهرم)»^(١).

الرد على الشبهة:

من أين جاء لوبون بأن العرب كانت لديهم وحدة سياسية قبل مبعث النَّبِيِّ ﷺ؟ ومن أين جاء بأن العرب أحدثوا ثورة على الأوثان والأصنام، وأن عبادة الأصنام فقدت نفوذها؟

ألا يعلم لوبون أن الحالة السياسية في الجزيرة العربية كانت مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية؟ حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت، وإن ترشد غزية أرشد^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٠.

(٢) أبو تمام: حبيب بن أوس، ديوان الحماسة، ص ١٤٥. والبيت لدريد بن الصَّمَّة.

ألا يعلم أن الجزيرة العربية والحجاز بالذات كان الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهلها، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم؟

((إن أحوال العرب قبل مبعثه ﷺ غير خافية على من له شيء من الخبرة، فإن ظلمات الكفر والطغيان قد كانت متراكمة على ضواحي الدنيا، لم يكن يُعرف الحق من الباطل، ولم يكن فيهم من كان يعبد الله على حرف، وكانت الكلمة الإبراهيمية قد انطمست، والملة الحنفية قد اندرست وانعدمت، ومصايح الهداية أطفئت، ورياح العلوم الحقة ركدت، حتى إنهم كانوا عاجزين أن يفهموا أن لهم رباً، فنحتوا الأصنام وعبدوها.

أما أخلاقهم فلا تسأل عنها، كان سفك الدماء، وهتك الأعراض، ونهب الأموال من عظم مفاخرهم، يبولون كما يبول الإبل، يمشون وهم عراة، لا يفرقون بين المحرم وغيرها، يرثُ أكبر الأبناء زوجةً أبيه، يئدون البنات، قاموا لعصبيّة الجاهلية، ودعوا لعصبيّة الجاهلية، وإذا هاج شر قضم بعضهم كالفحل، وعاثوا في الأرض، حتى انقطعت السُّبل والتجارة، وتعذر الخروج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا في تَرَحٍّ وَمَرَحٍ، إذ بعث الله فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فلم يترك شيئاً من دينهم وديانهم إلا وعلمهم، حتى سادوا الناس وملكوا الأرض، فضُربت بهم الأمثال، واهتزت الأرض من الأنوار الإلهية، وملئت عدلاً وأمنًا، وأخرجت الكلمة شطأه حتى قامت على سوقها ليغيظ بها الكفار)).^(١)

(١) الديوبندي: محمد أنور شاه، فيض الباري على صحيح البخاري، ١/٨٩.

كان حول الكعبة ثلاث مائة وستون صنماً،^(١) بل اتخذ أهل كل دار صنماً لهم في دارهم. وعندما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً طهر البيت الحرام من هذه الأوثان والأصنام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوَّلَ الْكَعْبَةَ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصْبًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]).^(٢)

لكن غوستاف لوبون وغيره من المستشرقين لازمت كتاباتهم هذه المغالطات؛ والتي حاولوا من خلالها لي رقبة التاريخ لتنسجم وما يفترضونه مسبقاً بأن دعوة النبي ﷺ ما هي إلا نتاج تلك الحياة، وأنها نتيجة لتلك الظروف والتي يزعمون فيها بأن العرب كانت لديهم نزعات توحيدية تأثروا بها من خلال اتصالمهم باليهود والنصارى، وأن الأوثان والأصنام فقدت نفوذها.^(٣)

يقول شوقي أبو خليل: ((أما ما يذكره لوبون، من أن العرب أجهوا قبل ظهور محمد ﷺ إلى وحدة سياسية ودينية، وثورة منهم على الأوثان، وأن الأصنام فقدت نفوذها، فربما كان العكس هو الأصح، فقد كان العرب في حال من التجزئة السياسية والقبلية ينذر مثلها، كما كانت الكثرة منهم على تمسكهم بأصنامهم وأوثانهم، ومن كان على شيء من الوعي قال عنها: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا

(١) ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، ٤١٦/٢. وابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ٣٤٣/٩.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر، أو تحرق الزقاق، فإن كسر صنماً، أو صليماً، أو طنبوراً، أو ما لا ينتفع بخشبة؟، رقم ٢٤٧٨، ١٣٦/٣.

(٣) انظر: وات: مونتجمري، محمد في مكة، ص ٥٦. الحاج: ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي، ٤٣/٢.

إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ [الرُّم: ٣].

فأين لمس لوبون بوادر الوحدة السياسيّة والدينيّة؟ وأين رأى أو قرأ بوادر الكفر بالأصنام والأوثان لدى عامّة عرب الجزيرة، وقد قامت قريش -والقبائل معها- تقاتل محمّداً ﷺ بكلّ قواها، وبكلّ ما يمكن من تعبته وحشده؛ لأنّه سقّه أحلامهم التي تعبد أصناماً، وتركع أمام أنصاب، وتذبح لأوثان؟

لقد وصل الأمر ببعض قبائلهم إلى الإيمان بنبوّة محمّد ﷺ، ودعوته الجديدة، على أن يترك لهم صنماً يعبدونه، أو وثناً يقدّسونه).^(١)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٦٨.

المطلب الثاني

سر قوة النبي ﷺ عند غوستاف لوبون

النبوة اصطفاء إلهي، يصطفي الله ﷻ من عباده ويختار من يشاء لهذه المهمة، فهو ﷻ أعلم بمن يصلح لهذا الشأن، وهو ﷻ يختار الزمان والمكان لهذه الرسالة؛ وليس للنبي في ذلك من الأمر من شيء؛ ومن شبه غوستاف لوبون في هذا الموضوع؛ ما يلي:

الشبهة: الزعم بأن سر قوة الرسول ﷺ إدراكه بأن جمع العرب على دين واحد قد حان.

يتضح ذلك في قوله: «والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان، وهذا ما عرفه محمد، وفي الوجه الذي عرفه فيه سر قوته، وهو الذي لم يفكر قط في إقامة دين جديد خلافاً لما يقال أحياناً، وهو الذي أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله باني الكعبة، أي إله إبراهيم، الذي كان العرب يجلبونه ويعظمونه»^(١).

الرد على الشبهة:

لم يكن النبي ﷺ يعلم بأمر النبوة، ومن المؤكد أنه لم يفكر في إقامة دين جديد ليجمع الناس عليه؛ لأن الأنبياء دينهم واحد، والنبوة اصطفاء إلهي، ولقد جرت سنة الله في خلقه أن يصطفى من عباده لمهمة النبوة والرسالة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٠.

فالله ﷻ هو الذي يختار من يريد من عباده لهذه المهمة، وهو كذلك يختار الزمان والمكان لهذه الرسالة، وليس للرّسول أو النّبيّ من الأمر من شيء، ((فالنّبوة والرسالة محض فضل من الله يختص به من شاء من عباده، وهو سبحانه أعلم بمواقع فضله، ومحال رضاه، وأعلم بمن يصلح لهذا الشأن، فهو سبحانه صاحب الخلق والتدبير، والاختيار والاصطفاء، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤])).^(١)

ويزعم بعض الضلال من الفلاسفة وغيرهم من الفرق الضالة أن النبوة مكتسبة، فيزعمون أنه لو اجتمعت بعض الخصال في شخص ما فإنه يكون نبياً، ويزعمون بأن ((من هذب نفسه بالخلوة والعبادة وأخلى نفسه عن الشواغل العائقة عن المشاهدة، وراض نفسه، وهذبها، تهيأ للنبوة، وبناء على ذلك قالوا إن النّبيّ هو من اجتمعت فيه ثلاث خصال:

الأولى: أن يكون له اطلاع على المغيبات لصفاء جوهره وشدة اتصاله بالروحانيات العالية من غير سابقة تعلم ولا تعليم.

الثانية: أن تظهر على يديه خوارق العادات بحيث يؤثر بنفسه في قوى العالم المادي.

الثالثة: مشاهدة الملائكة لا أرواحها لما عنده من قوة التخيل، ويسمع كلامهم ووحيمهم إليه.

وبالتالي فإن مرجع الوحي عندهم إلى قوة الخيال لدى النّبيّ لا أن الوحي ينزل عليه حقيقة، فالقرآن إذا من عند النّبيّ وقد كذبهم الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ

(١) عثمان: عبدالرؤوف محمد، محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، ص ٢٢.

يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ [يونس: ٣٧-٣٩].^(١)

يقول شوقي أبو خليل: ((إِنَّ سِرَّ قُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ فِي مَعْرِفَتِهِ بَأَنَّ وَقْتُ جَمْعِ الْعَرَبِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ كَانَ قَدْ حَانَ، وَإِنَّمَا سِرُّ قُوَّتِهِ إِيمَانُهُ بِصَدَقِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مُسْتَمَدًّا تِلْكَ الْقُوَّةُ مِنَ اللَّهِ، الَّذِي امْتَلَأَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِيمَانًا بِهِ، وَتَسْلِيمًا لِإِرَادَتِهِ، وَتَنْفِيذًا لِتَعَالِيمِهِ.

وَإِنَّ الدِّينَ الْجَدِيدَ لَمْ يَفْكَرْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِإِقَامَتِهِ أَوْ إِقَامَةِ غَيْرِهِ، بَلْ مَا فَكَّرَ أَثْنَاءَ تَحْنُثِهِ فِي غَارِ حِرَاءٍ إِلَّا بَأَنَّ تِلْكَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، مَا هِيَ إِلَّا حِجَارَةٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، لَا تَضُرُّ إِنْ تَرَكْتَ، وَلَا تَنْفَعُ إِنْ عُبِدَتْ)).^(٢)

لذا فإن سِرَّ قُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ اصْطِفَاءُ اللَّهِ ﷻ لِعَبْدِكَ لَهُ بِالرَّسَالَةِ، وَذَلِكَ لِمَا حَبَاهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ صِفَاتٍ وَخَصَائِصٍ خَصَّهَا بِهِ عَنْ بَقِيَّةِ الْبَشَرِ؛ فَاللَّهُ سَبَحَانَهُ خَصَّ النَّبِيَّ ﷺ بِخَصَائِصٍ لَيْسَتْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ، وَهِيَئَاتُهَا تَهْيِئَةٌ خَاصَّةٌ تَنْسَابُ وَهَذِهِ الْمَهْمَةُ الْجَلِيلَةُ، وَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ أَكْمَلَ الْبَشَرَ خُلُقًا وَخَلْقًا، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا، وَأَوْفَرَهُمْ ذِكَاةً، وَأَبْرَهُمْ قَلْبًا؛ وَالنَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلَهُمْ وَخَاتَمَهُمْ.

(١) السفاريني: محمد بن أحمد، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضبية في عقد الفرقة المرضية، ٢/٢٦٨.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٦٨.

المطلب الثالث

المعجزات ونظرة غوستاف لوبون لها

المراد من المعجزات الشيء الخارق للعادة الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله فيكون ما يأتي به النبيّ معجزاً لغيره من سائر الناس، بحيث لم يقدرُوا عليه أفراداً أو جماعات؛ لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم، ولا تحصل المعجزة الخارقة للعادة إلا مع النبوة الصادقة،^(١) ومن تحبّطات غوستاف لوبون في ذلك؛ ما يلي:

الشُّبهة: إنكاره الخوارق والمعجزات التي حصلت للنبي ﷺ، واتهام المسلمين بنسبة الكثير منها إليه.

يتضح ذلك في قوله: ((ولم يقل محمدٌ إنّه يأتي بالخوارق مع إيمانه برسالته، وعزا

المسلمون إليه خوارق كثيرة مجارة للنعنات الشائعة القائلة بأنّه لا نبوة بغير خوارق)).^(٢)

الرد على الشبهة:

ما ورد في كتب السنة والسيره بخصوص المعجزات والخوارق التي حصلت للنبي ﷺ ليست مجارة للنعنات الشائعة القائلة بأنه لا نبوة بغير خوارق، وإنما هي حقائق ثابتة، وقد أرسل الله ﷻ رسله وأنبيائه إلى الأقوام والأمم المختلفة وأيدهم بمعجزات باهرة وآيات ظاهرة؛ فإن كذبهم المعارضون والمخالفون كانت آياتهم ومعجزاتهم دليل صدقهم وإثبات صحة كلامهم، فكان مع كل نبي من المعجزات الكثير التي على مثلها يؤمن من شرح الله صدره للإيمان.

(١) وللاستزادة في تعريف المعجزة، وخصائصها، انظر: ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، النبوات، ٤٨٤/١. القنوجي: أبو الطيب محمد صديق خان، قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، ص ١٠٣. الرومي: فهد بن عبدالرحمن، دراسات في علوم القرآن الكريم، ٢٥٧/١. مسلم: مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن، ص ١٥.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٣.

إذا كان ذلك في أنبياء الله السابقين وقد أرسلهم الله ﷺ إلى أقوامهم وأزمانهم، فإن الشأن أعظم مع نبي الله الخاتم وخير البرية محمد ﷺ حيث أرسله الله إلى البشر أجمعين، بل وشملت رسالته الجن والإنس، وامتدت دعوته عبر الأزمان والقرون فهو النبي الذي ختمت به رسالة الأنبياء قبله، وقد مده الله ﷻ من دلائل النبوة بالكثير، وهي دلائل من الوضوح والظهور ما لا يحتاج معها من صفا قلبه وخلصت نيته إلى كثير تفكر وتأمل.

إن معجزات رسول الله ﷺ لم يستطع أحد في السابق ولا في الحاضر معارضتها أو الإتيان بمثلها، وأعظم معجزاته ﷺ في ذلك القرآن الكريم، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَوْ مِنْ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).^(١) يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: ((قوله: (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ) دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه ولا يضره من أصر على المعاندة، قوله: (مِنْ الْآيَاتِ) أي: المعجزات الخوارق، قوله: (مَا مِثْلُهُ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ) ما موصولة وقعت مفعولاً ثانياً لأعطي، ومثله مبتدأ وآمن خبره، والمثل يطلق ويراد به عين الشيء وما يساويه، والمعنى: أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، و(عَلَيْهِ) بمعنى اللام أو الباء الموحدة، والنكته في التعبير بما تضمنها معنى الغلبة، أي: يؤمن بذلك مغلوباً عليه؛ بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه لكن قد يجحد فيعاند، كما قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤].

وقال الطيبي: الراجع إلى الموصول ضمير المحرور في عليه وهو حال أي مغلوباً عليه في التحدي، والمراد بالآيات: المعجزات، وموقع المثل موقعه من قوله: ﴿فَأُتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] أي: على صفته من البيان وعلو الطبقة في البلاغة... قوله: (وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ) أي: إن معجزتي التي تحدت بها الوحي الذي أنزل علي؛ وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: (بعثت بجوامع الكلم)، رقم ٤٩٨١، ٦/١٨٢.

يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه؛ بل المراد: أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشياً عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه^(١).

الآيات والمعجزات كلّها شهادة بالنبوة، وإخبارٌ بها، وتصديق للمخبر؛ فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها، وأنّ صاحب الآيات قد نبأه الله، وأوحى إليه؛ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء، وتستلزم أيضاً: صدق الإخبار بأنّه نبيّ.

(١) العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري، ٧/٩.

المطلب الرابع

نظرة غوستاف لوبون لأحداث بيعة العقبة

كان رسول الله ﷺ في المواسم يعرض نفسه على قبائل العرب ويخبرهم أنه نبي مرسل من الله، ويدعوهم إلى الإسلام، وكان ممن عرض نفسه عليهم نفر من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وفي الموسم الذي بعده قدم نفر من الأوس والخزرج فبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى، ثم تمت بيعة العقبة الثانية في الموسم الذي يليه، وهذه الأحداث العظيمة مدونة في كتب السنة وكتب السيرة والتاريخ بتفصيل دقيق، ولكن أبي غوستاف لوبون إلا أن يحرف ويبدل فيها؛ ومن ذلك ما يلي:

الشبهة: الزعم بأن أهل اليمن كانوا ينظرون إلى أهل مكة بعين الغيرة، وكانوا ينتظرون ظهور نبي، فاستهواهم حديث النبي فاعتقدوه النبي المنتظر، فحدثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضاً.

يتضح ذلك في قوله: «اغتنم محمدٌ موسم الحج ودعا إلى دينه أناساً من اليمن، كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغيرة، وكانوا ينتظرون، كما شائع بينهم، ظهور نبي، وقد استهواهم حديث النبي واعتقدوا هو النبي المنتظر، وقد حدثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضاً»^(١).

الرد على الشبهة:

الأوس والخزرج قبيلتان من قبائل يثرب، وليسوا من قبائل اليمن، وهم أخوان لأم وأب، ولكن أصلهم من اليمن، من قبائل الأزد، من سبأ، وأمهم قيلة بنت كاهل، امرأة من قضاة. ويقال لهم لذلك: أبناء قيلة^(٢).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٥.

(٢) انظر: ابن الأثير: عز الدين، الكامل في التاريخ، ٥٨٣/١، التميمي: محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول، ١١٦/١.

ولم يكن إسلام هؤلاء النفر مجرد الغيرة من أهل مكة كما يزعم غوستاف لوبون؛ بل هو إيمان وتصديق ويقين بأن محمداً ﷺ رسولٌ من الله، وأن دينه الذي جاء به هو الحق من عند الله ﷻ. وإلا لما جاء بقية الأنصار في الموسم الذي بعده ليباعوا النَّبِيَّ ﷺ ببيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، والتي ضحى الأنصار فيها بأنفسهم وأموالهم وأهليهم من أجل هذا الدين ونصرته والدفاع عنه، وعن النَّبِيِّ ﷺ.

فبايعوه ﷺ إذا قدم عليهم أن يمنعوهم على ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم؛ ولهم الجنة، فأين الغيرة من أهل مكة في ذلك؟! يقول شوقي أبو خليل في سياق رده على غوستاف لوبون: ((ونتساءل: لماذا لم يجد (لوبون) سبباً لإقبال أهل يثرب على اعتناق الإسلام، إلا غيرتهم من مكة؟! ألا يمكن أن يردَّ عليه: بأنَّ هذا السَّبب وحده كان يومئذٍ كافياً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ؛ لما كان للعصبية القبلية من آثار عميقة في نفوسهم، فكيف يقبلون أن يزعموا ويملكوا عليهم رجلاً من قبيلة يحقدون عليها، ويغارون منها؟)).^(١)

إنَّ الأوس والخزرج كانوا يسمعون من حلفائهم يهود المدينة أنَّ نبياً يبعث في هذا الزمان، فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد، ((وكانت الأنصار تحج، كغيرها من العرب، دون اليهود، فلما رأى الأنصار رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله، وتأملوا أحواله، قال بعضهم لبعض: تعملون والله يا قوم أنَّ هذا الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبِّقنكم إليه، وقدَّر الله بعد ذلك أنَّ اليهود يكفرون به، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]).^(٢)

فتحقق للأنصار هذا الفضل وهذا السبق لنصرة الله ﷻ، ونصرة دينه، ونصرة نبيه ﷺ، لا لمجرد الغيرة، وإنما إيمان وتصديق، وهم يعلمون أنهم بهذه البيعة سيواجهون المصاعب والشدائد والقتل من قبائل العرب، ولكنهم أبرموا هذه البيعة رغبة لما عند الله ﷻ.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ٨٣.

(٢) التميمي: محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول، ١١٦/١. بتصرف

فإنهم لما قاموا يبائعونه، أخذ بيده ﷺ أصغرهم أسعد بن زرارة رضي الله عنه فقال: (رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجهم اليوم مفارقة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعصمكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله فقالوا: أمط عنا يدك، فوالله ما نذر هذه البيعة ولا نستقبلها؛ فقاموا إليه رجلاً رجلاً، يأخذ منهم، ويعطيهم بذلك الجنة).^(١)

فرحم الله الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

(١) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٤٤٥٧، ٣٤٩/٢٢. والبستي: محمد بن حبان، الصحيح، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، رقم ٦٢٧٤، ١٧٢/١٤. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٦٣، ١٣٣/١.

المبحث الثاني

آراء لوبون في أحداث ما بعد الهجرة النبوية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نظرة لوبون لأحداث الحديبية وفتح خيبر

المطلب الثاني: رؤية لوبون في أسباب فتح مكة

المطلب الثالث: غزوات النبي ﷺ ونظرة لوبون لها

المطلب الأول

نظرة لوبون لأحداث الحديبية وفتح خيبر

تكاد لا تخلو كتب المستشرقين من العبث والتلاعب بالمصطلحات والألفاظ، والتحريف الواضح للكثير من الحقائق الثابتة، والتزييف في تفسيرات الأحداث التاريخية، ولم يسلم غوستاف لوبون من ذلك؛ ويتضح ذلك من خلال الشبهة التالية:

الشبهة: الرَّعْمُ بأنَّ رسول الله ﷺ كان يسعى إلى مد نفوذه، فتوجه إلى مكة ليفتحها، ولكنه اختار أن يبرم صلحاً، ويزعم لوبون أن هذا الصلح يُعد إخفاقاً، من أجل ذلك أراد النَّبِيُّ ﷺ أن يروِّح عن أصحابه فتوجه بهم إلى خيبر ليفتحها.

يتضح ذلك في قوله: ((عَظُمُ شأنُ مُحَمَّدٍ في عدَّةِ سنواتٍ، وأصبح لا بُدَّ له من فتح مكَّة حتَّى يعمَّ نفوذه، فرأى أن يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً إلى هذا الغرض، فجاء إلى البلد المقدَّس ومعه ألف وأربع مئة من أصحابه، فلم يُكتب له دخوله)).^(١)

وفي قوله: ((رأى مُحَمَّدٌ بعد ذلك الإخفاق^(٢) أن يروِّح أصحابه، فحفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصَّنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيَّام، والتي كان يقطن فيها قبائل يهودية، والتي كانت مقرَّ تجارة اليهود، ففتحها عنوة)).^(٣)

الرد على الشبهة:

عندما توجه النَّبِيُّ ﷺ مع أصحابه إلى مكة في السنة السادسة من الهجرة لم يكن يريد فتح مكة، ولم يكن يريد توسيع نفوذه كما يزعم غوستاف لوبون؛ وإنما خرج هو وأصحابه محرمين، ملبَّين، يسوقون الهدى، يريدون العمرة، فقد رأى رسول الله ﷺ رؤيا في منامه وهو

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٦.

(٢) يعني عدم دخول مكَّة بعد توقيع صلح الحديبية.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٧.

في المدينة؛ أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدى معظماً للبيت مقدساً له، فبشر النبي ﷺ أصحابه وفرحوا بها فرحاً عظيماً، فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي نشأوا على تعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها وشوقاً إليها، وقد تآقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليها تطلعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدهم حيناً إلى مكة، فقد وُلدوا ونشأوا فيها وأحبوها حباً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك، تهيأوا لتلك الزيارة العظيمة.

سمعت قريش بخروج النبي ﷺ وأصحابه فأعدوا العدة لكي يواجهوا النبي ﷺ ويقاتلونه ويمنعونه من دخول مكة، ولكن النبي ﷺ تجنّب مواجهة جيش قريش وسار بالصحابة إلى طريق آخر حتى وصل الحديبية، وهناك حُيس ﷺ من التقدم عندما بركت ناقته.

روى البخاري في حديث طويل: ((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ، فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِمَقَرَّةِ الْجَيْشِ، فَاَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّبِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَالَاتِ الْقُصُوءِ خَالَاتِ الْقُصُوءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا خَالَاتِ الْقُصُوءِ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ... (الحديث)).^(١)

لو أن النبي ﷺ أراد قتالاً لما تجنّب جيش المشركين، ولما أقسم على أن يستجيب لأي خطة تبادر بها قريش فيها تعظيم لحرمات الله، وهذا يدل على أنه لم يخرج من المدينة إلا لتعظيم البيت الحرام، وأداء العمرة.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم ٢٧٣١، ٣/١٩٣.

هنا أصرت قريش بكبرياتها وغطرستها على منع النبي ﷺ من دخول مكة، واتفق الطرفان على وثيقة صلح، والتي جاء فيها: ^(١)

- أن توضع الحرب بينهم عشر سنين.
- أن من شاء أن يدخل في عهد النبي ﷺ دخل، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش دخل.
- أن من جاء من المسلمين إلى قريش (مرتداً) فإنهم لا يردونه، ومن جاء من قريش إلى المسلمين (مسلماً فاراً بدينه) فإنهم يردونه.
- أن يرجع النبي ﷺ ولا يكمل عمرته هذه، وفي العام القادم يدخل مكة لكن معه السيوف في جرابها، ولا يمكث فيها إلا ثلاثة أيام فقط ثم يخرج.

تم الصلح وتحلل النبي ﷺ من عمرته، وحلق ونحر الهدى، وتبعه الصحابة في ذلك؛ ثم رجعوا إلى المدينة. فأين غوستاف لوبون من هذه الحقائق التاريخية؟ وهذه الروايات التي امتلأت بها كتب التفسير، والسنة، والسيرة، والتاريخ؟ وكيف يزعم أن النبي ﷺ خرج ليوسع نفوذه بفتح مكة؟! نفوذه بفتح مكة؟!!

يقول غوستاف لوبون: ((رأى محمدٌ بعد ذلك الإخفاق أن يروح أصحابه، فخفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام، والتي كان يقطن فيها قبائل يهودية، والتي كانت مقرَّ تجارة اليهود، ففتحها عنوة)).

هذا الكلام من غوستاف لوبون فيه تحبُّط واضح، واستنتاجات خاطئة، وافتراء على الحقائق التاريخية؛ وذلك من عدة أوجه:

(١) المصدر السابق. وانظر: ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، ٣١٧/٢. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ٢٣٤/٦.

أولاً: صلح الحديبية لم يكن إخفاقاً، لأن الأحداث التاريخية بعد صلح الحديبية تشهد بأن هذا الصلح كان فتحاً عظيماً على الإسلام والمسلمين، ومكسباً لم يكن يتصوره أحد، وأجمع على ذلك كل المؤرخين والخبراء العسكريين والسياسيين.

من أين استنبط لوبون أنه كان إخفاقاً؟ ألا يعلم أن هذا الصلح كان من أعظم الانتصارات في تاريخ الإسلام؛ لما تحقق من ورائه من نتائج عظيمة، ولقد سمّاه الله ﷻ فتحاً مبيناً، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: ((قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس؛ كلّم بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر - يعني من صناديد قريش - ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم؛ الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجاً وكانت الهدنة مفتاحاً لذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سميت فتحاً)).^(١)

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ مؤيداً كلام الإمام الزهري رَحِمَهُ اللهُ: ((فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه، فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وأفهموا من حيث أرادوا الغلبة)).^(٢)

(١) العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري، ٣٤٨/٥.

(٢) المصدر السابق.

قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ مؤيداً كذلك قول الزهري رَحِمَهُ اللهُ: ((والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل - في قول جابر بن عبد الله ﷺ - ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)).^(١)

أين الإخفاق في نظر غوستاف لوبون؟! للأسف أن هذا التخبط والاستنتاج الخاطئ وقع فيه الكثير من المستشرقين.

ثانياً: يزعم لوبون أن غزوة خيبر كانت مجرد ترويح للمسلمين لما حصل لهم من إخفاق في الحديبية ((فأين غاب الإنصاف عنه في هذه المسألة، وهل كان الرسول العظيم ﷺ يتسلّى مع أصحابه في جزيرة العرب، ويغزو ليروّح عن أصحابه؟ هل تناسى (لوبون) مواقف اليهود في الحجاز من النبي ﷺ ودعوته؟ وهل غاب عنه مواقفهم بعد بدر الكبرى وأُحد والخندق؟ أما جعل وافد اليهود برئاسة حُيَيِّ بن أخطب لغطفان، تحريضاً على الخروج، نصف تمر خيبر كل عام؟ فجمع اليهود الأحزاب حول المدينة لاستئصال الإسلام وأهله؟ وبعد الخندق، أقاموا تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ضمّ يهود تيماء وفدك ووادي القرى، مع غطفان، تحت زعامة سلام بن مشكم، هدفه غزو المدينة، فهل غاب هذا كله عن الدكتور لوبون، وخفي عليه خطرهم الذي تمثّل بمواقفهم الكثيرة في الدسّ والتآمر والكيد، وتأليب القبائل ضدّ الدولة العربية الإسلامية الفتية، وهل نسّمى حربهم، وردّ خطرهم، وإنهاء تأمرهم، ترويحاً عن النفس؟)).^(٢)

هذا ديدين المستشرقين، يقول المستشرق البريطاني بودلي: ((أن من أسباب فتح خيبر أن محمداً شاء أن يعوض خيبة الأمل التي فرضها على أصحابه في الحديبية)).^(٣)

(١) ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، ٢/٣٢٢.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٩٠.

(٣) بودلي: ر.ف، الرسول "حياة محمد"، ص ٢٤١. نقلاً عن: أحمد: مهدي رزق الله، مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات بودلي في كتابه «الرسول، حياة محمد» دراسة نقدية، ص ٦٩.

يقول المستشرق الألماني بروكلمان: ((كان على محمد أن يعرض خسارة أحد التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر، ففكر في القضاء على اليهود، فهاجم بني النضير لسبب واحد)).^(١)

وأكتفي بالرد على هذه المزاعم من خلال اعتراف للمستشرق الإنجليزي مونتجمري وات؛ حيث قال: ((كان يهود خيبر وبخاصة رؤساء قبيلة بني النضير التي أجلاها الرسول ﷺ من المدينة يضمرون الحقد لمحمد ﷺ وهم الذين نجحوا في حمل قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف عليهم، بما بذلوه من أموال وكان ذلك هو السبب الرئيس في توجه محمد إلى خيبر بجيوشه)).^(٢)

(١) بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٥٢.

(٢) وات: مونتجمري، محمد النبي والسياسي، ص ١٨٩.

المطلب الثاني

رؤية لوبون في أسباب فتح مكة

العبث والتلاعب بالمصطلحات والألفاظ يستمر في كتابات غوستاف لوبون، وكذلك تفسيره الأحداث التاريخية بصورة مشوهة ومغلوطة؛ ومن ذلك ما يلي:

الشبهة: الزعم بأن سبب فتح مكة إحساس محمد ﷺ بنمو سلطانه.

يتضح ذلك في قوله: «ولمّا أحسَّ محمدٌ نموَّ سلطانه، عزم على فتح مكة، وألّف جيشاً من عشرة آلاف محارب، مما لم يسبق له أن جمع مثله، فبلغ أسوار مكة، وفتحها به من غير قتال، وذلك بقوة ما تمّ له من التفوذ».^(١)

الرد على الشبهة:

تخبّط آخر لغوستاف لوبون وتجاهل للحقائق التاريخية، إذ يزعم أن سبب فتح مكة هو إحساس النبي ﷺ بنمو سلطانه، وهذا كذب وافتراء ومغالطة للوقائع التاريخية، فإنك لا تجد كتاباً من كتب السنة أو التاريخ أو السيرة إلا وفيه ذكر أسباب فتح مكة. فقد كان من ضمن شروط صلح الحديبية، إعطاء الحرية لمن شاء من قبائل العرب في الانضمام لأحد الفريقين، فتدخل في حلفه وعهده (فَتَوَاتَبَتْ خِزَاعُهُ فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ)^(٢) فكان لكل قبيلة ما لحفائها من الحقوق، وعليها ما عليهم من الواجبات كالنصرة لحفائها، والالتزام بالعهد وعدم البغي والاعتداء على الأطراف المسلمة لها، وكان بين بني بكر وخزاعة

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٠٧.

(٢) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٨٩١٠، ٢١٨/٣١. والبيهقي: أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، رقم ١٨٦٣٨، ٢٣٣/٩. الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح معاني الآثار، كتاب السير، باب الحجة في فتح رسول الله ﷺ مكة عنوة، رقم ٥٤٤٦، ٣/٣١٥.

تأرّ قدم، يعود إلى ما قبل الإسلام، فلما كانت الهدنة، اغتنم بنو بكر الفرصة وغدروا بخزاعة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((وكان سبب الفتح بعد هدنة الحديبية ما ذكره محمد بن إسحاق: كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتوثبت خزاعة وقالوا نحن ندخل في عقد محمد وعهده، وتوثبت بنو بكر وقالوا نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له الوثير؛ وهو قريب من مكة، وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوهم عليهم بالكراع^(١) والسلاح وقتلوا معهم للضعن^(٢) على رسول الله ﷺ)).^(٣)

عقب حدوث هذا العدوان قدم على الرسول ﷺ عمرو بن سالم الخزاعي حليف رسول الله ومعه وفد من خزاعة، وبلغه ما تعرض له قومه من الغدر والقتل على يد بني بكر وحلفائهم القرشيين، وهم آمنون غافلون؛ وقد أنشد أبياتاً في ذلك فقال:

اللَّهُمَّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِيهِ الْأَتْلَدَا
كُنَّا وَالِدًا وَكُنْتَ وَوَلَدًا	تُمَّتْ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانصُرْ رَسُولَ اللَّهِ نَصْرًا عَتَدَا	وَادْعُوا عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ بَجَرَدَا	إِنْ سِيَمَ خَسَفَا وَجْهَهُ تَرَبَدَا
فِي فَيْلَقِ كَالْبَحْرِ يَجْرَى مُزِيدَا	إِنَّ فُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا	وَرَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا
فَهُمْ أَدُلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا	قَدْ جَعَلُوا لِي بَكَدَاءٍ مَرَصَدَا
هُمْ بَيْتُونَا بِالْوَيْتِيرِ هُجَدَا	فَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجَدَا

(١) الكراع: اسم يجمع أنواع الخيل، المربوطة للغزو. ابن أبي نصر: محمد بن فتوح، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، ص ٤٤.

(٢) الضغن: الحقد والعداوة والبغضاء، وكذلك الضغينة، وجمعها الضغائن. ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: [ضعن]، ٩١/٣.

(٣) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ٥٠٩/٦.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ). فَمَا بَرِحَ حَتَّى مَرَّتْ عَنَانَةٌ فِي السَّمَاءِ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلُ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ). وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبْرَهُ حَتَّى يَبْغَتْهُمْ فِي
بِلَادِهِمْ.

ثم قدم وفد آخر بقيادة بديل بن ورقاء- وذلك قبل إسلامه- على النبي ﷺ وأخبروه
بعدوان بني بكر، وبمظاهرة قريش لهم وانصرفوا راجعين إلى مكة. (١)

كان تواطؤ قريش مع بني بكر نقضاً صريحاً لمعاهدة الحديبية، وعدواناً ظاهراً على
حلفاء المسلمين، الذين تلزمهم نصرتهم، وهذا هو السبب في الخروج لفتح مكة، وليس كما
يزعم غوستاف لوبون بأن النبي ﷺ أراد أن يوسع نفوذه، أو أنه عندما أحس بنمو سلطانه
عزم على فتح مكة.

لو أن النبي ﷺ يبحث عن نفوذ وسلطان، لكان تحقق له ذلك قبل الهجرة بسنوات،
فقد عرضت عليه قريش الملك، والسيادة، والمال، ولكنه ﷺ يريد فتح القلوب لتوحيد الباري
سبحانه.

((ما كان لِنَبِيِّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ أَنْ يَمُدَّ نَفُوذَهُ أَوْ سُلْطَانَهُ، أَوْ مَا يَشْبَهُ
ذَلِكَ مِنَ السُّطُوَةِ الشَّخْصِيَّةِ، أَوْ الرَّعَامَةِ الدَّنْيَوِيَّةِ، إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَرِيدُ وَلَا شَكَّ أَنْ يَقْضِيَ
عَلَى الْوَثْنِيَّةِ أَيْنَمَا وَجَدَتْ، فَكَيْفَ وَهِيَ فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَمَنْ الطَّبِيعِيُّ أَنْ يَفْكَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ
بِفَتْحِ قُلُوبِ الْقُرَشِيِّينَ بِالْإِسْلَامِ، لَا لِمُدِّ نَفُوذِهِ وَسُلْطَانِهِ الشَّخْصِيِّ، بَلْ لِتَحْطِيمِ أَكْبَرِ مَعْقَلِ
مِن مَعَاقِلِ الْوَثْنِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلِيُعِيدَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ عَالِيَةً لَا تَشُوِّهَهَا
عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ.

وصورة فتح مكة لا تسمح بكلمتي: (سلطانه) و(نفوذه)، ف«اذهبوا فأنتم الطُّلُقَاءُ»،
الَّتِي قَالَهَا ﷺ لَمَنْ صَادَرَ أَمْلَاكُ الْمُسْلِمِينَ وَبَاعَهَا، وَلَمَنْ جَمَعَ قَوَاتِهِ وَسَارَ إِلَى الْأُحُدِّ، وَلَمَنْ جَاءَ

(١) البيهقي: أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب نقض أهل العهد أو بعضهم
العهد، رقم ١٨٦٣٨، ٢٣٣/٩. وله: دلائل النبوة، ٧/٥. ابن هشام: السيرة النبوية،
٣٩٥/٢.

إلى الخندق مع اليهود وغطفان ليستأصل المسلمين وينهي وجودهم، فأبى خلق تحلّى به محمد ﷺ، وأبى درس في العفو والأخوة والمحبة لقنه لقريش؟! لقد فتح القلوب وامتلكها، فهي التي جُبلت حباً من أحسن إليها.

وهذا موقف فريد على مرّ التاريخ، فيه سمو رفعة لا يدانيها رفعة، وعظمة لا تُشبهه بها عظمة.

إنّه موقف لا يقفه ملك، أو زعيم، أو قائد.. لا يقفه إلاّ نبيّ مرسل، رحمته من رحمة الله، وحكمته من حكمة الله، وعفوه من عفو الله.

ولو أنّ محمداً ﷺ أراد النُفوذ والسُلطان لتحقق له ما أراد قبل الهجرة بسنوات، عندما قُدّم إليه ﷺ من قبل زعماء قريش، فرفضه، ورفض الجاه والمال، لأنّه يصدع بأمر الله، ويحمل رسالته إلى النَّاس)).^(١)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ٩٠.

المطلب الثالث

غزوات النبي ﷺ ونظرة لوبون لها

بالرجوع إلى أحداث السيرة النبوية، لن نجد واقعة واحدة تدل على هزيمة للنبي ﷺ؛ بل إن كل أحداث حياته ﷺ انتصارات، ولكن غوستاف لوبون له رأي آخر، وله أحكام مختلفة لما ورد في الأحداث التاريخية؛ ويظهر ذلك في شبهته التالية:

الشبهة: الزعم بأن رسول الله ﷺ هُزم في أكثر من موضع.

يتضح ذلك في قوله: «توالت الوقائع بين محمدٍ وجيرانه، وكانت كلُّ مصيبةٍ تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب، وكان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزم، ومعتدلاً إذا ما نُصر».^(١)

الرد على الشبهة:

الواقعة الوحيدة التي قد يتوهم البعض أنها هزيمة للمسلمين هي ما حصل في غزوة أحد، وإنما لو نظرنا إلى النتيجة النهائية، فإننا لا نراها هزيمة للمسلمين؛ وإنما هي في واقع الأمر نصرٌ كبير، يقول اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب: «لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة غزوة أحد نصراً للمشركين واندحاراً للمسلمين؛ لأنَّ مناقشة المعركة عسكرياً تُظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائهم الفادحة في الأرواح في هذه المعركة... لقد انتصر المسلمون في ابتداء المعركة، حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم، والإحاطة بنسائهم وأموالهم، وتعفير لوائهم في التراب، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين وقطع خط الرجعة عليهم، جعل قوَّات المشركين تُطبق على المسلمين من كافة الجوانب، وهذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تكثُر، ولكن بقي النصر في جانبهم إلى آخر لحظة؛ لأنَّ نتيجة كل معركة عسكرياً لا تُقاس بعدد الخسائر في الأرواح فقط، بل تقاس

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ١٠٦.

بالحصول على هدف القتال، وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً، وهذا هو الذي لم يحدث، ولا يمكن اعتبار فشل القوّة الكبيرة - وهي قوّة قريش حينئذٍ - في القضاء على القوّة الصغيرة مادياً ومعنوياً في مثل هذا الموقف - نصرًا.

... ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين؛ ولذا رأينا المسلمين بعد انتهاء غزوة أحد بيوم واحد، قد استطاعوا الخروج لمطاردة المشركين، دون أن تجرؤ قريش على لقائهم بعيداً عن المدينة، فكيف يمكن أن يقال: إنَّ المسلمين هُزموا، وقد رأيناهم يخرجون بعيداً عن المدينة ليطاردوا قريشاً، وقريش لا تجرؤ على مواجهتهم؟!

ولا شكَّ أنَّ نجات المسلمين من الموقف الحرج الذي كانوا فيه في أحد يُعدُّ نصرًا عظيماً للمسلمين؛ لأنَّ مثل هذا الموقف كان يمكن أن يترتب عليه القضاء النهائي على المسلمين^(١).

أما بقية أحداث حياته ﷺ ما هي إلا انتصارات تعقبها انتصارات، سواء كان ذلك في وقت السلم أو وقت الحرب، وقد شهد بذلك العدو قبل الصديق.

(١) خطاب: محمود شيت، الرسول القائد، ص ١١٩-١٢٠.

الباب الرابع

غوستاف لوبون وقضايا المرأة في الإسلام عرض ونقد

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول

آراء لوبون في تأثير الإسلام في أحوال النساء

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظرة لوبون إلى أحوال النساء قبل بعثة النبي ﷺ

المبحث الثاني: إعجاب لوبون برفع شأن المرأة في الإسلام

المبحث الثالث: مقارنة لوبون بين المرأة في الإسلام والمرأة في أوروبا

الفصل الثاني

آراء لوبون حول مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: دفاع لوبون عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام

المبحث الثاني: مقارنة لوبون بين أحكام النكاح والطلاق عند المسلمين

وأحكام النكاح والطلاق عند الأوروبيين

الفصل الأول

آراء لوبون في تأثير الإسلام في أحوال النساء

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نظرة لوبون إلى أحوال النساء قبل بعثة النبي ﷺ

المبحث الثاني: إعجاب لوبون برفح شأن المرأة في الإسلام

المبحث الثالث: مقارنة لوبون بين المرأة في الإسلام والمرأة في أوروبا

المبحث الأول

نظرة لوبون إلى أحوال النساء قبل بعثة النبي ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: شهادات المستشرقين على سوء أحوال المرأة قبل الإسلام

المطلب الثاني: نماذج من أحوال المرأة عند العرب في الجاهلية

المطلب الثالث: نماذج من أحوال المرأة في الأديان والمجتمعات الأخرى

المطلب الأول

شهادات المستشرقين على سوء أحوال المرأة قبل الإسلام

هناك الكثير من الشهادات والاعترافات الإيجابية من قبل بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين على سوء أحوال المرأة قبل الإسلام؛ سواء عند الشعوب العربية أم عند الشعوب الأخرى؛ وسأورد بعضاً منها للرد على كتابات المستشرقين الحاقدين، واتهاماتهم الباطلة تجاه الإسلام؛ وزعمهم أن الإسلام هو الذي أساء للمرأة.

أولاً: شهادات وتقريبات غوستاف لوبون:

يقرر لوبون أنه لكي ندرك تأثير الإسلام في أحوال النساء ورفع شأنهن؛ لا بد من البحث في أحوالهن قبل الإسلام وبعده؛ فيقول: «وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق هو أن نبحث في حالهن قبل القرآن وبعده».^(١)

يرى لوبون أن إدراك أحوال النساء قبل الإسلام يظهر من خلال بعض التحريم الذي جاء به القرآن؛ فيقول: «يمكننا استجلاء الحال التي كانت عليها النساء قبل ظهور النبي من التحريم الآتي الذي جاء في القرآن: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾» [النساء: ٢٣].^(٢)

تطرق لوبون لمنزلة النساء عند العرب قبل الإسلام؛ وكيف أن الإسلام رفع شأنهن وكرّمهن مما كنّ فيه؛ فقال: «وكان الرجال قبل ظهور محمد يعدّون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه، أي أداة للاستيلاد والخدمة، وكانوا يعدّون ولادة البنات مصيبة، وشاعت عادة الوأد، وصار لا يجادل فيها كما لو كانت البنات جراء يقذف بها في الماء».^(٣)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٢.

ثانياً: شهادات وتقارير بعض المستشرقين:

يقول المستشرق إميل درمنغم في هذا الصدد: ((مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسن حالها، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [مَا فَتَنَّا نَعْدُ النِّسَاءَ مِنَ الْمَتَاعِ حَتَّى أَوْحَى فِي أَمْرِهِنَّ مُبِينًا هُنَّ] ^(١)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: [أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارَكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ] ^(٢). أجل، إن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن، ونهى عن تزويج الفتيات كرها، وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق.. ولم يكن للنساء نصيب في الموارث أيام الجاهلية.. فأنزلت الآية التي تورث النساء. وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وأمر بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد صلى الله عليه وسلم عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء.. وأباح تعدد الزوجات.. ولم يوص الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات.. وأباح الطلاق أيضاً مع قوله: (أَبْغَضُ الْحَالِلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ) ^(٣)..)) ^(٤).

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب اللباس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجوز من اللباس والبسط، رقم ٥٨٤٣، ١٥٢/٧، بلفظ (كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعْدُ النِّسَاءَ شَيْئًا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ، رَأَيْنَا هُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا).

(٢) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٢، ٤٥٨/٣. وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٠١٠٦، ١١٤/١٦. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٤، ٥٧٣/١.

(٣) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، رقم ٢١٧٨، ٥٠٥/٣. وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب الطلاق، باب الطلاق، رقم ٢٠١٨، ١٨٠/٣. وضعفه الألباني: محمد ناصر الدين، إرواء الغليل، رقم ٢٠٤٠، ١٠٦/٧.

(٤) درمنغم: إميل، حياة محمد، ص ٣٢٩.

يتحدث المؤرخ الأمريكي ول ديورانت^(١) عن بعض أحوال النساء قبل الإسلام وبعده؛ فيقول: «رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب.. وقضى على عادة وأد البنات وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن..»^(٢).

يقول أحمد سوسه^(٣) موضحاً وضع المرأة قبل الإسلام، وكيف أن الإسلام رفع مقامها: «كانت المرأة في ديار العرب قديماً محض متاع، مجرد ذكرها أمرٌ ممتهن؛ هكذا كان الوضع حينما جاء محمد ﷺ فرفع مقام المرأة في آسيا من وضع المتاع الحقير إلى مرتبة الشخص المحترم الذي له الحق في الحياة حياة محترمة، كما أن له الحق في أن يملك ويرث المال..»^(٤).

(١) ول ديورانت w.durant مؤلف أمريكي، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلداً، واحداً من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥، ثم تلتها بقية الأجزاء. ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٦٤.

(٢) ديورانت: ول، قصة الحضارة، ٦٠/١٣.

(٣) الدكتور أحمد نسيم سوسه Dr. A. N. Sousa باحث مهندس من العراق، وعضو في الجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهودياً فاعتنق الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم، توفي قبل سنوات قلائل. ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الري، وفنّد في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة: (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٧٠.

(٤) سوسه: أحمد، في طريقي إلى الإسلام، ٤٢/٢.

يقول المستشرق البريطاني جب^(١)، متحدثاً عن محمد ﷺ: «إنه من المسلّم به عالمياً بصفة عامة أن إصلاحاته [ﷺ] رفعت من قدر المرأة ومنزلتها ووضعها الاجتماعي والشرعي»^(٢).

ويقارن روجيه جارودي^(٣) بين أحكام الإسلام والأحكام السابقة له؛ فيقول: «إذا نحن قارنا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فإنها تسجل تقدماً لا مرء فيه ولا سيما بالنسبة لأنثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة»^(٤).

هذه كانت شهادات واعترافات لبعض المستشرقين لحال المرأة قبل الإسلام، وكيف أن الإسلام جاء ليرفع من شأنها ومنزلتها، وليضمن لها حقوقها.

(١) هاملتون الكساندر روسكين جب ١٨٩٥ - ١٩٦٧ Hamilton A. R, Gibb يعد إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن. من آثاره: (دراسات في الآداب العصرية) (١٩٢٦)، (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية. بدوي: عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ١٧٤.

(٢) جب: ه.أ.ر، المحمدية، ص ٣٣.

(٣) روجيه جارودي Roger Garandy وهو مفكر فرنسي اهتدى إلى الإسلام وسمى نفسه رجاء جارودي وإن كان مازال يتأرجح بين ماضيه وحاضره، وهو أحد كبار زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي، سابقاً، تتميز ثقافته بالعمق والشمولية، والرغبة الجادة في البحث عن الحق مهما كان الثمن الذي يكلفه. كتب العديد من المؤلفات منها: (حوار الحضارات)، (منعطف الاشتراكية الكبير)، (البديل)، (واقعية بلا ضفاف)، وبعد إسلامه أنجز سيرة ذاتية خصبة وعدداً من المؤلفات، أبرزها: (وعود الإسلام)، فضلاً عن العديد من المحاضرات التي ألقاها في أكثر من بلد. الندوة العالمية للشباب، الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ٨٧٥/٢. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٢١٤.

(٤) جارودي: روجيه، وعود الإسلام، ص ٧٨.

المطلب الثاني

نماذج من أحوال المرأة عند العرب في الجاهلية

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينظرون إلى المرأة على أنها متاع من الأمتعة التي يمتلكونها مثل الأموال والبهائم، ويتصرفون فيها كيفما شاءوا، وكانوا لا يورثون المرأة ويرون أنها ليس لها حق في الإرث، يقول عُمَرُ بن الحَطَّابِ رضي الله عنه: (وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ).^(١)

كذلك لم يكن للمرأة على زوجها أي حق، وليس للطلاق عدد محدود، وليس لتعدد الزوجات عدد معين، وكان العرب إذا مات الرجل وله زوجة وأولاد من غيرها، كان الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، فهو يعتبرها إرثاً كبقية أموال أبيه.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩] قَالَ: (كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِأَمْرَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَرَوَّجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوَّجُوهَا ، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ).^(٢)

وَعَنْهُ قَالَ: (كَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ أَبُوهُ أَوْ حَمِيمُهُ، فَهُوَ أَحَقُّ بِأَمْرَاتِهِ، إِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا، أَوْ يَخْسِبَهَا حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ بِصَدَاقِهَا، أَوْ تَمُوتَ فَيَذْهَبَ بِمَا لَهَا).^(٣)

كانت العدة للمرأة إذا مات زوجها سنة كاملة، وكانت المرأة تحد على زوجها أشد حداد وأقبحه، فتلبس شر ملابسها، وتترك الزينة والطيب والطهارة، فلا تمس ماءً، ولا تقلم ظفرًا، ولا تزيل شعرًا، ولا تبدو للناس في مجتمعهم، فإذا انتهى العام خرجت بأقبح منظر وأنتن رائحة، فعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ أُمَّي أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها تَقُولُ: (جَاءَتْ

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب: التفسير، باب: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَجِكَ﴾، رقم ٤٩١٣، ١٥٦/٦.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب: التفسير، باب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، رقم ٤٥٧٩، ٤٤/٦.

(٣) الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٥٢٣/٦.

امْرَأَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ ابْنَتِي تُؤَيِّبُ عَنْهَا زَوْجَهَا، وَقَدْ اشْتَكَّتْ عَيْنَهَا، أَفَتَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا؛ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ. قَالَ حُمَيْدٌ: فُقُلْتُ لِزَيْنَبَ: وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا تُؤَيِّبُ عَنْهَا زَوْجَهَا دَخَلَتْ حِفْشًا،^(١) وَلَبَسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طِيْبًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ، فَتَقْتَضُ بِهِ، فَقَلَمًا تَقْتَضُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعْرَةً فَتَرْمِي، ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدَ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيْبٍ أَوْ غَيْرِهِ. سَأَلَ مَالِكٌ: مَا تَقْتَضُ بِهِ؟ قَالَ تَمْسُحُ بِهِ جِلْدَهَا.^(٢)

كان نكاح زوجات الآباء معروفًا في الجاهلية، فعله كثير من العرب^(٣)، وهذا الذي نهى الله عنه بقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

كانت المرأة تُمسك ضرارًا للاعتداء، وتلاقي من بعلها نشورًا أو إعراضًا، وتترك أحيانًا كالمعلقة، وكانوا في الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنا، ويأخذون أجورهم؛ عن جابر بن عبد الله ﷺ: أَنَّ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ سَلُولٍ يُقَالُ لَهَا مُسَيِّكَةٌ وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا أُمَيْمَةٌ، فَكَانَ يُكْرَهُمَا عَلَى الرَّبِيِّ، فَشَكْنَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].^(٤)

(١) الحِفْشُ: بِالْكَسْرِ: الْبَيْتُ الصَّغِيرُ الدَّلِيلُ الْقَرِيبُ السَّمَكِ، سُمِّيَ بِهِ لِضَيْقِهِ. ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٠٧/١.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الطلاق، باب تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، رقم ٥٣٣٦ - ٥٣٣٧، ٥٩/٧.

(٣) القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ١٠٣/٥.

(٤) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾، رقم ٧٧٣٨، ٢٤٤/٨.

قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فَيُقَمَّر فيقعد حزينا سلبيا ينظر إلى ماله في يد غيره، فيورثه ذلك العداوة والبغضاء)).^(١)

كانت بعض المأكولات في الجاهلية ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءَ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُوَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]

وكان عند العرب أنواع من الزيجات الفاسدة التي لا يرتضيها عاقل عنده ذرة عقل؛ فعن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: (أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها، ولا يمسه أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصبونها. فإذا حملت ووضعت، ومرر عليها ليالي بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحببت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البعايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألقوا ولدها بالذي يرون؛ فالتاط به، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله، إلا نكاح الناس اليوم.^(٢)

(١) العظيم أبادي: محمد شمس الحق، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ٧٩/١٠.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا

بولي، رقم ٥١٢٧، ١٥/٧.

منها نكاح الشغار، وهو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته أو موليته لرجل آخر على أن يزوجه هو موليته بدون مهر، وقد حرّم الإسلام هذا النكاح؛ فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الشُّعَارِ، وَالشُّعَارُ أَنْ يُزَوَّجَ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ عَلَى أَنْ يُزَوَّجَهُ الْآخَرُ ابْنَتَهُ لَيْسَ بَيْنَهُمَا صَدَاقٌ. ^(١)

كان العرب يكرهون البنات فيدفنوهنّ أحياء خشية العار كما يزعمون، فهم يعتبرونها عاراً يجب أن يتخلصوا منه بجرمة قتل بشعة، لا رحمة فيها ولا شفقة، وإنما هم الواحد منهم أن يتخلص من هذه البنت بأي وسيلة، فيدفنها حيّة، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨-٥٩] وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩].

هذا كان حال المرأة في الجاهلية قبل الإسلام عند العرب، فأتى الإسلام فكرمها وجعل لها المكانة العظيمة في المجتمع المسلم بعد أن لم تكن إلا مخلوق لا قيمة له ولا وزن.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب الشغار، رقم ٥١١٢.

المطلب الثالث

نماذج من أحوال المرأة في الأديان والمجتمعات الأخرى

إن حال المرأة في الأديان والمجتمعات الأخرى قبل الإسلام لم يكن بأحسن حال من حالها في الجاهلية عند العرب؛

عند اليهود مثلاً: إذا حاضت المرأة فإنهم يخرجونها من البيت، ولا يؤاكلوها، ولا يجامعوها، فعن أنس رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ). فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بَشْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَلَا بُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةً مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا. ^(١)

وكان الرجل اليهودي ((يستقبل نهاره بتقديم الشكر لله لأنه لم يخلقه امرأة)). ^(٢)

عند اليونان: ((كانت المرأة محرومة من الثقافة، لا تسهم في الحياة العامة بقليل ولا كثير، وكانت محتقرة حتى سموها رجساً من عمل الشيطان.. فقد كانت المرأة عندهم كسقط المتاع تباع وتشترى في الأسواق، وهي مسلوبة الحرية والمكانة في كل ما يرجع إلى حقوقها المدنية، ولم يعطوها حقاً في الميراث، وأبقوها طيلة حياتها خاضعة لسلطة رجل وكلوا إليه أمر زواجها، فهو يستطيع أن يفرض عليها من يشاء زوجاً، وعهدوا إليه بالإشراف عليها في

(١) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الطهارة، باب في قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾، رقم ٧٢٠، ١/١٦٩.

(٢) رين: ناتالي، المرأة اليهودية، ص ٩.

إدارة أموالها، فهي لا تستطيع أن تبرم تصرفاً دون موافقته، وجعلوا للرجل الحق المطلق في فصم عرى الزوجية، بينما لم يمنحوا المرأة حق طلب الطلاق إلا في حالات استثنائية، بل وضعوا العراقيل في سبيل الوصول إلى هذا الحق.. وفي أوج حضارة اليونان تبدلت المرأة واختلطت بالرجال في الأندية والمجتمعات، فشاعت الفاحشة حتى أصبح الزنى أمراً غير منكر، وحتى غدت دور البغايا مراكز للسياسة والأدب، ثم اتخذوا التماثيل العارية باسم الأدب والفن، ثم اعترفت ديانتهم بالعلاقة الآثمة بين الرجل والمرأة، فمن آلهتهم "افروديت" التي خانت ثلاثة آلهة، وهي زوجة إله واحد، وكان من أجدانها رجل من عامة البشر، فولدت "كيوبيد" إله الحب عندهم! ثم لم يشبع غرائزهم ذلك حتى انتشر عندهم الاتصال الشاذ بين الرجل والرجل، وأقاموا لذلك تمثال "هرموديس وارستوجتين" وهما في علاقة آثمة، وكان ذلك خاتمة المطاف في حضارتهم فانهارت وزالوا^(١).

عند الرومان: قالوا عنها: ليس لها روح، وكان من صور عذابها أن يصب عليها الزيت الحار، وتسحب بالخيول حتى الموت، ((وقد كانت البنت خاضعة لرب الأسرة ما دام حياً، وإذا مات يتحرر الابن إذا كان بالغاً، أما الفتاة فتنتقل الولاية عليها إلى الوصي، ولم يكن لها حق التملك، بل كل ما تكسبه وما تملكه هو لرب الأسرة ولا يؤثر في ذلك بلوغها)).^(٢)

عند زواج الفتاة ((كانت تدخل في أسرة زوجها بمجرد خضوعها لزواج الأسرة، وأحياناً يقوم الزوج بشراء الزوجة بموافقة رب أسرتها، أو وصيها، وفي كلتا الحالتين تنقطع صلتها بأسرتها السابقة)).^(٣) وبلغ من سيادة زوجها عليها ((أنها كانت تحال إليه إذا ما اتهمت بجرمة ليحاكمها ويعاقبها بنفسه، وكان له أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانت، أو سرقت مفاتيح خزائن خمره، ولا تستطيع المرأة أن تستقل بأمر نفسها بل تخضع للوصاية

(١) السباعي: مصطفى، المرأة بين الفقه والقانون، ص ١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) فرج: توفيق حسن، القانون الروماني، ص ١٩٥.

الدائمة، فإذا توفي زوجها دخلت في وصاية أبنائها الذكور، أو إخوة زوجها، أو أعمامه؛ ولذلك قالوا: توجب عاداتنا على النساء والرشيدات أن يبقين تحت الوصاية الخفة عقولهن)).^(١)

من مهانة المرأة عندهم أنهم عقدوا مؤتمراً كبيراً في روما وبحثوا في شؤون المرأة وانتهى المؤتمر بالقرارات التالية:

- ١ - أن المرأة موجود ليس لها شخصية إنسانية ولهذا فإنها لا تستطيع أن تنال الحياة في الآخرة.
- ٢ - يجب على المرأة أن لا تأكل اللحم ولا تضحك ولا تتكلم.
- ٣ - أن المرأة رجس من عمل الشيطان، ولهذا فإنها تستحق الذل والهوان في المجتمع.
- ٤ - على المرأة أن تقضي كل حياتها في طاعة الأصنام وخدمة الزوج.^(٢)

أما عند الصينيين: قالوا عنها: مياه مؤلمة تغسل السعادة، وللصيني الحق أن يدفن زوجته حية، وإذا مات حُق لأهله أن يرثوه فيها. وقيل: ((إن منزلة المرأة الصينية في بلادها أخط كثيراً من منزلة الرجل، ويرى أهلها في ولادتها شراً، ومقامها كمقام الخدم، فهي لا تأكل إلا على انفراد، وتعيش في بيت والديها في تحجب واعتزال يعلمونها الخياطة وتحضير الطعام)).^(٣)

يقول مانو: ((النساء باب جهنم، وأضاف بعضهم إلى ذلك: أن أجسامهن شيطانية، ولذلك حبست النساء شر الموبقات، واعتبرت الطهارة مثل الحياة الأعلى، فكانوا يصورون الشيطان في حسناء تزور الصوامع، لإسقاط نساكها في الخطيئة)).^(٤)

(١) الخولي: البهي، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، ص ١٢.
 (٢) عفيفي: محمد الصادق، المرأة وحقوقها في الإسلام، ص ٩.
 (٣) الحارثي: محمد قاسم، أساسيات عقد النكاح، ص ٢٧٩.
 (٤) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

عند الهنود: قالوا عنها: ليس الموت، والجحيم، والسم، والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة، بل وليس للمرأة الحق عند الهنود أن تعيش بعد ممات زوجها، بل يجب أن تحرق معه، ((وكانت المرأة في الشريعة البرهمية منحطة لا تعد شيئاً مذكوراً، فهي عبدة الرجل، ولا يجوز لها أن تكلمه إلا باحترام، ولا أن تؤاكله على مائدة، بل ولا تتجرأ أن تتلفظ باسمه، وبلغ الإفراط في امتهاها أنهم صاروا يحتقرون الرجل الذي يجادته زوجته محادثة عائلية..

والهنود يعتبرون المرأة عامة والزوجة خاصة عار وعناء وتعب، فهي التي تضلل الأحمق، وقادرة على أن تغوي الحكيم وتخضعه لشهواته وتمسك بزمامه..

ومن أشد احتقارهم للمرأة صوروا الضلالة والأوهام في صورة أنثى شديدة الفتنة والغواية، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الأنثى التي تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة فيحسبون اللذة نعمة تبتغى)).^(١)

((وكانت المرأة بناء على ذلك كله تخاطب زوجها في خشوع قائلة يا مولاي، وأحياناً يا إلهي، وتمشي خلفه بمسافة، وقلماً يوجّه إليها كلمة واحدة، وكانت لا تأكل معه بل مما يتبقى منه)).^(٢)

المرأة عند الفرس: كانت خاضعة للتيارات الدينية، حتى ذهب مزدك وأصحابه إلى أن الله تعالى إنما جعل الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي، ولكن الناس تظالموا فيها، لذا فمن كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى من غيره، فشاعت الفوضى وعم الدمار حتى كان الرجل يدخل على الرجل في داره فيغلبه على منزله ونسائه وأمواله. وكان ذلك من أسباب انهيار دولة فارس وترديها.

كانوا قد أباحوا الزواج من المحرمات دون استثناء، فيتزوج الرجل بابنته أو أخته، ويجوز للفرسي أن يحكم على زوجته بالموت.

((ومتى حاضت المرأة أبعدها عن المنازل وجعلوها في خيام صغيرة في ضواحي المدينة: لا يخالطهم أحد، حتى الخدم يلفون مقدم أنوفهم وآذانهم وأيديهم بلغائف من القماش الغليظ

(١) المصدر السابق، ص ٧٣.

(٢) الخولي: البهي، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، ص ١١.

عند تقديم الطعام لهن؛ حذراً أن يتنجسوا إذا مسوهن، أو مسوا الأشياء المحيطة بهن حتى الهواء.

والمرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة، ويحق له أن يحكم عليها بالموت دون رقيب أو مؤاخذه، يتصرف بها تصرفه بسلعته ومتاع بيته^(١).

عند النصارى: ((قال بولس: "إن المرأة أدخلت إلى هذا العالم الموت". وقال: "ليس إذن للمرأة أن تتعلم، ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء، وآدم لم يغو، ولكن المرأة اغويت فحصلت في التعدي".

ومن هذا المنطلق كانت نظرية النصرانية الأساسية في شأن المرأة أنها ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور وباب من أبواب جهنم، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً لأنها هي التي قد أتت بما أتت من الشقاء للأرض وأهلها^(٢).

هكذا كان حال المرأة في الأديان والمجتمعات قديماً، وما يزال حالها كذلك عند الكثير من الأديان والمجتمعات في الوقت الحاضر، ولا يوجد دين ولا نظام ولا دستور كرم المرأة ورفع من شأنها كالدين الإسلامي؛ وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

(١) الحارثي: محمد قاسم، أساسيات عقد النكاح، ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٣.

المبحث الثاني

إعجاب لوبون برفع شأن المرأة في الإسلام

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: شهادات المستشرقين على رفع شأن المرأة في الإسلام

المطلب الثاني: نماذج من تكريم الإسلام للمرأة ورفع شأنها

المطلب الأول

شهادات المستشرقين على رفع شأن المرأة في الإسلام

أولاً: شهادات وتقريرات غوستاف لوبون:

يعترف لوبون بأن الإسلام رفع من شأن المرأة؛ ووصف مزاعم من يقول خلاف ذلك بأنها مزاعم على غير هدى؛ فقال: «والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعها عظيماً بدلاً من خفضهما خلافاً على المزاعم المكررة على غير هدى»^(١).

وتحدّث لوبون عن أهمية النساء أيام الحضارة الإسلامية في العصر الأموي في الأندلس وفي العصر العباسي؛ فقال: «ومن الأدلة على أهمية النساء أيام نضارة حضارة العرب كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في المشرق والعصر الأموي في إسبانيا»^(٢).

ويدافع لوبون عن الإسلام وموقفه من المرأة؛ ويقرر أن نقصان شأن المرأة المسلمة في العصور المتأخرة والحاضرة لم يكن بسبب الإسلام - كما يزعم البعض - ومع ذلك فإن حالها أفضل من حال المرأة الأوروبية؛ فيقول: «وخبث حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي العرب ولا سيما في عهد الترك، فنقص شأن النساء كثيراً، وسأبين في مكان آخر أن حالتهم الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوروبا حتى عند الترك، وما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال»^(٣).

ثم دَوّن لوبون شهادته وشهادة بعض من سبقه من المستشرقين بأن الإسلام هو الذي رفع شأن المرأة؛ فقال: «وهنا نستطيع أن نكرر إذن قولنا: إن الإسلام الذي رفع المرأة كثيراً بعيداً من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي فقد سبقنا إلى مثله كوسان دوبرسنال ثم مسيو بارتلمي سنت هيلر».

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا بياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة^(١).

وأقر لوبون بحسن تعامل الإسلام والمسلم عامة للمرأة، فشهد بذلك؛ وذكر أن هناك إجماع من الباحثين المنصفين على ذلك؛ فقال: «وتُعَامَلُ المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلاً عن تلك الامتيازات، وتنال بذلك حالاً أجمع الباحثون المنصفون - ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعدد الزوجات العدا - على الاعتراف بحسنها، ومن هؤلاء مسيو دو أميسيس الذي قال في معرض الحديث عن المرأة في الشرق: .. "إن المرأة في الشرق تُحْتَرَمُ بنبل وكرم على العموم، فلا أحد يستطيع أن يرفع يده عليها في الطريق، ولا يجروُ جندي أن يسيء إلى أوقح نساء الشعب حتى في أثناء الشعب، وفي الشرق يشمل البعل زوجته بعين رعايته، وفي الشرق يبلغ الاعتناء بالأم درجة العبادة، وفي الشرق لا تجد رجلاً يُقدِّم على إلزام زوجته بالعمل ليستفيد من كسبها، وفي الشرق يدفع الزوج مهراً إلى زوجته فلا تجيء الزوجة إلى بيت زوجها مصحوبة بأكثر من جهازها، ومن بضع إماء لها، وإذا طُلِّقَت الزوجة في الشرق أو هجرت أعطاه الرجل نفقة لتعيش عن سعة، وحملُ الزوج بعد الفراق على القيام بهذا الإنفاق يمنع من إساءة معاملتها حذر مطالبته بالفراق"^(٢).

وينظر لوبون لكلمة الحريم عند المسلمين على كل ما هو مقدس؛ فيقول: «كلمة "الحريم" لفظ عام يدل عند العرب على كل ما هو مقدس، فإذا ما طبقت هذه الكلمة على منزل؛ دلَّت على أمنع قسم منه وأشدّه حرمةً لدى المسلم، أي: على المكان الذي تسكنه نساؤه^(٣).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١١-٤١٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٣.

ثانياً: شهادات وتقارير بعض المستشرقين:

يقول المستشرق مارسيل بوازار في حديثه عن مخاطبة الإسلام للمرأة، وكيف أن الإسلام حماها وضمن حقوقها؛ فيقول: ((إن الإسلام يخاطب الرجال والنساء على السواء، ويعاملهم بطريقة شبه متساوية، وتهدف الشريعة الإسلامية بشكل عام إلى غاية متميزة هي الحماية، ويقدم التشريع للمرأة تعريفات دقيقة عما لها من حقوق، ويبدى اهتماماً شديداً بضمائها.

فالقرآن والسنة يحضنان على معاملة المرأة بعدل ورفق وعطف، وقد أدخلنا مفهوماً أشد خلقية عن الزواج، وسعياً أخيراً إلى رفع وضع المؤمنة بمنحها عدداً من الطموحات القانونية، وتشمل حقوق المرأة بشكل أساسي: المساواة أمام القانون، والملكية الخاصة الشخصية، والإرث)).^(١)

ويقول أيضاً: ((ليس في التعاليم القرآنية ما يسوّغ وضع المرأة الراهن في العالم الإسلامي، والجهل وحده، جهل المسلمة حقوقها بصورة خاصة، هو الذي يسوّغه)).^(٢)

ويقول: ((أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد ﷺ أنها حامية حمى حقوق المرأة التي لا تكل)).^(٣)

ويقرر المستشرق إميل درمنغم بأن الإسلام رفع شأن المرأة وحسن حالها، وضمن حقوقها؛ فيقول: ((مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسن حالها، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ما فتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى في أمرهن مبيناً لهن)^(٤)، وقال النبي ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم)^(٥). أجل، إن النبي ﷺ أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق

(١) بوازار: مارسيل، إنسانية الإسلام، ص ١٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٥١.

(٥) سبق تخريجه، ص ٣٥١.

بهن، ونهى عن تزويج الفتيات كرها، وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق.. ولم يكن للنساء نصيب في الموارث أيام الجاهلية.. فأُنزلت الآية التي تورث النساء. وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وأمرٌ بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد ﷺ عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء.. وأباح تعدد الزوجات.. ولم يوصي الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات.. وأباح الطلاق أيضاً مع قوله: (أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق)^(١)..^(٢)

ويعترف المستشرق هنري دي كاستري^(٣) بأن النساء مديونات للنبي ﷺ بأمرٍ كثيرة، لأنه جاء بهذه الشريعة التي ضمنت حقوقهن، ومنعت عوامل الفساد، وحثت على الحشمة والوقار؛ فيقول: ((إننا لو رجعنا إلى زمن النبي ﷺ ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه ﷺ)) فهن مديونات لنبينهن بأمرٍ كثيرة، وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن وما يجب لهن على الرجال.. ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام الإسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين؛ لكي يجعل الأزواج والآباء في راحة ونعيم.. ولقد أصبحت للمسلمين أخلاق مخصوصة، عملاً بما جاء في القرآن أو في الحديث، وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار^(٤).

ويتحدث المستشرق ول ديورانت عن بعض أحوال النساء قبل الإسلام وبعده؛ وكيف أن الإسلام رفع من شأن المرأة؛ فيقول: ((رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب.. وقضى على عادة وأد البنات، وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية

(١) سبق تخريجه، ص ٣٥١.

(٢) درمنغم: إميل، حياة محمد، ص ٣٢٩.

(٣) الكونت هنري دي كاستري (١٨٥٠-١٩٢٧) Cte. H. De Castries مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي رداً من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٥٠)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (١٩٢٦)، وغيرهما. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٥٣

(٤) دي كاستري: هنري، الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٨.

والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن...^(١)

يقول المستشرق جاك ريسلر مبيناً مكانة المرأة في الإسلام، وأنها لم تُكَلَّف أعمالاً غير الاهتمام ببيتها، وأطفالها، والسعي لإرضاء زوجها؛ فيقول: ((..لقد وُضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجال في القضايا الخاصة بالمصلحة، فأصبح في استطاعتها أن ترث، وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة؛ لكن مكانها الصحيح هو البيت، كما أن مهمتها الأساسية هي أن تنجب أطفالاً.. وعلى ذلك رسم النَّبِيُّ ﷺ واجبها (أَيُّ امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ) ^(٢))).^(٣)

يقول أحمد سوسه مشيداً بما حصلت عليه المرأة من حقوق بعد الإسلام؛ فيقول: ((يجب ألا يغرب عن البال أن المرأة لم تكن قد حازت حقوقاً تتمتع بها إلا بعد ظهور الإسلام؛ لأن الإسلام هو أول من رفع قدر المرأة وأعطاهم حقها في الحياة كحق الرجل)).^(٤)

يقول أيضاً؛ موضحاً وضع المرأة قبل الإسلام، وكيف أن الإسلام رفع مقامها: ((كانت المرأة في ديار العرب قديماً محض متاع، مجرد ذكرها أمرٌ ممتهن؛ هكذا كان الوضع حينما جاء محمد ﷺ فرفع مقام المرأة في آسيا من وضع المتاع الحقير إلى مرتبة الشخص المحترم الذي له الحق في الحياة حياة محترمة، كما أن له الحق في أن يملك ويرث المال)).^(٥)

(١) ديورانت: ول، قصة الحضارة، ٦٠/١٣.

(٢) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب الرضاع، باب حق الزوج على الزوجة، رقم ١١٦١، ٤٥٨/٣. وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب النكاح، باب أفضل النساء، رقم ١٨٥٤، ٥٩/٣. وضعفه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الضعيفة، رقم ١٤٢٦، ٦١٦/٣.

(٣) ريسلر: جاك، الحضارة العربية، ٦٠/١٣.

(٤) سوسه: أحمد، في طريقي إلى الإسلام، ١٨٧/١.

(٥) المصدر السابق، ٤٢/٢.

يقول المستشرق لويس سيديو^(١) عن رفع القرآن لشأن المرأة: ((إن القرآن - وهو دستور المسلمين - رفع شأن المرأة بدلاً من خفضه.. فجعل حصة البنت في الميراث تعدل نصف حصة أخيها؛ مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية.. وهو وإن جعل الرجال قوامين على النساء بين أن للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها. وأراد ألا تكون الأيامى جزءاً من ميراث رب الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبض مهورهن وأن ينلن نصيباً من أموال المتوفى)).^(٢)

هذه كانت شهادات واعترافات لبعض المستشرقين لحال المرأة بعد الإسلام، وكيف أن الإسلام رفع من شأنها ومنزلتها، وضمن لها حقوقها.

(١) لويس سيديو (١٨٠٨ - ١٨٧٦) L. Sedillot مستشرق فرنسي عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديو الذي توفي عام ١٨٣٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. وقد عين لويس أميناً لمدرسة اللغات الشرقية (١٩٣١) وصنف كتاباً بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلاً عن (تاريخ العرب العام)، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في المجالات المعروفة. خليل: عماد الدين، ص ٧٢.

(٢) سيديو: لويس، تاريخ العرب العام، ص ١١٠.

المطلب الثاني

نماذج من تكريم الإسلام للمرأة ورفع شأنها

من رحمة الله بهذه الأمة أن شرع لها هذا الدين العظيم والشريعة الخالدة، وكان من أولى ما اعتنى به الإسلام هو ما يخص المرأة، فأكرمها إذ أهانتها الأديان والحضارات الأخرى، ورفع من شأنها وخفف التكاليف التي عليها، ورفع معنوياتها، وأعطاهما حقوقها، ورد لها كرامتها، والمرأة في الإسلام بلغت منزلة عالية ((لم تبلغها ملّة ماضية، ولم تدركها أمة تالية، إذ إن تكريم الإسلام للإنسان تشترك فيه المرأة والرجل على حد سواء، فهم أمام أحكام الله في هذه الدنيا سواء، كما أنهم أمام ثوابه وجزائه في الدار الآخرة سواء)).^(١)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال ﷺ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، وقال ﷺ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

إلى اليوم لم تستطيع أي حضارة أن تعطي المرأة من الحقوق مثلما أعطاهما الإسلام؛ فهي في الإسلام إنسان له من الحقوق والواجبات ما للرجل من حيث الخصائص الإنسانية العامة؛ قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

(١) السحيم: محمد بن عبد الله، الإسلام أصوله ومبادئه، ٣٩/٢.

وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا النَّسَاءُ شَقَائِقُ الرَّجَالِ).^(١) قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: ((وقوله: (شقائق الرجال) أي نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطباع فكأنهن شققن من الرجال. وفيه من الفقه إثبات القياس وإلحاق حكم النظر بالنظير وأن الخطاب إذا ورد بلفظ الذكور كان خطاباً للنساء إلا مواضع الخصوص التي قامت أدلة التخصيص فيها).^(٢)

جعل الشرع المطهر النساء والرجال على حد سواء في الإيمان بالله، فإيمان المرأة كإيمان الرجل فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [المتحنة: ١٠].

وقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَرِيقٍ﴾ [البروج: ١٠]، وقال ﷺ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

وأمر الله ﷻ نبيه محمد ﷺ أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات جميعاً؛ فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

رتب الإسلام للمرأة من الأجر ما لا يكاد يحصل عليه من الرجال إلا القليل؛ وذلك لاهتمامه بها ورفعها لشأنها، قال ﷺ: (إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ).^(٣)

(١) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلة في منامه، رقم ٢٣٦، ١٧١/١. وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ٢٦١٩٥، ٢٦٤/٤٣. والبيهقي: أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، كتاب الطهارة، باب المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل، رقم ٧٦٧، ١٦٨/١. وحسنه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح أبي داود، رقم ٩٥، ٤٢٩/١. وصحيح الجامع، رقم ٢٣٣٣، ٤٦١/١.

(٢) الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد، معالم السنن، ٧٩/١.

(٣) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٦٦١، ١٩٩/٣. والطبراني: سليمان بن أحمد، في الأوسط، رقم ٨٨٠٥، ٣٣٩/٨. وحسنه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب رقم ١٩٣١ - ١٩٣٢، ١٩٦/٢.

وجعل الإسلام من كمال الإيمان الاعتناء بالمرأة وحسن الخلق معها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ).^(١)

أما صور تكريم الإسلام للمرأة فتكاد لا تحصى؛ فالإسلام كرم المرأة، وكفل لها معيشتها في جميع مراحل عمرها، سواء كانت بنتاً أم أختاً أم زوجة أم أماً... فهي مكرّمة، مصانة، محترمة، لها حق التصرف في مالها، لها حق التعلّم والتأدّب بما ينفعها في دينها وديناها، ولها حق تعليم غيرها، وهي تُستشار ويُؤخذ برأيها.

من أمثلة ذلك:

إذا كانت المرأة أماً؛ أمر الله ﷻ ببرّها، وقرن طاعتها وبرها بطاعته ﷻ، وقرن طاعتها بأصل الدين وهو التوحيد، قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال ﷻ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

قدّم النبي ﷺ الأم على الأب ثلاث مرات بحسن الصحبة، وهذا من تكريم المرأة في الإسلام؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك).^(٢) والأدلة على بر الأم وصلتها والاهتمام بها وتكريم الإسلام لها كثيرة جداً.

اهتم الإسلام كذلك بالمرأة وهي زوجة، فجعل لها الحق في اختيار زوجها وشريك حياتها، وجعل لها مهراً عند زواجها، وبيّن حقوقها من نفقة وإرث واهتمام وعناية بها،

(١) سبق تحريجه، ص ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٩٧١، ٢/٨. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنها أحق به، رقم ٦٦٦٤، ٢/٨.

والإسلام جعل للزوجة الحق في شكاية زوجها إذا أساء عشرتها، والأدلة في ذلك كثيرة في الكتاب والسنة، فمن صور تكريم الإسلام للزوجات، والعناية بحقوقهن؛ قوله ﷺ في خطبته في حجة الوداع: (..فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ..).^(١)، وأوصى النبي ﷺ بالنساء فقال: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا).^(٢)

ومن مظاهر تكريم المرأة في الإسلام أنه رغب في تربية البنات، والقيام عليهن، وحسن الصحبة لهن، ورتب على ذلك الأجر العظيم؛ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ؛ وَصَمَّ أَصَابِعُهُ).^(٣) وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ).^(٤)

يقول ابن باز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((وهذا يدل على فضل الإحسان إلى البنات والقيام بشئوئهن؛ رغبة فيما عند الله ﷻ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ النَّارِ. ويرجى لمن عال غير البنات من الأخوات والعمات والخالات وغيرهن من ذوي الحاجة؛ فأحسن إليهن، وأطعمهن، وسقاهن، وكساهن، أن يحصل له من الأجر مثل ما ذكر النبي ﷺ في حق من عال ثلاث بنات، وفضل الله واسع ورحمته عظيمة، وهكذا من

(١) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم ٣٠٠٩، ٤/٣٩.

(٢) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٣٧٢٠، ٤/١٧٨.

(٣) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم ٦٨٦٤، ٨/٣٨.

(٤) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، باب من عال جارتين، رقم ٧٦، ص ٤٥. وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب الأدب، باب بر الوالدين والإحسان إلى البنات، رقم ٣٦٦٩، ٤/٦٣٥. وابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٧٤٠٣، ٢٨/٦٢٢. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٢٩٤، ١/٥٩٠.

عال واحدة أو اثنتين من البنات أو غيرهن فأحسن إليهن يرجى له الأجر العظيم والثواب الجزيل، كما يدل على ذلك عموم الآيات والأحاديث في الإحسان إلى الفقير والمساكين من الأقارب وغيرهم، وإذا كان هذا الفضل في الإحسان إلى البنات فالإحسان إلى الأبوين أو أحدهما أو الأجداد أو الجدات أعظم وأكثر أجراً؛ لعظم حق الوالدين ووجوب برهما والإحسان إليهما، ولا فرق في ذلك بين كون المحسن أباً أو أمّاً أو غيرهما؛ لأن الحكم مناط بالعمل. والله ولي التوفيق)).^(١)

الأدلة والشواهد على تكريم الإسلام للمرأة أكثر من أن تحصى، أكتفي بذلك ولعل ما سيأتي في المباحث القادمة سيلقي الضوء على بعض هذه الشواهد.

(١) ابن باز: عبدالعزيز بن عبدالله، مجموع فتاوى ابن باز، ٣٦٥/٢٥.

المبحث الثالث

مقارنة لوبون بين المرأة في الإسلام والمرأة في أوروبا

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: شهادة لوبون على علو منزلة المرأة المسلمة مقارنة بالمرأة الأوروبية غير المسلمة

المطلب الثاني: اعترافات المستشرقين على فضل مكانة المرأة المسلمة مقارنة بالمرأة غير المسلمة

المطلب الأول

شهادة لوبون على علو منزلة المرأة المسلمة مقارنة بالمرأة الأوروبية غير المسلمة

جرت عادة كثير من المهتمين بالشأن الإسلامي عامة وبالشأن الحقوقي في الإسلام خاصة على المقارنة بين الإسلام والثقافات الأخرى، سواء منها ما قامت -في جزء منها- على كتاب منزل كاليهودية والنصرانية في الغرب خاصّة، أم ما قامت على قوانين وضعية في الشرق والغرب عامّة. وتأتي هذه المحاولات للمقارنة في موضوعات تاريخية، كما تأتي في موضوعات معاصرة.

ومن بين تلك القضايا التي تُخضع للمقارنة بين الإسلام والغرب ما له علاقة بمكانة المرأة بين الإسلام والغرب، فيعمد فريق من المقارنين في سبيل الرفع من شأن المرأة في الإسلام إلى التهوين من مكانتها في الغرب، ويبيان ما يعتري معاملتها من سوء. ويعمد فريق آخر إلى رفع شأن المرأة الغربية من جهة، والحطّ من شأنها في الثقافة الإسلامية من جهة أخرى.

لكن في هذا المبحث سيقوم بالمقارنة فريق آخر ليس بالضرورة يهدف إلى الانتصار للإسلام؛ وليس بالضرورة يهدف إلى الحط من الثقافة الغربية؛ وإنما الذي دفعه لتلك المقارنة تجرّده نوعاً ما للحق والإنصاف، وقبوله الحقيقة التي لا يمكن أن تخفى على العقلاء. وهذه بعض المقارنات لغوستاف لوبون يقارن فيها بين المرأة في الإسلام والمرأة في أوروبا:

يقارن لوبون بين حقوق المرأة في الإسلام وحقوقها في أوروبا؛ فيقول: «والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية، كما أثبت ذلك حينما بحثت في حقوق الإرث عند العرب»^(١).

يقارن لوبون هنا بين منزلة المرأة عند المسلمين ومنزلتها عند نصارى أوروبا، وكيف أن النصارى الأوروبين أخذوا عن الإسلام مبادئ احترام المرأة؛ فيقول: «وقد

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠١.

ذكرنا في فصل سابق أن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية، وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام إذن لا النصرانية هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع، وإذا نظرت إلى سينيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى^(١).

يدافع لوبون عن الإسلام وموقفه من المرأة؛ ويقرر أن نقصان شأن المرأة المسلمة في العصور المتأخرة والحاضرة لم يكن بسبب الإسلام - كما يزعم البعض - ومع ذلك فإن حالها أفضل من حال المرأة الأوروبية؛ فيقول: «وخبث حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي العرب ولا سيما في عهد الترك، فنقص شأن النساء كثيراً، وسأبين في مكان آخر أن حالتهم الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوروبا حتى عند الترك، وما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال»^(٢).

من خلال سياق حديث لوبون عن تعليم المرأة الشرقية، يعترف بأن النساء في الشرق اشتهرن بعلومهن، وثقافتهن، ورد على الذين اتهموا المرأة الشرقية بالجهل؛ فقال: «ولا تُقل إن طرق حياة النساء في الشرق مانعة من تعليمهن في كل وقت، فقد رأيت مما تقدم أن عدد النساء اللاتي اشتهرن أيام ازدهار حضارة العرب بعلومهن كان كثيراً إلى الغاية، ولم يستند الكتاب الذين تحدثوا عن جهل المرأة الشرقية إلا إلى حال الإماء اللاتي يُجلبن من أقاصي الأقطار، ويُشترين من أسواق النخاسة، ويشاهدن في بعض دوائر الحرم، وما هؤلاء الكتاب إلا كمن يستنبط رُقيّ السيدة الباريسية من حال خادمة غرفتها»^(٣).

نقل لوبون عن المستشرق مسيو دوفوجاني فيمن يزعم أن نساء الشرق جاهلات

(١) المصدر السابق، ص ٤٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٣.

جهلاً عميقاً، فذكر أنهم أعظم تعليماً من أكثر نساء أوروبا وأن منهن من ينتسبن إلى أرقى الطبقات؛ فقال: «إن التعليم كثير الانتشار في دوائر الحریم، وليس من القليل أن تجد نساء متزوجات وغير متزوجات تجيد كل واحدة منهن العربية والفرنسية والتركية تكلماً وكتابة، فإذا ما اجتمع عدد كبير من المسلمات الراقيات في دوائر الحریم تحدثن باللغة الفرنسية غالباً»،^(١) ويعقب لوبون على ذلك فيقول: «وأما أنا فلم أشاهد عدداً كبيراً من الباريسيات اللاتي يتكلمن بأربع لغات تكلماً صحيحاً أو غير صحيح». ^(٢)

هذه بعض شهادات غوستاف لوبون على علو منزلة ومكانة المرأة المسلمة في الإسلام مقارنة بالمرأة التي تعيش في الغرب تحت سيطرة القوانين الوضعية التي سلبتها الكثير من حقوقها.

(١) المصدر السابق، ص ٤١٢-٤١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٣.

المطلب الثاني

اعترافات المستشرقين على فضل مكانة المرأة المسلمة مقارنة بالمرأة غير المسلمة

الشهادات والاعترافات الإيجابية لبعض الغربيين تدل على أن بعضهم استطاع أن يخلص نفسه من أسر النزعة التحزبية والطرح اللاموضوعي، واتجه إلى النزعة العلمية الموضوعية نوعاً ما.

وهذه بعض الشهادات الإيجابية لبعض المستشرقين والمتقنين الغربيين في المقارنة بين المرأة المسلمة والمرأة غير المسلمة، أو بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية، أو بين المرأة التي تعيش تحت حكم الإسلام والمرأة التي تعيش تحت حكم القوانين الوضعية:

يقارن المستشرق مارسيل بوازار أثناء حديثه عن النساء في الإسلام وأنهن شقائق الرجال؛ بين احترام الإسلام للمرأة والتقليل من مكانتها في الكنيسة؛ فيقول: ((وهكذا فإن العقيدة الإسلامية لم تستخدم ألفاظاً للتقليل من احترامها، كما فعل آباء الكنيسة الذين طالما اعتبروها (عميلة الشيطان)؛ بل إن القرآن يضيف آيات الكمال على امرأتين: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران أم المسيح [العليّة]).^(١)

يقارن المستشرق إميل درمنغم بين المرأة في الإسلام والأخرى في الغرب، ويرد على بعض المزاعم الباطلة، فيقول: ((من المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة في الإسلام قد جردت من نفوذها زوجة وأمّاً، كما تُذم النصرانية لعدّها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنّها إياها، فعلى الإنسان أن يطوف في الشرق ليرى أن الأدب المنزلي فيه قوي

(١) بوازار: مارسيل، إنسانية الإسلام، ص ١١٣.

متين، وأن المرأة فيه لا تحسد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والأذرع العارية، ولا تحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا)).^(١)

يدافع هنري دي كاستري عن الإسلام، ويبرئه من بعض الرذائل التي ألصقت به بواسطة بعض السواح الغربيين، ويقارن بين ما يزعمون حصوله من رذائل في بلاد المسلمين وما يحصل في أوروبا من رذائل؛ فيقول: ((..أنني لست أدري إن كانت تلك الرذائل أكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السواح الذين يرون أمراً في فرد فيجعلونه عاماً من غير تثبيت فيه، لولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئاً يملؤون به مؤلفاتهم، والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة، ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين أكثر مما يحدث في الشرق بأجمعه؛ لأن النبي ﷺ بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة)).^(٢)

وأثناء حديثه عن الحشمة عند المسلمين، وأن الإسلام جاء بكل ما من شأنه يمنع بوادر الفتنة والفساد بين الرجل والمرأة؛ مما جعل الحشمة والوقار سجية وصفة من صفات المسلم خلافاً لغيره في الأمم الأخرى؛ فيقول: ((إننا لو رجعنا إلى زمن النبي ﷺ ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه ﷺ [عليه السلام] فهن مديونات لنبينهم بأمور كثيرة، وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن، وما يجب لهن على الرجال.. ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام الإسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين لكي يجعل الأزواج والآباء في راحة ونعيم.. ولقد أصبحت للمسلمين أخلاق مخصوصة، عملاً بما جاء في القرآن أو في الحديث، وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة

(١) درمنغم: إميل، حياة محمد، ٣٣١.

(٢) دي كاستري: هنري، الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٦.

والوقار، وجاء هذا مغايراً لآداب الأمم المتمدنة اليوم على خط مستقيم، ومزياً لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين إلى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض، والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحي كما بين السماء والأرض...^(١)

يقارن المستشرق إيتين دينيه^(٢) بين ثقافة المرأة المسلمة والمرأة الأوروبية؛ فيقول: «إن تعليم المرأة يساير كل المسايرة جميع تعاليم الدين، وقد كان في عصر ازدهار الإسلام يفاض فيضاً على المسلمات، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوروبيات دون جدال...»^(٣)

يقارن المستشرق ول ديورانت في حرية التصرف في الأملاك بين المرأة المسلمة والمرأة الأوروبية؛ فيقول: «..كان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوروبية من ناحية هامة، تلك هي أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها...»^(٤)

أما روجيه جارودي يقارن بين ما جاء في القرآن بخصوص المرأة وما جاء عند المجتمعات الأخرى؛ فيقول: «إذا نحن قارنا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة

(١) المصدر السابق، ص ٥٨-٥٩.

(٢) إيتين دينيه (١٨٦١ - ١٩٢٩) Et. Dinet تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨). من آثاره : صَنَّفَ بمعاونة سليمان بن إبراهيم (محمد في السير النبوية)، وله بالفرنسية (حياة العرب)، و(حياة الصحراء)، و(أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(الشرق في نظر الغرب)، و(الحج إلى بيت الله الحرام). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٦٣.

(٣) دينيه: إيتين، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٤١.

(٤) ديورانت: ول، قصة الحضارة، ١٣/١٤٠.

فإنها تسجل تقدماً لا مرء فيه ولا سيما بالنسبة لأثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة)).^(١)

ويقارن كذلك بين حرية تصرف المرأة في مالها في التشريع الإسلامي وحق المرأة في التصرف بمالها في التشريعات الأخرى؛ فيقول: «في القرآن تستطيع المرأة التصرف بما تملك وهو حق لم يعترف لها به في معظم التشريعات الغربية؛ ولا سيما في فرنسا إلا في القرن التاسع عشر والعشرون.

أما في الإرث فصحيح أن للأثني نصف ما للذكر، إلا أنه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة أعباء مساعدة أعضاء الأسرة الآخرين على عاتق الذكر، المرأة معفاة من كل ذلك، والقرآن يعطي المرأة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المرأة في الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرناً)).^(٢)

نقلت إيفيلين كوبولد^(٣) عن الليدي ماري مونتكاد - زوجة السفير الإنجليزي في تركيا - تقريراً فيه تكذيب لما يُكتب في الغرب عن المرأة المسلمة من افتراء وكذب، وشهدت بما شاهدته وعاشته بنفسها؛ فقالت: «يزعمون أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه، فإن مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون الحقيقة، ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا وأني اجتمعت إلى النساء المسلمات

(١) جارودي: روجيه، وعود الإسلام، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

(٣) الليدي إيفيلين كوبولد Lady E. Cobold، نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة) (لندن ١٩٣٤) والذي ترجم إلى العربية بعنوان: (البحث عن الله). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٨١.

ما كان إلى ذلك سبيل، وإني أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى؛ لذهبت أصدق ما يكتب هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكما رأيتها في الأستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيئية، ثم إنهن يعشن في مقصورات جميلات ويستقبلن من يرد من الناس)).^(١)

يقارن لايتنر^(٢) بين تعاليم الدين الإسلامي والأخلاق الحميدة التي يدعو إليها

والرهبانية عند النصارى وأخلاق شباب الإنجليز؛ فيقول: ((..أما بخصوص الرهبانية فليس لها وجود في الإسلام، وتكاد لا ترى امرأة غير متزوجة، وقصاص الزنا متساوٍ فيه الرجل والمرأة.. والشريعة الإسلامية لا تسمح بإهانة أولاد المملوكة، وهم يرثون أبناءهم مع أولاد السيدة.. وليس في الإسلام محلات للفاجرات ولا قانون يبيح انتشار المومسات، ومساهمات المسلمين العمومية خير مما هي في أوروبا، ومساهمات شبان المسلمين في المدارس خير وأظهر من مسامرات شباننا.. والحق أولى أن يقال فإن كثيراً من كلام شبان الإنكليز لو قاله أحد في بلاد المسلمين لنال قائله القصاص الصارم، وللمرأة المسلمة مركز شرعي خير من مركز المرأة الإنكليزية بكثير..)).^(٣)

(١) كويولد: إيفيلين، البحث عن الله، ص ٨٥.

(٢) لايتنر Lightner باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالها وعلمائها. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ١٣٣.

(٣) لايتنر: دين الإسلام، ص ١٤-١٥.

أبدت سالي مارش^(١) إعجابها الشديد بالعلاقات الاجتماعية والأسرية عند المسلمين، وبالحب والإخلاص الذي يكتنف الحياة الزوجية، وتقارن ذلك بالحياة الاجتماعية في المجتمعات الأخرى؛ فتقول: ((لقد لاحظت أن المشكلات العائلية التي يعاني منها الغرب لا وجود لها بين الأسرة المسلمة التي تنعم بالسلام والهناء، وكذلك الحب؛ فلا الزوج ولا زوجته في ظل الإسلام يعرفان شيئاً عن موعد العشاء ومودة الصديقات السائدين هذه الأيام في الأقطار غير الإسلامية.

لقد أحببت هذا الجانب من الحياة الإسلامية حباً كثيراً، لأنه يمنح الزوج والزوجة والأبناء ما لا بد لهم عنه من حب وإخلاص وسلام يعمر حياتهم، وليس ذلك فحسب بل بفضل هذا الإخلاص في العلاقات الزوجية بين المسلمين، هم واثقون أن أبناءهم حقاً من صلبهم غير دخلاء عليهم، وهذا مفقود في المجتمعات الأخرى)).^(٢)

تقارن الصحفية البريطانية روز ماري هاو^(٣) بين حقوق المرأة في الإسلام وحقوق المرأة الغربية؛ فتقول: ((إن الإسلام قد كرم المرأة وأعطاهم حقوقها كإنسانة،

(١) سالي جان مارش: سلوى جان مارش S. J. Marsh ولدت في واشنطن عام ١٩٥٤ في عائلة بروتستانتية، حصلت على درجة الماجستير في العلوم السياسية من واشنطن، كما تفرغت لدراسة اللغة العربية بجامعة الكويت. قرأت كثيراً في معظم الأديان المعروفة في الغرب فلم يقبل عقلها أي واحد منها فلما التقت بالإسلام أحسّت منذ البداية أنها تؤمن بكافة تعاليمه بحكم فطرتها التي فطرها الله عليها فانتتمت إليه. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٤٣٣.

(٢) العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، ٤٦/٨.

(٣) روز ماري: مريم هاو R. Mary Howe صحفية إنكليزية، نشأت في عائلة نصرانية متديّنة، لكنها مع بلوغها مرحلة الوعي بدأت تفقد قناعاتها الدينية السابقة وتتطلع إلى دين يمنحها الجواب المقبول. وفي عام ١٩٧٧ أعلنت إسلامها، وهي تعمل الآن في صحيفة (العرب تايمز) اليومية الكويتية التي تصدر بالإنكليزية. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٤٣٥.

وكامرأة، وعلى عكس ما يظن الناس من أن المرأة الغربية حصلت على حقوقها.. فالمرأة الغربية لا تستطيع مثلاً أن تمارس إنسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المرأة المسلمة، فقد أصبح واجباً على المرأة في الغرب أن تعمل خارج بيتها لكسب العيش، أما المرأة المسلمة فلها حق الاختيار، ومن حقها أن يقوم الرجل بكسب القوت لها ولبقية أفراد الأسرة. فحين جعل الله ﷻ للرجال القوامة على النساء كان المقصود هنا أن على الرجل أن يعمل ليكسب قوته وقوت عائلته. فالمرأة في الإسلام لها دور أهم وأكبر من مجرد الوظيفة، وهو الإنجاب وتربية الأبناء، ومع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في العمل إذا رغبت هي في ذلك، وإذا اقتضت ظروفها ذلك^(١).

أكتفي بهذه الشهادات في المقارنة بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية غير مسلمة، وسيأتي في المباحث التالية بعضاً من هذه الشهادات.

(١) العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، ٢٨/٨.

الفصل الثاني

آراء لوبون حول مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: دفاع لوبون عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام

**المبحث الثاني: مقارنة لوبون بين أحكام النكاح والطلاق عند المسلمين
وأحكام النكاح والطلاق عند الأوروبيين**

المبحث الأول

دفاع لوبون عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعدد الزوجات ومشروعيته في الإسلام

المطلب الثاني: إعجاب لوبون بمبدأ تعدد الزوجات وردّه لمزاعم الطاعنين فيه

المطلب الثالث: إعجاب بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين بمبدأ تعدد الزوجات

المطلب الأول

تعدد الزوجات ومشروعيتها في الإسلام

مبدأ تعدد الزوجات لم يأت به الإسلام ابتداءً؛ وإنما كان معروفاً في الأمم السابقة^(١) وفي الجاهلية عند العرب، فاليهودية كانت تبيح التعدد دون قيد ولا حد، وأنبياء الله من بني إسرائيل كانوا يعددون، ولا ينكر اليهود ما سجله التاريخ وما جاء في العهد القديم من أن تعدد الزوجات كان مباحاً في شريعة موسى عليه السلام مطلقاً من كل قيد أو حد؛ مع إباحة اتخاذ السراري دون تحديد لعدد أيضاً، وفي النصرانية جاء الإنجيل مكماً للتوراة وليس ناقضاً لها، ولم يرد في النصرانية نص صريح يحرم تعدد الزوجات، وكذلك عند العرب؛ حيث كان التعدد مشاعاً ومعروفاً قبل الإسلام؛ ولكنه كان غير محدد، وقد بين غوستاف لوبون أن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام وحده؛ بل هناك أديان وشعوب عرفته وطبقته، ولسان حاله يقول: لماذا تُوجه اللائمة على المسلمين دون غيرهم؟ فيقول: ((إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تر الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غنماً جديداً إذن، ولا نعتقد مع ذلك وجود ديانة قوية تستطيع أن تحوّل الطبائع فتبتدع أو تمنع مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد جوّ الشرقيين وعروقهم وطرق حياتهم)).^(٢) ويقول إسحاق تايلور^(٣): ((أما تعدد

(١) انظر: شتا: أبو سعد محمد بن محمد، تعدد الزوجات إعجاز تشريعي يوقف المد الاستشراقي، ص ٢٠. وافي: علي عبدالواحد، قصة الزواج والعزوبة، ص ٥٢.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٩٧.

(٣) إسحاق تايلور، Isaac Taylor (١٨٢٩-١٩٠١) باحث إنجليزي مسيحي، ومؤلف، وعالم لغوي. انظر: الشبكة العنكبوتية: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

الزوجات فإن موسى عليه السلام لم يجرمها، وداود عليه السلام أتاها وقال بها، ولم تحرم في العهد الجديد (أي الإنجيل) إلا من عهد غير بعيد، ولقد أوقف محمد عليه السلام الغلو فيها عند حدّ معلوم^(١).

فالإسلام وجد التعدد بلا قيود ولا حدود؛ فنظّمه، وهدّبه، وحدّ من مساوئه وأضراره التي كانت موجودة في المجتمعات البشرية التي انتشر فيها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] هنا شرع الله عز وجل التعدد وحده بأربع، واشترط العدل فيه.

أما مشروعية التعدد في السنة؛ فقد أسلم أناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان تحتهم من النسوة ما يزيد عن الأربع، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم باختيار أربعة منهن ومفارقة باقيهن؛ امتثالاً لما قضى الله تعالى به، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أَنَّ عَيَّلَانَ بْنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلَمَ وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَاسْلَمَ مَعَهُ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ).^(٢) وعن الحارث بن قيس رضي الله عنه قال: أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي ثَمَانِ نِسْوَةٍ، فَاتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: (اخْتَرِ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا).^(٣) وانعقد إجماع المسلمين على التعدد بضوابطه الشرعية، وأخصّها عدم تجاوز

(١) كويليام: عبدالله، العقيدة الإسلامية، ص ٢٢. (عن إسحاق تايلور في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنجليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التايمز في اليوم التالي).

(٢) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب النكاح، باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوة، رقم ١١٢٨، ٤٢٧/٣. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، إرواء الغليل، رقم ١٨٨٣، ٢٩١/٦.

(٣) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب الطلاق، باب فيمن أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان، رقم ٢٢٤١، ٥٥٦/٣. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح أبي داود، رقم ١٩٣٩، ١١/٧.

الأربع، مع العدل الممكن شرعاً.^(١) فجعل الإسلام حداً لا يحل تجاوزه هو (أربع)، وأن هناك قيماً أو شرطاً وهو العدل بين الزوجات، فإذا لم يتحقق ذلك وجب الاقتصار على واحدة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ﴾ [النساء: ٣].

هو إذاً نظام قائم وموجود منذ العصور القديمة، ولكنه كان فوضى فنظمه الإسلام، وكان تابعاً للهوى والاستمتاع باللذائذ، فجعله الإسلام سبيلاً للحياة الفاضلة الكريمة، والحقيقة التي ينبغي أن يعلمها كل إنسان، أن إباحة تعدد الزوجات مفخرة من مفاخر الإسلام، لأنه استطاع أن يحل مشكلة عويصة من أعقد المشاكل، تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم، فلا تجد لها حلاً إلا بالرجوع إلى حكم الإسلام، وبالأخذ بنظام الإسلام، ((وإباحة تعدد الزوجات من محاسن هذه الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان؛ لما فيه من المصالح العظيمة للرجال والنساء والمجتمعات:

لأنه من المعلوم كثرة عدد النساء عن عدد الرجال مع ما يعتري الرجال من الأخطار التي تقلل عددهم؛ كأخطار الحروب والأسفار، مما ينقرض معه كثرة الرجال، ويتوفر به عدد النساء، فلو قصر الرجل على واحدة؛ تعطل كثير من النساء.

كذلك معروف ما يعتري المرأة من الحيض والنفاس، فلو منع الرجل من التزوج بأخرى؛ لمرت عليه فترات كثيرة يحرم فيها من المتعة والإنجاب.

ومعروف أن الاستمتاع بالمرأة استمتاعاً كاملاً ومثمرًا ينتهي ببلوغها سن اليأس، وهو بلوغ الخمسين من عمرها؛ بخلاف الرجل؛ فإنه يستمر صلاحيته للاستمتاع والإنجاب

(١) انظر: ابن حزم الظاهري: علي بن أحمد، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات،

إلى سن الهرم، فلو قصر على واحدة؛ لفات عليه خير كثير، وتعطل عنده منفعة الإنجاب والنسل.

إضافة إلى أنه كان من المعلوم أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في غالب المجتمعات البشرية؛ فإن قصر الرجل على امرأة واحدة يترك كثيراً من النساء لا عائل لهن، وبالتالي يفضي هذا إلى الفساد الخلقي، وضياع كثير من النساء، أو حرمانهن من متعة الحياة وزينتها.

والحكم البالغة في إباحة تعدد الزوجات كثيرة؛ فقاتل الله من يحاول سد الطريق وتعطيل هذه المصالح^(١).

(١) الفوزان: صالح بن فوزان، الملخص الفقهي، ٢/٣٢٤.

المطلب الثاني

إعجاب لوبون بمبدأ تعدد الزوجات ورد مزاعم الطاعنين فيه

أبدى غوستاف لوبون إعجابه الشديد بمبدأ تعدد الزوجات في الإسلام، ودافع عنه دفاعاً قوياً، ورد مزاعم الطاعنين فيه، ووصفهم بعدم الإنصاف، وطالبهم بالتخلي عن موروثاتهم وأوهامهم الأوروبية المغلوطة.

واستنكر على هؤلاء توجيههم باللائمة على الإسلام في مسألة التعدد وتجاهلهم الأديان والشعوب الأخرى التي عرفته وطبقته.

وعاب على الغربيين العلاقات السرية غير شرعية، وقرر أن التعدد خير من هذه العلاقات الفاسدة المنتشرة في المجتمعات الغربية، وامتدح مبدأ تعدد الزوجات وذكر الكثير من محاسنه؛ ويتضح ذلك في أقواله التالية:

يقرر لوبون أن الباحث في دراسة أي أمة يجب أن يتخلى عن أوهامه، وموروثاته الثقافية، ومبادئ البيئة التي عاش فيها؛ لكي يكون منصفاً في دراسته، وخاصة في موضوع تعدد الزوجات؛ فيقول: «لا يدرك المرء نظم أمة أجنبية إلا إذا تناسى قليلاً مبادئ البيئة التي يعيش فيها، وفرض نفسه من أبناء تلك الأمة، ولا سيما إذا كانت تلك النظم من نوع مبدأ تعدد الزوجات؛ الذي لَمَّا تُعَلِّم حقيقة أمره إلا قليلاً؛ فأسيء الحكم فيه».

ولا نذكر نظاماً أنحى الأوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات، كما أننا لا نذكر نظاماً أخطأ الأوروبيون في إدراكه كذلك المبدأ، وذلك أن أكثر مؤرخي أوروبا اتزاناً يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية في الإسلام وأنه سبب انتشار الإسلام، وأنه علة انحطاط الشرقيين، ونشأت عن هذه المزاعم الغربية على العموم أصوات سخِطِ رحمة بأولئك البائسات المكذسات في دوائر الحريم»^(١)

ثم رد على هذه المزاعم؛ فقال: «ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يثبت عند

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٩٧.

القارئ الذي يقرأ هذا الفصل، بعد أن يطرح أوهامه الأوروبية جانباً، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراهما في أوروبا)).^(١)

بين غوستاف لوبون أن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام وحده؛ بل هناك أديان وشعوب عرفته وطبقته، ولسان حاله يقول: لماذا تُوجه اللائمة على المسلمين دون غيرهم؟ فيقول: ((أقول: بعد اثبات ذلك إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفُرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تر الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غنماً جديداً إذن، ولا نعتقد مع ذلك وجود ديانة قوية تستطيع أن تحوّل الطبائع فتبتدع أو تمنع مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد جوّ الشرقيين وعروقهم وطرق حياتهم)).^(٢)

يعرّض لوبون بالعلاقات غير الشرعية عند الأوروبيين، ويقرر أنه أدنى مرتبة من تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين؛ فيقول: ((ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبةً من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزراً)).^(٣)

نقل لوبون في أسباب تعدد الزوجات عند الشرقيين كلاماً للمستشرق الفرنسي مسيو لوبليه؛ فقال: ((ومن ذلك أن رأى مؤلف كتاب "عمّال الشرق" العالم مسيو لوبليه بيان الضرورة التي تدفع أرباب الأسر الزراعية في الشرق إلى زيادة عدد نسائهم وكون النساء في هذه الأسر هن اللائي يخرضن أزواجهن على البناء بزواج آخر من غير أن يتوجعن، قال مسيو لوبليه: "يتزوج ربّ الأسرة صغيراً على العموم، وتضعف زوجته الأولى بعد أن تكون ذات أولاد كثير، على حين يبقى تام القوة، فيضطر للزواج مرة أخرى بتحريض الزوجة

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٨.

الأولى غالباً، وبموافقتها تقريباً... وقد يعجب المرء أول وهله من حمل امرأة زوجها على الزواج بامرأة أخرى، ولكن العجب يزول حينما نعلم أن النساء في الأسر الإسلامية (الزراعية) هن اللاتي يقمن بشؤون المنزل مهما كانت شاقة، وذلك أن الفلاحين إذا كانوا يجهلون أمر اتخاذ الخوادم لم يبقى للنساء غير الاستعانة بالإماء والقريبات؛ اللاتي يكن في الزمرة نفسها، وقد لا يكون هنالك قريبات، وقد لا تسمح الأحوال باشتراء إماء، وقد تصبح الإماء عند اشترائهن جواري منافسات للزوجة الأولى في الحظوة لدى رب الأسرة، فلا يكون لدى الزوجة الأولى ما يستلزم تفضيل الإماء هؤلاء على الزوجات الشرعيات الأخرى، ومن ثم ترى أن الزوجة تشير في تلك الأحوال على زوجها بأن يني بزوجة أخرى، ولا سيما إذا علمت أنها تصنع ذلك حينما تكون آخذة في الهرم منهمكة في واجبات الأمومة".

ومن العوامل المهمة التي ذكرها ذلك المؤلف في تعدد الزوجات عند الشرقيين هو: "حبهم للذرية الكثيرين ولا عجب، فالعقم عند الشرقيين من أعظم ما يصاب به إنسان، والشرقي إذا ما رزق بضعة أولاد طمع في زيادة عددهم، وتزوج في نساء آخر وصولاً إلى هذا الغرض".^(١)

قرر لوبون في قول من يزعم أن تعدد الزوجات يجعل المرأة تعسة؛ قرر أن هذا الزعم فاسد وأن جميع الأوروبيين الذين درسوا أمره في الشرق قالوا بفساد هذا الزعم؛ فقال: «والاعتراض الوحيد الذي يوجه إلى مبدأ تعدد الزوجات هو أنه يجعل المرأة تعسة، وقد أجمع على فساد هذا الزعم الذي طال أمده جميع الأوروبيين الذين درسوا أمره في الشرق عن كتب».^(٢)

نقل لوبون شهادة أحد المستشرقين "مسيو إيبر" -والذي هو من أشد خصوم مبدأ تعدد الزوجات- فقال: «قد يظهر لأخواتهن الأوروبيات أنهن من الذليلات، ولكنهن لا يشعرن بأنهن أسيرات مطلقاً، وهن يقلن في الغالب لنسائنا اللاتي يزرهن إنهن لا يقبلن

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٢.

استبدال حالنا بحالهن)).^(١)

نقل لوبون كذلك شهادة مدير مدرسة اللغات في القاهرة المستشرق مسيو دوفوجاني في قوله: ((...وهن حين يتزوجن ينتقلن من دوائر آبائهن إلى دوائر أزواجهن حيث يتمتعن بأنعم جديدة ويفتحن قلوبهن الخالية من ترح تورثه تربية دقيقة لمعاني السعادة، وما يلاقينه من رعاية أزواجهن يجعل هذه السعادة أمراً ميسوراً، والمسلم يجبو بكل جميل وبكل وثمين، والمسلم يجب أن يعرض في دوائر حريمه كل ما ينم على الترف والزخرف؛ مع أنه يرضي لنفسه برقعة متضعة إذا ما قيست بتلك)).^(٢)

ويعترف لوبون بأن تعدد الزوجات في الإسلام أحسن من تعدد الزوجات غير الشرعية في أوروبا، وما يتبعه من أبناء غير شرعيين؛ فيقول: ((إن تعدد الزوجات المشروع عند الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائي عند الأوروبيين، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين)).^(٣)

ويختتم لوبون حديثه عن الحريم في الشرق بقوله: ((أنني أطمع أن يعتقد القارئ، بعد وقوفه على ما تقدم، أن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب، وأن حب الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع أكثر نمواً في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم، وأن الإسلام حسن حال المرأة كثيراً، وأنه أول دين رفع شأنها، وأن المرأة في الشرق أكثر احتراماً، وثقافةً، وسعادةً منها في أوروبا على العموم تقريباً)).^(٤)

-
- (١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤١٢.
 (٢) المصدر السابق، ص ٤١٢.
 (٣) لوبون: غوستاف، روح السياسة، ٨٣/١.
 (٤) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤١٥.

المطلب الثالث

إعجاب بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين بمبدأ تعدد الزوجات

لقي مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام هجوماً شنيعاً من أعداء الإسلام؛ فاتخذوا منه مدخلاً للطعن في الإسلام، وادعوا أن الإسلام يظلم المرأة، وينقصها حقها كزوجة، ويجعل لها من يشاركها في زوجها؛ مما يدفعه لظلمها وإنقاص حقها فيه، وادعوا أن الإسلام يفرضه حق تعدد الزوجات أشبع رغبات الرجل على حساب كرامة المرأة، وللأسف أن هذه الدعوات وجدت من يستمع لها ويتبنى نشرها في مجتمعنا الإسلامي.

بالرغم من هذه الحملة الشرسة على مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام؛ إلا أن هناك بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين دفعهم الإنصاف نوعاً ما إلى قول الحق والاعتراف والشهادة بحسن هذا التشريع، ودافعوا عنه؛ ويتضح ذلك من خلال شهاداتهم التالية:

يدافع المستشرق إميل درمنغم عن تعدد الزوجات في الإسلام، ويقرر أنه أفضل من تعدد العشيقات السري؛ فيقول: ((أيهما أفضل: تعدد الزوجات الشرعي أم تعدد الزوجات السري؟ إن تعدد الزوجات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر)).^(١)

يدافع الفرنسي هنري دي كاستري عن مبدأ تعدد الزوجات، ويتهم الغربيين بالمبالغة في ما نسبوه إلى التعدد من مضار، ويقرر أن تلك وصمة ألصقت بالإسلام؛ فيقول: ((إن الناس بالغوا كثيراً في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين إن لم نقل أن ما نسبوه إليه من ذلك غير صحيح، فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة، بل المعقول أنه من شأنه تلطيفها، على أنني لست أدري إن كانت تلك الرذائل أكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السواح الذين يرون أمراً في

(١) درمنغم: إميل، حياة محمد، ص ٣٣١.

فرد فيجعلونه عامماً من غير تثبت فيه، لولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئاً يملؤون به مؤلفاتهم، والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين أكثر مما يحدث في الشرق بأجمعه لأن النبي ﷺ بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة ..)).^(١)

يشهد المستشرق إيتين دينيه أن الإسلام لا يتعارض مع الطبيعة البشرية أو بمعنى آخر الفطرة التي فطر الله الناس عليها، خلافاً للكنيسة التي تصادم الفطرة في كثير من شؤون الحياة، ومن ذلك فرضها الرهينة على أبنائها ومنعهم من الزواج؛ فيقول: ((لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تُغلب، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة؛ مثل ذلك: الفرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهينة، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون عزباء.

على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة، وأن لا يتمرد عليها؛ وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعله أكثر قبولاً، وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور، حتى لقد سُمي القرآن لذلك (بالهدى)؛ لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة؛ والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكننا نأخذ بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعداد الزوجات.. فمما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة، ويصادم الحقائق؛ بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه، لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج، فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً، ولا يأمر به أمراً باتاً)).^(٢)

ويتساءل إيتين دينيه ساخراً من تعاليم الكنيسة التي منعت تعدد الزوجات؛ فيقول: ((هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة وتشديدها في

(١) دي كاستري: هنري، الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٦.

(٢) دينيه: إيتين، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣١.

تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ وإلا فهؤلاء مثلاً ملوك فرنسا - دع عنك الأفراد - الذين كانت لهم الزوجات المتعددة والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام^(١).

ويقرر أن الكنيسة بمنعها تعدد الزوجات جلبت الفساد، والسيئات المتعددة؛ التي كان من نتائجها انتشار الدعارة، والعنوسة، والأبناء غير الشرعيين؛ فيقول: ((وإن تعدد الزوجات قانون طبيعي وسيبقى ما بقي العالم، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالعرض الذي أرادته، فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه.. إن نظرية التوحيد في الزوجة التي تأخذ بها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر، جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين^(٢)). ويقرر بعد ذلك أن البلدان التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية سلمت من هذه الأمراض الاجتماعية؛ فيقول: ((إن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق؛ وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية^(٣))).

يشهد جاك ريسلر بأن تعدد الزوجات في الإسلام حقق تماسك الأسرة، ومنع الانزلاق في الشهوات الجامحة؛ فيقول: ((وفي الحقيقة أن تعدد الزوجات، بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الإسلامي تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني^(٤))).

(١) دينيه: إيتين، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٤) ريسلر: جاك، الحضارة العربية، ص ٥٢.

يقرر إسحاق تايلور أن التعدد كان معروفاً ومنتشراً عند اليهود والنصارى، ولكن كان فيه شذوذ وغلو، فجاء الإسلام فهذبته وقبده، فكان فيه الخير للنساء في البلدان الإسلامية، وطالب إسحاق تايلور الأمم المسيحية بإخراج ما في أعينهم من قذى ومن ثم يتقدمون لإخراج القذى من أعين الآخرين؛ فقال: ((أما تعدد الزوجات فإن موسى عليه السلام لم يجرمها، وداود عليه السلام أتاها وقال بها، ولم تحرم في العهد الجديد (أي الإنجيل) إلا من عهد غير بعيد، ولقد أوقف محمد صلى الله عليه وسلم الغلو فيها عند حدّ معلوم، وعلى كل حال فإن مسألة تعدد الزوجات أمر شاذّ كثيراً عن الدستور المعمول به في البلاد الإسلامية المتقدمة.. وهو بكل ما قيل فيه من القول الهراء لا يخلو من الفائدة؛ فقد ساعد على حفظ حياة المرأة، وأوجد لها في الشريعة حسن المساعدة. وتعدد الزوجات في البلاد الإسلامية أقلّ إثماً وأخفّ ضرراً من الخبائث التي ترتكبها الأمم المسيحية تحت ستار المدنية.. فلنخرج الخشبة التي في أعيننا أولاً ومن ثم نتقدم لإخراج القذى من أعين غيرنا)).^(١)

ويقرر القسيس لوازون^(٢) أن القرآن لم يأمر بتعدد الزوجات وإنما شرع تعدد الزوجات وأمر من يعدد بالعدل والإنصاف بينهن، وشهد بأن التعدد في الإسلام خير من حصر الزواج في امرأة واحدة واتخاذ زوجات غير شرعيات من وراء الجدار كما في أوروبا؛ فيقول: ((جاء في القرآن ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات التي تنتقدون فيها على المسلمين ظلماً وعدواناً؛ إذ لا شك في أنكم تجهلون عدل النبي صلى الله عليه وسلم بين أزواجه رضي الله عنهن ووجه فيهن حباً مساوياً مما علم المسلمين الانتماء والإنصاف بينهن، على أن القرآن لم يأمر بتعدد الزوجات بل جاء بالحظر مع الوعيد لمن لا يعدل في الآية المتقدمة، ولذلك ترى اليوم جميع المسلمين منهم القليل لا

(١) كويليام: عبدالله، العقيدة الإسلامية، ص ٢٢. عن (إسحاق تايلور في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنجليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التايمز في اليوم التالي).

(٢) لم أقف على ترجمة له؛ إلا إشارة أنه مستشرق وفيلسوف فرنسي.

يتزوجون إلا امرأة واحدة خوف الوقوع تحت طائلة ما جاء من الإنذار في القرآن المجيد، وإذا سلّمنا على العموم بأن عدم تعدد الزوجات أوفق للمعاشرة الدنيوية من تكرهن، فلا نسلم بالاعتراف بذلك على الوجه المتعارف اليوم بأوروبا من حصر الزواج في امرأة واحدة إذعاناً للقانون واتخاذ عدة أزواج أخرى غير شرعيات من وراء الجدار...^(١).

(١) المصدر السابق، ص ٣٨-٣٩. عن (لوازون في خطبة ألقاها بتونس، ونشرت في جريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٥).

المبحث الثاني

مقارنة لوبون بين أحكام النكاح والطلاق عند المسلمين وأحكام النكاح والطلاق عند الأوروبيين

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الأسرة في الإسلام وفي الغرب

المطلب الثاني: إعجاب غوستاف لوبون بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام

المطلب الثالث: إعجاب بعض المستشرقين بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام

المطلب الأول

مفهوم الأسرة في الإسلام وفي الغرب

الحديث عن الأسرة هو حديث عن شبكة من العلاقات، والمفاهيم، والحقوق، والواجبات، التي تشكل النواة الأساسية للمجتمع، والحاضن التربوي للفرد، وعقد مقارنة بين مفهوم الأسرة في الإسلام ومفهوم الأسرة في الغرب يثير عدداً من المفارقات؛ قد تصل إلى حالة من التناقض التام بين النموذجين؛ وذلك في نواحي معرفية مختلفة؛ كالمعتقدات الدينية، والموروثات الثقافية، والعادات والتقاليد الاجتماعية، وغير ذلك.

الأسرة في الإسلام تقوم على أساس ديني إيماني في جميع نواحي الحياة الأسرية، فإن الكثير من الأحكام المتعلقة بالأسرة جاءت في القرآن مقرونة ببناء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾؛ كالميراث في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]، والعدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وحرمة البيوت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧]، والتربية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦] وغيرها.

نظام الأسرة في الإسلام قائم على وحدة الشمل، وتحديد الواجبات، وتقسيم المهمات، فالرجل مسؤول عن قيادة الأسرة وتوجيهها، واكتساب المعاش، وإنفاقه على زوجته وأبنائه، والمرأة مسؤولة عن زوجها، ومسؤولة عن أبنائها، وتربيتهم ورعايتهم، قال ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ

وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ... وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا..^(١)

يعتبر الزواج الشرعي بين ذكر وأنثى في المفهوم الإسلامي هو الأساس المكين الذي تقوم عليه الأسرة، والتي تتعدى كونها علاقة بين الرجل والمرأة وأبنائهم، فهي علاقة تتجه إلى أبعد من ذلك؛ فتنشأ بسبب النكاح علاقات مصاهرة، ونسب، ورضاع؛ مما يترتب على ذلك من الحقوق والواجبات الشرعية ماديّة كانت؛ كالإرث والنفقة، أو معنوية كالبر والصلة؛ تمتد هذه العلاقات لتتكوّن وحدة اجتماعية مترابطة، وتمتد هذه العلاقات إلى الجار وحقوقه، والخدم الذين يعملون لدى الأسرة وحقوقهم؛ فقد عني الإسلام بكل أفراد المجتمع المتصل بهذه الأسرة.

نظام الأسرة في الإسلام يعتمد على أسس قوية متينة، وليس مجرد صفقة تجارية بين رجل وامرأة يساوم كل منهما الآخر لينال أقصى ما يستطيع من أرباح مادية، إنما هو نظام قائم على التراحم والمودة والسكن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] ((فحصل بالزوجة الاستمتاع، واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة))^(٢)، وقال النبي ﷺ: ((..فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ..))^(٣)، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: ((فيه الحث على مراعاة حق النساء والوصية بهن ومعاشرتهن بالمعروف وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة في الوصية بهن وبيان حقوقهن والتحذير من التقصير في ذلك))^(٤).

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٩٣، ٥/٢.

(٢) السعدي: عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٣٩.

(٣) سبق تخريجه، ص ٣٧٣.

(٤) النووي: يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٨٣/٨.

فإن تعسرت الحياة بين الرجل والمرأة واستحال استمرارهما في الحياة الزوجية، وقرر أحدهما الانفصال، هنا جاء الإسلام بالحل الأمثل لهذا الانفصال؛ فقد بين الله ﷻ أحكام الطلاق، والخلع، والرجعة، والعدة، وكل ما يترتب على ذلك من شروط وآداب وسنن، وعدم الإيذاء والإضرار، والآيات والأحاديث في أحكام الطلاق كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وقال النبي ﷺ: (لَا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُّؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ)^(١). والآيات والأحاديث في أحكام النكاح والطلاق أكثر من أن يستوعبها هذا المطلب، فأكتفي بما ذكر.

هذا هو مفهوم الأسرة في الإسلام، فهو نظام يعتمد على قواعد وأسس ثابتة، لا تتغير بتغير التحولات الفكرية أو الثقافية، أو التعقيدات الاقتصادية. والسلوكيات الاجتماعية الخاطئة في بعض المجتمعات المسلمة لا تعدو كونها ظواهر محدودة بالنسبة للمجتمع العام، والجميع ينظر إليها على أنها ليست من الإسلام في شيء. أما الحياة الاجتماعية في الغرب فقد خضعت لعدة تحولات ومتغيرات، ابتداء من سيطرة الكنيسة على الحياة العامة، ثم عهد الثورة الصناعية في بداية القرن السادس عشر، ثم الثورة الفرنسية في أواسط القرن الثامن عشر، أو ما يسمى عصر التنوير، ثم الدعوة إلى نبذ المجتمع القديم (الإقطاعي) وإرساء مجتمع جديد تسود فيه حرية الإنسان -بجد زعمهم-، هذه التحولات كان لها الأثر الكبير في الأسرة التي ((أخذت في التفكك حتى إنها تكاد تندثر في زمننا هذا، بل إن مصطلح الأسرة بدأ يتغير، فلم تعد الأسرة هي الأب والأم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٣٧٢١، ٤/١٧٨.

والأولاد والجد والجددة وغيرهم، ولكن الأسرة هي لقاء بين اثنين من بني البشر حتى أصبحت الأسرة من الممكن أن تتكون من رجل ورجل، أو امرأة وامرأة؛ أما الأولاد فيمكن إضافتهم بالتبني... إن ما وصلت إليه حالة الأسرة في المجتمع الغربي إنما هو ناتج عن سلسلة من الانحراف والبعد عن منهج الله ﷻ... هذه الحالة التي وجدت المرأة نفسها فيها لم تتحسن وإنما ازدادت سوءاً حينما ظهرت الرأسمالية والثورة الصناعية التي احتاجت أن يعمل فيها جميع أفراد الأسرة... فأخرجت المرأة وأعطيت أجوراً أقل فكان لا بد لها أن تطالب بالمساواة، ومن هنا كانت الكارثة فكيف تتم المساواة بين مخلوقين مختلفين تماماً حتى إن كل خلية منها أو من الرجل تعلن عن نفسها؟

ووصلت الحضارة الغربية في تدمير المرأة والأسرة إلى ما هي الحال عليه من التمرد على السنن الربانية وتخطيم مؤسسة الزواج وبالتالي تخطيم الأسرة والعزوف عن الزواج وغير ذلك...^(١).

وسأترك غوستاف لوبون وبعض المستشرقين والمتقنين الغربيين يشهدون على هذه الحال التي وصلت إليها الحياة الاجتماعية في الغرب.^(٢)

(١) مطبقاني: مازن بن صلاح، الأسرة في بعض المجتمعات الغربية المعاصرة، ضمن أبحاث موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، جمع علي بن نايف الشحود، برنامج المكتبة الشاملة، ٣٧٢/٥٨.
وانظر: المقال في الشبكة العنكبوتية..... <http://www.saaid.net/Doat/mazin/٣.htm>

(٢) سيتضح ذلك - إن شاء الله - في المطلبين التاليين.

المطلب الثاني

إعجاب غوستاف لوبون بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام

أبدى غوستاف لوبون إعجابه بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام، وخاصة النظام الأسري المتكامل الذي يكتنف الأسرة المسلمة، والحقوق التي ينالها كل فرد من أفرادها؛ سواء كانت حقوقاً مالية أو حقوقاً معنوية، وأعجب كذلك بحسن تعامل الإسلام للمرأة خلافاً لما هي عليه في الغرب، وقارن بين هذه الأحكام والحقوق وحسن التعامل مع الحال في الغرب؛ ويتضح ذلك من خلال شهاداته التالية:

دافع غوستاف لوبون عن الإسلام وموقفه من المرأة؛ وقرر أن نقصان شأن المرأة المسلمة في العصور المتأخرة والحاضرة لم يكن بسبب الإسلام - كما يزعم البعض - ومع ذلك فإن حالها أفضل من حال المرأة الأوروبية؛ فيقول: «وخت حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي العرب ولا سيما في عهد الترك، فنقص شأن النساء كثيراً، وسأبين في مكان آخر أن حالتهم الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوروبا حتى عند الترك، وما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال»^(١).

قارن غوستاف لوبون بين أحكام الطلاق في الإسلام وأحكام الطلاق في القوانين الأوروبية؛ فيقول: «أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوروبية التي قالت به، ولكنه اشترط أن يكون ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]»^(٢).

يمتدح لوبون واقع المرأة المسلمة في احترامها لزوجها مقارنة بالمرأة في الغرب فيقول: «ولا يزال رب الأسرة الشرقية محافظاً على سلطانه خلافاً لما هو واقع في الغرب، ولا تكلم النساء الشرقيات أزواجهن إلا بأدب، ويقتدي الأولاد بهن بطبيعة الحال»^(٣).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠١.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٩.

أبدى لوبون كذلك إعجابه بالزواج المبكر عند المسلمين، وأنه سبب في علاج العزوبة في المجتمع؛ فقال: «وينظر العرب شزراً إلى العزوبة، والعزوبة تزيد في الغرب شيوعاً كل يوم كما دلت عليه الإحصاءات، ومتى بلغ العربي العشرين من عمره تزوّج على العموم، ومتى بلغت العربية ما بين السنة العاشرة والسنة الثانية عشر من عمرها تزوّجت على العموم».^(١) وقد دوّن لوبون إعجاب بعض المستشرقين بهذه العادة؛ فقال: «وقد اعترف إيرير بفائدة هذه العادة؛ فقال: "لا يسعنا إلا الشهادة بحسن تلك الروح البيئية، وصلاح تلك الحياة المنزلية"».^(٢)

أبدى لوبون إعجابه بأحكام الزواج المالية في الإسلام، كالمهر والنفقة والإرث، مقارناً ذلك بأحكام الزواج في الغرب؛ فيقول: «ويمتاز الزواج الشرقي من الزواج الأوروبي؛ بأن الزوج في الشرق هو الذي يدفع إلى أهل الزوجة مهراً متحولاً بحسب ثروتهما، وبأن الزوجة عند أكثر الغربيين - ولا سيما طبقاتهم الموسرة - هي التي تدفع مبلغاً من المال يعرف بالدوتة لتتال زوجاً».

وحقوق الزوجة التي نص عليها القرآن ومفسروه أفضل كثيراً من حقوق الزوجة الأوروبية، فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلاً عن مهرها وعن أنه لا يطلب منها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل، وهي إذا أصبحت طالقاً أخذت نفقة، وهي إذا تأيمت أخذت نفقة سنة واحدة، ونالت حصة من تركة زوجها».^(٣)

أقر لوبون بحسن تعامل الإسلام والمسلم عامة للمرأة، فشهد بذلك؛ وذكر أن هناك إجماع من الباحثين المنصفين على ذلك؛ فقال: «وتعامل المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلاً عن تلك الامتيازات، وتنال بذلك حالاً أجمع الباحثون المنصفون - ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعدد الزوجات اعداء - على الاعتراف بحسنها، ومن هؤلاء مسيو دو أميسيس الذي قال في معرض الحديث عن المرأة في الشرق: .. "إن المرأة في الشرق تُحترم بنبل

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٠.

وكرم على العموم، فلا أحد يستطيع أن يرفع يده عليها في الطريق، ولا يجرؤ جندي أن يسيء إلى أوقح نساء الشعب حتى في أثناء الشغب، وفي الشرق يشمل البعل زوجته بعين رعايته، وفي الشرق يبلغ الاعتناء بالأم درجة العبادة، وفي الشرق لا تجد رجلاً يُقدّم على إلزام زوجته بالعمل ليستفيد من كسبها، وفي الشرق يدفع الزوج مهراً إلى زوجته فلا تجيء الزوجة إلى بيت زوجها مصحوبة بأكثر من جهازها، ومن بضع إماء لها، وإذا طُلقت الزوجة في الشرق أو هجرت أعطاه الرجل نفقة لتعيش عن سعة، وحمل الزوج بعد الفراق على القيام بهذا الإنفاق يمنعه من إساءة معاملتها حذر مطالبته بالفراق^(١).

يبين لوبون ظلم الأحكام الجائرة التي يصدرها الغربيون ضد المرأة المسلمة كونها تعسة، ومضطهدة، ومسلوبة الحقوق؛ فيقول: «وقد بيّنا درجة بُعد هذه الأحكام من الصحة، ويقضى جميع الأوروبيون الذين يدخلون في دوائر الحريم كل العجب من حب النساء فيها لأزواجهن، ومن تربيتهن لأولادهن، وتدبيرهن لأمر منازلهن، ورضاهن بما قدر لهن، واعتقادهن تفهقنهن إذا ما حملن على تبديل حال الأوروبيات بحالهن، وهن يتوجعن بإخلاص من إلزام الأوروبيات بالأشغال والأعمال اليدوية مع أنهن لا يعتنين إلا بأسرهن وأزواجهن؛ ذاهبات إلى أن المرأة خلقت لهذا.

وينظر الشرقيون إلى الأوروبيين الذين يكرهون نساءهم على التجارة والصناعة والأشغال.. إلخ، كما ننظر إلى حصان أصيل يستخدمه صاحبه في جرّ عربة، أو إدارة حجر رحي، فيجب أن لا يكون على المرأة، عند الشرقيين، غير إدخال السرور إلى قلب الرجل وتربية الأسرة، ولا يرى الشرقيون أن المرأة التي تزاول أعمالاً أخرى تستطيع أن تقوم بدورها هذا على الوجه اللائق^(٢).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٤١١-٤١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٣.

المطلب الثالث

إعجاب بعض المستشرقين بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام

تعرضت الحياة الاجتماعية والأسرية في الغرب إلى كثير من التحولات، وعصفت بها الكثير من المتغيرات؛ أدت إلى تفكك الحياة الاجتماعية وانحطاطها إلى أبعد المستويات؛ وذلك لعدة أسباب؛ أهمها البعد عن منهج الله ﷻ، ثم مطالبتهم بسن قوانين تدعم الحريات الشخصية؛ والتي فتكت بالمجتمع الغربي وبالأسرة الغربية خاصة، ودمرت الحياة الأسرية.

هذه القوانين الوضعية التي -بزعمهم- تدعم الحريات الشخصية كانت سبباً في الانحراف الأخلاقي، والفساد، والشذوذ. فنشأ بسبب هذه القوانين تغيير لموازن القوى في الأسرة، فأصبحت المرأة تساوي الرجل في البيت، وانعدمت سلطة كل منهما على الأبناء، وذلك بسبب أن كلا منهم لديه حرية التصرف. فتفككت الأسرة، وانتشرت الممارسات الفاسدة والشاذة في المجتمع؛ حتى تحول الشذوذ من انحراف إلى خيار أو توجه مقبول، وحصل الشواذ على الاعتراف الرسمي بحقهم في بعض الدول، فنشأ ما يسمى بالعائلات المختلطة، والأسر المثلية. أما عقود النكاح الطبيعية فما هي إلا مجرد عقود وصفقات مالية بين الرجل والمرأة في الغالب، هذا كله ساهم في تفكك الحياة الأسرية في الغرب.

وهذه بعض اعترافات وشهادات بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين على سوء أحوال الحياة الأسرية في الغرب، وفساد القوانين الخاصة بالنكاح والطلاق لديهم، وكذلك اعترافهم بسمو الحياة الأسرية عند المسلمين، وإعجابهم بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام:

يقول هنري دي كاستري مدافعاً عن عقد الزواج عند المسلمين ضد من يزعم

أنه عقد تباع به المرأة؛ فيقول: ((من الخطأ الفاضح والغلو الفادح قولهم: أن عقد الزواج

عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المرأة فتصير شيئاً مملوكاً لزوجها؛ لأن ذلك العقد يخول للمرأة حقوقاً أدبية، وحقوقاً مادية من شأنها إعلاء منزلتها في الهيئة الاجتماعية)).^(١)

يشهد المستشرق إيتين دينيه أن الإسلام لا يتعارض مع الطبيعة البشرية أو بمعنى آخر الفطرة التي فطر الله الناس عليها، خلافاً للكنيسة التي تصادم الفطرة في كثير من شؤون الحياة، ومن ذلك فرضها الرهينة على أبنائها ومنعهم من الزواج؛ فيقول: ((لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تُغلب، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة؛ مثل ذلك: الفرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهينة، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون عزباء.

على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة، وأن لا يتمرد عليها؛ وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعله أكثر قبولاً، وأسهل تطبيقاً في إصلاحٍ ونظامٍ ورضا ميسورٍ مشكورٍ، حتى لقد سُمِّي القرآن لذلك (بالهدى)؛ لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة؛ والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكننا نأخذ بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعداد الزوجات.. فمما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة، ويصادم الحقائق؛ بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه، لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج، فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً، ولا يأمر به أمراً باتاً)).^(٢)

ينتقد أحمد سوسه الدول المسيحية وقوانينها الرسمية التي ضربت بتعاليم ديانتهم عرض الحائط، حيث أباحوا الطلاق مع أن المسيحية حرمتها، حيث توصلوا إلى أن قانون الطلاق يحتاجه المجتمع البشري ليضمن الاطمئنان في العلاقات بين الجنسين ويكفل السعادة البشرية، ثم استنكر على المسيحيين غفلتهم عن تعاليم

(١) دي كاستري: هنري، الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٧.

(٢) دينيه: إيتين، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣١.

الدين الإسلامي الذي سبقهم في ذلك: فيقول: ((لقد حرمت المسيحية الطلاق ولكن في الوقت نفسه نجد أنظمة البلاد المسيحية وقوانينها الرسمية تنصّ على إباحته، إن المسيحيين أنفسهم قد ضربوا بتعاليم ديانتهم عرض الحائط ووضعوا القوانين التي تنقضها من الأساس، وما كان ذلك كرهًا لديانتهم ولكن رغبة في وضع ما تتطلبه نفسية المجتمع البشري من نظام يضمن الاطمئنان في علاقات الجنسين، ويكفل السعادة البشرية. ولو صحا المسيحيون من غفلتهم وتأملوا في الأمر لاتضح لهم بأن الإسلام قد سبقهم في هذا المضمار من قبل ثلاثة عشر قرنًا)).^(١)

ويعجب أحمد سوسه من نسبة الطلاق المرتفعة جداً عند الغربيين مع أنهم كانوا ينكرونه أشد الإنكار، ويعجب كذلك من قلة الطلاق عند المسلمين مع أنه مباح في الإسلام؛ فيقول: ((من الغريب أن يصبح الطلاق اليوم عند المسلمين إلى جانب القلة، ويكثر عند الغربيين الذين كانوا ينكرونه أشد الإنكار، وما فتئ يزداد مع الزمن انتشاراً مطرداً، فإنه يحصل بالولايات المتحدة الأمريكية كل سنة ما ينيف على المائتي ألف طلاق، وفي أوروبا يُبت في عشرات الألوف من قضايا الطلاق؛ وعلى الأخص في فرنسا. ولا يغيب عن الذهن أن الإسلام مع إباحته الطلاق للضرورة فإنه يُعد أبغض الحلال عندنا لله، كما أنه ورد في القرآن الكريم ما يحتم الرفق بالمرأة ويفرض المحافظة على حقوقها ويقصي الرجل عن الإقدام على الطلاق ما أمكن)).^(٢)

يشهد عبدالله كويليام^(٣) أن زعماء النصرانية حرفوا وبدلوا دين المسيح بحسب أهوائهم، وتظاهروا بالرهبة ومقاومة الشهوة ستاراً للفسق ولأعمالهم التضليلية؛ فيقول:

(١) سوسه: أحمد، في طريقي إلى الإسلام، ٣٠/٢.

(٢) المصدر السابق، ٣١/٢.

(٣) عبد الله كويليام Kwelem مفكر إنكليزي، ولد سنة ١٨٥٦، وأسلم سنة ١٨٨٧، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية) (١٩٨٨)، و(أحسن الأجوبة). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٨٣.

((إن زعماء النصرانية أبدلوا دين المسيح ﷺ بما كانت ترمي إليه أهواؤهم، وأوجدوا عقائد أخرى من تلقاء ذاتهم، وتظاهروا في مقاومة الشهوات البشرية بالرهينة والعزوبية.. واتخذوها ستاراً للفسق ولأعمالهم التضليلية؛ حتى ضل الناس وأشركوا بالواحد القهار، واتخذوا لفيماً من هؤلاء القديسين والرهبان أرباباً من دون الله، فلما جاء الإسلام استأصل شأفة هذه الخزعبلات، وقضى على جميع الأباطيل والترهات، وأقيمت الحجة الثابتة على استهجان العزوبية، واعتبار الزواج كدليل للتقوى الحقيقية، وأنه من أوليات القواعد الدينية؛ إذ فيه بيان قدرة الخالق ووحدانيته وجلاله.. فالإسلام هو الذي حضّ على الزواج وأبطال الرهينة..)).^(١)

يمتدح لا يتنر أحكام الزواج والنكاح عند المسلمين، ويعجب من قلة الطلاق عند المسلمين مع يسره، وكثرته عند النصارى مع عسره، ويحث النصارى بالافتداء بالمسلمين في تعاملهم مع أهليهم، والغرباء، والمسنين، والعلماء؛ فيقول: ((إن الزواج عند المسلمين يجلّ عما رماهم به كُتّاب النصارى، والقول بأنه لا يوجد حد للزواج والطلاق عند المسلمين فغير صحيح، والطلاق عندهم ليس هو بالأمر الهين، فعدا عن وجود المحكمين فعلى الرجل أن يدفع صداقها المسمى عند إجراء العقد وهذا غالباً يكون فوق ما يقدر زوجها على إيفائه بسهولة، فمركز المرأة بالإسلام قوي مؤمّن من الطلاق.

إن النصارى والبوذيين يرون الزواج أمراً روحياً ومع ذلك نرى عقدة النكاح محترمة عند المسلمين أكثر مما هي محترمة في البلاد المسيحية.. ويسوؤني أن أذكر ما ليس لي مناص من ذكره وهو أنني سكنت بين المسلمين أربعاً وخمسين عاماً، ابتداءً سنة ١٨٤٨ فمع وجود التساهل في أمر الطلاق عندهم وعسره عند النصارى، فقد وقع حوادث طلاق عند النصارى أكثر مما وقع عند المسلمين بكثير. وإني أقول الحق بأن الشفقة والإحسان عند

(١) كويليام: عبدالله، العقيدة الإسلامية، ص ١٩. (عن إسحاق تايلور في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنجليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التايمز في اليوم التالي).

المسلمين نحو عيالهم والغرباء والمستنئين والعلماء لمثال مجدٍ يجب على النصارى أن يقتندوا به)).^(١)

يقول نظمي لوقا^(٢) ممتدحاً شرائع الإسلام في تنظيم العلاقات الزوجية:

((العلاقة الزوجية في الإسلام ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى، على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسي النوع البشري. لغير هذا قامت كوايح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، هكذا جاء في سورة الروم، وإني لأرى في قوله: (من أنفسكم) لمسة تمس شغاف القلب، وتذكر بما في الزواج من قربي، تجعل الزوجة قطعة من النفس، ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب السكن في هذا الباب من سكنية النفس، لا من مساكنة الأجساد! بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.. وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء. فالزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان، وليس مطلباً شهوانياً جسدياً وإن كان له أساس جسدي..)).^(٣)

تبدي سالي مارش إعجابها بالعلاقات الزوجية عند المسلمين، وتتعجب من الإخلاص والسلام الذي يسود هذه الحياة، خلافاً لما يحصل من مشكلات في العلاقات الزوجية عند الغربيين؛ بسبب الخيانات ومواعدة العشاق؛ فتقول: ((لقد لاحظت أن المشكلات العائلية التي يعاني منها الغرب لا وجود لها بين الأسرة المسلمة التي

(١) لايتنر: دين الإسلام، ص ١٠-١١.

(٢) نظمي لوقا Dr. N. Luka (ت: ١٤٠٨هـ) مسيحي من مصر. يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق. ورغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبياً، فإنه كثيراً ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمتع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول عليه السلام. بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره. ألف عددًا من الكتب أبرزها (محمد الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ١٣٦.

(٣) لوقا: نظمي، محمد الرسالة والرسول، ص ١١٥-١١٦.

تنعم بالسلام والهناء، وكذلك الحب؛ فلا الزوج ولا زوجته في ظل الإسلام يعرفان شيئاً عن موعد العشاق ومودة الصديقات السائدين هذه الأيام في الأقطار غير الإسلامية.

لقد أحببت هذا الجانب من الحياة الإسلامية حباً كثيراً، لأنه يمنح الزوج والزوجة والأبناء ما لا بد لهم عنه من حب وإخلاص وسلام يعمر حياتهم، وليس ذلك فحسب بل بفضل هذا الإخلاص في العلاقات الزوجية بين المسلمين، هم واثقون أن أبناءهم حقاً من صلبهم غير دخلاء عليهم، وهذا مفقود في المجتمعات الأخرى^(١).

هذه كانت بعض كتابات المستشرقين والمثقفين الغربيين تجاه أحكام النكاح والطلاق في الإسلام، وقد شهدوا واعترفوا بأن أحكام الإسلام جاءت موافقة للفطرة البشرية، وأن الإسلام بريء مما رماه به كتّاب النصارى وغيرهم من الذين أرادوا أن يشوهوا هذا الدين.

(١) العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، ٤٦/٨.

الباب الخامس

تقويم غوستاف لوبون لتاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية عرض ونقد

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول

آراء لوبون في أحوال العرب وأديانهم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تقويم لوبون لأحوال العرب قبل الإسلام

المبحث الثاني: نظرة لوبون إلى الإسلام وتأثيره في أحوال العرب

الفصل الثاني

موقف لوبون من الفتوحات وانتشار الدعوة والثقافة الإسلامية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: رؤية لوبون حول مصادر قوة المسلمين العرب

المبحث الثاني: تقويم لوبون للفتوحات الإسلامية

المبحث الثالث: انتشار الدعوة والثقافة الإسلامية في الأمصار وتأثيرها على تلك الشعوب

الفصل الأول

آراء لوبون في أحوال العرب وأديانهم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول

تقويم لوبون لأحوال العرب قبل الإسلام

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: آراء غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام

المطلب الثاني: مغالطات غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام

المبحث الثاني

نظرة لوبون إلى الإسلام وتأثيره في أحوال العرب

المبحث الأول

تقويم لوبون لأحوال العرب قبل الإسلام

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: آراء غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام

المطلب الثاني: مغالطات غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام

المطلب الأول

آراء غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام

جاء الباب الأول من كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون في ثلاثة فصول؛ تحدث في الفصل الأول عن جغرافيا جزيرة العرب؛ فذكر حدودها ومساحتها وتضاريسها، ووصف تضاريسها وصفاً دقيقاً، ثم تكلم عن مناخ جزيرة العرب.

تطرق بعدها لموارد الجزيرة العربية، وأهم ما تنتجه من منتجات حيوانية وزراعية، ثم فصل القول في وسائل المواصلات وطرق التجارة التي تسلكها القوافل التجارية، وأسهب القول في وصف الخيل العربية وصفاً دقيقاً، وبيّن اهتمام العرب بها، وحبّهم لها.

ثم تكلم عن أقسام جزيرة العرب، ومناطقها، وتحدث عن كل قسم ووصفه وحدّده، وقارن تقسيمات جزيرة العرب القديمة مع التقسيمات الحديثة.

أما الفصل الثاني فكان عن الأعراق والتجمعات البشرية على الأرض عامة، والعرق البشري في جزيرة العرب خاصة، وقارن بين العرق والأمة، ثم ذكر أن الأخلاق والسجايا والصفات الموروثة لا يمكن للبيئة أن تحولها.

ثم قارن بين العرب واليهود، وذكر أوجه الشبه بين الأمتين العربية واليهودية؛ إلا أنه فرّق بين العربي واليهودي فقال: «ولا حرم أن الشبه قليل بين العربي أيام حضارته واليهودي الذي عرف منذ قرون بالنفاق، والجبّن، والبخل، والطمع، وأن من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي، ولكن؛ لا تنس أن طرق الحياة الخاصة التي خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة هي التي أنشأت منهم عرقاً ذليلاً غير محترم، وعندني أن كل أمة تكون عرضة لمثل ما أصاب اليهود، ولا تعرف عملاً لها غير التجارة والربا، وتُحتقر في كل مكان، وتنتقل إليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة منذ عشرين قرناً، وتتأصل فيها، وتصير كما صار إليه اليهود لا محالة»^(١).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦٥.

ثم تحدث عن الفوارق بين العرب أنفسهم، فقسّم العرب إلى قسمين: أهل حضر وأهل بدو، ووصف كلاً منهم وصفاً دقيقاً من جميع النواحي؛ سواء الصفات الفاضلة أو الصفات المذمومة، وذكر عاداتهم، وتقاليدهم، وطرق معيشتهم. ولم يخف إعجابه الشديد بصفاتهم الحميدة من كرم، وشجاعة، وصدق، وفصاحة، ونبل.

ثم تحدث عن كل قطر من أقطار العرب على حدة، فوصفهم وصفاً دقيقاً لا يخلو من المبالغات والتجني أحياناً، وذكر طرق معيشتهم، وعاداتهم الاجتماعية، ومواردهم..

وفي الفصل الثالث؛ دافع عن العرب قبل بعثة النبي ﷺ فيمن يرميهم بالهمجية، وخالف الكثير من المؤرخين في مسألة حضارة العرب قبل الإسلام، حيث أن الكثير من المؤرخين يرون أن العرب قبل الإسلام لم تكن لهم حضارة تُذكر؛ ولكن غوستاف لوبون يرى أن هذا القول فاسد، ويرى أنه لا يمكن لحضارة أمة أن تظهر بغتة على مسرح التاريخ؛ معنى ذلك أن العرب كان لهم تاريخ حضاري تدرّجوا من خلاله حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه بعد الإسلام من حضارة، فقال: «رأى الكثيرون أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور محمد، وحثتهم في ذلك أن العرب قبل ظهور محمد - إذ كانوا مؤلفين من قبائل متنقلة عاطلة من العنعات - كانوا من الأجلاف الذين لم تع ذاكرة الإنسان شيئاً عنهم»^(١).

ثم نقل رأي المستشرق رينان؛ فقال: «وإلى مثل هذا الرأي ذهب بعض الأذكياء المعاصرين؛ ومنهم مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير (رينان) الذي قال: "لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مبدعة، ولم يكن لجزيرة العرب شأن في القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس للميلاد"»^(٢).

ثم خالف غوستاف لوبون هذا الرأي، واعتبره رأياً فاسداً، فقال: «وعندنا أن هذا الرأي فاسد أول وهلة، ولو لم نعلم شيئاً عن ماضي العرب، فإن أمكن ظهور حضارة أمة

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٧.

ولغتها بغتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة نضج بطيء، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدرج، ولا تبلغ درجة التطور العالية التي تبدو للعيان إلا بعد الصمود في درجات أخرى.

وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا: إن هذه الحضارة ثمرة ماضي طويل، ولا يعني جهلنا لهذا الماضي الطويل عدم وجوده، وتؤدي مباحث العلم في الغالب إلى عرض هذا الماضي للناظرين.

ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غير ذلك، وإن عسر علينا أن نقول كيف كانت هذه الحضارة^(١).

يكرر غوستاف لوبون كثيراً مسألة أن حضارة العرب بعد الإسلام كانت استمراراً لثقافة سابقة عند العرب قبل الإسلام؛ فيقول: «وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس، ولا ريب في أن العرب -الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة، وبيدعوا حضارة عالية جديدة- من ذوي القرائح التي لا تتم إلا بتوالي الوراثة وثقافة سابقة مستمرة^(٢)، وبالعرب لا بأصحاب الجلود الحمر أو الاستراليين أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا.

أجل؛ استطاعت أمم كثيرة غير العرب أن تهدم دولاً عظيمة، ولكنها لم تقدر مثلهم أن تبضع حضارة لما لم يكن عندها ما عند العرب من ثقافة سابقة كافية^(٣)، وكل ما قدرت عليه هو أنها استفادت -بعد زمن طويل- من حضارة الأمم التي قهرتها^(٤).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٨٧. وسيأتي بيان فساد قول لوبون هذا، فإن فيه دعوة إلى إحياء القومية العربية، وسيوضح ذلك جلياً في المطلب التالي.

(٢) وهذا يؤيد ما ذكرته، بأن لوبون يريد أن يدعو إلى قومية عربية؛ محاولة منه لتهميش دور الإسلام في هذه الحضارة.

(٣) كأنه يلمح إلى الدولة العثمانية.

(٤) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٨٧.

أراد غوستاف لوبون أن يثبت ما ذهب إليه سابقاً من أن العرب كانت لهم حضارة قبل الإسلام، فاستدل ببعض بقايا الأسلحة والأدوات التي وجدت في طبقات الأرض، ثم تطرق للممالك والدول التي قامت في أطراف الجزيرة العربية كمملكة سبأ والدولة الحميرية في اليمن، ودولة الغساسنة قرب الشام، ودولة الحيرة في العراق، وغيرها من الدول كبلاد الحجر وبلاد الحجاز. ثم تكلم عن ازدهار وثراء وخصوبة أرض اليمن، ووصفها، ووصف جناحها ومروجها الفسيحة، ودورها في التبادل التجاري في الجزيرة العربية، وعلاقتها التجارية مع البلدان الأخرى.

أراد غوستاف لوبون من ذلك إثبات أن الحضارة الإسلامية بعد بعثة النبي ﷺ ما هي إلا امتداد لحضارة قديمة ممتدة عبر عدة قرون سابقة.^(١)

تناول بعدها غوستاف لوبون أديان جزيرة العرب قبل بعثة النبي ﷺ وأثبت أن العرب كانوا مشركين، ولهم الكثير من العبادات الوثنية؛ كعبادة الشمس والنجوم، والأصنام، والأوثان، وأنه كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً وصورة.

ثم ختم غوستاف لوبون هذا الباب باستنتاجات خاطئة، وآراء فاسدة^(٢) فقال: «والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان، وهذا ما عرفه محمد، وفي الوجه الذي عرفه فيه سرّ قوته، وهو الذي لم يفكر قطّ في إقامة دين جديد خلافاً لما يقال أحياناً، وهو الذي أنبأ الناس بأنّ الإله الواحد هو إله باني الكعبة، أي إله إبراهيم، الذي كان العرب يُجلبونه ويعظّمونه.

وعلائم اتجاه العرب أيّام ظهور محمد إلى الوحدة السياسيّة والدينيّة كثيرة، وما حدث من الثورة على الأوثان في عهد قياصرة الرومان، حدث مثله في جزيرة العرب، حيث ضعفت المعتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها، ودبّ الهرم في ألفتها، والآلهة مما يجب ألاّ يهرم».^(٣)

(١) سيأتي التفصيل في ذلك إن شاء الله.

(٢) تم الرد عليها سابقاً، انظر: ص ٣٢٢، ص ٣٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٠.

المطلب الثاني

مغالطات غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام

تبين من خلال آراء غوستاف لوبون عن حضارة العرب قبل الإسلام في المطلب السابق أنه بالغ في إبراز الحضارة العربية قبل الإسلام، وخالطت آراءه بعض الشبهات التي ينبغي التنبيه عليها؛ ومن هذه الشبهات ما يلي:

الشبهة: زعم غوستاف لوبون أن الحضارة الإسلامية التي انتشرت في العالم كانت بسبب وراثته وثقافة سابقة عند العرب قبل الإسلام، مما يعني أنه ليس للإسلام دور كبير في هذه الحضارة.

يتضح ذلك في قوله: «ولو لم نعلم شيئاً عن ماضي العرب، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة نضج بطيء، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدرج، ولا تبلغ درجة التطور العالية التي تبدو للعيان إلا بعد الصمود في درجات أخرى.

وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا: إن هذه الحضارة ثمرة ماضي طويل، ولا يعني جهلنا لهذا الماضي الطويل عدم وجوده، وتؤدي مباحث العلم في الغالب إلى عرض هذا الماضي للناظرين.

ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غير ذلك، وإن عسر علينا أن نقول كيف كانت هذه الحضارة»^(١).

يقول أيضاً: «وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس، ولا ريب في أن العرب -الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة، ويدعوا حضارة عالية جديدة- من ذوي القرائح التي لا تتم إلا بتوالي الوراثة وبثقافة سابقة مستمرة... أجل؛ استطاعت أمم كثيرة

(١) المصدر السابق، ص ٨٧.

غير العرب أن تهدم دولاً عظيمة، ولكنها لم تقدر مثلهم أن تبدع حضارة لما لم يكن عندها ما عند العرب من ثقافة سابقة كافية...^(١).

الرد على الشبهة:

انصب اهتمام المستشرقين في القرن التاسع عشر على بحث النواحي الدنيوية أكثر مما اهتموا بالنواحي الدينية من التاريخ العربي الذي أظهر أن الأمة العربية أقامت حضارة متقدمة راقية قبل الإسلام وبعده على السواء، وبهذا لم تكن الحضارة العربية حادثاً دينياً صرفاً، وأكثر من اهتم بهذا الفكر هم النصارى العرب؛ لكي ينتسبوا إلى هذه الحضارة العربية، ويثبتوا أنهم أحد صنّاع هذه الحضارة، وأن الإسلام لا دور له فيها.

من هنا بدأت الدعوة إلى القومية العربية وهي ((حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين، وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا...)) ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقراً لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م^(٢).

أقوال غوستاف لوبون تتوافق كثيراً وأفكار ومعتقدات الداعين إلى القومية العربية، حيث أن من أفكار الداعين إلى القومية العربية قولهم:

نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وأن فكرة القومية العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية،

لا من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن يبدعها الأفراد.

(١) المصدر السابق، ص ٨٧.

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ٤٤٤/١.

يقول بعض دعاة الفكر القومي: إن العبقرية العربية عبرت عن نفسها بأشكال شتى، فمثلاً عبرت ذات مرة عن نفسها بشريعة حمورابي^(١)، ومرة أخرى بالشعر الجاهلي، وثالثة بالإسلام.

وقال أحد مشاهيرهم: لقد كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب محمداً. يرى دعاة الفكر القومي أن من الإجرام أن يتخلى العربي عن قوميته، ويتجاوزها إلى الإيمان بفكرة عالمية أو أممية.^(٢)

شجع الاستعمار الفكر القومي وعمل على نشره بين المسلمين، حتى تصبح القومية بديلاً عن الدين، مما يؤدي إلى انهيار عقائدهم، ويعمل على تمزيقهم سياسياً؛ حيث تثور العداوات المتوقعة بين الشعوب المختلفة. وهذا كان أيام الدولة العثمانية.

لأن هذا الفكر يعمق العداوة مع الدولة العثمانية المسلمة التي يكرهونها، وبين المسلمين بمختلف أجناسهم، وينبه في العرب جانباً من شخصيتهم غير الدينية، مما يبعد بهم عن العثمانيين؛ وبالتالي يعد ظهور الفكر القومي العربي رد فعل للفكر القومي التركي الطوراني.

يقول لوبون: ((وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا: إن هذه الحضارة ثمرة ماضي طويل)) أين هذا الماضي الطويل الذي يتغنى به غوستاف لوبون؟ ألا يعلم أن العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون في جو مشحون بزيف الباطل، وركام الجاهلية، يسوس الناس جهلهم، ويحكمهم عرفهم وعاداتهم، قتل وزنا، عهر وخنا، وأد للبنات، تفاخر بالأحساب والأنساب، ساد في البقاع قانون الغاب، فالبقاء للقوي، والتمكين للعزيز، تُغير القبيلة على الأخرى لأتفه الأسباب، تقوم الحروب الطاحنة، تزهد فيها الأرواح، وتهلك

(١) حمورابي: من أشهر ملوك بابل، حكم بابل بين عامي (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م)، وقد طُوّر ما يُسمى بشريعة أو مدونة حمورابي، كان يخطط لأية حركة يقوم بها بعناية ولعدة سنوات، وكان من أفضل الإداريين، وكان عهده يسمى بالعهد الذهبي لبابل. انظر: الموسوعة العربية العالمية، .

(٢) المصدر السابق، ١/٤٤٥.

الأموال، وتسبى النساء والذراري، وتدوم السنون، وتتعاقب الأعوام، والحرب يرثها جيل بعد جيل، وأصلها بعيرٌ عُقر، وفرسٌ سبقت أخرى، أو قطع أغنام سيق وسرق. كانت الخمر ممتدح الشعراء، ومفخرة الناس، فهي عندهم سبيل من سبل الكرم، ناهيك عن صور الشرك وعبادة الأوثان، التي تصور كيف كان أولئك يعيشون بعقول لا يفكرون بها، وبأعين لا يبصرون بها، وأذان لا يسمعون بها، قال ﷺ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﷻ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﷻ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أمّة هذا شأنها هل من الممكن أن تنشئ حضارة تعم أصقاع الأرض؟ أمّة تعيش في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وظلام مُطبّق، قبائل متفرقة، كانوا، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتَهُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﷻ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﷻ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ((ضلالٌ تمثّل في معاملاتهم، فما بين جهالةٍ وعُزْرٍ وظلمٍ وعدوان، ضلالٌ تمثّل في سلوكهم وعلاقاتهم الاجتماعية، فهم قومٌ لم تستطع لغتهم أن توحدهم، ولا أرضهم أن تجمع كلمتهم، وهم قوم متفرّقون في آرائهم كما هم متفرّقون في معبوداتهم)).^(١) وصل بهم الضلال والفساد إلى أن الله مقتهم، قال النبي ﷺ: ((.. وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ))^(٢)، وشهد بذلك العرب أنفسهم في ذلك الزمان، يقول عمرو بنُ العاص: (خَرَجَ جَيْشٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَا أَمِيرُهُمْ، حَتَّى نَزَلْنَا الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ، فَقَالَ عَظِيمٌ مِّنْ عَظْمَائِهِمْ: اخْرُجُوا إِلَيَّ رَجُلًا يُكَلِّمُنِي وَأُكَلِّمُهُ،

(١) آل الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالله، خطبة جمعة، جامع الإمام تركي، الرياض، ٢١/٥/١٤٢٥هـ.

(٢) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٧٣٨٦، ٨/١٥٨.

فَقُلْتُ: لَا يَخْرُجُ إِلَيْهِ غَيْرِي، فَخَرَجْتُ وَمَعِيَ ثُرَيْمَانِي وَمَعَهُ ثُرَيْمَانُهُ حَتَّى وُضِعَ لَنَا مِنْبَرٌ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ فَقُلْتُ: إِنَّا نَحْنُ الْعَرَبُ، وَنَحْنُ أَهْلُ الشُّوْكِ وَالْفَرْطِ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ، كُنَّا أَضْيَقَ النَّاسِ أَرْضًا، وَأَشَدَّهُمْ عَيْشًا، نَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَالِدَّمَ، وَيَغَيِّرُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بِأَشَدِّ عَيْشٍ عَاشَ بِهِ النَّاسُ، حَتَّى خَرَجَ فِيْنَا رَجُلٌ لَيْسَ بِأَعْظَمِنَا - يَوْمَئِذٍ - شَرَفًا، وَلَا أَكْثَرِنَا مَالًا، وَقَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُنَا بِمَا لَا نَعْرِفُ، وَيَنْهَانَا عَمَّا كُنَّا عَلَيْهِ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا...^(١)

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول ﷺ: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤولون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربحكم منعم يجب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله)).^(٢)

يناقض غوستاف لوبون نفسه في موضع آخر^(٣)؛ فيقول: ((ولا ريب أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة، وقبائل متقاتلة على الدوام، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرن واحد كانت

(١) أخرجه البستي: محمد بن حبان، الصحيح، كتاب التاريخ، باب كتب النبي ﷺ، رقم ٦٥٦٤،

٥٢٢/١٤. وحسنه الألباني: محمد ناصر الدين، التعليقات الحسان، رقم ٦٥٣٠، ٢٨٥/٩.

(٢) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٤٠/٤.

(٣) وسأتناول في المبحث التالي - إن شاء الله - مزيداً من هذه الأقوال لغوستاف لوبون والتي تتناقض مع ما يقوله في هذا الموضوع.

دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع البلدان التي خفقت راية النبي فوقها).^(١)

نعم؛ لم يكن للعرب في واقع الأمم تأثير ولا أثر، حتى بعث الله برحمته وفضله النعمة المسداة محمداً ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبُزِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فجاء مزكياً مريباً، ومعلماً مصلحاً، فجاهد لتحقيق هذه الغاية أعظم الجهاد، وبذل النفس والنفيس حتى تحقق له ما يريد، فربى أصحابه ﷺ أكمل التربية، وعلمهم أحسن التعليم، فكانوا جيلاً فريداً لا نظير له ولا مثل، وغدوا سادة الأمم، وأئمة العالم وصنّاع القرار فيه، فدانت لهم الممالك الكبار وأذعنت في فترة وجيزة من التاريخ، فانهذ ملك كسرى، وانثلم ملك قيصر، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: (إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بَعِثَ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ، أَذَلَّنَا اللَّهُ).^(٢)

إذاً بالإسلام قامت هذه الحضارة وليس بثقافة سابقة عند العرب، أو أنها ثمرة ماضي طويل كما يزعم غوستاف لوبون.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٦.

(٢) أخرجه الحاكم: محمد بن عبد الله، المستدرک، کتاب الإيمان، رقم ٢٠٧، ١/١٣٠. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٥١، ١/١١٧.

المبحث الثاني

نظرة لوبون إلى الإسلام وتأثيره في أحوال العرب

المبحث الثاني

نظرة لوبون إلى الإسلام وتأثيره في أحوال العرب

يتعجب غوستاف من تأثير الإسلام في نفوس العرب، وتأثير هذه العقيدة التي جعلت من هذه القبائل المتفرقة، المتناحرة، المتقاطعة، المتدايرة أمةً واحدة، متآلفة، متآزرة، متحدة، أضاءت بنور هذا الإيمان مشارق الأرض ومغاربها، ودانت لها الأمم من المشرق إلى المغرب. فيقول: ((ولا ريب أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة، وقبائل متقاتلة على الدوام، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرنٌ واحدٌ كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع البلدان التي خفقت راية النبي فوقها)).^(١)

ويقول أيضاً: ((لقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوي من القوة التي لا تُقاوم، فخضعت دولة الرومان المنيعه لجيوش من رعاة البدو، الذين أضاء قلوبهم ما جاء به محمد من الإيمان)).^(٢)

نعم؛ فالإسلام هو دين الله الذي من تمسك به أعزه الله في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه خسر في الدنيا والآخرة، ومن استقرأ حياة العرب خاصة والناس عامة قبل الإسلام وبعد الإسلام وجد التغيير التام في كل الجوانب ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وهذا أمر لا يخفى، تغيير في المعتقدات، والعادات، والحكم، والسياسة، فتحولوا من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، ومن تحكيم الطاغوت إلى تحكيم الشريعة الربانية، ومن التقاطع والتدابير إلى التآلف والتآزر. وبعد أن كانوا أذياً للأمم الأخرى كفارس والروم والحبشة، أصبحوا بالإسلام قادة الدنيا يسير الجميع خلفهم طوعاً أو كرهاً. يسوسون الدنيا بالدين فعم العدل والطمأنينة أهل الأرض مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٦.

(٢) لوبون: غوستاف، روح الثورات والثورة الفرنسية، ص ٢٠.

لأن الإسلام دين تربية للنفوس؛ فهؤلاء القوم بعد أن كانوا منغمسين في الجهل، والثارات، وحب الانتقام، وسفك الدماء؛ جاء الإسلام فقوم أخلاقهم، وقوم سلوكهم، وأصلح ظاهرهم وباطنهم - بإذن الله ﷻ -.

الإسلام نظام حياة كامل يعيش في إطاره جميع المسلمين، إخواناً متساندين، متعاطفين، متعاونين على الخير والبر، مجاهدين لإعلاء كلمة الله في الأرض، وفي ظلال هذا النظام الكامل يظهر أثر الإسلام في مسالك الناس، وفي أخلاقهم وفي تعاضدهم، وفي تسابقهم في الخيرات، كما يظهر في عباداتهم، وصدقهم، وإخلاصهم.

وأصحاب رسول الله ﷺ أحسنوا الاقتداء بالنبي ﷺ، فكانوا مسلمين كما ينبغي للمسلم أن يكون في عقيدته، وفي عبادته، وفي أخلاقه، وفي معاملاته، فكان بناء المجتمع على المحبة الخالصة، والأخوة التي لا يرجى منها إلا ثواب الآخرة، لأنه مجتمع أُسس على تقوى من الله وتراحم أفراده ((وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد، وودعوا حياة الفوضى وسفك الدماء والقبلية المنتنة))،^(١) متمثلين قول الحق ﷻ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يعترف غوستاف لوبون بتأثير الإسلام الكبير على العرب، وغيرهم من الأمم، الذي جعل منهم أمة مهيبة، قوية، متمدنة؛ فيقول: ((..ونذكر على رأس هذه العوامل التي ندرسها، ذلك العامل الذي توحدت بفضلها جميع القبائل العربية المنقسمة، وهو الدين الذي جاء به محمد، فقد منح هذه الدين ما كانت تحتاج إليه أمم من المثل الأعلى الذي اكتسبوا به من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله)).^(٢)

يقرر غوستاف لوبون كذلك أن استحابة العرب لدعوة النبي ﷺ كانت سبباً في توحدهم، وإقامة دولة من أعظم الدول هيبه، وتمدناً؛ فيقول: ((والحق أن هؤلاء القوم

(١) الغضبان: منير، معاوية بن أبي سفيان، ص ١٠١.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٩٠٤.

الشُّجعان الذين لبّوا دعوة محمد فغدوا أُمَّةً واحدة، أقاموا في أقلّ من قرنين دولةً بلغت ما بلغته دولة الرُّومان من الاتّساع، فبدت هذه الدّولة أكثر دول الأرض هيبةً وتمدُّناً^(١).

ذلك لأن الدين الإسلامي دين عظيم ارتضاه الله للبشرية جمعاء ديناً، قيماً، خالداً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كان له الأثر الواضح في تغيير النفوس والأفكار نحو الأفضل والأصلح بالنسبة لمعتنقيه، والمتتبع لكل من أسلم وحسن إسلامهم في مختلف الأماكن والأزمان يلاحظ مستغرباً كيف انقلبت حال هؤلاء الأشخاص من حال إلى حال؟ وكيف نبذوا ما حملوه من أفكار وقيم بمجرد الدخول في هذا الدين، وفور تسلسل شعاع النور إلى قلوبهم؟ وما الصحابة رضي الله عنهم في مجملهم إلا مثلاً واضحاً لذلك، فقد كان الواحد منهم في الجاهلية جلفاً، قاسياً، شحيحاً، حاقداً على الإسلام وأهله، كارهاً للنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به، لكنه ينقلب رأساً على عقب بمجرد أن يتلفظ بالشهادتين، ويعلن الدخول في الإسلام^(٢).

يتحدث غوستاف لوبون بإعجاب عن ذلك وعن تأثير الإسلام في النفوس؛ فيقول: ((تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أيّ دين آخر، فلا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشداً لها، تعمل بأحكامه، كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً...))^(٣).

هكذا الإسلام نظام يقوم على إشاعة الفضيلة واستئصال الرذيلة، نظام سياسي أساسه إقامة العدل، وتثبيت دعائم الحق، نظام اجتماعي نواته الأسرة الصالحة، وعماده التكافل بين أبناء المجتمع، وهو دينٌ عملٍ وإنتاجٍ، ومنهج كامل متكامل لكافة أنماط النشاط البشري، فهذا الدين بأصوله ومبادئه وفيّ ويفي بحاجات البشرية في كل عصر ومصر، انتشر في أنحاء الدنيا، ودخل تحت سلطانه أجناس البشر، فوسع بمبادئه وقواعده كل ما امتد إليه نفوذه من أصقاع المعمورة، وعالج كافة المشكلات على اختلاف البيئات،

(١) المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٢) والأمثلة على ذلك كثيرة جداً من سير الصحابة، كيف كانوا في الجاهلية وكيف أصبحوا بعد الإسلام؟ لكن لا يتسع المجال لذكر هذه الأمثلة.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٧.

وما عجز في يوم من الأيام عن أن يقدم لكل سؤال جواباً، ولكل واقعة فتوى، ولكل قضية حكماً، وموسوعات ومدونات الفقه والفتاوى برهان للمتشككين.

يقول ابن قيم الجوزية: ((فإن الشريعة مبناه وأساسها على الحكيم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهده الذي به اهتدى المهتدون، وشفاه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعته، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس، وقوام العالم، وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله ﷻ خراب الدنيا وطوي العالم رفع إليه ما بقى من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة)).^(١)

(١) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العلمين، ١١/٣.

الفصل الثاني

موقف لوبون من الفتوحات وانتشار الدعوة والثقافة الإسلامية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: رؤية لوبون حول مصادر قوة المسلمين العرب

المبحث الثاني: تقويم لوبون للفتوحات الإسلامية

المبحث الثالث: انتشار الدعوة والثقافة الإسلامية في الأمصار وتأثيرها على تلك الشعوب

المبحث الأول

رؤية لوبون حول مصادر قوة المسلمين العرب

ويشتمل على مطالبين:

المطلب الأول: آراء غوستاف لوبون حول أسباب وعوامل انتشار الإسلام

المطلب الثاني: أسباب النصر والتمكين لدى المسلمين

المطلب الأول

آراء غوستاف لوبون حول أسباب وعوامل انتشار الإسلام

يرى غوستاف لوبون أن مصادر قوة العرب، وانتشار الحضارة الإسلامية تكمن في ثلاثة أمور؛ أولها: النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وثانيها: القرآن الكريم، وثالثها: الفتوحات. ويظهر ذلك من خلال كتابه حضارة العرب حيث أفرده باباً عنونه بـ (مصادر قوة العرب) وهو الباب الثاني من كتابه، وقد قسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول؛ جاء الفصل الأول بعنوان: (محمد - نشوء الدولة العربية)، والفصل الثاني بعنوان: (القرآن)، والفصل الثالث بعنوان: (فتوح العرب).

هذا الباب يعتبر أهم وأخطر باب في كتاب حضارة العرب لما فيه من الكثير من الشبهات حول النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن الكريم والشريعة الإسلامية عامة، وقد ناقشت الكثير من هذه الشبهات في الأبواب السابقة من هذه الرسالة. وسأتناول ما جاء في هذا الباب موضعاً بعض المغالطات والشبهات، وأشير كذلك إلى ما جاء فيه من شهادات واعترافات تجاه النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، والقرآن الكريم، والشريعة الإسلامية عامة.

أولاً: رؤية غوستاف لوبون لسيرة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ كمصدر من مصادر قوة العرب

تحدث غوستاف لوبون في هذا الفصل (محمد - نشوء الدولة العربية) عن سيرة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ من حين ولادته حتى وفاته ﷺ، وقد تناول لوبون الكثير من جوانب سيرة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وقسم هذا الفصل إلى أربعة نقاط؛ الأولى: (فتوة محمد)، والثانية: (رسالة محمد)، والثالثة: (محمد بعد الهجرة)، والرابعة عن (حياة محمد وأخلاقه)، وأورد من خلال هذه السيرة الكثير من الشهادات المنصفة، والاعترافات الإيجابية في فضل النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأثره الكبير والعظيم على هذه الأمة، وتحدث عن حسن أخلاقه، وشمائله ﷺ؛ ويرى لوبون أن هذه السيرة المليئة بالأحداث العظيمة والمواقف المتنوعة في حياة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ من حين مولده، ومرحلة فتوته

وشبابه، وأحداث ما قبل البعثة وما بعدها، وأحداث ما بعد الهجرة، وما كان عليه النبي ﷺ من أخلاق وصفات كريمة؛ كل ذلك كان سبباً من أسباب قوة العرب، فيقرر ذلك؛ ويقول: ((ومهما يكن من أمر فإن مما لا ريب فيه أن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيماً)).

ويقول أيضاً: ((وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم، كان محمدٌ من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصفون محمداً، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرّحيهم عن الاعتراف بفضله، قال العلامة بارتلمي سنت هيلر: كان محمدٌ أكثر عرب زمانه ذكاءً، وأشدّهم تدبُّراً، وأعظمهم رافةً، ونال محمدٌ سلطانه الكبير بفضل تفوّقه عليهم، ونَعُدُّ دينه الذي دعا النَّاسَ إلى اعتقاده جزيلاً النِّعمَ على جميع الشُّعوب التي اعتنقته)).^(١)

ومن أقوال غوستاف لوبون عن أخلاق النبي ﷺ؛ قوله: ((لقد كان محمد ذا أخلاق عالية، وحكمة ورقة قلب، ورافة ورحمة، وصدق وأمانة)).^(٢)

أمّا الشبهات والمغالطات والطعون التي وردت في هذا الفصل فهي كثيرة، سأذكر بعضاً منها إجمالاً؛ لأنه قد سبق الرد علي هذه الشبه والطعون في الأبواب السابقة:

- التشكيك في روايات الأحداث التي صاحبت مولد النبي.
- التشكيك في الأحداث التي حصلت للنبي ﷺ في بادية بني سعد.
- ذكر أحداث السيرة بصيغ التمريض؛ ك (قيل - يقال - يروى).

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١١٦.

(٢) لوبون: غوستاف، الدين والحياة، ص ١١١.

- زعمه بأن رسول الله ﷺ تلقى علم التّوراة من راهب نسطوري في بصرى، بما يعني أنّ ذلك هو مصدر القرآن الكريم.
- اتّهامه النّبِيِّ ﷺ بأنه قليل المسامحة نحو النساء، مع ضعفه نحوهن.
- زعمه بأن رسول الله ﷺ كان يجذب كلّ يوم أصحاباً آخرين ببلاغته.
- الزّعم بأن رسول الله ﷺ لم ينفّر من عبادات قومه قبل البعثة، ولم ينكرها.
- وصفُ النّبِيِّ ﷺ بالمتهوّس، وبالهووس، وأنه من فصيلة المتهوسين.
- الزّعم بأن رسول الله ﷺ كان قاسياً في حكمه على يهود بني قريظة.
- الزّعم بأن محمّداً ﷺ كان قليل التّعليم، وليس عالماً، وأنه ألّف القرآن بترتيب أقل من المطلوب، بما يوحي أنّ القرآن من عنده.
- اتّهامه النّبِيِّ ﷺ أنه رأى زوجة ابنه بالتبني وهي عارية، فوقع حبّها في قلبه، فطلقها زيد رضي الله عنه ليتزوجها النّبِيُّ ﷺ.
- التشكيك في وفاء زوجات النّبِيِّ ﷺ له، خصوصاً عائشة رضي الله عنها.
- الزّعم بأن رسول الله ﷺ كان يسعى إلى مد نفوذه، فتوجه إلى مكة ليفتحها، ولكنه اختار أن يبرم صلحاً، ويزعم لوبون أن هذا الصلح يُعد إخفاقاً، من أجل ذلك أراد النّبِيُّ ﷺ أن يروّج عن أصحابه فتوجه بهم إلى خيبر ليفتحها.
- الزّعم بأن سبب فتح مكّة إحساس محمّد ﷺ بنمو سلطانه.

هذه كانت أبرز معالم الفصل الأول (محمد - نشوء الدولة العربية) من الباب الثاني (مصادر قوة العرب) لكتاب حضارة العرب.

ثانياً: رؤية غوستاف لوبون للقرآن الكريم كمصدر من مصادر قوة العرب

تحدث غوستاف لوبون في هذا الفصل (القرآن) عن القرآن الكريم، وبين أنه كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي، وساق بعض الآيات المتفرقة لبعض الموضوعات المهمة حسب نظرتة، ثم تحدّث عن تعاليم القرآن، وعلاقتها بالأديان الأخرى، وانتشار القرآن في العالم.

قسّم غوستاف لوبون هذا الفصل إلى نقطتين؛ الأولى عن (خلاصة القرآن)، والثانية عن (انتشاره في العالم)، وجاء في هذا الفصل الكثير من الشبه الخطيرة، والطعون والمغالطات، وكذلك وردت بعض الشهادات والاعترافات الإيجابية لغوستاف لوبون تجاه القرآن؛ وسأذكر بعضاً من هذه الشهادات، ثم أتطرق لبعض الشبه والطعون التي وردت في هذا الفصل.

ويرى غوستاف لوبون أن كل ما جاء في القرآن من عقيدة وشريعة وآداب وأخلاق وغير ذلك كان سبباً في انتشار الإسلام، مما جعل القرآن أحد مصادر قوة العرب؛ وسأذكر بعضاً من أقول غوستاف لوبون التي وردت في هذا الفصل عن ذلك:

يقرر غوستاف لوبون أن عقيدة التوحيد التي جاء بها القرآن سر قوة الإسلام لسهولةتها، وخلوها من التناقضات والغموض بقوله: ((وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أوّل دين أدخل التوحيد إلى العالم. وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، حال مما نراه في الأديان الأخرى وبأباه الذوق السليم -غالباً- من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقلّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يُعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأيّ مسلم من أيّة طبقة؛ رأيتة يعرف ما يجب عليه أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس التصرائيّ الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث

والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل)).^(١)

يرى لوبون أن وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان ساعد على انتشاره في العالم، واعتناق الكثير من الشعوب النصرانية له؛ بقوله: ((وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نُفسر السبب في عدم تنصُر أمةٍ بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة)).^(٢)

يقرر لوبون أن الإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهديباً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح؛ بقوله: ((والإسلام من أكثر الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهديباً للنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح، والبُدْهيَّة، وإن فاقت جميع الأديان السَّامية فلسفة، تراها مضطرةً إلى التَّحول لتستمرتها الجموع، وهي، لا شك، دون الإسلام في شكلها المُعدَّل هذا)).^(٣)

ويقول أيضاً: ((وكان محمَّد كثير المسامحة لليهود والنَّصارى خلافاً لما يُظن)).^(٤)

يقرر لوبون أن الإسلام لم ينتشر بالقوة، واعتناق الناس للإسلام كان بسبب ما رأوه من عدل المسلمين الذي لم يروا مثله عند ساداتهم السابقين؛ بقوله: ((وسيرى القارئ حين نبحت في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أنَّ القوَّة لم تكن عاملاً في انتشار

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٣.

القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقباط النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل)).^(١)

ونقل كلاماً في الحاشية بهذا الخصوص عن بعض العلماء الأوروبيين المنصفين

-بحد زعمه-؛ فيقول: ((إن مسامحة محمد لليهود والنصارى، كانت عظيمة إلى الغاية، مما لم يقل بمثله مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المنصفون القليلون، الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثير منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا، قال (روبرتسون) في كتابه: (تاريخ شارلكن): إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية. وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فقد أعفى البطارقة والرهبان، وخدمهم من الضرائب، وحرّم محمّد قتل الرهبان على الخصوص؛ لعكوفهم على العبادات، ولم يمسّ عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين... بلا رحمة وقتما دخلوها. وقال الراهب (ميشود) في كتابه: (رحلة دينية في الشرق): "ومن المؤسف ألا تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة)).^(٢)

وقرر أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما بالدعوة؛ بقوله: ((وقد أثبت التاريخ أن

الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس، فضّل هؤلاء القتل والطرّد عن آخرهم على ترك الإسلام.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) المصدر السابق، الحاشية (١)، ص ١٢٨.

ولم ينتشر الإسلام بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالذعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالتُّرك والمغول، وبلغ من انتشار الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غيرَ عابري سبيل، أن زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً، مع أن الإنكليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يُجهِّزون البعثات التبشيرية، ويرسلونها تبعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى)).^(١)

ويرى أن قبائل العرب وجميع البلدان ما توحدت إلا بسبب نفوذ الإسلام السياسي والمدني؛ فيقول: ((ولا ريب أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة، وقبائل متقاتلة على الدوام، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرنٌ واحدٌ كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع البلدان التي خفقت راية النبي فوقها)).^(٢)

أمّا الشبهات والمغالطات والطعون التي وردت في هذا الفصل فهي كثيرة، سأذكر بعضاً منها إجمالاً؛ لأنه قد سبق الرد علي هذه الشبه والطعون في الأبواب السابقة:

- الزعم بأن أصول القرآن نصرانية.
- الزعم بأن أصول الإسلام صورة مبسطة من النصرانية.
- الزعم بأن نصوص خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وخلق آدم، والجنة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب في القرآن مقتبسة من التوراة.
- زعمه بأن رسول الله ﷺ أقام ديناً سهلاً يستمره قومه، مستفيداً فيه من اليهودية والنصرانية.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.

- نسبته آيات القرآن الكريم إلى أقوال النَّبِيِّ ﷺ.
- تناقضه في الحكم فمرة يقول: بأنَّ القرآن وحي من الله، ومرة يقول: من عند رسول الله.
- نقده لترتيب سور القرآن وآياته، وسياقه.
- اتهامه نصوص القرآن بأن فيها جبرية

ثالثاً: رؤية غوستاف لوبون للفتوحات كمصدر من مصادر قوة العرب

تحدث غوستاف لوبون في هذا الفصل (فتوح العرب) عن الفتوحات الإسلامية، فابتدأ حديثه عن حال العالم في زمن النَّبِيِّ ﷺ، فتحدث عن الدول التي كانت تتنازع سيادة العالم في ذلك الوقت، وذكر أحوالها الدينية والسياسية والاجتماعية، وأنها فقدت مُثلها العليا منذ زمن طويل، في الوقت الذي ظهر فيه نور الإسلام بمثله العليا.

ثم تحدث عن براعة العرب الحربية، وأسلوب الفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، والشروط التي كان يشترطها الفاتحون قبل الدخول لأي بلد، والرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة. تم لخص أحداث الفتوحات الإسلامية خلال تسعة قرون.

قسّم غوستاف لوبون هذا الفصل إلى أربعة نقاط؛ الأولى: (حال العرب في زمن محمد)، والثانية: (طبيعة فتوح العرب)، والثالثة: (خلفاء محمد الأولون)، والرابعة: (خلاصة تاريخ العرب)، وجاء في هذا الفصل كغيره من الفصول الكثير من الشبه، والطعون، والمغالطات، وكذلك وردت بعض الشهادات والاعترافات الإيجابية لغوستاف لوبون؛ ويرى غوستاف لوبون أن الفتوحات الإسلامية كانت سبباً في انتشار الإسلام، مما جعلها أحد مصادر قوة العرب؛ وسأذكر بعضاً من أقوال غوستاف لوبون التي وردت في هذا الفصل:

يتحدث غوستاف لوبون عن تضحية الصحابة في سبيل نشر الإسلام بالجهاد في سبيل الله؛ فيقول: ((ولم يتردد أتباع النبي في التضحية بأنفسهم في سبيل المثل الأعلى؛ طامعين في الجنة التي لا يعدلها شيء من متاع هذه الحياة الدنيا)).^(١)

يقرر لوبون أن الفاتحين الأوائل كانوا أبعد ما يمكن في أعمال السيف فيمن لم يسلم، وذلك لأنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها، مكتفين بأخذ الجزية؛ فيقول: ((...فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يتعدون عن أعمال السيف فيمن لم يسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعرفها وعاداتها، مكتفين بأخذهم -في مقابل حمايتها- جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب)).^(٢)

وتحدث غوستاف لوبون عن عدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورفقه بأهل القدس مقارناً ذلك بما فعله الصليبيون بالمسلمين أيام الحروب الصليبية؛ فيقول: ((ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطريرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارة لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعتهم)).^(٣)

ثم تحدث عن تعامل الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه مع أهل مصر؛ فقال: ((ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقل من ذلك، فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة، وعدلاً مطلقاً، واحتراماً للأموال، وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً

(١) المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٥.

عن كل رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهضة، فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط، دافعين للجزية سلفاً، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها؛ فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصرى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال^(١).

أمّا الشبهات والمغالطات والطعون فيما يخص الفتوحات الإسلامية التي وردت في هذا الفصل وفي غيره من كتاب حضارة العرب فهي كثيرة، سأذكر هنا بعضاً مما ذكر في هذا الفصل وأناقشه، وسيأتي الرد على بقية الشبه الخاصة بالفتوحات الإسلامية باستفاضة في المبحث الثالث من هذا الفصل (تقوم لوبون للفتوحات الإسلامية).

من شبهات غوستاف لوبون في هذا الفصل: زعمه أن العرب كانوا يجهلون فنّ الحرب تماماً، وأنهم تعلّموا الشيء الكثير منه من قاهريهم بسرعة.

يتضح ذلك في قوله: «ولكن العرب كانوا يجهلون فنّ الحرب جهلاً تاماً، ولا تقوم الشجاعة مقام هذا الفنّ، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البرابرة الذين ينقضون على أعدائهم بلا نظام، ولا يجارب كلُّ واحد إلا من أجل نفسه، وكان غير هذا أمر الفرس والرُّوم، الذين كانت معرفتهم لفنّ الحرب عظيمة جداً، كما ظهر من اشتباكهم الأول بالعرب، ولم يلبث العرب أن علموا من الهزائم التي أصابتهم في سوريا، ما كان يعوزهم، فاقتبسوا من قاهريهم كثيراً من شؤون الحرب»^(٢).

وقوله: «إنّ العرب نالوا عدّة انتصارات في سوريا في خلافة أبي بكر، ولكن مهارتهم الحربية كانت ضعيفة مع شجاعتهم العظيمة، كما قلنا، فكان يتخلّل تلك الانتصارات نوازل إلى أن حذقوا صنع السّلاح كأعدائهم»^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢) حضارة العرب، ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) حضارة العرب، ص ١٤٠-١٤١.

الرد على الشبهة:

إن قول غوستاف لوبون: "بأن العرب كانوا يجهلون فنّ الحرب جهلاً تاماً، ومهاراتهم الحربية كانت ضعيفة" قول مردود وليس بصواب في مجمله، فإن كان يقصد بالعرب قبل بعثة النبي ﷺ فنعم؛ لأنهم كانوا يعتمدون في حروبهم على الكرّ والفرّ. أمّا جيوش المسلمين فليسوا كذلك، لأن غزوات النبي ﷺ تشهد بأن المسلمين الأوائل كانوا أهل حرب، وخطط عسكرية، إضافة إلى شجاعتهم العظيمة.

الخطط العسكرية التي كان ينفذها النبي ﷺ في غزواته تشهد بذلك، فقد كان رسول الله ﷺ يخطط لكل غزوة يغزوها، وكان ﷺ ينوع هذه الخطط وأساليبها حسب ظروف المعركة، فإنه استخدم نظام الصف في غزوة بدر، والتحصن بالخندق في غزوة الأحزاب، ومباغنة العدو في فتح مكة، وقتال المدن والأحراش في فتح خيبر، واستخدم المنجنيق والحصار في الطائف.

إضافة إلى تنظيمه للصفوف، ورفع معنويات الصحابة المقاتلين، وتحطيم معنويات الأعداء، وغير ذلك من فنون القتال.^(١)

علم الله ﷻ نبيه ﷺ أهم قواعد القتال في سبيله، وأعظم أسباب النصر والظفر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ((هذه الآية الكريمة تضمنت تعليم الله لنبيه وأصحابه بعض الخطط العسكرية، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناداهم باسم الإيمان ليكون ذلك مدعاة للقبول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة، أي: جيشاً من جيوش الكفار يقاتلونكم إذا لقيتموهم في ميدان القتال والتحتم أنتم وهم ﴿فَاثْبُتُوا﴾ يعني: لا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار، فاصمدوا أمامهم واثبتوا، ولا تنزعزعوا، ولا تنهزموا، ولا ترجعوا القهقرى. وهذا تعليم من خالق السماوات والأرض للمسلمين إذا التحم القتال أن يثبتوا ويصمدوا صمود الرجال، ولا ينهزموا ولا يرجعوا القهقرى.

(١) وللتوسع في معرفة خطط النبي ﷺ العسكرية؛ انظر: خطاب: محمود شيت، الرسول القائد. خليل: عماد الدين، دراسة في السيرة، ص ١٤١ وما بعدها.

ثم إنه عَلَّمَهُم التعليم الأكبر الذي هو سبب للنصر والظفر في جميع الميادين، قال: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (كثيراً): نعت لمصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا، وهذا هو التعليم السماوي للخطط الميدانية التي يحصل بها انخراط الكفر وانكسار شوكته، كأنه يقول لهم: في هذا الوقت الضنك الحرج الذي التَّحَمَّتُمْ فيه مع جيوش الكفار في هذا الوقت قووا صلتكم بمن خلقكم واذكروه ذكراً كثيراً. والمعنى: أنكم عند هذه الشدائد، وعند التحام القتال - والمفروض أن الرِّجَالَ تَنْزِلُ رؤوسهم عن أعناقهم، في هذا الوقت الضنك الحرج - وثقوا صلتكم بالله، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، فبذلك ينزل عليكم المددُ مِنَ السَّمَاءِ، وَيَتَسَنَّى لَكُمْ النصر، وتَقْهَرُونَ الكُفَّارَ، وَتَنْكَسِرُ شوكة الكفر).^(١)

كل هذا كان قبل التحام المسلمين بالروم أو الفرس؛ فكيف يزعم غوستاف لوبون بأنه: "لم يلبث العرب أن علموا من الهزائم التي أصابتهم في سوريا، ما كان يعوزهم، فاقتبسوا من قاهريهم كثيراً من شؤون الحرب". فمتى قهر الروم المسلمين لكي يقول لوبون ذلك؟ وإذا كانت معرفة الروم والفرس بفنون الحروب والقتال عظيمة؛ فكيف استطاع المسلمون التغلب عليهم وهم لا يحسنون فنون القتال؟

إن العرب وَّحَدَّهم الإسلام، وتعلموا من كتاب ربهم ﷺ وسنة نبيهم ﷺ كل ما فيه مصالح العباد والبلاد، وتعلّموا من مدرسة النَّبِيِّ ﷺ العسكرية ما يجعلهم خير القادة العسكريين، مع ذلك فإن الإسلام يشجع على العلم، والاقْتِباس، والبحث عن كل ما هو مفيد، يقول شوقي أبو خليل: ((.. لكن الأصح والأدق من ذلك أن نقول: إنَّ العرب بعد أن وَّحَدَّهم الإسلام، وأخرجهم من ظلام عصبيَّاتهم الجاهليَّة، ودفعهم إلى طريق العلم والبحث والاقْتِباس، تعلّموا الكثير منذ أيَّامهم الأولى، وقبل أن يصلوا إلى بلاد الشَّام، وإلى العراق وفارس..

.. أما كلمة (قاهريهم)، فلنا اعتراضٌ عليها، متى قهرهم الرُّوم حتَّى نعطيهم لقب (قاهريهم)؟ المعركة الوحيدة التي كانت غير متكافئة، وانسحب العرب المسلمون في بدايات لقاءهم مع الرُّوم هي معركة مؤتة، وكانت خسائرهم فيها محدودة جداً، وكان انسحابهم

(١) الشنقيطي: محمد الأمين، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٧٥/٥.

انتصاراً كما رآه الكثيرون، ثم توالى بعد ذلك انتصاراتهم على أيدي قادة الفتوح في بلاد الشّام^(١).

وظهرت براعة القادة المسلمين العسكرية قبل مواجهتهم بفارس والروم ((فبرز خالد بن الوليد في حروب الردة كقائد محترف، ومقاتل شجاع، مارس عملياً مهام القائد العام، واستطاع بفضل الخطط العسكرية المبتكرة، والمداهمات الصاعقة التي نفذها ضد المرتدين؛ أن يحقق النجاح المطلوب في مهمته الصعبة، ففي أقل من عام، كانت لديه القدرة لقمع حركة الردة، وتصفية جيوب التمرد في كافة أنحاء الجزيرة العربية^(٢))).

وبرع كذلك قادة الجيوش الإسلامية أمثال خالد بن الوليد رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعمرو بن العاص رضي الله عنه، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.. وغيرهم، في وضع الخطط العسكرية وفي تنفيذها ببراعة هائلة، حققوا من خلالها أعظم الانتصارات، وعلى أقوى دولتين في تلك الفترة (فارس والروم) وأظهروا مواهب عسكرية فذة، ((وكان من حقهم أن يُدرّسوا وتُدرس معاركهم وانتصاراتهم بأقلام كتاب عسكريين مسلمين، حتى تعرف الأجيال الحاضرة والقادمة الجهود الكبيرة التي بذلها هؤلاء القادة العظام، لتقدّر جهادهم حق قدره حتى تمتلئ بالأمل ولا تفقد ثقته في نفسها وفي أمته، وتؤمن بأن الأمة التي أنجبت هؤلاء القادة الأفاضل، هي قادرة على إنجاب أمثالهم^(٣))).

وهناك شبهات ومغالطات أخرى عن الفتوحات الإسلامية وغيرها وردت في هذا الفصل، تم الرد على الكثير منها، وسيأتي الرد على بعضها الآخر في المباحث التالية.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) طقوش: محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ٦٧.

(٣) عبداللطيف: عبدالشافي محمد، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ص ٢١٠.

المطلب الثاني

أسباب النصر والتمكين لدي المسلمين

إن ما ذهب إليه غوستاف لوبون في أن مصادر قوة العرب، وانتشار الحضارة الإسلامية تكمن في ثلاثة أمور؛ أولها: النبي محمد ﷺ، وثانيها: القرآن الكريم، وثالثها: الفتوحات؛ لا شك أنه صواب، ولكن لا بد من تفصيل ذلك لتتضح هذه الأسباب بالتفصيل، فإن اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن النصر والتمكين، وهذا أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم، وحثنا على الأخذ به سيد المرسلين ﷺ.

ومن الأدلة على مشروعية الأخذ بالأسباب؛ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب، ولا بد معه من التوكل على الله، فإن «التوكل على الله ﷻ لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله، وطاعته فيما أمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها». (١)

ولقد أرشدنا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله أعقلها وتوكل أو أطلقها وتوكل؟ قال: (اعقلها وتوكل). (٢) وهذا الحديث «أصل في التوكل وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز مع الأمر بالتوكل». (٣)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقًّا

(١) يوسف: محمد السيد محمد، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص ٢٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب صفة القيامة، باب اعقلها وتوكل، رقم ٢٥١٧، ٦٦٨/٤. وحسنه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ١٠٦٨، ١/٢٤٢.

(٣) الدميجي: عبدالله، التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب، ص ١٧٩.

تَوَكَّلْهُ؛ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرَزَّقُ الطَّيْرُ تَعْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا).^(١)

وفي هذا الحديث الشريف ((حث على التوكل على الله مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب حيث أثبت الغدو والروح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها)).^(٢)
إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق ((القيام بالعبودية، والأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية وحق الله على عبده الذي توجهت به نحوه المطالب وترتب عليه الثواب والعقاب)).^(٣)

أسباب النصر والتمكين التي وردت في الكتاب والسنة كثيرة جداً، سأذكر أهم هذه الأسباب على سبيل الإجمال، وهي كما يلي:^(٤)

أولاً: التوحيد

قال **عَبَّاسٌ**: ﴿سَنَلِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

ولا يلقي الرعب في قلوب الكفار؛ إلا إذا كان المسلمون موحدين حقاً، لأن الله **تَعَالَى** لا ينصر أناساً يؤهون الملائكة والأنبياء والأولياء، ولا ينصر أناساً يجعلون بينهم وبين الله وسطاء من مخلوقاته؛ من أحياء وأموات، يدعونهم ويتوسلون ويستغيثون بهم. قال الله **تَعَالَى**: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(١) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم ٢٣٤٤، ٥٧٣/٤. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف سنن الترمذي، رقم ٢٣٤٤، ٣٤٤/٤.

(٢) يوسف: محمد السيد محمد، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص ٢٥٤.

(٣) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، ١٣٠/٢.

(٤) اقتبست معظم هذه الأسباب من كتاب الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، لحسين بن عودة العوايشة، ٣١٧/٧ وما بعدها. وقمت باختصارها، وإعادة صياغة لبعض عباراتها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((هذا وَعْدٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بأنه سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَي: أئِمَّةَ النَّاسِ، وَالْوَلَاةَ عَلَيْهِمْ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ، وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ، وَأَيُّدِلَنَّهُمْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ)).^(١) ولكن اللهُ ﷻ قَيَّدَ هَذَا الْوَعْدَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ثانياً: اتباع منهج النَّبِيِّ ﷺ

من أسباب النصر والتمكين اتباع منهج النَّبِيِّ ﷺ، قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقال رسولُ اللهِ ﷺ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ).^(٢) قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ بعد أن ذكر الحديث: ((وَإِذَا تَمَسَّكَتِ الْأُمَّةُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّهَا تُنْصَرُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)).^(٣)

ثالثاً: اتباع منهج السلف الصالح

ولا يتيسر اتباع نبيِّنا ﷺ إلا بحبِّ السلف الصالح واتباع منهجهم السديد، وسيلهم الرشيد، فهم الذين نقلوا كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وفهمهم الكتاب والسنة، وعملهم بذلك؛ مرجع ومنهج لمن بعدهم.

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

إن العمل بمقتضى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة سبب للاجتماع والائتلاف، ولدرء الخصام والاختلاف، وهذا سبيل النصر والتمكين بإذن الله.

عَنْ الْعُرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَدَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةً مُودِّعٍ، فَأَعْهَدَ إِلَيْنَا بَعْهَدٍ، فَقَالَ: (عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتْرُونَ مِنْ بَعْدِي

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن الكريم، ٧٧/٦.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب قول النَّبِيِّ ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم ٤٣٨، ٩٥/١.

(٣) الألباني: محمد ناصر الدين، في أحد دروسه. نقلاً عن: العوايشة: حسين بن عوده، الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، ٣٢٤/٧.

اِخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحَدَّثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ^(١).

رابعاً: العلم

من أسباب النصر والتمكين؛ العلم، والعمل بمقتضاه، قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ: ((بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَرَثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّهِ وَإِفْرِهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]...)).^(٢)

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ أيضاً: ((باب قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون، وهم أهل العلم)).^(٣) ثم ذكر حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).^(٤)

خامساً: تزكية النفوس والالتزام بما أمر الله ﷻ والانتهاز عما نهى ﷻ

قال الله ﷻ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. وقال ﷻ: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(١) أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى، السنن، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، رقم ٢٦٧٦، ٤٤/٥. وابن ماجه: محمد بن يزيد، السنن، كتاب السنة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم ٤٢، ٢٨/١. واللفظ له وغيرهما من أهل السنن. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧٣٥، ٢٣٨/٦.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ٢٤/١.

(٣) المصدر السابق، ١٠١/٩.

(٤) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين)، رقم ٧٣١١، ١٠١/٩.

فمن هم المؤمنون المنصرون؟

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٣-٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان)).^(١)

سادساً: ترك الذنوب والمعاصي والأهواء

ترك الذنوب والمعاصي سبب في النصر والتمكين، فلا يمكن أن تنتصر أمة وهي غارقة في الذنوب والمعاصي من شركيات، وبدع، وكبائر، ونحوها من المعاصي، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: ((وهل زالت عن أحد قطّ نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يُغَيِّرُها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه)).^(٢) ثم ذكر أن بسبب عصيان الأمم السابقة ومخالفتهم أوامر الله وعصيانهم الرسل؛ أزال الله عنهم نعمه، فقال رَحِمَهُ اللهُ: ((ومن تأمل ما قصَّ الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نِعَمَهُ عنهم، وجد سبب ذلك جميعه؛ إنما هو مخالفة أمره، وعصيان رُسله عليهم السلام، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كلّه من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم^(٣)

فما حُفِظت نعمة الله بشيء قطّ، مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لرَبِّه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها؛ كما تعمل النار

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٤/١٢.

(٢) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، التفسير القيم، ١/٦٠٨.

(٣) هذا البيت لأبي الحسن الكندي القاضي. انظر: البيهقي: أحمد بن الحسين، شعب الإيمان

في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم؛ استغنى عن تعريف غيره له)).^(١)

سابعاً: ترك التحايل

قال رسول الله ﷺ: (إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ،^(٢) وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ).^(٣)

يدل هذا الحديث على أن ترك التحايل من أسباب استجلاب النصر والتمكين ورفع الذل والهوان، وإلا ((فكيف تنتصر أمة؛ وفيها من يتحايل في بيعها وشرائها؟! كيف تنتصر أمة؛ وفيها من همُّه الاستكثار من المال، من غير مبالاةٍ أمِن حرامٍ هو أم من حلال؟! لا بُدَّ من التجرد من أهواء النفوس وحظوظها)).^(٤) وما حلَّ باليهود من عذاب وذل ومهانة إلا بسبب تحايلهم على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ((وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، مَا حَلَّ مِنَ الْبَأْسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللَّهِ وَخَالَفُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ؛ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، إِذْ كَانَ مَشْرُوعاً لَهُمْ، فَتَحَيَّلُوا عَلَى اصْطِيَادِ الْحَيْتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، بِمَا وَضَعُوهُ لَهَا مِنَ الشَّصُوصِ^(٥) وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرِّكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ؛ نَشِبَتْ بِتِلْكَ الْحَبَائِلِ وَالْحَيْلِ، فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَخَذُوهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ مَسَّخَهُمُ اللَّهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَنَاسِيِّ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَليست

(١) ابن قَيِّم الجوزية: محمد بن أبي بكر، التفسير القيم ، ٦٠٩/١ .

(٢) العينة: هو أن يبيع رجل سلعة؛ بِثَمَنِ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِنْهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي بَاعَهَا بِهِ.. وَتُؤَمِّتُ عَيْنَهُ لِحُصُولِ التَّقْدُّ لِمَالِكِ الْعَيْنَةِ لِأَنَّ الْعَيْنَ؛ هُوَ الْمَالُ الْحَاضِرُ مِنَ التَّقْدُّ، وَالْمِشْتَرِي إِذَا يَشْتَرِيهَا لِيَبْعَهَا بَعَيْنٍ حَاضِرَةً؛ تَصِلُ إِلَيْهِ مُعَجَّلَةً. ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣٣٤/٣ .

(٣) أخرجه السجستاني: أبو داود، السنن، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢، ٣٣٢/٥ . وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، رقم ١١، ٤٢/١ .

(٤) العوايشة: حسين بن عوده، الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، ٣٣٥/٧ .

(٥) جمع الشَّصُصِ: وهي حديدة عقفاء، يُصَادُ بِهَا السَّمَكُ. ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ٤٧/٧، مادة: [شصص].

بإنسانٍ حقيقة، فكَذَلِكَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ وَحِيلُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مَشَاهِجَهُمْ لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَمُخَالَفَتُهُ لَه فِي البَاطِنِ، كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ)).^(١)

ثامناً: ترك البدع

ومن أسباب النصر والتمكين ترك البدع، ففي حديث العَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه المتقدم: .. وَسَتَرُونَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحَدَّثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ).^(٢) فقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ البدع سببٌ في الاختلاف الكثير، وأنّ ترك المحدثات طريق النجاة والائتلاف.

وإذا كانت كل بدعة ضلالة؛ فكيف ينتصر الضالون؟! وإذا كانت البدعة تستجلب غضب الله؛ فكيف ينصرنا وهو غاضب علينا؟! وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بَدْعَةٍ).^(٣) وهل ينتصر إلاّ التائبون.

تاسعاً: الإعداد العسكري

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. إن من أسباب النصر والتمكين إعداد العدة للعدو، والحذر منه ((فالواجب على العرب وغيرهم: التوبة إلى الله سبحانه، والتمسك بدينه، والتواصي بحقه، وتحكيم شريعته، والجهاد في سبيله، والاستقامة على ذلك من الرؤساء وغيرهم، فبذلك يحصل لهم النصر ويهزم العدو، ويحصل التمكين في الأرض، وإن قل عددنا وعدتنا، ولا ريب أن من أهم الواجبات الإيمانية: أخذ الحذر من عدونا، وأن نعد له ما نستطيع من القوة، وذلك من تمام الإيمان، ومن الأخذ بالأسباب التي يتعين الأخذ بها، ولا يجوز إهمالها، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا

(١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٢٨٨/١.

(٢) سبق تخريجه، ص ٤٥١.

(٣) أخرجه الطبراني: سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، باب من اسمه علي، رقم ٤٢٠٢، ٤/٢٨١. وصححه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الترهيب والترغيب، رقم ١٢/٥٤١.

لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رَّبَاطِ الْخَيْلِ ﴿[الأنفال: ٦٠]﴾.^(١)

عاشراً: الإعداد المعنوي

وهو الاستبشار بالنصر والتمكين والغلبة والفوز والتجاح، وهو كذلك شجاعة النفس في الإقدام على الأمور بثقة واطمئنان وتفاؤل.

ويجب أن يكون هذا المعنى عند الإمام والقائد والعسكر والجند والشعب وعامة المجتمع. وينبغي على الحاكم أن يُوظف الأجهزة التي تخدم هذا الهدف النبيل؛ بأحسن الوسائل وأفضلها، ويكون هذا بالفعل الصالح وعدم الطيرة.

قال الإمام البخاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((باب التبرك بالاسم الحسن))^(٢)، ثم ذكر حديث عبد الله بن السائب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، حِينَ ذَكَرَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَنَّ سُهَيْلاً قَدْ أُرْسِلَهُ إِلَيْهِ قَوْمُهُ، فَصَالِحُوهُ، عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ هَذَا الْعَامَ، وَيُخْلُوها هُمْ قَابِلَ ثَلَاثَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أَتَى. فَقِيلَ: أَتَى سُهَيْلاً سَهْلَ اللَّهِ أَمْرُكُمْ.^(٣) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا عَدْوَى^(٤) وَلَا طِيْرَةَ^(٥) وَيُعْجِبُنِي الْقَوْلُ^(٦) الصَّالِحُ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ).^(٧)

((ومن أفضل الوسائل في تحقيق المراد في القوة (المعنوية)؛ الإفادة من النصوص المبشرة

(١) ابن باز: عبدالعزيز بن عبدالله، مجموع فتاوى ابن باز، ٢٩٩/١.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، ٣١٥/١.

(٣) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، كتاب الشعر، باب التبرك بالاسم الحسن، رقم ٩١٥، ٣١٥/١. وحسنه الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد، رقم ٧٠٧، ٣٤٠/١.

(٤) العدوى: بالفتح، اسم من الإعداء؛ وهو أن تجاوز العلة صاحبها إلى غيره. المناوي: محمد بن عبدالرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ٥٠٨/١.

(٥) الطيرة: هي التشاؤم بالشيء. ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١٥٢/٣.

(٦) الفأل: مَهْمُوزٌ فِيْمَا يَسْتُرُ وَيَسُوءُ.. إِلَّا أَنْ اسْتَعْمَلَ الْفَأْلَ فِي الْخَيْرِ أَكْثَرَ، يُقَالُ: تَفَاءَلْتُ بِكَذَا وَتَفَاءَلْتُ. ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٠٥/٣. الزمخشري: أبو القاسم محمود، الفائق في غريب الحديث والأثر، ٨٦/٣.

(٧) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الطب، باب الفأل، رقم ٥٧٥٦، ١٣٥/٧.

بالنصر، وانتشار الإسلام)).^(١) قال الله ﷻ مبشراً بأن المستقبل للإسلام: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَلْهَدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَلْهَدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. وقد نهي الإسلام عن اليأس والقنوط، قال الله ﷻ: ﴿يَبْنَؤُا أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُّوْا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الحادي عشر: التآلف واجتماع الكلمة، وعدم التفرق والاختلاف

من أهم أسباب النصر والتمكين الاجتماع والاتلاف وعدم الفرقة والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولقد جاء الإسلام بالتآلف، واجتماع الكلمة، ونبذ التفرق والاختلاف ((ليجمع القلب إلى القلب، ويضم الصف إلى الصف، مستهدفاً إقامة كيان موحد، ومُتَقِيّاً عوامل الفرقة والضعف، وأسباب الفشل والهزيمة، ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية، والمقاصد النبيلة، والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالته العظمى؛ من عبادة الله تعالى، وإعلاء كلمته، وإقامة الحق، وفعل الخير، والجهاد، من أجل استقرار المبادئ التي يعيش الناس في ظلها آمنين.

فهو لهذا كله يُكوِّن روابط وصلات بين أفراد المجتمع، لتُنشئ هذا الكيان وتدعمه، وليست هذه كغيرها من الروابط المادية، التي تنتهي بانتهاؤها دواعيها، وتنقضي بانقضاء الحاجة إليها؛ إنما روابط أقوى من روابط الدم، واللون، واللغة، والوطن والمصالح المادية، وغير ذلك مما يربط بين الناس.

وهذه الروابط من شأنها أن تجعل بين المسلمين تماسكاً قوياً، وتقيم منهم كياناً يستعصي على الفرقة وينأى عن الخلل)).^(٢)

وهذا لا يكون إلا بأخوة الإيمان، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

(١) العوايشة: حسين بن عوده، الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، ٣٤٤/٧.

(٢) المصدر السابق، ٣٤٤/٧-٣٤٥.

ﷺ قَالَ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّحَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّحَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).^(١)

والمؤمن يتقوى بأخيه المؤمن ويشعر به؛ فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه، قال ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا).^(٢) وقوله ﷺ: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطِفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى).^(٣)

فالنصر والتمكين والعزة للمسلمين لا تكون إلا بلزوم الجماعة، والتكاتف، والتآلف، وبها يُحفظ هذا الدين، أما الفرقة والاختلاف فبسببها تكون الهزيمة، والضعف، والتسلط من الأعداء، قال الله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولو تأملنا هذه الأسباب السابقة لوجدنا أن أعداء الإسلام على مرّ العصور ركزوا عليها أشد ما يمكن، وحاولوا بشتى الطرق أن يجاربوا الإسلام من خلالها، وإضعاف المسلمين باللقاء الشبه والمغالطات من خلال هذه الأسباب ومن خلال كل ما يؤدي إلى نصر المسلمين وتمكينهم.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢، ١٢٨/٣.

(٢) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٨١، ١٠٣/١. والنيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٦٧٥٠، ٢٠/٨.

(٣) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٦٠١١، ١٠/٨.

المبحث الثاني

تقويم لوبون للفتوحات الإسلامية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: شهادات واعترافات غوستاف لوبون وبعض المستشرقين والمثقفين

الغربيين حول الفتوحات الإسلامية

المطلب الثاني: شبهات غوستاف لوبون حول الفتوحات الإسلامية

المطلب الأول

شهادات واعترافات غوستاف لوبون وبعض المستشرقين

والمتقنين الغربيين حول الفتوحات الإسلامية

من الجوانب المضيئة في حضارتنا الإسلامية ومن الصفحات المشرقة في سجل تاريخنا الإسلامي الزاخر بالمآثر والمفاخر والتي نعتر بها؛ جانب التسامح مع غير المسلمين والإحسان إليهم؛ هذا الجانب الذي يشهد بأن الإسلام دين الرحمة، والإحسان، والعدالة، والإنصاف، وهذا الجانب من المبادئ السامية والشمائل الكريمة التي كانت عاملاً من عوامل انتصار الإسلام.

ولم يشرع الجهاد في سبيل الله إلا لنشر دين الله، وترسيخ العدالة، وتحرير الناس من قيود الطغيان، وانتشالهم من ظلمات الجهل وغياب الضلال؛ فشرع الجهاد، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنْتَهُوْا فَلَا عُدُوْنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

شرع الجهاد رحمة بالضعفاء، ونصرة للمظلومين، وعدالة للمغلوبين، وهداية للحائرين، فعندما حكم المسلمون الأرض ساد العدل، والعفو، والرحمة، والوفاء، والصدق، والتسامح مما جعل الأمم تدخل في دين الله أفواجاً حباً لهذا الدين وأهله، ورغبة لما أعد الله لمن آمن به؛ ولكن لما حكم غير المسلمين، ساد الظلم، والقهر، وظهرت الجرائم بأبشع صورها على الأمم والشعوب؛ وكما قيل: (١)

مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً فَلَمَّا مَلَكَتُمْ سَأَلَ بِالدِّمِّ أَبْطَحُ
وَحَلَلْتُمْ قَتَلَ الْأَسَارَى وَطَالَ مَا غَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرَى نَمْنُ وَنَصْفُحُ
وَحَسْبُكُمْ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا فَكُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَنْصَحُ

(١) هذه الأبيات لسعد بن محمد بن الصفي المعروف بـ"حيص بيص". انظر: الصفدي: صلاح

الدين خليل، الوافي بالوفيات، ١٠٤/١٥.

نهى الإسلام عن قتل الأطفال، والنساء، والشيخوخ، والعجزة، وأهل الصوامع والبيع، الذين لا اعتداء من ناحيتهم، ولا خطر من بقائهم؛ فعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنها قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: (اعْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَاتَلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اعْزُوا وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَعْدُرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ حِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيُّهُمْ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْعَيْمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهُمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ... الحديث).^(١)

هذه وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاداته وجنده، فأى إحسان، وتسامح، ورحمة، ووفاء أعظم من ذلك!!؟ وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من بعده صلى الله عليه وسلم.^(٢)

وهذه بعض الشهادات والاعترافات من غوستاف لوبون وبعض المستشرقين والمثقفين الغربيين حول إعجابهم بالفتوحات الإسلامية وتأثيرها الإيجابي على الأمم والشعوب:

أولاً: شهادات واعترافات غوستاف لوبون

يقرر غوستاف لوبون أن الفتوحات الإسلامية كان لها طابع خاص لا تجد مثله لدى الآخرين، حيث أن الحضارة تنتشر وبسرعة بمجرد دخولهم لأي بلد؛ وذلك في قوله: «وللفتح العربي طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب،

(١) أخرجه النيسابوري: مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، رقم ٤٦١٩، ١٣٩/٥.

(٢) كتب السنة والتاريخ والسير مليئة بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ووصايا الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم حول هذا الأمر، ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضاً منها، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والتُّرك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمةً، لم يؤسسوا حضارةً، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعة حضارةً جديدةً كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكّنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة...)).^(١)

يشهد غوستاف لوبون بأن التاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم من المسلمين العرب؛ فيقول: ((ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب)).^(٢)

يقرر غوستاف لوبون أن الفتح الإسلامي جاء ومعه الرحمة، والسماحة، والتعامل الذي يندر وجوده عند الأديان الأخرى؛ مما جعل ذلك سبباً في اتساع فتوحاته واعتناق الأمم المغلوبة للإسلام؛ فقال: ((كان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، فيقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادةً، وسيئوا معاملة المغلوب، ويكرهوهم على اعتناق الذي كان يرغبون في نشره في العالم، فلو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت، بعدد، غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سوريا مؤخراً، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون، الذين كان عندهم من العبقريّة ما ندر وجوده في دُعاة الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً، فعاملوا، كما رأينا، أهل سوريا ومصر وإسبانيا، وكلّ قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فاضين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تُعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم.

وما جهله المؤرّخون من رحمة العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم،

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢.

وَنَعُدُّ أمر مصر واضحاً على الخصوص، فلم يستطع الفُرس والإغريق والرُّومان الذين استولوا عليها أن يقبلوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها، وأن يقيموا حضارتهم مقامها).^(١)

يقرر لوبون أن الإسلام لم ينتشر بالقوة، واعتناق الناس للإسلام كان بسبب ما رأوه من عدل المسلمين الذي لم يروا مثله عند ساداتهم السابقين؛ بقوله: ((وسيرى القارئ حين نبحت في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أنَّ القوَّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقسام النصرانية الإسلام واتَّخذوا العربية لغةً لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، مما لم يروا مثله من ساداتهم السَّابقين، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة التي لم يعرفوها من قبل)).^(٢)

ونقل كلاماً في الحاشية بهذا الخصوص عن بعض العلماء الأوروبيين المنصفين -بحد زعمه-؛ فيقول: ((إنَّ مسامحة محمد لليهود والنَّصارى، كانت عظيمة إلى الغاية، مما لم يقل بمثله مؤسِّسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنَّصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنَّته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المنصفون القليلون، الذين أنعموا النَّظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثير منهم تثبت أنَّ رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا، قال (روبرتسون) في كتابه: (تاريخ شارلكن): إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحراراً في التَّمسُّك بتعاليمهم الدِّينية. وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): إنَّ الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فقد أعفى البطارقة والرُّهبان، وخدمهم من الضُّرائب، وحرَّم محمَّد قتل الرُّهبان على الخصوص؛ لعكوفهم على العبادات، ولم يمسنَّ عمر بن الخطاب النَّصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين... بلا رحمة وقتما دخلوها. وقال الرَّاهب (ميشود) في كتابه: (رحلة دينية في الشَّرْق): "ومن

(١) المصدر السابق، ص ٦٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

المؤسف ألا تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة^(١).
 وقوله كذلك رداً على من يقول أن الإسلام انتشر بالسيف: «وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس، فضّل هؤلاء القتل والطرْد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر الإسلام بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالذعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالتُّرك والمغول، وبلغ من انتشار الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، أن زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً، مع أن الإنكليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يُجهّزون البعثات التبشيرية، ويرسلونها تبعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى^(٢).

مقارنته بين الفتح الإسلامي والحملات الصليبية؛ حيث يقول: «كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون^(٣).

ثانياً: شهادات واعترافات بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين

يقرر توماس آرنولد أن النجاح الذي أحرزه المسلمون في فتوحاتهم كان بعون من الله، وأن هؤلاء الفاتحين هم عباد الله المختارون، وهذا النجاح إنما هو دليل على صدق دينهم: «إن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظر، قد

(١) المصدر السابق، الحاشية (١)، ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن الله لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين، وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم^(١).

ويقول أيضاً مقررًا التسامح الذي جاء به الفاتحون المسلمون: «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي... ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم^(٢)».

ويشهد ألدو مييلي^(٣) بأن الفتح الإسلامي جاء منخلصاً ومحراً للشعوب من الاضطهاد الذي كان تلحقه بهم حكوماتهم: «..أن السكان الساميين في سوريا ومصر، الذين قاسوا كل صنوف الضغط والهول -على الأخص بسبب الضرائب- من قبل الحكومات الأجنبية التابعة للدولة البيزنطية أو المملكة الساسانية، لم يستطيعوا أن يروا في

(١) آرنولد: توماس، الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩.

(٣) ألدو مييلي A. Mieli مستشرق فرنسي، تفرغ لتاريخ العلوم، تولى وكالة المجمع الدولي لتاريخ العلوم، وأسس مجلة (آركيون) التي تسجل نشاطه. من آثاره: (تاريخ العلوم) (باريس ١٩٣٥)، (العلم العربي وأثره في التطوير العلمي العالمي) (١٩٣٨)، (علم الفلك في العالم الإسلامي) (١٩٤١)، (علم النبات عند العرب) (١٩٤١)، (علم الجغرافيين العرب) (١٩٤١)، (العلم الإسلامي) (١٩٤٢٩)، (الرياضيات العربية) (١٩٤٢)، (التشريح العربي) (١٩٤٢).. وغيرها. تحليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٢٦٦.

العرب إلا محررين مخلصين، كما أن المسيحيين.. استطاعوا أن يعتمدوا على التسامح الإسلامي، بعد أن كانوا يحشون الاضطهاد من قبل نصارى القسطنطينية..^(١)

يقرر أيضاً بأن الفتح الإسلامي لم يفرض على الأمم المغلوبة بأن تتخلى عن دياناتهم، وعاداتهم، وقوانينهم في حال قبولهم دفع الجزية؛ فيقول: ((.. كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بذور الحضارات القديمة عند طوائف كبيرة من الأهالي، الذين واصلوا التمتع بعاداتهم، وقوانينهم، ولغاتهم، على شريطة أن يعطوا بانتظام قيم الجزية المفروضة على من لا يدخل في جماعة المسلمين، وكان طبيعياً مع ذلك أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد في وقت مبكر، سواء أكان ذلك بسبب الجوار، أم بسبب اعتناق الأهالي كثيراً وقليلاً للإسلام بوجه خاص..)).^(٢)

يقرر أيضاً بأن التسامح الذي تحلّى به الفاتحون لم ينعكس على الشعوب فقط؛ بل حتى على العلماء المسيحيين؛ فيقول: ((التسامح العظيم الذي تحلّى به الخلفاء الأمويون، وملوك الطوائف.. لم يمتد لوائه على ما حكموه من شعوب، أو على المسلمين القادمين من إفريقية والمشرق فحسب، بل انبسط ظله أيضاً على العلماء المسيحيين الذين أقبلوا مهطعين من أبعد الأقطار لتلقي العلوم في المدن المزدهرة التي لا تحصى، في ذلك القطر الساحر [الأندلس] الآخذ بمجامع الألباب)).^(٣)

ويقول مارسيل بوازار: ((.. منذ بدء الفتح العربي الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة، وفي زمن

(١) مييلي: ألدو، العلم عند العرب، ص ٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٥٤.

لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة، أصدر أبو بكر [ﷺ] - أول خليفة للنبي [ﷺ] - إلى جنوده التعليمات المشهورة المرنة كثيراً التي تختصر الروح الخلقى للقانون الإسلامى...)).^(١)

ويقرر جون ترند^(٢) أن الفاتحين المسلمين آثروا شراء الكنائس القديمة من السكان مع أنه باستطاعتهم أن يأخذوها منهم عنوة؛ فيقول: ((آثر الغزاة المسلمون أن يشتروا من السكان المسيحيين بقرطبة جانباً من الكاتدرائية القديمة، ورأوا أن ذلك خير لهم من أخذها عنوة واغتصاباً، وهذا شاهد ينطق بما اشتهروا به من التسامح مع أصحاب العقائد المخالفة لعقيدتهم)).^(٣)

يقول فيليب حتى: ((..إن أبرز ما يلفت النظر في الفتوح العربية ليس تلك السرعة وذلك النظام اللذين تمت بهما - بغير دمار لا مبرر له إلا قليلاً- ولكن تلك السهولة التي انتقلت بها البلاد المفتوحة من حال الحرب إلى حال السلم، ومن التغلب إلى الإدارة...)).^(٤)

(١) بوازار: مارسيل، إنسانية الإسلام، ص ٥٢.

(٢) جون براند ترند (١٨٨٧ - ١٩٥٨) J. Brand Trend رائد من رواد تاريخ إسبانيا. أستاذ في جامعة كمبردج. قام بعدة رحلات في إسبانيا والبرتغال ومراكش ومكسيكو واشتغل في معهد الدراسات الشرقية بلندن. من آثاره (صورة لإسبانيا الحديثة)(١٩٢١)، (موسيقى تاريخ إسبانيا) (١٩٢٥)، (لغة إسبانيا وتاريخها) (١٩٥٣)، وكثير من الكتب الأخرى في هذا المجال. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٢٧٥.

(٣) بوازار: مارسيل، إنسانية الإسلام، ص ٥٢.

(٤) حتى: فيليب، الإسلام منهج حياة، ص ١٦٢.

يقول إميل درمنغم: ((..كانت الفتوح الإسلامية جزاءً مقدرًا وخزياً كبيراً على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة.. وكان سلطان العرب غلاً أكرهت به أوروبا على الصواب، فكان ظهور العرب ووعيدهم حافزين للنصرانية إلى سلوك سبيل الإصلاح والترقي)).^(١)

يقول أيضاً: ((لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف، ففي القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبأن لا يبدؤوا بالاعتداء...)).^(٢)

ويقرر تريتون^(٣) مبدأ التسامح وحفظ العهد عند المسلمين فيقول: ((كان العرب في أيامهم الأولى يلتزمون جادة الصبر والأناة، إذ كثيراً ما نقرأ عن مدن استسلمت بشروط، ثم ثارت وتمردت على العرب، ثم استسلمت مرة أخرى فأعادوا لها عهدها الأولى)).^(٤)

يقول أيضاً: ((ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها الذميين؛ ما جاء في الأمر الذي وجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في (المتحف البريطاني)، وعلى الرغم من فساد قسم منه فقد جاء في الباقي "خوفاً من الله،

(١) درمنغم: إميل، حياة محمد، ص ١٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٣) آرثر ستانلي تريتون A. S. Tritton ولد عام ١٨٨١ وتعلم في عدد من الكليات البريطانية وعين مساعد أستاذ للعربية في أدنبرا (١٩١١) وكلاسكو (١٩١٩) وأستاذ في عليكرة في الهند (١٩٢١) ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن (١٩٣١-٣٨-٤٧) وقد وجه جل اهتمامه إلى الفقه وطوّف في عدد من البلدان العربية. من آثاره: (أئمة الزيدية بصنعاء واليمن) (١٩٢٥)، (الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين) (١٩٣٠)، (علم الكلام في الإسلام) (١٩٤٧)، (الإسلام إيمان وشعائر) (١٩٥٠)، (مواد في التربية الإسلامية) (١٩٥٧). كما نشر عدداً من الأبحاث في المجالات الاستشراقية وبخاصة (مجلة الجمعية الملكية الآسيوية). خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٢٧٦.

(٤) تريتون: آرثر ستانلي، أهل الذمة في الإسلام، ص ١٦٠.

وحفظاً للعدالة، والحق في توزيع القدر المفروض عليهم.. ولكن تجب معاملة الجميع بالعدل، وأخذ الشيء من كل منهم بقدر طاقته)).^(١)

يقول آرنولد توينبي^(٢): ((..لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الحرية وتلك سياسة مستنيرة، أجمعت الآراء على امتداحها.. لقد سلك الإسلام طريقة بين رعايا الخلافة غير العرب، مستنداً على مزاياه وفضائله الذاتية، وكان انتشاراً بطيئاً، لكنه كان مؤكداً.. ويحتمل أن الهداية إلى الإسلام بصورة جماعية لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادي -أو تصل نهايتها- حتى حلول فترة اضمحلال الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر. ويمكن القول بالتأكيد، أن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامي، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية، ولم تنجم قط عن ضغط سياسي..)).^(٣)

هذه شهادات بعض المستشرقين وبعض المثقفين الغربيين الإيجابية على حقيقة ما رأوه وسمعوا عنه وقرروه تجاه الفتوحات الإسلامية؛ أكتفي بها خشية الإطالة.

(١) المصدر السابق، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) آرنولد توينبي Arnold Toynbee المؤرخ البريطاني المعاصر، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها -ولا ريب- مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءاً عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومر فيل - تحت إشراف توينبي نفسه - مختصراً في جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مستخدماً عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالسياق العام للكتاب، وهذا المختصر هو الذي ترجم إلى العربية في أربعة أجزاء، وهو الذي اعتمدهنا هنا. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ١٠٠.

(٣) توينبي: آرنولد، مختصر دراسة التاريخ، ٣/٣٥٥-٣٥٦.

المطلب الثاني

شبهات غوستاف لوبون حول الفتوحات الإسلامية

الشبهة الأولى: الزعم بأن العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب تماماً، وأنهم تعلموا الشيء الكثير منه من قاهريهم بسرعة.^(١)

الشبهة الثانية: الزعم بأن انتصار المسلمين على الروم كان سببه ضعف الدولة الرومانية.

يتضح ذلك في قوله: «وكانت دولة الروم، التي نهكتها محارباتها لدولة الفرس، والتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة، في دور الانحطاط، فلم تكن غير هيكل نُخِرٍ يكفي أقلُّ صدمة لتداعيه».^(٢)

وقوله: «ولو كانت أركان العالم متداعيةً كالدولة الإغريقية الرومانية، والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد، فقد كانت تلك الدولتان موهوبتين، مع ما كان يبدو من وهنهما، فكان لا بدَّ للأمة التي تريد محاربتهما من أن تكون ذات صفات حربية عظيمة، فضلاً عن معتقداتها التي تُوجِّه جهودها إلى غرضٍ واحد، ولم يحتج العرب إلى ما يتطلَّبه مثل ذلك العمل الجليل من الشجاعة وحب القتال وما ورثهما العرب أباً عن جدِّ، مضافاً ذلك إلى ما نشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشهادة حباً للجنة التي وُعدوا بها».^(٣)

(١) تم الرد على هذه الشبهة، ص ٤٤٦.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٣.

وقوله: ((وُلد مُحَمَّد في أحسن الأوقات، فقد رأينا أن العالم المسنّ كان متصدّعاً فيه

من كلِّ جانب، ولم يتوجّب على أتباع مُحَمَّد إلا أن يهزّوه ليتساقط)).^(١)

الرد على الشبهة:

تحدّث المستشرقون^(٢) عن ضعف الدولتين الفارسية والرومانية، وبالغوا في الإلحاح في ذلك، وجعلوه من أهم الأسباب التي أدت إلى الفتوحات الإسلامية، وانتصارات المسلمين؛ في محاولة منهم لتجريد المسلمين من كل فضل في الانتصار، فكأنهم قدموا الانتصار إليهم على مائدة من فضة أو ذهب، ونالوه دون مشقة أو تعب، ((وأخذ بآراء المستشرقين - كالعادة - عدد من المؤرخين العرب^(٣)، وبعضهم لم يشير إلى أصله الاستشراقي)).^(٤)

ولو كانت كتاباتهم موضوعية، لقاموا بعمل مقارنة في العدد والعدّة بين المسلمين والدولتين، ولا تضح لهم مباشرة أنه لا مقارنة؛ فقد كان المسلمون أقلّ عدد وأقلّ عدّة بفارق كبير، والتاريخ يشهد على ذلك، والدول التي تحشد مئات الألوف في معركة واحدة لا يمكن أن تكون ضعيفة. لم تكن دولة الروم هيكل نخر يكفي أقلّ صدمة لتداعيه - كما يزعم لوبون وغيره-، ولم تكن أركان العالم (فارس والروم) متداعية، ومتصدعة؛ وإنما كانتا دولتين عظيمتين، لهما من المكانة والإمكانات العسكرية الجبارة الشيء الكثير، ولهما من الخبرة في الحروب ما يشهد به التاريخ، وكان نفوذهما واسعاً، وثروتهما عظيمة.

لكن لوبون سلك مسلك أولئك الذين أرادوا أن يقللوا من شأن الفتوحات العربية الإسلامية، وكان عليهم أن يعترفوا بقوة المسلمين، وشجاعتهم، وبطولاتهم، وفكرهم السياسي، وتخطيطهم العسكري، وأنهم لا يقاتلون لأجل مغنم دنيوية، وأنهم لم يحسبوا حساباً للعدد والعدّة،

(١) المصدر السابق، ص ٦٠١.

(٢) مثل: لويس: برنارد، العرب في التاريخ، ص ٤٩. بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٩٠. سيديو: لويس، تاريخ العرب العام، ص ١٣٨، ١١٦. ديورانت: ول، قصة الحضارة، ٣٥٤/١٢ - ٣٥٥، ٧٢/١٣. كاهن: كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ٢٣/١. وغيرهم.

(٣) مثل: حسن: إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٢١٤/١ - ٢١٥. ماجد: عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية، ص ١٦٠. زيدان: جرجي، التمدن الإسلامي، ص ٦٦ وما بعدها.

(٤) المصري: جميل عبدالله، دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، ص ٧٣.

لأنهم يقاتلون لإعلاء كلمة الله، ملتزمين بدينهم، مستيقنين قول الله ﷻ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

خاطب أبو بكر ﷺ جند الشام فقال: ((فَإِنَّكُمْ أَعْوَانُ اللَّهِ، وَاللَّهُ نَاصِرٌ مَّن نَّصَرَهُ، وَخَازِلٌ مَّن كَفَرَهُ، وَلَنْ يُؤْتَىٰ مِثْلَكُمْ مِّن قَلِيلَةٍ، وَإِنَّمَا يُؤْتَىٰ الْعَشْرَةُ آلاَفٍ وَالزِّيَادَةُ عَلَى الْعَشْرَةِ آلاَفٍ إِذَا أَتَوْا مِّن تَلْقَاءِ الدُّنُوبِ، فَاحْتَرِسُوا مِّنَ الدُّنُوبِ)).^(١)

وكتب ﷺ إلى خالد بن الوليد ورياض بن غنم ﷺ فقال: ((وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاتَّقُوهُ، وَاتَّبِعُوا أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا يَجْتَمِعَا لَكُمْ، وَلَا تُؤْتِرُوا الدُّنْيَا فَتُسَلِّبُوهُمَا، وَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللَّهُ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَمُعَاجَلَةِ التَّوْبَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْإِصْرَارَ وَتَأْخِيرَ التَّوْبَةِ)).^(٢)

لم تكن انتصارات المسلمين وقهرهم لأعدائهم هو الهدف من هذه الحروب؛ وإنما كانت وسيلة لتبليغ رسالة الله ﷻ، وقد أدوا تبليغ هذه الرسالة على أكمل وجه، وأقاموا حضارة أبحرت العالم، وبقيت آثارها تشهد لهم، ((صحيح إن العرب المسلمين قضوا على الدولة الساسانية، وخطموا بيزنطة في بلاد الشام ومصر.. لكن الأهم من هذا وذاك أنهم أقاموا على أرض دولتهم الواسعة الجديدة، وعلى أنقاض الدول المهزومة أمامهم، حضارة ما زال علماء العالم حتى اليوم يتحدثون عن مدى تقدمها في العلوم المختلفة، وكثرة علمائها واختراعاتهم واكتشافاتهم واتساع أفق تفكيرهم، وانتفاعهم من منابع العلوم والحضارة أينما وجدت، ومتابعة السير في طريق العلم، ورائدهم في ذلك سلوك طريق البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة، يأخذون العلم من أية جهة جاءهم منها، ولكن يُعملون به عقلهم نقداً وبحثاً ودراسةً وتقدماً)).^(٣)

(١) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ٣/٣٩٣.

(٢) المصدر السابق، ٣/٣٧٢.

(٣) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٢٥.

الشُّبهة الثالثة: الرَّعْمُ بأنَّ مباني الدَّور الإسلامي الأول لم تكن من صنع العرب،
وأَنَّها أُقيمت على أنقاض الكنائس.

يتضح ذلك في قوله: ((ومهما يكن الأمر، فإنَّ مما لا ريب فيه، أنَّ مباني الدَّور الإسلامي الأول، لم تكن من صنع العرب، وأنَّ عمَّال البلاد التي دانت لهم هم الَّذِينَ غَيَّرُوا معالم الكنائس، لتكون موافقة لعبادة المسلمين، وأنَّهم أقاموا مباني العرب بأنقاض الكنائس)).^(١)

الرد على الشبهة:

هذا القول فيه ما يوحي بأن المسلمين أقاموا مساجدهم على أنقاض الكنائس عنوة، وأنهم أجبروا أهلها على تغييرها لتوافق عبادة المسلمين. وهذا القول إن كان مقصوداً فهو غير صحيح، لأن الكنائس في الشام ومصر وغيرها من البلدان التي فتحها المسلمون لا يزال بعضها قائم إلى وقتنا الحاضر.

هذا القول أيضاً يخالف ما جاء به الإسلام وما أوصى به النَّبِيُّ ﷺ قَادَتَهُ وَجُنُودَهُ، ويخالف ما أوصى به الخلفاء الراشدون الجيوش الإسلامية، قال ﷺ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] فيه ((دلالة ترك هدم الكنائس والبيع وما ذكر، والنهي عن هدمها؛ لأنه ذكر الصوامع والبيع، وعلى ذلك تركت الكنائس والبيع في أمصار المسلمين لم تهدم، ولا خلاف بين أهل العلم في ذلك، وإتِّمَّ بمنعون عن إحداث البيع والكنائس في أمصار المسلمين وقراهم، وأمَّا العتيقة منها فإنهم يتركون وذلك، والله أعلم)).^(٢)

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٥٥.

(٢) الماتريدي: أبو منصور محمد، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ٧/٤٢٥.

ألم يكن في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه للمجاهدين الفاتحين: ((..وَسَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ..)).^(١)

وكذلك ما جاء في صلح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل (إيلياء) بيت المقدس، ودولة الإسلام آنذاك في قمة الفتوح، وأوج قوتها وعزيمتها؟

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم..)).^(٢)

لكن لعل غوستاف لوبون يقصد من كلامه أن العرب أقاموا مساجدهم على أنقاض الكنائس التي تنازل عنها أهلها، أو الكنائس التي اشتراها العرب من أهلها برضاهم، ولعله يقصد أن المساجد التي بنيت في ذلك الزمن بُنيت على طراز بناء الكنائس، لأن العمّال الذين بنوا المساجد كانوا من الأعاجم الذين اعتادوا بناء الكنائس على ذلك الطراز. فبنوها مشابهة لطرز الكنائس مع مراعاة الضوابط الشرعية الإسلامية في ذلك.

الشبهة الرابعة: الزعم بأن السلاجقة تعصبوا ضدّ الحجاج النّصارى إلى بيت المقدس وآذوهم، وأنّ ذلك كان سبباً للحروب الصليبيّة.

يتضح ذلك في قوله: ((وبعد أن ملك السلجوقيون جميع الولايات المجاورة لبغداد، جعلوا مقرّهم أمام القسطنطينيّة، واستولوا على سوريا وأحلّوا التّعصّب محلّ تسامح العرب، فنهوا النّصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم فاضطرت أوروبا لذلك وثار، بعد أن كانت تخشى تقدّم المسلمين منذ زمن طويل)).^(٣)

(١) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ٢٢٧/٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٠٩.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٤٤.

الرد على الشبهة:

ليست هذه هي الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية، وهذه من مغالطات غوستاف لوبون وتناقضاته، فإنه قرر بأن الحجاج النصارى معظمهم من المجرمين المفطورين على أخطر الجرائم، وكان يزيد ضجيجهم كل يوم بسبب تصرفاتهم الهوجاء، فقد كانوا يدخلون القدس على صوت الصنوج^(١) وضوء المشاعل، وقد حمل هؤلاء الحجاج السلاح، وكانوا يعتدون على الأعراب والتركمان.^(٢) ((إنَّ المبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الإسلاميّة في العصور الوسطى، وما تعرّضوا له من اضطهاد، وكيف أنّ كنائسهم خربت، وأديرتهم أغلقت، وطقوسهم عطّلت.. مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتّاريخ، ودخول من باب وهميّ يصرف عن المدخل الحقيقي إلى أسباب الحروب الصليبيّة)).^(٣)

قرر غوستاف لوبون أيضاً بأن دوافع الحروب الصليبية كانت بسبب دعوات بطرس الناسك (المجنون) الذي كان يجوب البلاد الأوروبية، ويلقي الخطب النارية ممزوجة بالبكاء والعيول وصب اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة، فأثرت فصاحته في الجموع، حتى عدّوه نبياً، ليس ذلك فحسب؛ بل قام بطرس الناسك بتحفيز السنيورات الذين كانوا سادة الجموع لدعم تلك الحركة، مما أدى إلى تشجيع البابا لتلك الحركة، وعقدت المؤتمرات لذلك، فتحالف المؤمنون لتلبية دعوة بطرس الناسك.^(٤)

وذكر غوستاف لوبون متناقضاً مع نفسه بأن الغالبية من الصليبيين خرجوا لمطامع شخصية، سياسية، ومادية، واجتماعية، ودينية فقال: ((نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حميّة، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله فضلاً عما يناله في ملكوت السماوات، فغدا العبيد يطمعون في فك رقابهم، وغدا أبناء الأسر الذين حرّموا الميراث بسبب

(١) الصنوج: جمع صنّج؛ والصنّج ما يُتخذ من صُفْرٍ مدوّراً يُضرب أحدهما بالآخر. ابن المطرزي: أبو الفتح ناصرالدين، المغرب في ترتيب المعرب، مادة: [صنّج]، ٤٨٣/١.
(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٢٠-٣٢١. باختصار.
(٣) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٢٩.
(٤) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٣٢٢. باختصار.

نظام البكرية، والسننورات الذين كانت قسّمتهم ضيزى يطعمون في الاغتناء، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار وجميع المحرومين من طيب العيش، وكان عددهم كبير؛ يعللون أنفسهم بأطيب الأماني)).^(١)

هذه هي الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية، أما مزاعم القائلين بأن أوضاع المسيحيين كانت سيئة في الشرق، فهذا افتراء وكذب، بل إن أحوال المسيحيين الذين كانوا تحت الحكم الإسلامي كانت أحسن حالاً من إخوانهم تحت الحكم البيزنطي.

يقول ثومبسون Thompson: ((وإنّ ما اعترى المسيحيين في الشّام وآسيا الصّغرى من متاعب في ذلك العصر، إنّما كان مردّه الصّراع بين السّلاجقة والبيزنطيين؛ لأنّه لا يوجد أيّ دليل على قيام السّلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم)).^(٢)

الشُّبهة الخامسة: الزَّعم بأنَّ أصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جستنيان تبيحياً للعدراء.

يتضح ذلك في قوله: ((المسجد الأقصى: بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسيّ، وهو قدسٌ أيضاً، فأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جستنيان تبيحياً للعدراء، فحوّلها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر، ثمّ هدم الزلزال المسجد الأقصى فجُدّد بناؤه في سنة ٧٨٥م)).

الرد على الشبهة:

هذا الزعم من غوستاف لوبون ليس عليه دليل يؤيده في كتب التاريخ، بل إن ما جاء في كتب التاريخ يتناقض وهذا الزعم.^(٣)

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) عاشور: سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ص ٤٢.

(٣) وهذا يخالف بنود الصلح الذي وقّعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل إيلياء (بيت المقدس)؛ والذي ورد في الشبهة الثالثة من هذا المطلب.

((إنَّ عمر بن الخطَّابَ رضي الله عنه لم يحوّل، ولم يأمر بتحويل كنيسة في القدس إلى مسجد، بل على العكس، فقد روي عنه أنّه رفض تأدية صلاة حان وقتها، وهو في زيارة لأحد بطارقة القدس، خشية أن يتَّخذ المسلمون مكان صلاته مسجداً لهم، مما يؤذي المسيحيين، فخرج من مكانه، وأدّى صلاته خارجها، فبني في المكان الجديد مسجد يعرف حتّى اليوم بمسجد عمر، ومكان المسجد الأقصى يعرف منذ أقدم العصور على أنّه معبد، ويعتقد المسلمون أنّه ثاني معبد بعد المسجد الحرام، وزاد تقديسه عن المسلمين بعد اتّخاذه قبلة لهم قبل أن تكون الكعبة قبلتهم، ثمّ ازداد تقديسه بعد حادثة الإسراء إليه برسول الله صلّى الله عليه وآله، حيث أُسري به صلّى الله عليه وآله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أمّا بناء المسجد المعروف اليوم، فكان في عهد عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد)).^(١)

الشُّبهة السادسة: اتهام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنّه لم يمنع من عادات المصريين السيئة سوى قذف المصريين لإحدى العذارى إلى النيل ليمنّ عليهم بما يحتاجون من الماء وقت الفيضان، وأنّه استبدل ذلك بقذف تمثال خزفي يُدعى العروس.

يتضح ذلك في قوله: ((ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريين، سوى عادة اختطاف إحدى العذارى من أبويها في كلّ سنة، وقذفها في النيل، لكي يمنّ إله النيل على مصر بما تحتاج إليه من الماء وقت الفيضان، فاستبدل عمرو بن العاص بتلك العادة؛ العادة التي لا تزال موجودةً إلى يومنا، وهي قذف تمثال خزفي يُدعى بالعروس في النيل في يوم معيّن من كلّ سنة...)).^(٢)

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢١٥.

الرد على الشبهة:

لا يصح هذا القول من غوستاف لوبون، وهذا الفعل يخالف عقيدة المسلمين، وما بُعث محمد ﷺ إلا ليقضي على مثل هذه المعتقدات الباطلة، وما شرع الجهاد إلا لإخراج الناس من مثل هذه الشركيات والخرافات والبدع، ويردهم إلى عبادة الله الواحد القهار.

فكيف يصح أن يفعل عمرو بن العاص ﷺ مثل ذلك؟ والصواب أن هذه القصة وردت في كتب التاريخ ولكن بخلاف ما ذكرها غوستاف لوبون؛ وهي كالتالي:

((لما فُتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص ﷺ حين دخل بؤونة^(١) من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير إن لينا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان ثنتا عشرة ليلة خلون من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبيها، فأرضينا أبيها، وجعلنا عليها من الحلبي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله، قال: فأقاموا بؤونة، وأبيب^(٢)، ومسرى^(٣)، والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو ﷺ، كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فكتب: إنك قد أصبت بالذي فعلت وإن الإسلام يهدم ما قبله، وإني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل، فلما قدم كتاب عمرو ﷺ إلى عمرو ﷺ؛ أخذ البطاقة ففتحها، فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير

(١) بؤونة: شهر من أشهر تقويم القبط (٨ يونيو-٧ يوليو). انظر: ويكيبيديا- الموسوعة الحرة- تقويم

القبط. <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢) أبيب: شهر من أشهر تقويم القبط (٨ يوليو-٦ أغسطس). انظر: ويكيبيديا- الموسوعة الحرة-

تقويم القبط. <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٣) مسرى: شهر من أشهر تقويم القبط (٧ أغسطس-٥ سبتمبر). انظر: ويكيبيديا- الموسوعة

الحرة- تقويم القبط. <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد؛ فإن كنتَ إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك؛ فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك، قال فألقى البطاقة في النيل فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم السبت وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تعالى تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم^(١).

الشُّبهة السَّابعة: اتهام عبدالرحمن الداخل بأنه أنشأ جامع قرطبة الشهر؛ لتحويل أنظار العرب عن مكّة.

يتضح ذلك في قوله: ((ولم يكد عبد الرحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانيا حتى أخذ يسعى في حمل العرب على اتّخاذ إسبانيا وطناً لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهر الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكّة))^(٢).

الرد على الشبهة:

هذا تحريف واضح من غوستاف لوبون للحقائق الثابتة في الإسلام، وتزييف في تفسير الأحداث التاريخية؛ بسبب سوء فهمه لها، وعدم استيعابه لهذه الأحداث، وجهله بالإسلام.

ورغم محاولات التجرد والموضوعية التي حاول فيها غوستاف لوبون دراسة الحضارة الإسلامية؛ إلا أن طبيعة دراسة الإسلام والمسلمين مهما كانت درجة التجرد والموضوعية فيها فإنها ((تستلزم توافر الانتماء العقدي فيها الذي يفرض جانباً كبيراً من التوثيق والتوثق

(١) اللالكائي: هبة الله بن الحسن، كرامات الأولياء، ص ١١٩. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٣٧٣/٦. المصري: أبو القاسم عبدالرحمن، فتوح مصر والمغرب، ص ١٧٦. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٢٩٤/٤.

والأثر عن ابن لهيعة، وهو مرسل. انظر: تعليق المحقق على الرواية في تفسير ابن كثير.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٧٤.

من الأخبار والروايات، والتثبت من مصادر المعلومات التي تكون عادة مادة دسمة لتقرير موقف ما يعين على الخروج بحكم على الإسلام)).^(١)

فإن المسلمين مهما اختلفت أمصارهم ودولهم وتباعدت أصقاعهم، ومهما كانت الخلافات بينهم، فكلُّهم يتَّجهون بصلاتهم نحو مكَّة، أي نحو الكعبة المشرفة، فلا يستطيع أمير، أو خليفة تحويل أنظار العرب عن قبلتهم، عن الكعبة المشرفة.

يقول شوقي أبو خليل: ((أخطاء كثيرة يقع فيها المؤلِّفون الغربيُّون نتيجة جهلهم بالإسلام، وجهلهم أحياناً بأسباب الحوادث التي يتعرَّضون لبحثها، والكتابة عنها، فحين يكتب (لوبون) وغيره عن عبد الرَّحمن الأموي، سليل خلفاء بني أميَّة في الشَّام، والذي حمل في التَّاريخ لقب عبد الرَّحمن الدَّاخِل (صقر قريش)؛ لأنَّه استطاع أن ينجو بنفسه من أيدي العبَّاسيِّين بعد نجاحهم بثورتهم وإحاطتهم بالحكم الأموي، واستيلائهم على السُّلطة والحكم، أقول بعد نجاح عبد الرَّحمن بالوصول إلى الشَّمال الإفريقي، ودخوله أرض الأندلس، حيث كانت جزءاً من الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة في عهد الخلافة الأمويَّة، ونجح بحكم الأندلس، وانفصل بها عند الدَّولة العبَّاسيَّة، وحين أنشأ جامع قرطبة الشَّهير ما أراد أن ينافس به العبَّاسيِّين في مساجدهم وقصورهم، بل أراد جامعاً يليق بإمارته الجديدة، يتناسب وحاضرة إمارته قرطبة، وما أراد أبداً، ولا خطر له ببالي أن يوجَّه أنظار العرب عن مكَّة، فهو لا يجرؤ على ذلك أولاً، وهو يعلم ثانياً أنَّ مكَّة المكرَّمة تأخذ شهرتها من كعبتها المشرفة، التي هي قبلة المسلمين مهما اختلف أمصارهم ودولهم وتباعدت أصقاعهم، ومهما كانت الخلافات بينهم، فكلُّهم يتَّجهون بصلاتهم نحو مكَّة، أي نحو الكعبة المشرفة، فلا يستطيع أمير، أو خليفة تحويل أنظار العرب عن قبلتهم، عن الكعبة المشرفة)).^(٢)

(١) النملة: علي، الاستشراق والدراسات الاستشراقية، ص ٢٢.

(٢) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٤٠-١٤١.

المبحث الثالث

انتشار الدعوة والثقافة الإسلامية في الأمصار

وتأثيرها على تلك الشعوب

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تقويم الحضارة ومدى ملائمتها لعبادة الله ﷻ

المطلب الثاني: تقويم غوستاف لوبون للدعوة الإسلامية وانتشارها وتأثيرها على الشعوب

المطلب الأول

تقويم الحضارة ومدى ملاءمتها لعبادة الله ﷻ

الكثير من المؤرخين لا يربطون بين الحضارة الإسلامية ومدى ملاءمتها لعبادة الله، ولكي نحكم على حضارة المسلمين لا ينبغي أن نحكم على المنجزات المادية لهذه الحضارة فقط؛ وإنما ينبغي أن ننظر إلى مدى تحقيقها للهدف الأساسي الذي وضعه الخالق ﷻ لخلقه؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ((الحضارة السامية في نظر المسلمين هي التي تهيئ الظروف السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والمادية، الملائمة لتوجه الإنسان نحو توحيد الله وإفراده بالعبودية والتزام تعاليمه في كل ألوان النشاط الذي يمارسه، دون أن تعيقه المؤسسات والأجهزة القائمة في المجتمع أو توقعه في التناقض بين "عقيدته" و"سلوكه" ودون أن تضغط عليه لتحرفه عن التزامه أمام رب العالمين. لذلك مهما تقدمت الحضارة في العلوم، والمعارف، والآداب، والفنون، ومهما تفننت في رياضة الدور والقصور، وفي الأثاث، واللباس، والطعام .. وفي تيسير الحياة المادية الرخية للإنسان، أقول مهما وصلت الحضارة في التقدم المادي فإنها تبقى في نظر المؤرخ المسلم "متخلفة" و"قاصرة" ما دامت لا تهيئ الظروف الملائمة لعبادة الله والوفاء بالالتزام بشرعه)).^(١)

الأغلبية العظمى من المؤرخين وبخاصة الغربيين إذا أرادوا أن يتحدثوا عن الحضارة الإسلامية، وأرادوا أن يبرزوا الجوانب الإيجابية منها؛ لكي يقال عن كتاباتهم أنها منصفة أو موضوعية، فإنهم يتناولون موضوعات تعتبر هامشية أمام الحضارة الإسلامية الحقيقية، فتجدهم يتناولون الأعراق، والأجناس، وطبائع الشعوب وعاداتهم، ونظمهم السياسية والاجتماعية، وطرق معيشتهم، ومواردهم، وعلومهم في اللغة، والفلسفة، والآداب، والشعر، والعلوم الطبية، والرياضيات، وعلم الفلك، والجغرافيا، والفيزياء وتطبيقاتها، والفنون، وفن العمارة، والتجارة.. ويركزون على القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويرون أنهما يمثلان أوج الحضارة الإسلامية.

(١) العمري: أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، ٣٦/١.

في حين أن المسلم يجب أن يرى أن صدر الإسلام هو الذي يمثل أوج الحضارة الإسلامية؛ لأنه أكثر ملاءمة لعبادة الله وتوحيده، فالحضارة الإسلامية الحقيقية هي ما كانت في عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة، وعصر التابعين، قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)^(١) لأن ذلك العصر كان أهله أكثر التزاماً بتعاليم الإسلام.

لكن المستشرقين والمثقفين الغربيين يخضعون في كتاباتهم لمقاييس وقيم وتصورات الحضارة الغربية، والتي تنبثق عن النظرة المادية؛ لذا فإنهم لا يتناولون الجوانب الإيمانية، وفي الغالب أنهم يتجاهلوها ويتجاهلون تأثيرها في الأمم والشعوب. والمنظور السائد في دراسة التاريخ هو المنظور الأوروبي، الذي قد يتوافق مع التاريخ الأوروبي، لكنه قاصر في التاريخ الإسلامي.

إذن؛ الحضارة الإسلامية الحقيقية هي ما صنعتها الأمة الإسلامية في مسارها الوثائق نحو الفتوح والتوسع، ونشر الإسلام، وتأليف القلوب، وتعمير الأرض، وإنشاء المصالح، وإقامة العدل.. حضارة تتفق ومقاصد الشريعة الإسلامية؛ فهي حضارة على مستوى الإسلام، حضارة تظهر من خلالها عزة الإسلام، وقوته، ومنعته، وقيمة رجاله الذين يحملون همّه من الخلفاء، والولاة، والقادة، والمحدثين، والفقهاء، والعلماء..

هذا الجانب هو الذي يجب أن يعنى به الباحثون والمؤرخون؛ عوضاً عن إبراز جوانب هامشية من التاريخ الإسلامي على حساب جوهر الحضارة الإسلامية، فإن ما جاء في الكتاب والسنة من تشريعات هو عماد حضارتنا، لأنه تشريع إلهي؛ بعكس ما عند الأمم الأخرى غير المسلمة، فإنها تعتمد على تشريعات بشرية فردية^(٢)، وبالتالي يكون منظورها للحضارة منظور بشري مادي صرف.

(١) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة زور إذا أشهد، رقم ٢٦٥٢، ١٧١/٣.

(٢) كشرائع الأديان المحرفة والمبدلة، وكشريعة حمورابي، وجستنيان، ونابليون.. وهذه الشرائع غالباً ما تفتى وتضمحل وتبطل وتتعارض.

المسلمون الأوائل أخذوا على عاتقهم نشر الإسلام وتبليغه للناس كافة؛ لأنهم عرفوا أن هذا الدين وهذه الحضارة لا تقتصر على شعب، أو عرق، أو جنس، أو بلد معين، وإنما هي رسالة عالمية قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال النبي ﷺ: (يا أيُّها النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى..).^(١) لذلك كان نشر الإسلام هو أحد أهم أهداف الدولة الإسلاميَّة، مما جعله ينتشر بسرعة في جميع أقطار المعمورة؛ وجعل عقول بعض المؤرخين تصاب بالذهول.

وذلك مصداق لقول النبي ﷺ: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأُمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَنْتَرِكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبْرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعِزٌّ عَزِيزٌ أَوْ بَدُلٌ ذَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ).^(٢)

يقول لوثرروب ستودارد^(٣): ((كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دُونَ في تاريخ الإنسان، ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة الكيان، وبلاد منحطَّة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض، مخترقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهادماً أدياناً قديمة كرت عليها الحقب والأجيال،

(١) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ٢٣٤٨٩، ٤٧٤/٣٨.

(٢) أخرجه ابن حنبل: أحمد بن محمد، المسند، رقم ١٦٩٥٧، ١٥٤/٢٨. وصححه الألباني: محمد ناصرالدين، السلسلة الصحيحة، رقم ٣، ٣٢/١.

(٣) لوثرروب ستودارد: (Lothrop Stoddard) (ت: ١٩٥٠م) مؤلف أمريكي يتميز بسعة اطلاعه على معطيات العالم الإسلامي الحديث. ويعد كتابه: (حاضر العالم الإسلامي) من أهم المؤلفات الحديثة التي عاجلت قضايا هذا العالم ومجريات أحداثه عبر النصف الأول من هذا القرن. وقد زادت قيمة علمية، التعليقات والإضافات الخصبة التي ألحقها الأمير شكيب أرسلان بطبعته العربية. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ١٩٢.

ومغيّراً ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراصاً الأركان، هو عالم الإسلام)).^(١)
وتقول لورا فيشيا فاغلييري^(٢) عن سرعة انتشار الإسلام: ((إنّ التاريخ لم يشهد قطُّ
ظاهرة مثل هذه من قبل، ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقّق بها الإسلام
فتوحه، والتي تحوّل بها من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمّسين إلى دين يؤمن به ملايين
الناس، ولا يزال العقل البشريّ يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السريّة التي مكّنت جماعة
من المحاربين الجفّة من الانتصار على شعوب متفوّقة عليها تفوّقاً كبيراً في الحضارة، والثروة،
والخبرة، والقدرة على شنّ الحرب)).^(٣)

ويعبّر غوستاف لوبون عن ذلك الحدث بقوله: ((والحقُّ أنّ هؤلاء القوم الشّجعان الذين
لبّوا دعوة محمد وغدوا أُمَّةً واحدة، أقاموا دولةً بلغت ما بلغته دولة الرُّومان من الاتّساع في
أقلّ من قرنين، وأنّ هذه الدّولة بدت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدّناً)).^(٤)

نعم هذا هو الدين الإسلامي وهذه هي حقيقة الحضارة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَعَدَ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا
وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

(١) ستودارد: لوثروب: حاضر العالم الإسلامي، ص ١.

(٢) لورا فيشيا فاغلييري (L. Veccia Vaglieri) باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ
الإسلامي قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وآدابها. من آثارها: (قواعد العربية) في جزأين (١٩٣٧-
١٩٤١)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام) (١٩٥٩)، والعديد من الدراسات في المجالات
الاستشراقية المعروفة. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٧٨.

(٣) فاغلييري: لورا فيشيا، دفاع عن الإسلام، ص ٢٢.

(٤) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٧٦.

المطلب الثاني

تقويم غوستاف لوبون للدعوة الإسلامية وانتشارها وتأثيرها على الشعوب

تحدّث غوستاف لوبون كثيراً عن الإسلام وانتشاره، وتأثيره على الأمم والشعوب، وذكر أن التسامح الإسلامي كان له الدور الأبرز في اعتناق الشعوب والأمم للإسلام، وأنه كان سبباً في ازدهار الحضارة الإسلامية، مما جعل الدولة الإسلامية أكثر الدول هيبة وتمدناً، وتحدّث عن أثر الإسلام والمسلمين على الأمم والشعوب، وكيف أنه أخرجها من الجهل والتخلف إلى العلم والتحضر والرقى.

رغم هذه الشهادات من غوستاف لوبون إلا أنه وقع كعادته في الكثير من الشبهات، والتناقضات، والأخطاء.. ويتضح ذلك في النقاط التالية:

أولاً: شهادات غوستاف لوبون للدعوة الإسلامية ومدى تأثيرها على الشعوب

يقرر غوستاف لوبون مدى انتشار الإسلام وحضارته؛ فيقول: ((وتسيطر الحضارة العربية منذ اثني عشر قرناً على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال أفريقيا الداخلية، وكان سكان هذه البلدان المتزامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون الآن بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة، ونظم واحدة، وفنون واحدة)).^(١)

ويعترف غوستاف لوبون بفضل الحضارة الإسلامية وعلومها على بقية الأمم، وأنه بفضلها تمدّنت هذه الأمم كأوروبا وغيرها مادةً وعقلاً وأخلاقاً، وأنه لم تكن لهم موارد علمية سوى مؤلفات المسلمين؛ فيقول: ((وكلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم وفنونهم؛ ظهرت لنا حقائق جديدة، وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٢٦.

الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قوم في الابتداع الفني)).^(١)

يرى لوبون أن وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان ساعد على انتشاره في العالم، واعتناق الكثير من الشعوب النصرانية له؛ بقوله: ((وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما تُفسر السبب في عدم تنصُر أمةٍ بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالباً أم مغلوباً)).^(٢)

قرر غوستاف لوبون أن الحضارات الأخرى كحضارة الآشوريين، والفرس، والمصريين، واليونان توارت تحت أعفار الدهر، ولم يبق منها سوى الأطلال وذكريات، في حين أن الشعوب من الهند إلى مراكش لم تنزل تنقاد للدين الإسلامي وحضارته؛ فيقول: ((وتأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالأشوريين، والفرس، والمصريين، واليونان، والرومان توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادات أديانها، ولغاتها، وفنونها، لا تكون سوى ذكريات، والعرب؛ وإن تواروا أيضاً، لم تنزل عناصر حضارتهم - وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم - حية، وينقاد أكثر من مئة مليون شخص مقيمين فيما بين مراكش والهند لشريعة الرسول)).^(٣)

(١) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦-٢٧.

يقرر أيضاً أن الشريعة الإسلامية ثبتت في الدول التي هُزم فيها العرب، ولا زالت تلك الأمم تدين بالإسلام، وتحدث بلغة القرآن؛ فيقول: ((..وثبتت أصول شريعة الرسول، وفنون العرب ولغتهم أينما حلت، ولم يدر في خلد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية لغة لهم، وتقهقرت أمام الإسلام في الهند ديانات قديمة، وجعل الإسلام مصر -الفراعنة القديمة التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل - عربية تامة العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وأفريقيا لهم سادة غير أتباع محمد فيما مضى، ولم يعرفوا لهم سادة غير مسلمين بعد أن رضوا بالإسلام ديناً)).^(١)

يعترف لوبون بأن النصارى في أوروبا تخلصوا من همجيتهم بسبب اتصالهم بالمسلمين العرب؛ بقوله: ((لا نعود إلى ما فصلناه في فصل سابق عن تأثير العرب الخُلقيّ في أوروبا، وإمّا نذكر أننا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين سنيورات النصارى وأشياع النبيّ في ذلك الزمن، وأنّ النصارى تخلّصوا من همجيتهم بفضل اتّصالهم بالعرب، واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم، وما تؤدّي إليه هذه المبادئ من الالتزامات، كمرعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود.. إلخ، ونذكر أننا في فصلنا عن الحروف الصليبيّة أنّ أوروبا النصارئيّة، كانت دون الشّرق الإسلامي أخلاقاً بمراحل، فإذا كان للدّيانات ما يُسند إليها من التأثير في الطبائع على العموم، أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى، التي تزعم أنّها أفضل منه على الخصوص)).^(٢)

يقرر لوبون أن التسامح الإسلامي كان سبباً في ازدهار حضارة العرب؛ بقوله: ((ويمكن القول إنّ التسامح الدّينيّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب)).^(٣)

(١) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٧٠.

ويقول أيضاً: «وبالعرب - لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأستراليين - أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرونٍ مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا».^(١)

يقرر أيضاً بأن الدولة الإسلامية بدت أكثر دول الأرض هيبه وتمدناً؛ بقوله: «والحقُّ أنَّ هؤلاء القوم الشُّجعان الذين لبَّوا دعوة محمد وغدوا أُمَّةً واحدة، أقاموا دولةً بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع في أقلِّ من قرنين، وأنَّ هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبهً وتمدناً».^(٢)

يتحدث عن حضارة العرب في الهند؛ فيقول: «وفي المدرسة العربية تمدن المغول، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متفني العرب وعلمائهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولة قويّة عربيّة المناحي، فأحلُّوا بذلك حضارة العرب محلَّ حضارة الهند القديمة، فترى سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتى اليوم».^(٣)

دفاعه عن المسلمين العرب بخصوص إحراق مكتبة الإسكندرية، واتهامه النصارى بأنهم هم من أحرق المكتبة؛ حيث أن هذا ليس من شيم المسلمين، وذلك في قوله: «وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجيّة التي تأبها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زماناً طويلاً؟، وهذه القصة دُحضت في زماننا، فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أنّ النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية، كالتى هدموا بها التماثيل و لم يبق منها ما يُحرق».^(٤) ثم قال: «ولما أصبحت النّصرانية دين الدولة الرسميّ أمر القيصر النّصراني

(١) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٣.

ثيودور، لا الخليفة عمر بن الخطاب، بإبادة معابدها - (أي: الإسكندرية) - وتمثيلها وكتبها الوثنية كما ذكرنا ذلك آنفاً).^(١)

رده على بعض المؤرخين الذين يقولون أن العالم تقرر مصيره بعد انتصار شارل مارتل على المسلمين في معركة بواتيه (بلاط الشهداء)، فلو غلب الفرنج، لكانت الأرض قبضة محمد ﷺ، فيقول: «ولكن لنفرض جدلاً أنَّ النَّصارى عجزوا عن دحر العرب، وأنَّ العرب وجدوا جَوْ شمال فرنسا غير بارد، ولا ماطر كجَوْ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوروبا؟

كان يصيب أوروبا النَّصرانية المتبررة مثل ما أصاب إسبانيا - الحضارة الزاهرة - تحت راية النَّبيِّ العربيِّ، وكان لا يحدث في أوروبا - التي تكون قد هُدِّبت - ما حدث فيها من الكبائر، كالحرب الدَّينيَّة، وملحمة سانت بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش، وكلِّ ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرَّجت أوروبا بالدماء عدَّة قرون.

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقاً ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرِّخ العالم^(٢) من أنَّ النَّشاط الذي يحفز النَّاس إلى التقدُّم ليس مما تجده في عبقرية المسلمين، ومن أن أوروبا والدنيا كانتا تخسران مستقبلهما.

فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النَّقد عندما يُعلم أنَّ التمدُّن اللَّامع حلَّ بالبلاد التي خضعت لأتباع الرِّسول محلَّ الهمجيَّة، وأنَّ النَّشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدُّم، لم يكن قوياً في أُمَّة مثل قوَّته في العرب).^(٣)

(١) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٢) وهو (هنري مارتن) في كتابه تاريخ فرنسا الشعبي. انظر: المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٧.

يقرّر غوستاف لوبون ويجزم أنّ للعرب أثراً بالغاً في تمدن الأقطار التي خضعت لسلطانهم؛ بقوله: ((وأنّ كلّ بلد خفقت فوقه راية النّبيّ تحوّل بسرعة فزدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصنّاعة والزّراعة أيّما ازدهار)).^(١)

يتعجب غوستاف لوبون من فعل رئيس الأساقفة الإسباني بحرقه كتب المسلمين ومخطوطاتهم في إسبانيا، ويقرر أن ما خلفه المسلمون يكفي لتخليد ذكركم إلى الأبد؛ بقوله: ((ظنّ رئيس الأساقفة الإسباني أكرميينيس أنّه بإحراقه ما قدر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محا ذكركم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانيا -حلا مؤلفاتهم- يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد)).^(٢)

ثانياً: شبهات وتناقضات غوستاف لوبون حول الدعوة والثقافة الإسلامية

الشُّبهة الأولى: تشكيكه في قدرات العرب الإبداعية وإمكاناتهم العلمية، وبأن العرب لم يخرجوا عباقرة، وأنهم دون الإغريق في كثيرٍ من المسائل.

يتضح ذلك في قوله: ((ظهر العرب رجالاً من الطراز العالي، كما تشهد بذلك اكتشافاتهم، ولكنني لا أظنّ أنّهم أخرجوا رجالاً عظماً كأولئك العباقرة الذين ذكرتهم^(٣)، والعرب كانوا دون الإغريق في كثيرٍ من المسائل، مساوين للرومان في الذكاء لا ريب، غير حائزين، إلّا لوقت قصير، ما كان سبباً في دوام فوز روما طويلاً من الصّفات الخلقية)).^(٤)

(١) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٣) ذكر نيوتن وليبنتز. المصدر السابق، ص ٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٦١٤.

الرد على الشبهة:

هذا القول أحد أقوال غوستاف لوبون الكثيرة التي يلقيها دون ذكر أي أدلة تثبت ما يقوله، فهلاً أتى لنا بدليل يثبت أن عظماء العرب أدنى من عظماء الإغريق والرومان في الذكاء؟ ألم يعترف غوستاف لوبون بإمكانات العرب وتفوقهم وإبداعهم؛ بقوله: ((وكلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم وفنونهم؛ ظهرت لنا حقائق جديدة، وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قوم في الابتداء الفني)).^(١)

فلماذا هذا التناقض؟ ألم يعترف لوبون بتأثير العرب العظيم على الأمم والشعوب، وأن آثار وعلوم الأمم الأخرى توارت ولم يبقى منها إلا الأطلال والذكريات؛ بقوله: ((وتأثير العرب العظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالأشوريين، والفرس، والمصريين، واليونان، والرومان توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادات أديانها، ولغاتها، وفنونها، لا تكون سوى ذكريات، والعرب؛ وإن تواروا أيضاً، لم تزل عناصر حضارتهم حية)).^(٢)

ألم يقر ويعترف غوستاف لوبون؛ بقوله: ((وبالعرب - لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأستراليين - أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلَّت ثمانية قرونٍ مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا)).^(٣)

أين عباقة الإغريق، وأذكىاء الرومان من هذه الحضارة، ومن هذه العلوم التي لا زال الغرب والشرق ينهل منها؟ ((كنّا نتمنى لو أنّ غوستاف لوبون أثبت صحّة قوله بأنّ العرب

(١) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦-٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٨.

دون الإغريق في كثير من المسائل، ببعض الأمثلة التي تقنع القارئ، فإنَّ ما كان يُعرف بالمعجزة اليونانية أصبح أسطورة اليوم أمام المعجزة العربية الإسلامية، والتي لا شكَّ أنَّها أخذت واقتبست من كلِّ الحضارات التي سبقتها، لكنها نقدت وصحَّحت وأضافت وأبدعت علومها كالمعجزة خلال فترة وجيزة من عمر الزَّمن)).^(١)

يقول الدو مييلي: ((إنَّ مقام العلم العربي.. لهو بالمكانة الأولى من الأهمية في تاريخ العلوم، لأنَّ هذا العلم العربي يكوِّن حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد. وإذا نحن لم نواجه ذلك العلم العربي ولم نتفهّمه فسنعجز فراغاً يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين حضارتنا الحديثة؛ وإذن ينبغي أن نجتهد في دراسته بعناية..)).^(٢)

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة^(٣): ((إنَّ الحضارة الإسلامية المبتكرة، لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية، أو الحضارة الهندية، إلَّا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس من الحضارتين البابلية والمصرية)).

لقد طوّر المسلمون بتجارهم وأبحاثهم العلميّة، ما أخذوه من مادّة خام عن الإغريق، وشكّلوه تشكيلاً جديداً، فالمسلمون - في الواقع - هم الذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التجربة.

(١) أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص ١٥٠.

(٢) مييلي: ألدو، العلم عند العرب، ص ١٠-١١.

(٣) زيغريد هونكة Sigrid Hunke (ت: ١٩٩٩م) مستشرقة ألمانية معاصرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمق في دراسة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. وقد قضت هونكة مع زوجها عامين اثنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية. من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانباً من الحضارة الإسلامية (١٩٩٥)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة. خليل: عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ص ٢٥١.

إنَّ المسلمين لم ينقذوا الحضارة الإغريقيَّة من الزَّوال وحسب، ونظَّموها ثمَّ أهدوها إلى الغرب، إنَّهم مؤسِّسو الطُّرق التَّجريبِيَّة في الكيمياء والطَّبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلاث وعلم الاجتماع، وبالإضافة إلى عددٍ لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفرديَّة في مختلف فروع العلوم، والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين، لقد قدَّم المسلمون أثمن هديَّة، وهي طريق البحث العلمي الصَّحيح التي مهَّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطَّبيعة وتسلُّطه عليها اليوم)).^(١)

الشُّبهة الثانية: الرَّعم بأن أكابر العرب السَّابقين دون أكابر الزَّمن الحاضر.

يتضح ذلك في قوله: ((إنَّ أكابر العرب السَّابقين دون أكابر الزَّمن الحاضر بما يستحقُّ الذِّكر، ولكن عرب الطُّبقات الوسطى السَّابقة مساويةٌ لأبناء طبقاتنا الوسطى المتمدِّنة الحاضرة على الأقل، وأرقى منها في الغالب)).^(٢)

الرد على الشُّبهة:

هذا أيضاً من تناقضات غوستاف لوبون، مرة يمدح وأخرى يتنقص.. وهكذا، وأحياناً؛ يختار المتتبع لكتابات غوستاف لوبون ويتساءل؛ ما الداعي لمثل هذه العبارات؟ وما المقصود منها؟ فهل لأنه لم يكن مقتنعاً بمدىحه وثنائه على العرب والمسلمين، أم لأن في النفس شيئاً آخر!!؟

والرد عليه سيكون من خلال كلامه؛ فهو يقول: ((إنَّ العرب أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النَّهضة أخلاقاً وثقافةً، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى في قرون كثيرة، مصدرراً غير مؤلفاتهم ومناهجهم، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل)).^(٣)

(١) هونكة: زيفريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٠٠-٤٠١.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦١٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦١٤.

ألم يقل غوستاف لوبون: ((فإذا كانت هنالك أُمَّة نُقِرُّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزَّمن القديم، فالعربُ هم تلك الأُمَّة، لا رهبانُ القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتَّى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثَّمينة اعترافاً أبدياً، قال مسيو ليبري: لو لم يظهر العربُ على مسرح التاريخ لتأخَّرت نهضة أوروبا في الآداب عدَّة قرون)).^(١)

الشُّبهة الثالثة: الزَّعم بأنَّ هارون الرَّشيد هو بطل رواية ألف ليلة وليلة.

يتضح ذلك في قوله: ((بلغت بغداد ذُرُوة الرِّخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرَّشيد الشَّهير)).^(٢)

وقوله: ((ونَهضت الفنون والعلوم والصَّناعة والتجارة بسرعة في زمن هارون الرَّشيد.. على الخصوص، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفنِّ يُشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة في أقاصي العالم، وأعطته القسطنطينية جزيةً)).^(٣)

الرد على الشُّبهة:

ألف ليلة وليلة ((مجموعة منوَّعة من القصص الشَّعبية، نصَّ ابن النَّديم في (الفهرست) أنَّها مترجمة من أصل فارسي اسمه (الهزار أفسان)، أي ألف خرافة، ويسمِّيها الإفرنج (الليالي العربيَّة)؛ لأنَّها ترجمت عن العربيَّة، لفقد الأصل الفارسي، وهي منتشرة بين أمم الأرض، لما فيها من قصص تلذُّ للنَّاس مطالعتها، فهم يرون فيها أجمل الغرائب، ويرون تنوُّع الأخبار التي تخاطب الطَّبع البشري الذي يميل إلى مطالعة المصادفات، والاتِّفاقات المدهشة، والأعمال الدَّالة على الشَّجاعة والبطش، مع أنَّ فيه من السَّفاهة والفساد ما يجعله كتاباً

(١) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٥٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٣.

خطراً جدّاً على الفتیان والفتیات.. فمن الثَّابِت أنَّ مادَّة ألف ليلة وليلة أخذها العرب من الفرس والهنود)).^(١)

غوستاف لوبون عالم كبير، ومؤرخ لتاريخ الشعوب، درس حضارة العرب بأدق تفاصيلها؛ لكنه يقع في أخطاء، وهفوات تجعل الحليم حيران، فكيف لعالم مثله أن ينسب قصص وخرافات وخیالات كتاب ألف ليلة وليلة لخليفة المسلمين هارون الرشيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟

كيف يتفق الغناء، والمجون، والفساد الأخلاقي مع شخصية رجل كان يحكم دولة من أقوى الدول، وأحسنها، وأكثرها حضارة، ووقاراً، ورونقاً، وأوسعها رقعة؟

هذا تشويه لتاريخ الخلفاء، وتشويه لتاريخ المسلمين والعرب، والمستشرقون وأذناهم اعتمدوا في دراساتهم وأبحاثهم على مثل هذه الكتب المليئة بالدس والكذب والافتراء على الإسلام والمسلمين، وإظهار تاريخ المسلمين بصورة مشوهة. ((كتاب (ألف ليلة وليلة)، وكتاب (كليلة ودمنة) وهما كتابان فارسيان هنديان في الأصل، أضيف إلى الأول إضافات كثيرة مما يرويهِ الرواة من أساطير، وأقاصيص، وخرافات ليست هي عملاً محققاً، ولا علماً موثقاً، فكيف يمكن أن تكون مصدراً يستند إليه في فهم الحقائق والتاريخ؟!)).^(٢)

إن من يريد أن يدرس تاريخ الإسلام فعليه بمصادر الإسلام الحقيقية ككتب ابن جرير وابن كثير وابن إسحاق ونحوها. أمّا كتاب ألف ليلة وليلة فهو ((كتاب ملفق، ولقيط، ولا مؤلف له، وقد جُمع في عصور مختلفة، وأغلب ما فيه مما يصور البيئات الاجتماعية قبل الإسلام في فارس والهند وبلاد الوثنية، ومن هنا؛ كانت خطورة المحاولات المتعددة التي جرت وتجري لاعتبار القصص الذي يضمه ممثلاً لحياة المسلمين بصفة عامة، بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر ألف ليلة عن أنه تراث إيراني هندي سابق للإسلام، وأنه لا يمثل مجال صورة

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية، ٩٣٣/٤ وما بعدها.

(٢) حمزة: عمر يوسف، الغزو الفكري في حياة المسلمين، مجلة مجمع الفقه الاسلامي التابع لمنظمة

المؤتمر الاسلامي، العدد: [٧]، ٢٢٣٥/٤.

المجتمع الإسلامي العربي أو مفاهيم الفكر الإسلامي)).^(١) والمنصف يعلم أن من يبحث عن الذهب والفضة والجواهر الكريمة لا يذهب إلى الحدّاد!!

الشبهة الرابعة: الزعم بأن حضارة العرب ماتت إلى الأبد بعد إبادة وتشريد النصارى للعرب في الأندلس.

يتضح ذلك في قوله: ((استولى فرديناند في سنة ١٤٩٢م على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة، وأخذ يمعن في قتلهم وتشريدهم جماعاتٍ جماعاتٍ، وسار خلفاؤه على سنّته، فقتل وشرد من العرب ثلاثة ملايين نفس، فخبث إلى الإبد شعلة حضارة العرب التي تُنير أوروبا منذ ثمانية قرون)).^(٢)

وقوله: ((ثقلت قرونٌ على أعفار العرب، ودخلت حضارتهم في ذمّة التاريخ منذ زمن طويل، ولا نقول، مع ذلك، إنهم ماتوا تماماً، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العام أكثر انتشاراً ممّا كانتا عليه في أنصر أدوارهم، فالعربيّة هي اللّغة العامّة من مراكش إلى الهند، ولا يزال الإسلام جاداً في تقدّمه)).^(٣)

الرد على الشبهة:

أخطأ غوستاف لوبون في قوله: "فخبث إلى الأبد شعلة حضارة العرب..". وقوله: "ودخلت حضارتهم في ذمّة التاريخ منذ زمن طويل.."، فإن الحضارة العربية الإسلامية لم تحب ولن تحبو، لأن هذا الدين لا يموت، ولا يرده كيد كائد، ولا يضعفه مكر ماكر، ولا تزيده الحن إلا قوّة وشدّة، وحال الإسلام اليوم خير شاهد على ذلك، فقد تعرّض الإسلام المسلمون إلى محن، ومصائب، وجروح غائرة على مر التاريخ؛ ولكنه يعود فتياً.

من الشواهد على ذلك في العصر الحاضر هو ما حصل لمسلمي الاتحاد السوفييتي الشيوعي من القتل، والتعذيب، والتهجير، والاضطهاد، والمحاولات لطمس هذا الدين، ولكن حينما

(١) آل سلمان: مشهور بن حسن، كتب حذر منها العلماء، ٥٨/٢.

(٢) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ١٤٧.

(٣) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦١٦.

شاخت الشيوعية، وأثبتت فشلها للعالمين، انتفضت الجمهوريات الإسلامية، وخرج من خرج من تلك الأقبية من حفظة القرآن الكريم؛ عندها؛ اندهشت روسيا وشهدت أن الإسلام لم يشخ، وأنه لا زال فتياً رغم الجراح، وأدرك الشرق والغرب أن الإسلام لا يموت. قال النبي ﷺ: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَنْتَرِكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ).^(١) وقوله ﷺ: قال: (لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).^(٢)

يقول ديورانت: ((إن الحضارة لا تموت ولكنها تهجر من بلد إلى بلد، فهي تغير مسكنها وملبسها، ولكنها تظل حية)).^(٣) ويقول مالك بن نبي: ((الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحوّلة إلى أفق شعب آخر)).^(٤)

غوستاف لوبون يتناقض ويقرر كلاماً يتعارض لما ذهب إليه؛ فيقول: ((نرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشاراً مما كانتا عليه في أنضر أديارهم، فالعربية هي اللغة العامّة من مراكش إلى الهند، ولا يزال الإسلام جاداً في تقدّمه... والسّهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم شاملةً للتّظر تماماً، فالمسلم أينما مرّ ترك خلفه دينه، فبلغ عدد أشياع النّبِيِّ ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة، لا فاتحين، كبعض أجزاء الصّين، وإفريقيا الوسطى وروسيا، وتمّ اعتناق هذه الملايين الإسلام طوعاً، لا كرهاً، ولم يُسمع أنّ الصّورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التّجار المبشّرين العرب لمساعدتهم، ويتّسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أيّ مكان...)).^(٥)

(١) سبق تخريجه، ص ٤٨٣.

(٢) سبق تخريجه، ص ٤٥١.

(٣) ديورانت: ول، قصة الحضارة، ٢١١/٨.

(٤) ابن نبي: مالك، شروط النهضة، ص ١٩.

(٥) لوبون: غوستاف، حضارة العرب، ص ٦١٦-٦١٧.

الخاتمة

وتتضمّن ما يلي:

- الخلاصة.
- نتائج البحث.
- توصيات الباحث.

خاتمة

أحمد الله عز وجل أن منّ عليّ بإتمام هذا البحث، أحمدده حمداً كثيراً على ما أنعم به وتفضل، وأسأله سبحانه أن يتقبله ويجعله نافعاً مفيداً لي، وللإسلام والمسلمين، ويعفو عما حصل فيه من تقصير وخطأ، إنه سميع مجيب.

وبعد؛ فقد تناولت في ثنايا أبواب وفصول هذا البحث موضوع:

المستشرق غوستاف لوبون وموقفه من الإسلام

وفي ختام هذا البحث يمكن إيراد العناصر التالية:

أولاً: خلاصة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة منهجية موضحة للنقاط التالية: موضوع البحث، وأسباب اختياره، وأهميته، وأهدافه، وتساؤلاته، وحدوده، والدراسات السابقة له، وخطة البحث، ومنهج البحث العلمي المتبع في كتابة البحث. بعد المقدمة المنهجية؛ قدمت بين يدي البحث تمهيداً؛ بينت فيه مفهوم الاستشراق، والتعريف بغوستاف وبكتابه (حضارة العرب).

بعد التمهيد؛ شرعت في كتابة أبواب الدراسة والتي انتظمت في خمسة أبواب، أحسب أنها تناولت العديد مما جاء في كتاب حضارة العرب من شبه، ومغالطات، وأخطاء، وطعون، مع عرضها ومن ثم الرد عليها، وكذلك العديد مما ورد فيه من شهادات إيجابية منصفة، مع عرضها والتعليق عليها.

جاءت أبواب الدراسة متنوعة فقد تناولت دراسة تقييمية لمنهج غوستاف لوبون وموقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية، ونظرة غوستاف لوبون تجاه مصادر الإسلام، وآراء غوستاف لوبون تجاه أحداث السيرة النبوية، ثم نظرة غوستاف لوبون لقضايا المرأة في الإسلام، وأخيراً؛ تقييم غوستاف لوبون لتاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية.

بعد ذلك أوردت خاتمة مختصرة للبحث، ثم ذيلت البحث بمجموعة من الفهارس

العلمية الفنية الموضحة له.

ثانياً: نتائج البحث:

هناك جملة من النتائج التي توصلت إليها من خلال دراسة كتاب (حضارة العرب)؛

منها:

أ- الأغلبية العظمى من المؤرخين وبخاصة الغربيين إذا أرادوا أن يتحدثوا عن الحضارة الإسلامية، وأرادوا أن يبرزوا الجوانب الإيجابية منها؛ لكي يقال عن كتاباتهم أنها منصفة أو موضوعية، فإنهم يتناولون موضوعات تعتبر هامشية أمام الحضارة الإسلامية الحقيقية، فتجدهم يتناولون الأعراق، والأجناس، وطبائع الشعوب وعاداتهم، ونظمهم السياسية والاجتماعية، وطرق معيشتهم، ومواردهم، وعلومهم في اللغة، والفلسفة، والآداب، والشعر، والعلوم الطبية، والرياضيات، وعلم الفلك، والجغرافيا، والفيزياء وتطبيقاتها، والفنون، وفن العمارة، والتجارة... ويركزون على القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويرون أنهما يمثلان أوج الحضارة الإسلامية.

ب- المسلم الحق يجب أن يرى أن صدر الإسلام هو الذي يمثل أوج الحضارة الإسلامية؛ لأنه أكثر ملاءمة لعبادة الله وتوحيده، فالحضارة الإسلامية الحقيقية هي ما كانت في عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة، وعصر التابعين، قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)^(١)، لأن ذلك العصر كان أهله أكثر التزاماً بتعاليم الإسلام.

ت- الكثير من المؤرخين لا يربطون بين الحضارة الإسلامية ومدى ملاءمتها لعبادة الله، ولكي نحكم على حضارة المسلمين لا ينبغي أن نحكم على المنجزات المادية لهذه الحضارة فقط؛ وإنما ينبغي أن ننظر إلى مدى تحقيقها للهدف الأساسي الذي وضعه الخالق ﷻ لخلقه؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ث- مهما تقدمت الحضارة في العلوم، والمعارف، والآداب، والفنون، والعمارة، وفي

(١) سبق تخريجه: ص ٤٨٢.

تيسير الحياة المادية الرخية للإنسان، ومهما وصلت الحضارة في التقدم المادي فإنها تبقى في نظر المؤرخ المسلم متخلفة وقاصرة ما دامت لا تهيب الظروف الملائمة لعبادة الله والوفاء بالالتزام بشرعه.

ج- معظم المستشرقين والمتقنين الغربيين يخضعون في كتاباتهم لمقاييس وقيم وتصورات الحضارة الغربية، والتي تنبثق عن النظرة المادية؛ لذا فإنهم لا يتناولون الجوانب الإيمانية، وفي الغالب أنهم يتجاهلونها ويتجاهلون تأثيرها في الأمم والشعوب، والمنظور السائد في دراسة التاريخ عندهم هو المنظور الأوروبي، الذي قد يتوافق مع التاريخ الأوروبي، لكنه قاصر في التاريخ الإسلامي.

ح- الحضارة الإسلامية الحقيقية هي ما صنعته الأمة الإسلامية في مسارها الوثائق نحو الفتوح والتوسع، ونشر الإسلام، وتأليف القلوب، وتعمير الأرض، وإنشاء المصالح، وإقامة العدل.. حضارة تتفق ومقاصد الشريعة الإسلامية؛ فهي حضارة على مستوى الإسلام، حضارة تظهر من خلالها عزة الإسلام، وقوته، ومنعته، وقيمة رجاله الذين يحملون همهم من الخلفاء، والولاة، والقادة، والمحدثين، والفقهاء، والعلماء..

خ- حاول غوستاف لوبون محاولات مضمينة للظهور بمظهر العالم المنصف لحضارتنا الإسلامية؛ إلا أنه وقع في نفس هفوات وأخطاء المستشرقين الذين كان همهم الأول وشغلهم الشاغل الطعن في الإسلام، والقرآن، والنبي ﷺ، فتراه يستخدم العبارات والنبزات نفسها التي كان يستخدمها المستشرقون لتشويه الإسلام. فهو يحلل النصوص والروايات والأحداث بعقليته الغربية؛ المستمدة عن الفهم القاصر والمغلوط الذي يجهل حقيقة الإسلام، هذا إن أحسن الظن به؛ وإلا فالهوى والبعد عن التجرد العلمي، والتلاعب بالمصطلحات والألفاظ، والتحريف في تفسير الأحداث، وعرضها عرضاً مشوهاً؛ كل ذلك تجده واضح وضح الشمس في أقواله.

د- يظن الكثير من المتقنين أن لغوستاف لوبون كلمة حق في الإسلام والمسلمين،

ولكن هذه الكلمة تاهت وسط المئات من الكلمات الحاقدة والمغرضة، وما قدمه غوستاف لوبون لنا في اعتقادي أنه لم يكن مقصوداً، ولم يكن غاية من غاياته، وإنما خدمة لنزعاته الدينية ومصالح دولته الاستعمارية؛ يظهر ذلك جلياً عند النظر لمنهجه في التأليف، ومخافته للمنهج العلمي بإهمال القواعد والأسس الأولية له، وإهماله المصادر الإسلامية الأصيلة، وهذا يخالف مبدأ الأخلاق الأكاديمية.

ذ- المنفحص لكتابات غوستاف لوبون يرى بوضوح التناقض والتمويه والتلبيس، والتظاهر بالموضوعية والاستيعاب، ثم دس السم في الدسم، وفق أسلوب يوحي بأنه يتسم بالجدّة والدقة والصحة، وهو ليس كذلك في الواقع.

ثالثاً: توصيات البحث:

من خلال معاشتي لموضوعات البحث، وقراءة كتب المستشرقين، والردود عليها، وإطلاعي على الكثير من كتب التاريخ الإسلامي سواء ما كتب بمنظور إسلامي أم ما كتب بمنظور غربي؛ فإني خلصت إلى أمور مهمة أوصي إخواني الباحثين بها؛ بصورة مختصرة؛ ومن أهمها ما يلي:

أ- أهمية العناية بالحضارة الإسلامية الحقيقية؛ وهي ما صنعته الأمة الإسلامية في مسارها الوثائق نحو الفتوح والتوسع، ونشر الإسلام، وتأليف القلوب، وتعمير الأرض، وإنشاء المصالح، وإقامة العدل.. حضارة تتفق ومقاصد الشريعة الإسلامية؛ فهي حضارة على مستوى الإسلام، حضارة تظهر من خلالها عزة الإسلام، وقوته، ومنعته، وقيمة رجاله الذين يحملون همّه من الخلفاء، والولاة، والقادة، والمحدثين، والفقهاء، والعلماء...

ب- الحذر من إبراز جوانب هامشية من التاريخ الإسلامي على حساب جوهر الحضارة الإسلامية، فإن ما جاء في الكتاب والسنة من تشريعات هو عماد حضارتنا، لأنه تشريع إلهي؛ بعكس ما عند الأمم الأخرى غير المسلمة، فإنها تعتمد على تشريعات بشرية فردية، وبالتالي يكون منظورها للحضارة منظور بشري مادي صرف.

هذا وبالله تعالى التوفيق

وصلّى الله وبارك على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

الفهارس

وتشتمل على:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأعلام المترجم لهم
- فهرس الأماكن والبلدان.
- فهرس الألفاظ الغريبة والمصطلحات العلمية.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الآية - السورة - رقمها	الصفحة
سورة البقرة	
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]	١٦٨-١٨٠
﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]	١٨٠
﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]	٤٥٣
﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]	٤٥٣
﴿أَفَتَضْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]	١٤٢
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٨٩]	٣٣٢
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]	١٤٣
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]	١٤٣
﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]	١٧٩
﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرِيُّ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]	١٤٣
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]	٢٣٥-٢٣٨
﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]	١٨٨-٢٣٥-٢٤٢
﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٤٥]	٢٤٢
﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]	٤٥٩
﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]	٢٥٤
﴿وَأذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]	٤٢٥
﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]	١٤٣
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٢]	٣٥٨

- ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ٣١٧-٣٧٠
- ﴿الطَّلُقَ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ٤٠٤
- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] ٢٠٣
- ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١] ٤٠٦
- ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ٤٧١
- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ١٤١-٤٦٧
- ﴿وَإِن تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ١٨٨
- ﴿ءَامَنَ الرُّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ١٨٩
- ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ١٨٩

آل عمران

- ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ٣٢٥
- ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] ١٤٠-١٤٣
- ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١] ١٤٢
- ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٢] ١٤٢
- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ٢١٣-٢٦٩
- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦] ٢٣٥
- ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ٢٣٥-٢٣٦
- ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ٣
- ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ٤٢٦-٤٣٠-٤٥٦

- ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] ٤٤٩
- ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ٤٥١
- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤] ٤٢٧-٤٢٥
- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ٤٧١
- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ٣٧١-٣٧٧

النساء

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [النساء: ١] ٣٧٠-٣
- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ [النساء: ٣] ٣٨٩-٣٩٠-٣٩٩
- ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] ٣١٧-٣٧٠
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِلْ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩] ٣٥٤-٤٠٢-٤٠٤
- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢] ٣٥٥
- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ٣٥٠
- ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ٣٧٢
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩] ١٤٣
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] ٤٥٤
- ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ [النساء: ١١٥] ٤٥٠
- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [النساء: ١٢٤] ٣١٧
- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] ٢٣٠

المائدة

- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] ٢٧٤-٢٦٩-٢١٣
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] ١٤٣
- ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] ١٧٢-١٧١-٥١
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرِيُّ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] ١٤٣
- ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ١٨٥
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] ١٧٤
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ١٧٤
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] ١٤٤
- ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرُّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] ١٤٤

الأنعام

- ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] ١٨٣
- ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ٢٧٤-٢٦٢-٢١٧
- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ٣٠٩
- ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ٣٢٦-٢٢٥
- ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] ٣٥٦
- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ١٤٦-١٤٥

الأعراف

- ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] ٣٢٥
- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ٢٩٤
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ٤٨٣
- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ٤٢٥
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ٣٧٠
- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ٢٦٥-١٨١

الأنفال

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] ٤٥٢
- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣] ٤٥٢
- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] ٤٥٢
- ﴿وَمَا التَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] ١٤٥
- ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦] ٤٢٦
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥] ٤٤٥
- ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦] ٤٥٧
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ [الأنفال: ٥٣] ٤٥٢
- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥] ٢٨٩
- ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦] ٢٨٩
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ٤٥٥-٤٥٤-٤٤٨

- ﴿مَا كَانَ لِتَيْبٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] ١٨٤
- ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] ١٨٤

التوبة

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرٌ أَبْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ٢٣١
- ﴿أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] ٢٣١
- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] ١٨٤
- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] ٤٥٦-٣١٧
- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] ١٨٤

يونس

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس: ١٥] ٢٦٥-١٨١
- ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] ٣٢٧-١٨٢
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ٣٢٩-٣٢٧
- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] ٣٢٧
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ١٤١

هود

- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] ٢٥٤
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] ١٤١
- ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] ١٤١

يوسف

- ﴿يَبْقَىٰ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] ٤٥٦
- ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ١٤١

الرعد

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ٤٥٢

الحجر

- ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ٢٨٧
- ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] ٢٦٥

النحل

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] ٣٥٧
- ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ [النحل: ٥٩] ٣٥٧
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] ٢٠٣
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [النحل: ٩٧] ٣١٧
- ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١] ١٧٧
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ١٦٩

الإسراء

- ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ٤٢٩
- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ٣٧٢-٣١٧
- ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] ٣١٧

- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] ٣٧٠-٣١٦
- ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] ١٨٤
- ﴿إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ لَاحِيَةً أَلْفِئَةً مَاتَ﴾ [الإسراء: ٧٥] ١٨٤
- ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ٣٢٣
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] ١٨٧
- ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْحِيَّةُ﴾ [الإسراء: ٨٨] ١٨٠

طه

- ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤] ٢٠٢

الأنبياء

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ١٧٢
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ٤٨٣

الحج

- ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] ٢٣٦
- ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠] ٤٧٢-٤٥١
- ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ٣٢٦-٢٢٥

المؤمنون

- ﴿وَلَيْنِ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمُ إِنَّكُمْ إِذَا لَّخَدِسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] ١٤١
- ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] ١٤١
- ﴿هِيَ هَاتِ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] ١٤١

- ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] ١٤١
- ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠] ١٤١
- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ١٤١
- ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢] ١٤١

النور

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١] ١٨٧
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا﴾ [النور: ٢٧] ٤٠٢
- ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] ٣٥٥
- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ [النور: ٥٥] ٤٨٤-٤٤٩

الفرقان

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكَ أَفْتَرْتَهُ وَءَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] ١٧٧
- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤] ٤٢٥

الشعراء

- ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] ٢٨٨

النمل

- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] ٣٢٩-١٨٣

القصص

- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ٣٢٦

العنكبوت

- ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ٤٥١
- ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ١٤٢
- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] ٢٩٣
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ٢٩٣-١٦٨
- ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] ٢٩٣-١٦٨
- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] ٢٩٦-٢٩٤
- ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] ٢٩٦-٢٩٤

الروم

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١] ٤١٣-٤٠٣
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] ٢٦١
- ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ٤٥١

السجدة

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة: ٣] ١٧٧

الأحزاب

- ﴿أَدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ٣٠٥
- ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ٣٠٩
- ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] ٢٩٠
- ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦] ٢٩٠

- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] ٢٩٠
- ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّإِزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] ٣١٠
- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٩] ٣١٠
- ﴿يَبْسِئَ النَّبِيُّ لِسَانًا كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ٣١٠
- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣] ٣١١
- ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ٣٠٥-١٨٤
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ٤٠٤-٤٠٢
- ﴿وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا أَكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨] ٣٧١
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] ٣
- ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١] ٣

سبا

- ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبا: ٨] ١٧٧
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [سبا: ٤٣] ١٧٧

فاطر

- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ٤٥١

الصفات

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] ٢٥٤

الزمر

- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ٣٢٤

فصلت

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] ٢٠٠

الشورى

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] ٢٧٠-٢١٣-١٧٦

الزخرف

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] ٣١٤

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفِدَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦] ٣١٤

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ١٧] ٣١٤

﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] ٣١٥-٣١٤

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنْتَاءً﴾ [الزخرف: ١٩] ٣١٥

الجاثية

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ١٤١

محمد

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ٤٥١-١٤٥

﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ١٨٠

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩] ٤٥١-٣٧١

الفتح

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] ٣٣٨

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] ١٩٠

- ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥] ١٩٠
- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦] ١٩٠
- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّعْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] ١٩٠
- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨] ٤٥٦

الحجرات

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ٤٥٦
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] ٣٧٠

الذاريات

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ٥٠٠-٤٨٢

الطور

- ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣] ١٨٠
- ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] ١٨٠-١٦٨

النجم

- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] ٢٩٤
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] ٢٩٤-١٨١
- ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] ٢٩٤
- ﴿الْكُفَّ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] ٣١٥
- ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢] ٣١٥
- ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦] ١٧٢

﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] ١٧٢

﴿الَّتِي تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: ٣٨] ١٧٢

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] ١٧٢

﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: ٤٠] ١٧٢

الحشر

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ٤٥٠

المتحنة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ [المتحنة: ١٠] ٣٧١

الصف

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦] ١٧٤

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩] ٤٥٦

الطلاق

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] ٤٠٤

التحريم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ١٨٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] ٤٠٢

الملك

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ٢١٣-٢٧١

القلم

- ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] ٢٨٨
- ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣] ٢٨٨
- ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ٢٨٨

الحاقة

- ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤] ١٨٤
- ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] ١٨٤
- ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦] ١٨٤
- ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] ١٨٤

الجن

- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا رَبًّا مَّوَدَّدًا﴾ [الجن: ٨] ٢٨٢
- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] ٢٨٢

المدثر

- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] ١٨٣

القيامة

- ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] ٢٠٢
- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] ٢٩٥-٢٠٢-٢٠١
- ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعُ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] ٢٩٥-٢٠٢-٢٠١
- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] ٢٠٢-١٨٩

عبس

- ١٨٤ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]
- ١٨٤ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]
- ١٨٤ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣]
- ١٨٤ ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٤]
- ١٨٤ ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَعْفَى﴾ [عبس: ٥]
- ١٨٤ ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس: ٦]
- ١٨٤ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٧]
- ١٨٤ ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [عبس: ٨]
- ١٨٤ ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: ٩]
- ١٨٤ ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١٠]
- ١٧٩ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]
- ١٧٩ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]
- ١٧٩ ﴿وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٥]
- ١٧٩ ﴿وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٦]

التكوير

- ٣٥٧ ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]
- ٣٥٧ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩]
- ١٨٥ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]

البروج

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] ٣٧١

الأعلى

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: ١٨] ١٧٢

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٩] ١٧٢

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	طرف الحديث والآثر
٣٨٩	١. اخْتَرْتُمْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا
٢٣٢	٢. اسْتَأْذَنْتِ رِيًّا فِي أَنْ أُرْوَرَ قَبْرَ أُمِّي
٣٧٣	٣. اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا
٣٥٨	٤. اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ
٤٤٨	٥. اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ
٤٦٠	٦. اغْرُؤُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
٢٤٦	٧. افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً
٤٥٧	٨. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ
٤٥٧	٩. الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ
٢٣٩	١٠. الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَأْفُوتَانِ مَنْ يَوَاقَيْتِ الْجَنَّةَ
٤٥٣	١١. إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقْرِ
٣٧١	١٢. إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا
٢٣٦	١٣. إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لِحَبَسِ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ
٤٥٤	١٤. إِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ
٤٢٥	١٥. إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ
٣٣٦	١٦. إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ
٢٦٠	١٧. إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ
٢٠٣	١٨. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الرَّعْمَانُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ
٤٢٧	١٩. إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ
٢١٧	٢٠. أَنْزَلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلُّ عِلْمٍ
٣٥٥	٢١. إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ وَعَشْرٌ
٢٠٤	٢٢. إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولَى، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي
٣١٠	٢٣. إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعَجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ

٢٤. إِيَّيْ رَسُوْلَ اللّٰهِ وَاَلَسْتُ اَعْصِيْهِ وَهُوَ نَاصِرِيْ ١٩٠
٢٥. اِيَّيْ لَأَعْلَمُ اَنَّكَ حَجْرٌ، مَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ٢٤٠
٢٦. اِنَّ اللّٰهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتِهِ ٢٥٤
٢٧. اِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ ٣٧١
٢٨. اَبْغَضُ الحَّلَالِ اِلَى اللّٰهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ ٣٥١-٣٦٧
٢٩. اَتَانِي جِبْرِيلُ فَاَمْرِيْ اَنْ اَضَعَ هَذِهِ الْاَيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ٢٠٣
٣٠. اَتَزَوَّجْتِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: اَبِكْرًا اَمْ ثَيِّبًا؟ ٣٠٣
٣١. اَتَى سَهِيْلٌ سَهْلَ اللّٰهِ اَمْرَكُمْ ٤٥٥
٣٢. اَتْرِيْدُوْنَ اَنْ تَقُوْلُوْا كَمَا قَالَ اَهْلُ الْكِتَابِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ١٨٩
٣٣. اَسَلَّمْتُ وَعِنْدِي ثَمَانِ نِسْوَةٍ ٣٨٩
٣٤. اَكْمَلُ الْمُؤْمِنِيْنَ اِيْمَانًا اَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ٣٥١-٣٦٦-٣٧٢
٣٥. اَنَّ الْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيْرَةَ جَاءَ اِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ١٨٣
٣٦. اَنَّ الْيَهُودَ كَانُوْا اِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيْهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوْهَا ٣٥٨
٣٧. اَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْحَاءٍ ٣٥٦
٣٨. اَنَّ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللّٰهِ بْنِ اَبِيْ اِبْنِ سُلُوْلٍ يُقَالُ لَهَا مُسَيِّكَةُ ٣٥٥
٣٩. اَنَّ رَسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ اَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ ٢٢٦
٤٠. اَنَّ رَسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ نَهَى عَنِ الشُّعَارِ ٣٥٧
٤١. اَنَّ غِيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ التَّقْفِيَّ اَسْلَمَ وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ٣٨٩
٤٢. اَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ ٣٦٨
٤٣. تَرَى الْمُؤْمِنِيْنَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ ٤٥٧
٤٤. حُبُّ اِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ ٨٦-٢٩٨
٤٥. خَرَجَ اَبُو طَالِبٍ اِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ ١٦٣-١٦٤
٤٦. خَرَجَ جَيْشٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ اَنَا اَمِيْرُهُمْ ٤٢٥
٤٧. خَرَجَ رَسُوْلُ اللّٰهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى اِذَا كَانُوْا بِبَعْضِ الطَّرِيْقِ ٣٣٦
٤٨. خَيْرُ النَّاسِ قَرِيْبِي ٤٨٢-٥٠٠
٤٩. دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّوْنَ نُسْبًا ٣٢٣
٥٠. رُوِيْدًا يَا اَهْلَ يَثْرِبَ، اِنَّا لَمْ نَضْرِبْ اِلَيْهِ اَكْبَادَ الْاِبِلِ ٣٣٣

٥١. شَهِدْتُ جِلْفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ ٢٦٦
٥٢. ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا ٢٠٣
٥٣. عَلَيْنُكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ٤٥٠
٥٤. فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النَّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ ٣٧٣-٤٠٣
٥٥. فَتَوَاتَبَتْ خُرَاعُهُ فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ ٣٤١
٥٦. فِيهِ خَبْرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَنَبَأٌ مَا بَعْدَكُمْ وَفَصْلٌ مَا بَيْنَكُمْ ١٨٣
٥٧. قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ٤٥٠-٤٥٤
٥٨. كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا ٤٦٠
٥٩. كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ١٨٨
٦٠. كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ٤٠٣
٦١. كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ ثُمَّ صَوَّبَهُ ٢٠٣
٦٢. كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَرُورُهَا ٢٣٢
٦٣. لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورًا عِيدًا ٢٣١
٦٤. لَا تَمْسَسْهُ، فَطُفْنَا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَمْسَسَهُ ٢٢٦
٦٥. لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ ٢٣١
٦٦. لَا تُطْرُقُونِي كَمَا أَطْرَقَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ٢٣١
٦٧. لَا عَدُوِي، وَلَا طَيْرَةٍ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ ٤٥٥
٦٨. لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ ٤٥١-٤٩٧
٦٩. لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ٢٣١-٢٣٣
٧٠. لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ١٦٥
٧١. لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ٤٤٨
٧٢. لَيُبْلَغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ٤٨٣-٤٩٧
٧٣. لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا ٣٠٧
٧٤. مَا فَتِنَا نَعْدَ النَّسَاءِ مِنَ الْمَتَاعِ ٣٥١
٧٥. مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَوْ مِنْ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ٣٢٩
٧٦. مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمَّكَ ٣٧٢
٧٧. مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا ٣٧٣

- ٧٨ . مَن كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ ٣٧٣
- ٧٩ . نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ ٢٤٠
- ٨٠ . نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ٤٥٠
- ٨١ . هَلْ تَزَوَّجْتَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَتَزَوَّجْ ٣٠١
- ٨٢ . وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ٢٣٦
- ٨٣ . وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ١٨٧
- ٨٤ . وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِرَ قَبْرُهُ وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا ٢٣٣
- ٨٥ . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ١٨٥-١٨٤
- ٨٦ . يَا ابْنَ أَخِي؛ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ ٢٠٣
- ٨٧ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ٤٨٣
- ٨٨ . يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ ابْنَتِي تُؤَيِّ عِنَّا زَوْجَهَا ٣٥٥
- ٨٩ . يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذًا وَكَذَا ١٨٧

فهرس الأعلام^(١)

رقم الصفحة	الاسم
٢٨٣	١. الآجري
٤٦٧	٢. آرثر ستانلي تريتون (ت)
٤٦٤-٢٠٨-١٩٧	٣. آرنولد: توماس (ت)
٧٥	٤. آسين
٢٤٠-٢٣٩-٢٣٨-٢٣٧-٢٣٥-١٧٨-١٧٠-٨٧	٥. إبراهيم <small>عليه السلام</small>
٤٢١-٣٢٥-٣٢٢-٢٨٣-٢٤١	
٧٦	٦. إبراهيم الكيلاني
١٣١	٧. أبو
٤٥٥-٤٥٣-٣٥٥-٣٤٢-٣٣١-٢٨٢-٢٠٤-١٦٦	٨. ابن الأثير
١٢٦	٩. أحمد خان
١٢١	١٠. الإدريسي
٣٤	١١. إدمون بيكار
٣٥	١٢. إدوارد برانلي
٢١٦	١٣. أرسطو
٣٥	١٤. إرسنت فلمازيون
٢٨٢	١٥. أسامة بن زيد <small>رضي الله عنه</small>
١٢٠-٤٥	١٦. إسترابون
٤١٢-٣٩٩-٣٨٩-٣٨٨	١٧. إسحاق تايلور (ت)
٤٩٥-٢٨٢-١٦٥-١٦٤	١٨. ابن إسحاق
٢٠٤-١٩٥-١٩٤-١٧٨-١٧٣-١١٢-١١١-٨٧	١٩. إسرائيل
٣٨٨	
٢٣٧-٢٣٥	٢٠. إسماعيل <small>عليه السلام</small>

(١) العَلَمُ المترجم له يُوضَع بعده حرف (ت) .

٢١. أسيد بن حضير رضي الله عنه ٣٥٨
٢٢. الأشعري أبو موسى ١٦٥-١٦٤
٢٣. الأفوه الأودي ٢٨١
٢٤. الألباني -٢٤٠-٢٣٩-٢٣٦-٢٣٢-٢٣١-٢٠٤-١٤٥-٨٦
-٣٥١-٣٣٣-٣٠٧-٢٩٨-٢٨٣-٢٨٢-٢٦٦-٢٤٦
-٤٤٩-٤٤٨-٤٢٧-٤٢٦-٣٨٩-٣٧٣-٣٧١-٣٦٨
٤٨٣-٤٥٥-٤٥٤-٤٥٣-٤٥١-٤٥٠
٢٥. إلبرت أينشتاين ٣٥
٢٦. إلبرت دلاتور ٣٥
٢٧. ألفار ٢٠٨-١٩٧
٢٨. الألمعي: زاهر ٣٠٦
٢٩. إلياس أفندي ٣٨
٣٠. أليس ويدنار ٣٥
٣١. امرأة فرعون ٣٧٩-٣١٣
٣٢. أمية بن أبي الصلت ٢٨١
٣٣. أميمة ٣٥٥
٣٤. أندريه ريموند ٧٧
٣٥. أنس بن مالك رضي الله عنه ٤٥٥-٤٤٨-٣٧٣-٣٥٨-٢٨٤-٢٢٦
٣٦. إنكتيل ١٣٠
٣٧. أنيس: إبراهيم ٥٧-٥٢
٣٨. أوس بن حجر ٢٨١
٣٩. أوليري: لاسي ١٦٨
٤٠. أوميروس ١٣١
٤١. أوين جونس ١٢٨-١٢٥-١٢٠-١١٨
٤٢. إيبير ٤٠٧-٣٩٤-١٢٤-١١٩
٤٣. إيزانبر ١٢٧
٤٤. باتيسيه ١٢٧

٢٥	بارت: رودي	.٤٥
٧٤	بارتارو	.٤٦
٩٨-١٠٦-١١٧-٢٩١-٣٦٤-٤٣٦	بارتملي سنت هيلر	.٤٧
٣٥	بارون موتونو	.٤٨
١٣٧-١٣٨-٣٧٣-٣٧٤-٤٥٥	ابن باز: عبدالعزيز	.٤٩
٢١٩	بالمار	.٥٠
١٦٦-١٦٧-١٦٨	بحيرا (ت)	.٥١
١١-١٨٧-١٨٨-١٩٠-٢٠٣-٢٠٤-٢٣١-٢٣٦	البخاري	.٥٢
٢٤٠-٢٤١-٢٥٤-٢٦١-٢٨٣-٣٠١-٣٠٣-٣١٠		
٣١٢-٣١٣-٣٢٢-٣٢٣-٣٢٩-٣٣٦-٣٤٢-٣٥١		
٣٥٤-٣٥٥-٣٥٦-٣٥٧-٣٦٣-٣٧٢-٣٧٣-٤٠٣		
٤٥٠-٤٥١-٤٥٥-٤٥٧-٤٨٢		
٣٤٣	بديل بن ورقاء	.٥٣
١٨٨	البراء بن عازب <small>رضي الله عنه</small>	.٥٤
١٢١	برتون	.٥٥
٨٠	برشيه	.٥٦
١٢٠	بركهارد	.٥٧
١٢٩	برنارد الخازن	.٥٨
٩-١٦٢-٣٤٠-٤٧٠	بروكلمان: كارل	.٥٩
٤٦٠	بريدة	.٦٠
١١٨-١٢٠-١٢٥	بريس الأفيني	.٦١
٢٨١	بشر بن أبي خازم	.٦٢
١٢٠	بطليموس	.٦٣
١١٢	بعل (ت)	.٦٤
٩٢-١٦٤-٢٤٤-٢٤٦-٢٤٧-٣١٢-٤٤٤-٤٥٣	أبي بكر الصديق <small>رضي الله عنه</small>	.٦٥
٤٦٦-٤٧١-٤٧٣		
٧٥	بلاثيوس	.٦٦

٦٧. بلاشير: ريحي (ت) ٢٠٥-١٩٥-٧٦
٦٨. بلال بن رباح رضي الله عنه ١٦٥-١٦٤
٦٩. بلغريف ١٢٠
٧٠. بلنت ١٣١-١٢٢
٧١. بنيتوا ماريو ٣٥
٧٢. بوازار: مارسيل (ت) ٤٦٦-٣٧٩-٣٦٦-٢٠٦
٧٣. بوت (ت) ٢٠٩-١٩٦-١٩١
٧٤. بودان ١٣٠
٧٥. بودلي: ر.ف ٣٣٩
٧٦. بورغوان ١٣١
٧٧. بوشيكي ٢١٨
٧٨. بوكاي: موريس (ت) ٢١٨-٢٠٧-١٩٦-١٩٥-٦٢-٩
٧٩. بول بينليف ٣٥
٨٠. بولس ٣٦٢
٨١. بيرو ١١٩
٨٢. البيضاوي ١٧٧
٨٣. البيهقي ٤٥٢-٣٧١-٣٤٣-٢٤١-٢٦٦-٢٢٧-١٨٦
٨٤. تاجاناتا جونسون ٢١٨
٨٥. تافرنيه ١٢٦
٨٦. ترتوليان ١٢٧
٨٧. الترمذي ٢٣٦-٢٤٠-٢٤٦-٣٥١-٣٦٨-٣٨٩-٤٤٨-٤٤٩-
- ٤٥١
٨٨. تريتون: آرثر ستانلي (ت) ٤٦٧
٨٩. تشرشل ٣٦
٩٠. أبو تمام ٣٢١
٩١. التهامي: عمر ١٧٨
٩٢. تويني: آرنولد (ت) ٤٦٨

٩٣. ابن تيمية ١٥٢-١٧٥-١٩١-١٩٢-٢٣٢-٢٣٣-٢٤٢-٢٤٥-
٢٤٦-٢٤٧-٢٤٩-٢٥١-٢٥٣-٢٧٥-٣٢٨
٩٤. الثعالبي ١٧١
٩٥. جابر بن عبدالله رضي الله عنه ٣٠٣-٣٣٩-٤٥٥
٩٦. جارودي: روجيه (ت) ٣٥٣-٣٨١-٣٨٢
٩٧. جاك دفييري ١٣٠
٩٨. جاكو ٨٠
٩٩. جايزر ١٢٧
١٠٠. جب: ه.أ.ر (ت) ٣٥٣
١٠١. الجبري: عبد المتعال ٢٦-٦٤
١٠٢. جبريل عليه السلام ٨٣-٨٦-٨٧-١٦٧-١٨٦-١٨٧-١٨٧-١٩٣-١٩٤-١٩٩-
٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٢٦-٢٨٤-٣٠٤-٣٠٨-٣١٢-
- ٣١٣
١٠٣. جحا: ميشال ٢٤
١٠٤. الجرجاني: علي ٢٢٧-٢٥٠
١٠٥. جستنيان (ت) ٩٣-٤٧٥-٤٨٢
١٠٦. أبو جعفر بن الزبير ٢٠٢
١٠٧. جمال: أحمد محمد ١٤٦
١٠٨. الجندي: أنور ٥٧-٤٩٦
١٠٩. الجهم بن صفوان ٢٥١
١١٠. ابن الجوزي: أبو الفرج ٢٨١-٤٧٨
١١١. جولد تسيهر ٧٥
١١٢. جولي سمسن ٢١٩
١١٣. جومار ٧٣
١١٤. جون براند ترند (ت) ٤٦٦
١١٥. جونس ١١٨-١٢٠-١٢٥-١٢٨
١١٦. الجوهرى: إسماعيل ٥١-٨٢-٩٣-٢٨٦-٢٩٠-
- ٣٠٠

- ١١٧ . جويرية ١٢٢
- ١١٨ . حيرار ١٢٨
- ١١٩ . جيرول دوبرانجه ٣٢٣
- ١٢٠ . الحاج: ساسي سالم ٣٨٩
- ١٢١ . الحارث بن قيس ٣٦٢-٣٦٠
- ١٢٢ . الحارثي: محمد قاسم ٤٢٧-٣٠٧-٢٩٨-٢٣٦-٢٢٦-١٨٣-١٦٤-٨٦
- ١٢٣ . الحاكم: محمد بن عبدالله ٤٢٦-٣٣٣-٣٠٧-٢٨٣-٢٣٩
- ١٢٤ . ابن حبان: أبوحاتم البستي ٣٠٢-٣٠٠
- ١٢٥ . أم حبيبة رضي الله عنها ٤٦٦-٢٠٥-١٩٦-١٦٢-٩
- ١٢٦ . حتى: فيليب (ت) ١٦٢
- ١٢٧ . حداد: يوسف ١٦٢
- ١٢٨ . الحريري: أبو موسى ٣٩٠
- ١٢٩ . ابن حزم الظاهري ٢٨٢
- ١٣٠ . حسان بن ثابت رضي الله عنه ٤٧٠
- ١٣١ . حسن: إبراهيم حسن ١٥٥
- ١٣٢ . حسن: محمد خليفة ١٤٨
- ١٣٣ . حسنة: عمر عبید ٦٣
- ١٣٤ . حسين: آصف ٥٨
- ١٣٥ . حسين: صبحي ناصر ٢٩٩
- ١٣٦ . حفصة بنت عمر رضي الله عنها ٢٣٩
- ١٣٧ . الحكمي: حافظ ٧٥
- ١٣٨ . الحلاج ٤٩٥
- ١٣٩ . حمزة: عمر يوسف ٤٨٢-٤٢٤
- ١٤٠ . حمورابي (ت) ٢٠٧
- ١٤١ . حنا: جورج (ت) -٢٧٤-٢٤٠-٢٣٢-٢٣١-٢١٦-٢٠٤-٢٠٣-٨٦
- ١٤٢ . ابن حنبل ٢٧٥-٢٧٨-٢٨٣-٢٩٨-٣٣٣-٣٤١-٣٥١-٣٧١-٤٨٣-٣٧٣

١٤٣. أبو حنيفة ٢٧٥-٢٧٤
١٤٤. خان: ظفر الإسلام ١١٢
١٤٥. خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ٨٥-١٦٢-١٦٤-١٦٥-١٦٦-٢٢٤-٢٩٩-٣٠٣-
- ٣١١
١٤٦. الخربوطي: علي حسين ١٣٦
١٤٧. ابن خزيمة ٢٣٩
١٤٨. خطاب: محمود شيت ٤٤٥-٣٤٦-٣٤٥
١٤٩. الخطابي: أبو سليمان ٣٧١-٢٤١
١٥٠. ابن خلدون ١٢٨
١٥١. خليل: إبراهيم (ت) ١٩٤
١٥٢. أبو خليل: شوقي ٩-١٠-١١-١٢-١٦٢-١٦٧-١٦٨-١٧٠-١٧١-
- ١٧٣-١٧٧-٢٠٠-٢٠١-٢١٤-٢١٦-٢١٧-٢١٩-
- ٢٢٩-٢٣٦-٢٦٢-٢٧١-٢٧٢-٢٨٧-٢٨٨-٢٩٢-
- ٢٩٥-٢٩٦-٢٩٩-٣٠٧-٣١٢-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٧-
- ٣٣٢-٣٣٩-٣٤٤-٤٤٦-٤٤٧-٤٧١-٤٧٤-٤٧٦-
- ٤٩٢-٤٧٩
١٥٣. خليل: عماد الدين ١٤٩-١٩١-١٩٤-١٩٥-١٩٦-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-
- ٣٥٢-٣٥٣-٣٦٧-٣٦٩-٣٨١-٣٨٢-٣٨٣-٣٨٤-
- ٤١١-٤١٣-٤٤٥-٤٦٤-٤٦٦-٤٦٧-٤٦٨-٤٨٣-
- ٤٩٢-٤٨٤
١٥٤. الخولي: البهي ٣٦١-٣٦٠
١٥٥. دابري دوترسان ١٢٣
١٥٦. الدارمي ١٨٣
١٥٧. داغر: يوسف أسعد ٥٥
١٥٨. دافيد ١٢٥
١٥٩. دالي ١٢٦
١٦٠. دانيال برثولو ٣٥
١٦١. داود: جرجس ١٦٢

- ٤٥٣-٣٨٩-٣٧١-٣٥١-٣٠٧-٢٤٦-٢٣١ . ١٦٢ أبو داود: السَّجِسْتَانِي
- ١٩٠-١٨٩-١٨٥-١٨١ . ١٦٣ دراز: عبدالله
- ٣٦٦-٣٥١-٢٩٩-٢٩٨-٢٠٩-٢٠٨-١٧٧-٧٧ . ١٦٤ درمنغم: إميل (ت)
- ٤٦٧-٣٦٧-٣٩٦-٣٨١-٣٨٠-٣٧٩-٣٦٧ . ١٦٥ الدسوقي: محمد
- ٥٨-٥٥ . ١٦٦ دفليه
- ١٢٩ . ١٦٧ الدميجي: عبدالله
- ٤٤٨ . ١٦٨ دو إمسيس
- ٤٠٧-٣٦٥ . ١٦٩ دو برسفان
- ٣٦٤ . ١٧٠ دو فوجاني
- ٣٩٥-٣٧٧-١٣١ . ١٧١ دو فوغيه
- ١٢٥ . ١٧٢ دو كانيكوف
- ١٢٦ . ١٧٣ دو لابرموديري
- ١٢٩ . ١٧٤ دو لابورد
- ١٢١ . ١٧٥ دو ويفالفي
- ١٢٧ . ١٧٦ دي كاستري: هنري (ت)
- ٣٩٨-٣٩٧-٣٩٦-٣٨٠-٣٦٧-٢٠٩-٢٠٨-٢٠٧ . ١٧٧ ديغول
- ٤١٠-٤٠٩ . ١٧٨ ديكارت
- ٣٦ . ١٧٩ ديلبه
- ٥٤ . ١٨٠ دينيه: إيتين (ت)
- ١٣٠ . ١٨١ الديوبندي: محمد
- ٤١٠-٣٩٧-٣٨١ . ١٨٢ ديودورس الصقلي
- ٣٢٢ . ١٨٣ ديورانت: ول (ت)
- ٤٥ . ١٨٤ الذهبي: شمس الدين
- ٤٩٧-٤٧٠-٣٨١-٣٦٨-٣٦٧-٣٥٢-٢٩٢ . ١٨٥ الرازي: فخرالدين
- ٣١٢-٣٠٧-١٨٣-١٦٤ . ١٨٦ الرافي: مصطفى
- ٣٠٦-٣٠٤-٢٤٢-٢١٦ . ١٨٠

- ١٨٧ . ابن رشد ٢١٦
- ١٨٨ . رشيد الدين ١٢٦
- ١٨٩ . رضا: محمد رشيد ١٧٤
- ١٩٠ . رضوان: عمر ١٨٦
- ١٩١ . روبرت ١٢٩
- ١٩٢ . روبرت ني ٣٥
- ١٩٣ . روبرتسون ٤٦٢-٤٤٠-١٢٤-٩٩
- ١٩٤ . روبير مانتران ٧٧
- ١٩٥ . روتا ١٢٢
- ١٩٦ . روجر الثاني ١٢١
- ١٩٧ . رودنسون: مكسيم (ت) ٢٥
- ١٩٨ . روز ماري هاو (ت) ٣٨٤
- ١٩٩ . روزفيلت ٣٦
- ٢٠٠ . روسله ١٢٦
- ٢٠١ . الرومي: فهد ٣٢٨
- ٢٠٢ . رياض بن غنم رضي الله عنه ٤٧١
- ٢٠٣ . ريتشارد: سودرن ٦٥
- ٢٠٤ . ريسلر: جاك (ت) ٣٩٨-٣٦٨-٢٠٦
- ٢٠٥ . ريموند داجيل ١٢٩
- ٢٠٦ . رين: ناتالي ٣٥٨
- ٢٠٧ . رينان ٤١٩-١٢٣-١١٩-١١٨
- ٢٠٨ . الزبيدي: الحسيني ٢٩٢-٨٢
- ٢٠٩ . الزرقاني ١٦٨
- ٢١٠ . الزركشي: بدر الدين ٢٠٤-٢٠٢
- ٢١١ . الزركلي: خير الدين ١٩٧
- ٢١٢ . زقزوق: محمود ١٥٣-١٤٧-١٤٦-٧٢-٦٦-٢٣
- ٢١٣ . الزمخشري: أبو القاسم ٤٥٥-٣٠٤

٢١٤. الزهري ٢٨١-٣٣٨-٣٣٩
٢١٥. الزيادي: محمد فتح الله ٧١-٧٩
٢١٦. زيد بن أرقم رضي الله عنه ٣١١
٢١٧. زيد بن حارثة رضي الله عنه ٨٦-٢٢٦-٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧-٤٣٧
٢١٨. زيد بن عمرو بن نفيل ٢٢٦-٢٨٢
٢١٩. أبو زيد: نصر حامد ١٧٨
٢٢٠. زيدان: جرجي ٩-٤٧٠
٢٢١. زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها ٣٥٤-٣٥٥
٢٢٢. زينب بنت جحش رضي الله عنها ١٩٣-٣٠٠-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦
٢٢٣. زينب بنت خزيمة رضي الله عنها أم المساكين ٣٠٠
٢٢٤. سالي مارش (ت) ٣٨٤-٤١٣
٢٢٥. السامرائي: فاروق ٥٢
٢٢٦. السامرائي: قاسم ٦١-٧١-٧٢-١١٦
٢٢٧. سانت بارتملي ١٠٦-٤٨٩
٢٢٨. سان برنارد ١٣٠
٢٢٩. السايح: أحمد عبدالرحيم ١٤٩
٢٣٠. السباعي: مصطفى ٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٣٥٩
٢٣١. سباه ١٣١
٢٣٢. سبأ ٤٢١
٢٣٣. ستالين ٣٦
٢٣٤. ستودارد: لوثرروب (ت) ٤٨٣-٤٨٤
٢٣٥. السحيم: محمد بن عبدالله ٢١٧-٣٧٠
٢٣٦. أبو السعادات: مجد الدين ٢٠٤-٢٨٢-٣٤٢-٣٥٥-٤٥٣-٤٥٥
٢٣٧. سعد بن معاذ رضي الله عنه ٢٩١-٢٩٢
٢٣٨. ابن سعد: محمد ١٦٤-١٦٥-٣٠٦
٢٣٩. السعدي: إسحاق ٧١-١٤٠-١٤٧-١٤٨
٢٤٠. السعدي: عبدالرحمن ١٤٢-٢٠٣-٢٢٥-٢٣٥-٣١١-٤٠٣
٢٤١. سعيد بن جبير ٣٠١

- ٢٤٢ . سعيد: إدوارد ١٤٧-٧١-٢٣
- ٢٤٣ . السفاريني: محمد بن أحمد ٣٢٧
- ٢٤٤ . أبو سفيان ٣٠٠
- ٢٤٥ . سلاكس ١٢٧
- ٢٤٦ . سلفستر دو ساسي (ت) ٧٤-٧٢-٦١
- ٢٤٧ . آل سلمان: مشهور ٤٩٦
- ٢٤٨ . أبو سلمة رضي الله عنه ٣٥٤
- ٢٤٩ . سمايلوفيتش ٧١-٢٥
- ٢٥٠ . السمعاني، أبو المظفر ٣١٦
- ٢٥١ . سنوك ٧٥
- ٢٥٢ . سهيل بن عمرو ٤٥٥
- ٢٥٣ . السهيلي: أبو القاسم ٢٩٠-٢٣٨
- ٢٥٤ . سودة بنت زمعة رضي الله عنها ٣٠٣-٣٠٠
- ٢٥٥ . سوسه: أحمد (ت) ٤١١-٤١٠-٣٦٨-٣٥٢
- ٢٥٦ . سولون ١٣١
- ٢٥٧ . سيديو: لويس (ت) ٤٧٠-٣٦٩-١٢٨
- ٢٥٨ . سيرج موسكوفيسي ٣٥
- ٢٥٩ . ابن سيناء ٢١٦
- ٢٦٠ . السيوطي: جلال الدين ٢٢٧-٢٠٤-٢٠٢-١٦٥
- ٢٦١ . شارل بيلا ٧٧
- ٢٦٢ . شارل مارتل (ت) ٤٨٩-١٠٣
- ٢٦٣ . شارلكن ٤٦٢-٤٤٠-١٢٤-٩٩
- ٢٦٤ . شارم ١٣١
- ٢٦٥ . الشاطبي ٢٦١-٢٤٥
- ٢٦٦ . الشافعي ٢٧٥-٢٧٤
- ٢٦٧ . شاعر: محمود محمد ٦٧
- ٢٦٨ . شانوليون ١٢٣

- ٢٦٩ . شتا: أبو سعد ٣٨٨
- ٢٧٠ . الشرقاوي: محمد ٦٤
- ٢٧١ . شليمان ١٢٢
- ٢٧٢ . الشنقيطي: محمد الأمين ٤٤٦
- ٢٧٣ . الشهرستاني: محمد ٢٥١-٢٥٠-٢٤٧-١٦٦
- ٢٧٤ . الشوكاني: محمد بن علي ٢٨٨
- ٢٧٥ . شولسون داين ٣٥
- ٢٧٦ . ابن أبي شيبة: أبو بكر ١٨٣
- ٢٧٧ . آل الشيخ: عبدالعزيز ٤٢٥
- ٢٧٨ . شيفر ١٢١
- ٢٧٩ . الصابوني: أبو عثمان ٢٥٢
- ٢٨٠ . صادق بك ١٢١
- ٢٨١ . صادق رستم ٣٨
- ٢٨٢ . الصباغ: محمد لطفي ٧٣
- ٢٨٣ . صبرة: عفاف ٢٤
- ٢٨٤ . الصفدي: صلاح الدين ٤٥٩
- ٢٨٥ . صفرونيوس ٤٤٣
- ٢٨٦ . صفية □ ٣٠٢-٣٠٠
- ٢٨٧ . صلواتي: ياسين ٣٦
- ٢٨٨ . الصيفي: (حيص بيص) ٤٥٩
- ٢٨٩ . صيني: سعيد ٥٣
- ٢٩٠ . أبو طالب ١٦٧-١٦٥-١٦٤-١٦٣
- ٢٩١ . الطبراني: سليمان بن أحمد ٤٥٤-٣٧١
- ٢٩٢ . الطبري: محمد بن جرير ١٤٦-١٨١-١٨٣-١٨٦-٢١٧-٢٤١-٣٠٤-٣٠٦-
- ٢٩٣ . الطحاوي: أبو جعفر ٤٧٣-٤٧١-٣٥٤-٣١٦
- ٢٩٤ . طقوش: محمد سهيل ٣٤١-٢٦٦ ٤٤٧

٢٩٥. أبو الطيب المتنبي ٧٦
٢٩٦. الطيباوي: عبداللطيف ٧٢
٢٩٧. عاشور: سعيد عبد الفتاح ٤٧٥
٢٩٨. عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٨٦-٨٧-١٨٤-١٨٧-١٩٤-٢٣٣-٢٩٩-٣٠٨-
٣١٠-٣١١-٣١٢-٣١٣-٣٥٦-٤٣٧
٢٩٩. عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٥٨
٣٠٠. ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١٨٣-١٨٦-٢٨١-٣٠١-٣٥٤
٣٠١. عبد القيس ١٦٦
٣٠٢. عبد الحميد: محسن ١٣٧
٣٠٣. عبد الرحمن البرقوقي ٣٨
٣٠٤. عبد الرحمن الداخل ٩٥-٤٧٨-٤٧٩
٣٠٥. عبد الرحمن الغافقي ٩٥
٣٠٦. عبد الرحمن بن يزيد ٢٠٤
٣٠٧. عبداللطيف: عبدالشافي ٤٤٧
٣٠٨. عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٠٣
٣٠٩. عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٠٣-٤٥٥
٣١٠. عثمان: عبدالرؤف ٢٣٢-٣٢٦
٣١١. ابن عثيمين: محمد ٢٨٩
٣١٢. العجلان: عبدالله ٢٧٠
٣١٣. العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٥٠-٤٥٤
٣١٤. ابن العربي: محمد ٣٠٧
٣١٥. عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٥٦
٣١٦. ابن أبي العز: الحنفي ٢٥٣-٢٩٤
٣١٧. ابن عساكر: علي بن الحسين ١٦٥
٣١٨. العسقلاني: ابن حجر ١٦٥-٣٠١-٣٠٦-٣٢٩-٣٣٠-٣٣٨
٣١٩. عشتروت (ت) ١١٢
٣٢٠. العشي: عرفات كامل ١٩١-١٩٦-٢٠٩-٣٨٤-٣٨٥-٤١٤

- ٣٥٦ . ٣٢١. العظيم أبادي: محمد شمس
- ١٣٦ . ٣٢٢. العفاني: أبو تراب
- ٣٦٠ . ٣٢٣. عفيفي: محمد الصادق
- ٣٧٣ . ٣٢٤. عقبة بن عامر رضي الله عنه
- ١٨٦ . ٣٢٥. عقبة بن أبي معيط
- ٢٥٦-٢٤٦ . ٣٢٦. العقل: ناصر
- ٧٦-٥٦ . ٣٢٧. العقيقي: نجيب
- ٥٢ . ٣٢٨. عليان: ربحي
- ٢٠٨-٢٠٥-١٩٥-١٩٠-١٠٤-١٠٢-١٠٠-٤٦ . ٣٢٩. عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ٣٦٦-٣٥٤-٣٥١-٢٩٩-٢٤٧-٢٤٦-٢٤١-٢٤٠
- ٤٧٥-٤٧٣-٤٦٣-٤٦٢-٤٤٨-٤٤٣-٤٤٠-٤٢٧
- ٤٨٩-٤٧٧-٤٧٦
- ٤٧٧-٤٧٦-٤٤٧-٤٤٣-٤٢٥-٣١١-٩٤ . ٣٣٠. عمرو بن العاص رضي الله عنه
- ٣٤٣-٣٤٢ . ٣٣١. عمرو بن سالم الخزاعي
- ٤٨١-١٦٧ . ٣٣٢. العمري: أكرم ضياء
- ٤٥٦-٤٥٣-٤٥٠-٤٤٩ . ٣٣٣. العوايشة: حسين بن عوده
- ٣٩٢ . ٣٣٤. عودة: عبدالقادر
- ٢٨١ . ٣٣٥. عوف بن الخرع
- ٢٨١-٢٨٠-٢٠٨-١٧٩-١٧٤-١٧٣-٩٨-٨٧ . ٣٣٦. عيسى عليه السلام
- ٤٢٣-٣٣٠-٢٨٣
- ٢٤١ . ٣٣٧. العيني: بدر الدين محمود
- ٢٦ . ٣٣٨. غراب: أحمد عبدالحميد
- ١٢٦ . ٣٣٩. غراسين دوتاسي
- ١٢٢ . ٣٤٠. غرو تندن
- ٤٣٠ . ٣٤١. الغضبان: منير
- ١٢٧ . ٣٤٢. غليوم الصوري
- ٣٥-٣٠-٢٨ . ٣٤٣. غوفير: كاثرين

- ٣٤٤ . غيران ١٣١
- ٣٤٥ . غيلان بن سلمة الثقفي ٣٨٩
- ٣٤٦ . الفارابي ٢١٦
- ٣٤٧ . ابن فارس: أحمد ٢٢-٥١-٢٤٤-٢٤٥
- ٣٤٨ . الفاضل: محمد ٢٩٢
- ٣٤٩ . فاغليري: لورا فيشيا (ت) ٤٨٤
- ٣٥٠ . فتح الله البيروني ٣٨
- ٣٥١ . فترشتاين ١٣٠
- ٣٥٢ . فرايتاج ٧٩
- ٣٥٣ . فرج: توفيق حسن ٣٥٩
- ٣٥٤ . فرديناند (ت) ٩٣-٤٩٦
- ٣٥٥ . فريث ١٢٦
- ٣٥٦ . فريسكو بالدي ١٢٧
- ٣٥٧ . فلاندان ١٢٥
- ٣٥٨ . فلايشر ٧٩
- ٣٥٩ . فلهاوزن: يوليوس ١٢٦
- ٣٦٠ . فلوجل ٧٦
- ٣٦١ . الفوزان: صالح بن فوزان ٣٩١
- ٣٦٢ . فوغيه الفيكونت ١٣٠
- ٣٦٣ . فياردو ١٢٨
- ٣٦٤ . الفيروز أبادي ٢٢-٥١-٩٣
- ٣٦٥ . فيكتور هوغو ١٢٩
- ٣٦٦ . فينست روبيو ٣٥
- ٣٦٧ . القاضي: عبد الجبار ٢٥٢
- ٣٦٨ . قتادة ٣٥٦-٤٢٦
- ٣٦٩ . ابن قتيبة ٢٨١
- ٣٧٠ . القرطبي: محمد بن أحمد ٣٥٥

- ٣٧١ . القرعاوي: محمد ٢٣٢
- ٣٧٢ . القس مور ٧٤
- ٣٧٣ . قطب الدين الحنفي ١٢٦
- ٣٧٤ . القنوجي: أبو الطيب ٣٢٨
- ٣٧٥ . القوسي: مفرح بن سليمان ٥٢
- ٣٧٦ . ابن قِيم الجوزية ٤٥٣-٤٥٢-٤٤٩-٤٣٢-٣١٣-٣٠٤-٢٣٨
- ٣٧٧ . قبيلة بنت كاهل ٣٣١
- ٣٧٨ . كارتز ١٢٣
- ٣٧٩ . كازيميرسكي ١٢٤
- ٣٨٠ . كاستون موش ٣٥
- ٣٨١ . كاهن: كلود ٧٧
- ٣٨٢ . ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل ١٢٤-١٦٤-١٦٦-١٦٩-١٧١-١٨٣-٢٢٥-٢٤٢
- ٣٨٣-٣٨٢-٣١٦-٣١٥-٣٠٩-٣٠٦-٣٠٥-٢٩٤-٢٨٢
- ٣٨٤ . كرم: يوسف ٥٤
- ٣٨٥ . الكندي: أبو الحسن ٤٥٢
- ٣٨٦ . كوير ١٣١
- ٣٨٦ . كوبولد: إيفيلين (ت) ٣٨٣-٣٨٢
- ٣٨٧ . كوت ٤٥٢-٤٣٢-٣١٢-٢٧٠-١٢٢
- ٣٨٨ . كورادين ١٢٩
- ٣٨٩ . كوربا ٣٥
- ٣٩٠ . كوسان ٣٦٤
- ٣٩١ . كوست ١٣٠-١٢٦-١٢٠-١١٨
- ٣٩٢ . كونده ١٢٨
- ٣٩٣ . كويليام: عبدالله (ت) ٤١٢-٤١١-٣٩٩-٣٨٩
- ٣٩٤ . كيث مور ٢١٨
- ٣٩٥ . كيلا موسو ٣٦

١٢٥	٣٩٦ .	لابلاس
٣٦	٣٩٧ .	لاروس
١٢٢	٣٩٨ .	لاري
٤٧٨-٢٥٢-٢٤٦	٣٩٩ .	اللالكائي: هبة الله بن الحسن
٤١٣-٤١٢-٣٨٣	٤٠٠ .	لايتنر (ت)
١١٥	٤٠١ .	اللبان: إبراهيم
٤٧٨	٤٠٢ .	ابن لهيعة
٤٠٠-٣٩٩	٤٠٣ .	لوازون
.....	٤٠٤ .	لوبون: غوستاف
١٣١	٤٠٥ .	لوته
١٢٤	٤٠٦ .	لوثر
٤٨٤-٤٨٣	٤٠٧ .	لوثروب ستودارد
٤١٣	٤٠٨ .	لوقا: نظمي (ت)
٧٧	٤٠٩ .	لويس جارديه
٧٥	٤١٠ .	لويس ماسنيون (ت)
٤٧٠	٤١١ .	لويس: برنارد
٧٥	٤١٢ .	لي شاتيليه
٤٩٠-٩٢	٤١٣ .	ليبتنر
١٣١-١٢٢	٤١٤ .	ليدي بلنت
٤٧٢	٤١٥ .	الماتريدي: أبو منصور محمد
٤٥١-٣٧٣-٣٦٨-٣٥١-٢٤٦-٢٣٦	٤١٦ .	ابن ماجه: أبو عبدالله القزويني
٤٧٠	٤١٧ .	ماجد: عبد المنعم
١٢٥	٤١٨ .	مارسيل
٣٨٢	٤١٩ .	ماري مونتكاد
١٢٤	٤٢٠ .	ماريت
٢٧٥-٢٧٤	٤٢١ .	مالك بن أنس
٣٦٠	٤٢٢ .	مانو
٣٦	٤٢٣ .	ماو

- ٤٢٤ . المأمون ٨٢
- ٤٢٥ . مبارك: زكي ٥٦
- ٤٢٦ . المجمعي: محمد موسى ١٧٣
- ٤٢٧ . محمد بن سعود ٢٥٥
- ٤٢٨ . محمد علي باشا ٧٣-٦٧
- ٤٢٩ . مريم ابنة عمران ٣٧٩
- ٤٣٠ . مسيروا ١١٩
- ٤٣١ . ابن مسعود رضي الله عنه ٣٢٣-٢١٧-٢٠٤-١٤٦
- ٤٣٢ . المسعودي ١٢٣
- ٤٣٣ . مسلم: أبو الحسين بن الحجاج ١٨٥-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-٢٢٦-٢٣١-٢٣٢-٢٣٦-٢٤٠-٢٦١-٢٨٤-٣١١-٣٥٥-٣٥٨-٣٧٢-٣٧٣-٤٠٣-٤٢٥-٤٥٧-٤٦٠
- ٤٣٤ . مسلم: مصطفى ٣٢٨
- ٤٣٥ . المسيح عيسى عليه السلام ٨٧-٩٨-١٧٣-١٧٤-١٧٩-١٩٤-٢٠٨-٢٨١-٢٨٠-٢٨١-٢٨٣-٢٨٣-٢٩٥-٢٩٦-٣٣٠-٣٣٠-٣٧٩-٤١١-٤١٢-٤٢٣-٤٧٤
- ٤٣٦ . مسيكة ٣٥٥
- ٤٣٧ . مسيو لوبله ٤٧-١٣٠-١٣٢-٣٩٣
- ٤٣٨ . المصري: أبو القاسم عبدالرحمن ٤٧٨
- ٤٣٩ . المصري: جميل عبدالله ٤٧٠
- ٤٤٠ . مطبقاني: مازن ٧٣-٤٠٥
- ٤٤١ . ابن المطرز: أبو الفتح ٤٧٤
- ٤٤٢ . المطيري: عبدالمحسن ١٨٥-١٩١-١٩٧
- ٤٤٣ . معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ٤٣٠
- ٤٤٤ . معلوف: لويس ٣٦
- ٤٤٥ . المغذوي: عبدالرحيم ١٩-١٤٠
- ٤٤٦ . المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ٤٥١
- ٤٤٧ . المقرئ ١٢٧
- ٤٤٨ . المكين ٢٥

- ٤٤٩ . المناوي: محمد بن عبدالرؤوف ٥٧-٤٥٥
- ٤٥٠ . المنجد: صلاح الدين ٥٦
- ٤٥١ . ابن منظور: محمد بن مكرم ٥١-١٨٠-٢٤٤-٢٤٥-٢٨١-٢٨٣
- ٤٥٢ . مورفي ١٢٨
- ٤٥٣ . موسى عليه السلام ١٧٣-١٩٢-٢٨٠-٢٨٩-٣٢٥-٣٣٠-٣٨٨-٣٨٩
- ٤٥٤ . أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ١٦٤-١٦٥
- ٤٥٥ . موسوليني ٣٥-٣٦
- ٤٥٦ . مولوخ (ت) ١١٢
- ٤٥٧ . موتان ٨٠
- ٤٥٨ . مونتجمري وات ١١٥-٣٢٣-٣٤٠
- ٤٥٩ . ميشود ١٠٠-١٢٤-٤٤٠-٤٦٢
- ٤٦٠ . ميسرة ١٦٥-١٦٦-١٦٧
- ٤٦١ . ميمونة رضي الله عنها ٨٦-٣٠٠
- ٤٦٢ . ميلبي: ألدو (ت) ٤٦٤-٤٩٢
- ٤٦٣ . نابليون ٦٧-٧١-٧٢-٧٤-٤٨٢
- ٤٦٤ . ناصر خسرو ١٢١
- ٤٦٥ . ابن نبي: مالك ٢٤-٤٩٧
- ٤٦٦ . النجار: شكري ٢٤
- ٤٦٧ . النجدي: سليمان بن سحمان ٢٤٠
- ٤٦٨ . النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد ٨٦-٢٢٦-٢٩٨
- ٤٦٩ . نسطور (ت) ٨٢-١٦٣-١٦٥-١٦٦-١٦٧-٤٣٧
- ٤٧٠ . النضر بن الحارث ١٨٦
- ٤٧١ . أبو نعيم: أحمد بن عبد الله ١٦٤-١٦٥-١٨٣-٢٢٧
- ٤٧٢ . نفيسة ١٦٥
- ٤٧٣ . النملة: علي إبراهيم ٢٤-٢٥-٦٢-٧٨-١١٤-٤٧٩
- ٤٧٤ . نورمان دانييل ١١٦

- ٤٧٥ . نولدكة: تيودور ١٧٨
- ٤٧٦ . النووي: يحيى بن شرف ٤٠٣-٢٤١
- ٤٧٧ . نيبوهر ١٢٠
- ٤٧٨ . نيوتن ٤٩٠-٩٢
- ٤٧٩ . هارون الرشيد ٤٩٥-٤٩٤-٩٤
- ٤٨٠ . هاليفي ١٣٢
- ٤٨١ . هتلر ٣٦
- ٤٨٢ . هراس: محمد خليل ٢٤٥
- ٤٨٣ . هراوي: حسين ٥٨
- ٤٨٤ . الهروي: القاسم بن سلام ٢٩٠
- ٤٨٥ . أبو هريرة رضي الله عنه ٣٧٢-٣٢٩-٣٠٧-٢٤٦-١٨٨
- ٤٨٦ . ابن هشام: عبد الملك ٣٤٣-٣٣٩-٣٣٧-٣٢٣-٢٩٠-١٨٦
- ٤٨٧ . هنري لاوست ٧٧
- ٤٨٨ . هنري مارتن ٤٨٩-١٢٩-١٠٣
- ٤٨٩ . هورخرونيه ٧٥
- ٤٩٠ . هونكة: زيغريد (ت) ٤٩٣-٤٩٢
- ٤٩١ . هيردر ١٢٢-١١٨
- ٤٩٢ . هيرودتس ١٢٣
- ٤٩٣ . هيبه ٢١٩
- ٤٩٤ . وافي: علي عبد الواحد ٣٨٨
- ٤٩٥ . الواقدي ١٢٥
- ٤٩٦ . والين ١٢١
- ٤٩٧ . وزان: عدنان محمد ٢٥
- ٤٩٨ . الوليد بن المغيرة ١٨٣
- ٤٩٩ . وهبة: مراد ٥٤
- ٥٠٠ . ويلز: هربرت جورج ١٧٧
- ٥٠١ . يهوه ١١٢

٥٠٢ . يوسف: محمد السيد ٤٤٨-٤٤٩

٥٠٣ . يوسف: مولاي ٧٦

فهرس الأماكن والبلدان

الصفحة	البلد
٢٨-١٠٥-١١٢-٢١٣-٢٧٠-٣٥٢-٣٦٨-٤٢٠-٤٨٨-٤٩١	١. آسيا
٤٧٥	٢. آسيا الصغرى
٣٥٣	٣. آسيا الوسطى
٤٩٦	٤. الاتحاد السوفيتي
٣٤٦-٣٤٥	٥. أحد
٤٢-٩٥-١٠٣-١٠٨-١٠٩-١١٨-١٢٠-١٢٩-٣١٧-٣٦٤	٦. إسبانيا
٤٢٧-٤٢٩-٤٤١-٤٦١-٤٦٦-٤٧٨-٤٨٩-٤٩٠	
١٠٢-١٦٦-١٩٤-٤٢٥-٤٨٨-٤٨٩	٧. الاسكندرية
١٠٨	٨. إشبيلية
٨٠-١٥٦-٤٨٥-٤٨٧-٤٩٧	٩. إفريقيا
٢٨-٢٩-٤٢	١٠. إفريقيا الشمالية
٥٧	١١. إنجلترا
٧٣-٤٩٥	١٢. إيران
٥٧	١٣. إيطاليا
٤٧٣-٤٧٥	١٤. إيلياء
٥٧-١٩٧	١٥. ألمانيا
٣٨-٧١-٩٣-١٠٠-١٠٧-٣٦٤-٤٤٠-٤٦٣-٤٦٥-٤٧٩	١٦. الأندلس
٤٩٦	
١٦-٢٤-٢٥-٢٨-٢٩-٤٠-٤١-٤٢-٥٧-٦٤-٦٥-٧١	١٧. أوروبا
٧٢-٩٣-٩٩-١٠٣-١٠٤-١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩	
١١٠-١١١-١١٥-١١٦-١٤٦-١٥٦-٢١٣-٢١٨-٢٧٠	
٣١٨-٣٤٧-٣٤٨-٣٦٤-٣٧٥-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٨-٣٨٠	
٣٨٢-٣٨٣-٣٩٢-٣٩٣-٣٩٥-٣٩٩-٤٠٠-٤٠٦-٤١١	

-٤٨٧-٤٨٦-٤٨٥-٤٧٣-٤٦٧-٤٦٢-٤٤٠-٤٢٣-٤٢٠	
٤٩٦-٤٩٤-٤٩١-٤٨٩-٤٨٨	
٤٣٦-٢٨٤-٤٧٥٢٧٩	١٨ . بادية بني سعد
٤٢٣-٣٩٧-٣٨٠-٧٦-٧٥-٧٤-٧٢-٧١-٣١-٢٩-٢٨	١٩ . باريس
٤٨٥-١٢٧	٢٠ . البحر المتوسط
٣٣٩	٢١ . بدر
٣١	٢٢ . بران
٣٩٧-٣٨٠	٢٣ . برلين
٤٣٧-١٦٥-١٦٣-٨٢	٢٤ . بصرى
٤٩٤-٤٧٣-٩٤-٤٢	٢٥ . بغداد
٤٢١	٢٦ . بلاد الحجر
٣٣٥-٩٠	٢٧ . البلد المقدس
٩٥	٢٨ . بوردو
٤٢٣	٢٩ . بيروت
٤٧١	٣٠ . بيزنطة
٣٣-٣١-٢٩	٣١ . تاترس
٣٨٢-٧٥-٧٣	٣٢ . تركيا
٩٥-٢٨	٣٣ . تورز
٢١٨	٣٤ . تورنتو
٣٣٩	٣٥ . تيماء
٤٧٩-٤٧٨-١٢٨-٩٥	٣٦ . جامع قرطبة
١٢٩	٣٧ . جبل كاسينو
٧٥-٧٤	٣٨ . الجزائر
٢٩	٣٩ . جزر الهند
-٤١٨-٣٤٣-٣٣٩-٣٢٢-٣٢١-٢٦٩-٢٥٥-٢١٢-٤٥-٤١	٤٠ . جزيرة العرب
٤٤٧-٤٢١-٤١٩	
٤٢٩-٢٠٨-١٦٤-١١٩	٤١ . الحبشة
٤٢١-٣٨٢-٣٣٩-٣٢٢-٧٥	٤٢ . الحجاز

٤٣	الحديبية	٩٠-١٩٠-٣٣٤-٣٣٥-٣٣٦-٣٣٨-٣٣٩-٣٤١-٣٤٢-
		٣٤٣-٤٥٥
٤٤	الحمراء	١٢٥
٤٥	الحيرة	٢٥٦-٤٢١
٤٦	الخنديق	٣٣٩-٣٤٤-٤٤٥
٤٧	خيبر	٩٠-١٤٦-٣٣٤-٣٣٥-٣٣٧-٣٣٩-٣٤٠-٤٣٧-٤٤٥
٤٨	الدار البيضاء	٧٦-١٩٥
٤٩	الدولة الحميرية	٤٢١
٥٠	دولة الغساسنة	٤٢١
٥١	الرباط	٧٦-١٩٧
٥٢	رمال إفريقيا	٤٨٥
٥٣	روسيا	٥٧-٤٩٧
٥٤	روما	٩٢-٣٥٣-٣٦٠-٣٨٢-٤٩٠
٥٥	سبأ	٤٢١
٥٦	السعودية	٢٥٥-٢٥٦
٥٧	سوريا	٤٢-٧٦-٨٢-٩٢-١١٢-١٢٥-١٦٣-٤٤٤-٤٤٦-٤٦١-
		٤٦٤-٤٧٣
٥٨	سومر	٢٩
٥٩	الشرق الأوسط	٢٩-١١٢
٦٠	شيكاجو	٢١٩
٦١	صقلية	٤٢
٦٢	الصين	٢٤-١٢٣-١٥٦-٤٩٧
٦٣	العراق	٣٥٢-٤٢١-٤٤٦
٦٤	غرناطة	٩٣-١٠٧-٤٩٦
٦٥	فدك	٣٣٩
٦٦	فرنسا	٢٩-٣١-٣٤-٣٨-٤٢-٥٧-٦٧-٧١-٧٣-٧٤-٧٥-٧٩-
		٨٠-٩٥-١٠٣-١٢٩-٣٨٢-٣٩٨-٤١١-٤٨٩
٦٧	فلسطين	١١١-١٢٧-٤٧٤

٣٩٥-١٣١-١٢٥-٧٥-٣٨-٨	القاهرة	.٦٨
-٤٦٣-٤٦٢-٤٤٣-٤٤٠-١٨٨-١٣٠-١٠٤-١٠٠-٧٥	القدس	.٦٩
٤٧٦-٤٧٤		
٤٧٩-٤٧٨-٤٦٦-١٢٨-١٠٨-٩٥	قرطبة	.٧٠
٤٩٤-٤٨٦-٤٧٣-٤٦٥-٤٤٤-٤٣٩-٩٧-٩٤	القسطنطينية	.٧١
٢١٨	كندا	.٧٢
٧٦-٧٥	لبنان	.٧٣
٤٦٧-٤٦٦-٣٩٧-٣٨٢-٣٨٠-٣٥٣-١٩٧	لندن	.٧٤
٢٨	ليغوترو	.٧٥
٤٨٥	المحيط الأطلنطي	.٧٦
٤٨٥	المحيط الهندي	.٧٧
-٢٩٠-٢٣٠-٢٢١-٢٠١-١٩٠-١٨٦-١٦٨-٩٠-٨٤-١٩	المدينة	.٧٨
٣٦١-٣٤٦-٣٤٠-٣٣٩-٣٣٧-٣٣٦-٣٣٥-٣٣٢-٣١١		
٤٩٧-٤٩٦-٤٩٢-٤٨٦-٤٦٦	مراكش	.٧٩
-٤٤٣-١١٩-١١٢-٩٤-٧٥-٧٤-٧١-٦٧-٤٢-٣٨-٣٧	مصر	.٨٠
٤٨٧-٤٧٨-٤٧٧-٤٧٦-٤٧٢-٤٦٤-٤٦٢-٤٦١		
٤٧٨-٣٦٧-٢٠٧-١٩٥-٧٥-٧٣	المغرب	.٨١
٧٣	المغرب الأقصى	.٨٢
٣٨	مغن لقوكيت	.٨٣
-١٨٧-١٨٦-١٦٩-١٦٥-١٦٤-١٦٢-٩٥-٩١-٩٠-٨٩	مكة	.٨٤
-٢٣٦-٢٣٥-٢٣٤-٢٣١-٢٣٠-٢٢٧-٢٢٦-٢٠٤-١٩٠		
-٣٣٢-٣٣١-٣٢٣-٣٢٠-٣١١-٢٨٧-٢٣٩٢٦٦-٢٣٧		
-٣٨٢-٣٤٣-٣٤٢-٣٤١-٣٣٩-٣٣٧-٣٣٦-٣٣٥-٣٣٤		
٤٧٩-٤٧٨-٤٤٥-٤٣٧-٣٩٤		
١٠٥	منطقة القبائل الكبرى	.٨٥
٣٥-٢٩	موسكو	.٨٦
٤٤٦	مؤتة	.٨٧
٢٥٥-١٣١-١٢٢	نجد	.٨٨

٣٢-٢٩	٨٩ .	نيبال
٥٧	٩٠ .	هولندا
-١٠٢-١٠١-١٠٠-٨٧-٤٥-٤٢-٣٨-٣٣-٣٢-٢٩-٢٤	٩١ .	الهند
-٢٧٠-٢٢٩-٢٢٨-٢٢٢-٢١٣-٢١٢-١٩٧-١٧٠-١٥٦		
-٤٨٨-٤٨٧-٤٨٦-٤٨٥-٤٦٧-٤٦٣-٤٤١-٤٢٩-٤٢٧		
٤٩٧-٤٩٦-٤٩٥-٤٩٢		
٣٣٩	٩٢ .	وادي القرى
٣٣٣-٣٣٢-٣٣١-٢٩٠-٩٠-٨٩	٩٣ .	يثرب
٤٦٧-٤٢١-٣٣١-٢٣٦-١٣٢-٩٠-٨٩	٩٤ .	اليمن

فهرس الألفاظ الغربية والمصطلحات العلمية

الصفحة	الكلمة
٤٧٧	١. أيب
٢٢	٢. استشرق
٢٨٢	٣. أطم
٢٤٤	٤. أهل
١١٢	٥. بعل
٤٧٧	٦. يؤونة
٢٠٤	٧. تلاد
٢٤٥	٨. جماعة
٣٥٥	٩. حفش
٩٣	١٠. خبت
٢٤٤	١١. سنّة
٤٥٣	١٢. شصوص
٤٧٤	١٣. صنوج
٢٩٢	١٤. صياصي
٣٤٢	١٥. ضغن

٢٢٦	ظفر	.١٦
٢٨١	طنب	.١٧
٤٥٥	طيرة	.١٨
٢٠٤	عتاق	.١٩
٤٥٥	عدوى	.٢٠
١١٢	عشترت	.٢١
٤٥٣	عينة	.٢٢
٤٥٥	فأل	.٢٣
٣٤٢	كراع	.٢٤
٤٧٧	مسرى	.٢٥
٥٧	معنوي	.٢٦
١٨٠	مولد	.٢٧
١١٢	مولوخ	.٢٨
٨٢	نسطور	.٢٩
٥١	نھج	.٣٠
٨٤	هوس	.٣١
٢٩٠	وتغ	.٣٢
٢٨٢	يفعة	.٣٣

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب

١. الآجري: محمد بن الحسين، الشريعة، تحقيق: عبدالله بن عمر الدميحي، دار الوطن، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٢. آرنولد: توماس، الدعوة إلى الإسلام، (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ترجمه وتعليق: حسن إبراهيم حسن ورفاقه، الطبعة: الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١.
٣. ابن الأثير: عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٤. ابن الأثير: على بن أبي الكرم، أسد الغابة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٥. أحمد: مهدي رزق الله، مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات بودلي في كتابه «الرسول، حياة محمد» دراسة نقدية، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
٦. ابن إسحاق: محمد، السيرة النبوية، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٧. الأشعري: أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٨. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح فقه السيرة للغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.
٩. الألباني: محمد ناصر الدين، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، دار باوزير، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.
١٠. الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض.

١١. الألباني: محمد ناصر الدين، السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض.
١٢. الألباني: محمد ناصر الدين، إرواء الغليل، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٣. الألباني: محمد ناصر الدين، أحكام الجنائز، المكتب الإسلامي، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١٤. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد، دار الصديق للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٥. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الترهيب والترغيب، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الخامسة.
١٦. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٧. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى.
١٨. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح أبي داود، مؤسسة غراس، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٩. الألباني: محمد ناصر الدين، مشكاة المصابيح، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.
٢٠. الألمعي: زاهر بن عواض، مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزینب بنت جحش، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٦هـ.
٢١. أنيس: إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، استانبول-تركيا، المكتبة الإسلامية، الطبعة: الثانية.
٢٢. أوليري: لاسي، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة: وهيب كامل، راجعه: زكي علي.
٢٣. بارت: رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)، ترجمة د. مصطفى ماهر، دار

- الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢٤. ابن باز: عبدالعزيز بن عبدالله، مجموع فتاوى ابن باز، جمع: محمد بن سعد الشويعر.
٢٥. البخاري: خلق أفعال العباد، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار المعارف السعودية، الرياض.
٢٦. البخاري: محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٢٧. البخاري: محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، إشراف: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن.
٢٨. البخاري: محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢٩. بدوي: عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ط٣. دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، بيروت.
٣٠. بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة، سنة ١٩٦٨م.
٣١. بلاشير: ريجي، القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ترجمه رضی سعاده، تحقيق ومراجعة: محمد علي الزغبى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.
٣٢. بلاشير: ريجي، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق - ١٩٧٣م - ١٩٧٤م.
٣٣. بوازار: مارسيل، إنسانية الإسلام، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الأدب، بيروت، ١٩٧٤م.
٣٤. بوكاي: موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.
٣٥. بوكاي: موريس، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، القاهرة.
٣٦. البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبدالله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل،

- تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى: ١٤١٨ هـ.
٣٧. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
٣٨. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٣٩. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد - مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
٤٠. الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر - محمد فؤاد عبدالباقي - إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٤١. تريتون: آرثر ستانلي، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، الطبعة: الثانية، سلسلة المكتبة التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧ م.
٤٢. أبو تمام: حبيب بن أوس، ديوان الحماسة، الطبعة: بدون.
٤٣. التميمي: محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.
٤٤. التهامي: عمر، القرآن والمستشرقون، بحث ضمن: جماعة من العلماء: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتب التربية العربي، الرياض ١٩٨٥ م.
٤٥. توينبي: آرنولد، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، راجعه: محمد شفيق غربال - أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، ١٩٦٠ هـ.

٤٦. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبدالكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٤٧. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.
٤٨. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، التدمرية، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: السادسة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٤٩. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن - عبدالعزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٥٠. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، النبوات، تحقيق: عبدالعزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٥١. تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الوصية الكبرى في عقيدة أهل السنة والجماعة، تحقيق: أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود، مكتبة ابن الجوزي، الإحساء، الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ.
٥٢. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٥٣. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزائر، دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٥٤. ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٥٥. الثعالبي: أبو زيد عبدالرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت،

الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٥٦. الجارودي: روجيه، وعود الإسلام، ترجمة، ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة، بيروت، ١٩٨٤ م.
٥٧. جب: ه.أ.ر، المحمدية، لندن، ١٩٥٣ م.
٥٨. الجبري: عبد المتعال محمد، الاستشراق الفكري وجه الاستعمار الفكري، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٥ م، الطبعة: الأولى.
٥٩. جحا: ميشال، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٢ م، الطبعة: الأولى.
٦٠. الجرجاني: علي بن محمد، شرح المواقف، دار السعادة، مصر ١٣٢٥ هـ.
٦١. الجرجاني: علي بن محمد، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٦٢. جريدة التايمز بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧.
٦٣. جريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٥.
٦٤. الجندي: أنور، الإسلام والدعوات الهدامة، دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة: الأولى ١٩٧٤ م.
٦٥. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
٦٦. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسن البواب، دار الوطن، الرياض.
٦٧. الجوهري: إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، الطبعة: الرابعة.
٦٨. الحاج: ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلامي،

- بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م.
٦٩. الحارثي: محمد قاسم، أساسيات عقد النكاح، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٩٧م.
٧٠. الحاكم: أبو عبدالله محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٧١. حبان: أبو حاتم محمد البُستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٧٢. حتي: فيليب، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٩٦٥م.
٧٣. حتي: فيليب، الإسلام منهج حياة، تعريب، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢م.
٧٤. الحداد: يوسف درة، القرآن والكتاب، مطبعة حريصا البولسية، لبنان.
٧٥. الحريري: أبو موسى، قس ونبي، الطبعة: بدون.
٧٦. ابن حزم الظاهري: علي بن أحمد، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٧. حسن: إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة: الأولى ١٩٦٧م.
٧٨. حسن: محمد خليفة، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة: الأولى ١٩٩٧م.
٧٩. حسنة: عمر عبيد، مقدمة كتاب الأمة، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية العدد ٢٧، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ.
٨٠. حسين: صبحي ناصر، موقف المشاركة من المستشرقين، منشور في كتاب الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة.
٨١. الحكمي: حافظ بن أحمد، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم

- الأصول، تحقيق: عمر محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٨٢. حنا: جورج، قصة الإسلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة، بيروت، ١٩٧٣م.
٨٣. ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٨٤. خان: ظفر الإسلام، التلمود تاريخه وتعاليمه، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
٨٥. الخربوطي: علي حسين، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٨م.
٨٦. ابن خزيمة: محمد بن إسحاق، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٨٧. خطاب: محمود شيت، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، الطبعة: السادسة، ١٤٢٢هـ.
٨٨. الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد، معالم السنن، المطبعة العلمية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
٨٩. خليل: إبراهيم، محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، الطبعة: الثانية، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.
٩٠. أبو خليل: شوقي: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٩١. أبو خليل: شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٩٢. خليل: عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية، ط. دار الثقافة بالدوحة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٩٣. خليل: عماد الدين، دراسة في السيرة، دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ.
٩٤. الخولي: البهي، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، دار البشير، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.
٩٥. الدارمي: أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن، مسند الدارمي، المعروف بـ (سنن الدارمي)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ-٢٠٠٠م.
٩٦. داغر: يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، منشورات الجامعة اللبنانية، الطبعة: الأولى، ١٩٦١م.
٩٧. أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.
٩٨. داود: جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٥م.
٩٩. دائرة المعارف الإسلامية.
١٠٠. دراز: محمد بن عبدالله، النبأ العظيم، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٠١. درمنغم: إميل، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة: الثانية، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩.
١٠٢. الدسوقي: محمد، الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي، منشور في كتاب دراسات استشراقية وحضارية، العدد الأول، مركز الدراسات الاستشراقية والحضارية، كلية الدعوة، المدينة المنورة.

١٠٣. الدميحي: عبدالله بن عمر، التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب، دار الوطن العربي، الطبعة: بدون.
١٠٤. دي كاستري: هنري، الإسلام (خواطر وسوانح)، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩١١.
١٠٥. دينيه: إيتين، أشعة خاصة بنور الإسلام، ترجمة راشد رستم، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ١٧، المكتب الفني للنشر، بيروت، ١٩٦٠.
١٠٦. الديوبندي: محمد أنور شاه، فيض الباري على صحيح البخاري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٠٧. ديوران: ول، قصة الحضارة، ترجمة راشد رستم، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ١٧، المكتب الفني للنشر، بيروت، ١٩٦٠.
١٠٨. الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان-بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٠٩. الذهبي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
١١٠. الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر فخرالدين، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.
١١١. الرافي: مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
١١٢. رضا: أحمد، معجم متن اللغة، (موسوعة لغوية حديثة)، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م، الطبعة: الأولى.
١١٣. رضا: محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١١٤. رضوان: عمر إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، دار
طبية، الرياض، الطبعة: بدون.
١١٥. الرومي: فهد بن عبدالرحمن، دراسات في علوم القرآن الكريم، الطبعة: الثانية
عشرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م،
١١٦. ريتشارد: سوزرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة:
رضوان السيد، معهد الإنماء العربي، الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م.
١١٧. ريسلر: جاك، الحضارة العربية، ترجمة راشد رستم، سلسلة الثقافة الإسلامية
رقم ١٧، المكتب الفني للنشر، بيروت، ١٩٦٠.
١١٨. الزبيدي: محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة
محققين، دار الهداية، الطبعة: بدون.
١١٩. الزرقاني: محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى
الباي الحلبي وشركاه، الطبعة: الثالثة.
١٢٠. الزركشي: بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو
الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى الباي الحلبي وشركائه، الطبعة:
الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
١٢١. الزركلي: خير الدين محمود، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة:
السادسة، ١٩٨٤م.
١٢٢. زقزوق: محمود، الاستشراق والخلفية الفكرية والصراع الحضاري، دار
المعارف، القاهرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٢٣. الزمخشري: أبو القاسم محمود، الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق:
علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، الطبعة:
الثانية.
١٢٤. الزمخشري: أبو القاسم محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار
الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

١٢٥. الزيايدي: محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، ط ١، دار قتيبية، ١٤٢٦هـ.
١٢٦. زيد: نصر حامد، مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن)، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م.
١٢٧. زيدان: جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٠٢م.
١٢٨. السامرائي: فاروق، المنهج الحديث للبحث في العلوم الإنسانية، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٢٩. السامرائي: قاسم، الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث، ط ١، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٨هـ.
١٣٠. السامرائي: قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ.
١٣١. السايح: أحمد عبدالرحيم، الاستشراق ومنهج نقده، الطبعة: بدون.
١٣٢. السباعي: مصطفى، المرأة بين الفقه والقانون، دار الوراق، بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٣٣. السباعي: مصطفى، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٥م.
١٣٤. ستودارد: لوثرروب: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهضي، تعليقات وحواشي شكيب ارسلان، الطبعة: الثالثة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م.
١٣٥. السحيم: محمد بن عبدالله، الإسلام أصوله ومبادئه، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.
١٣٦. أبو السعادات: مجد الدين المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث

- والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
١٣٧. ابن سعد: أبو عبدالله محمد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٣٨. السعدي: إسحاق، تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه، طبع ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٦هـ.
١٣٩. السعدي: عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٤٠. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، تحقيق: عبد الكريم بن رسمي ال دريني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
١٤١. سعيد: إدوارد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو أديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٤م، الطبعة: الثانية.
١٤٢. السفاريني: شمس الدين محمد بن أحمد، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضوية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكبتها، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٤٣. آل سلمان: مشهور بن حسن، كتب حذر منها العلماء، دار الصميعي، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
١٤٤. سمايلوفيتش: أحمد، فلسفة الاستشراق واثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م.
١٤٥. السمعاني، أبو المظفر منصور، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم - غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٤٦. السهيلي: أبو القاسم عبدالرحمن، الروض الأنف، دار إحياء التراث العربي،

- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
١٤٧. سوسه: أحمد، في طريقي إلى الإسلام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٣٦،
الجزء الثاني، مطبعة الغري، النجف، ١٩٣٨.
١٤٨. سيديو: لويس، تاريخ العرب العام، ترجمة، عادل زعيتر، دار احياء الكتب
العربية، القاهرة، ١٩٤٨م.
١٤٩. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد
أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
١٥٠. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية،
بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
١٥١. الشاطبي: إبراهيم بن موسى، الاعتصام، تحقيق: محمد الشقير وآخرون، دار
ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى،
١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
١٥٢. الشاطبي: إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن
حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
١٥٣. شاكر: محمود محمد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ١٩٩٧م.
١٥٤. الشبكة العنكبوتية: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
١٥٥. شتا: أبو سعد محمد بن محمد، تعدد الزوجات إعجاز تشريعي يوقف المد
الاستشراقي، الطبعة: بدون.
١٥٦. الشرقاوي: محمد، الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، كلية دار العلوم،
جامعة القاهرة، الطبعة: بدون.
١٥٧. الشنقيطي: محمد الأمين، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير،
تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة
المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

١٥٨. الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٥٩. الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.
١٦٠. ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٦١. آل الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالله، خطبة جمعة، جامع الإمام تركي، الرياض، ١٤٢٥/٥/٢١هـ.
١٦٢. الصابوني: أبو عثمان، عقيدة السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٦٣. الصباغ: محمد لطفي، الابتعاث ومخاطره، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢م.
١٦٤. صبرة: عفاف، المستشرقون ومشكلات الحضارة، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.
١٦٥. الصفدي: صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط - تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٦٦. صلواتي: ياسين وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٦٧. صيني: سعيد إسماعيل، قواعد أساسية في البحث العلمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٦٨. الطبراني: سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد - عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٦٩. الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار التراث، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٨٧هـ.
١٧٠. الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٧١. الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٤٩٤م.
١٧٢. الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار-محمد سيد جاد الحق، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
١٧٣. طقوش: محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية،
١٧٤. الطياوي: عبداللطيف، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية: (دراسة نقدية)، ترجمة قاسم السامرائي، طبع ونشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ، الرياض.
١٧٥. عاشور: سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ط ١، ١٩٦٣م، مطبعة لجنة البيان العربي.
١٧٦. عبدالحميد: محسن، أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، مصر، دار الصحوة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.
١٧٧. عبداللطيف: عبدالشافي محمد، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.
١٧٨. عثمان: عبدالرؤف محمد، محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.
١٧٩. ابن عثيمين: محمد بن صالح، شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر،

الرياض، ١٤٢٦هـ.

١٨٠. ابن العربي: محمد بن عبدالله، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا،

دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٨١. ابن أبي العز: محمد بن علاء الدين، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد

محمد شاكر، وكالة الطباعة والترجمة في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية

والإفتاء والدعوة والإرشاد.

١٨٢. ابن عساكر: علي بن الحسين، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة

العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٨٣. العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه

وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه:

محب الدين الخطيب، وعليه تعليقات: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار

المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٨٤. العشي: عرفات كامل، رجال ونساء أسلموا، الطبعة: الثانية، الجزء ٢-

٣، الطبعة: الثالثة، الأجزاء ٤-١٠، الطبعة: الأولى، دار القلم، الكويت،

١٩٧٣-١٩٨٣م.

١٨٥. العظيم أبادي: محمد شمس الحق، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار

الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.

١٨٦. العفاني: أبو التراب سيد بن حسين، وإحمداه (إن شائتك هو الأبت)، دار

العفاني، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١٨٧. عفيفي: محمد الصادق، المرأة وحقوقها في الإسلام، رابطة العالم الإسلامي،

سلسلة كتاب دعوة الحق، العدد [١٧]، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٨٨. العقل: ناصر بن عبدالكريم، إسلامية لا وهابية، دار كنوز إشبيلية،

١٤٢٥هـ.

١٨٩. العقل: ناصر، مباحث في العقيدة، دار الوطن للنشر، الطبعة: الأولى،

١٤١٢هـ.

١٩٠. العقريقي: نجيب، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة،

١٩٦٤-١٩٦٥م.

١٩١. عليان: ربحي مصطفى وزميله، مناهج وأساليب البحث العلمي، دار صفاء،

عمان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

١٩٢. العمري: أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة

المنورة، الطبعة: السادسة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٩٣. العمري: أكرم ضياء، مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات

الإخباريين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

١٩٤. العوايشة: حسين بن عوده، الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة

المطهرة، المكتبة الإسلامية (عمان - الأردن)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)،

الطبعة: الأولى، من ١٤٢٣-١٤٢٩هـ.

١٩٥. عودة: عبدالقادر، التشريع الجنائي الإسلامي، مقارناً بالقانون الوضعي، دار

الكاتب العربي، بيروت.

١٩٦. العيني: بدر الدين محمود، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء

التراث العربي، بيروت، الطبعة: بدون.

١٩٧. غراب: أحمد عبدالحميد، رؤيا إسلامية للاستشراق، المنتدى الإسلامي،

بيرمغهام، ١٤١١هـ، الطبعة: الثانية.

١٩٨. الغضبان: منير، معاوية بن أبي سفيان، دار القلم دمشق، الطبعة: الثالثة،

١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٩٩. غوفير: كاثرين، آراء غوستاف لوبون السياسية، باريس، فرنسا، المطبعة

الفرنسية، ١٩٨٦م.

٢٠٠. ابن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت،

دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٠١. الفاضل: محمد، الجرائم الواقعة على أمن الدولة، الطبعة: الناشر بدون.
٢٠٢. فاغليري: لورا فيشيا، دفاع عن الإسلام، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٧٦م.
٢٠٣. فرج: توفيق حسن، القانون الروماني: تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.
٢٠٤. فلهاوزن: يوليوس، تاريخ الدولة العربية، ترجمة: محمد أبو ريدة، الألف كتاب، القاهرة، ١٩٥٨م.
٢٠٥. الفوزان: صالح بن فوزان، الملخص الفقهي، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.
٢٠٦. الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مؤسسة الرسالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، الطبعة: الأولى.
٢٠٧. القاضي: عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٨٥هـ.
٢٠٨. القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
٢٠٩. القرعاوي: محمد، الجديد في شرح كتاب التوحيد، تحقيق: محمد بن أحمد سيد أحمد، مكتبة السوادى، جدة، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٢١٠. القنوجي: أبو الطيب محمد صديق خان، قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.
٢١١. القوسي: مفرح بن سليمان، المنهج السلفي، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢١٢. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، التفسير القيم، تحقيق: مكتب

- الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار
ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.
٢١٣. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي،
بيروت.
٢١٤. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، تحقيق: محمد
المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة،
١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢١٥. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء
الشافي، دار المعرفة، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢١٦. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق:
محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-
١٩٩١م.
٢١٧. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، جلاء الأفهام، تحقيق: شعيب
الأرنؤوط- عبدالقادر الأرنؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية،
١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٢١٨. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، شفاء العليل، دار المعرفة، بيروت،
١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٢١٩. كاهن: كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية: منذ ظهور الإسلام حتى
بداية الامبراطورية العثمانية، ترجمة، د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت،
١٩٧٢.
٢٢٠. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن
التركي، دار هجر، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧.
٢٢١. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن
محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٢٢. كرم: يوسف، وآخرون، المعجم الفلسفي،
 ٢٢٣. كوبولد: إيفيلين، البحث عن الله، ترجمة، عمر أبو النصر، المكتبة الأهلية،
 بيروت، ١٩٣٤م.
٢٢٤. كويليام: عبدالله، العقيدة الإسلامية، تعريب محمد ضياء، المطبعة الهندية،
 القاهرة، ١٨٩٧م.
٢٢٥. اللالكائي: هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة،
 تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة السعودية، الطبعة:
 الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٢٦. اللالكائي: هبة الله بن الحسن، كرامات الأولياء، تحقيق: أحمد بن سعد بن
 حمدان الغامدي، دار طيبة السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٢٧. لايتنر: دين الإسلام، ترجمة عبد الوهاب سليم التنير، الطبعة: الثانية، المكتبة
 السلفية، دمشق، ١٣٤٢هـ.
٢٢٨. اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة، جمع
 وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء،
 الإدارة العامة للطبع، الرياض.
٢٢٩. لوبون: غوستاف، روح الاجتماع، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة
 الشعب، القاهرة، ١٩٠٩م.
٢٣٠. لوبون: غوستاف، الإنسان والمجتمعات: أصولها وتاريخها، تقديم: بيار
 دوفيرجيه، باريس، فرنسا، طبعه ونشره: جان ميشال بلاس، ١٩٨٧م.
٢٣١. لوبون: غوستاف، الدين والحياة، ترجمة عادل زعيتر، المؤسسة العربية
 للدراسات والنشر، الطبعة: الثانية، بيروت، ١٩٨٨.
٢٣٢. لوبون: غوستاف، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة: عادل زعيتر،
 دراسة وتقديم د. محمد النجيري، الجيزة، مصر، مكتبة النافذ، ٢٠٠٩م، ط ١.
٢٣٣. لوبون: غوستاف، حضارة العرب، طبعة: دار إحياء التراث، بيروت،

- الطبعة: الثالثة: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢٣٤. لوبون: غوستاف، حياة الحقائق، ترجمة: عادل زعيتر، دار ومكتبة بيبليون، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥.
٢٣٥. لوبون: غوستاف، روح الثورات والثورة الفرنسية، ترجمة محمد عادل زعيتر، المطبعة العصرية.
٢٣٦. لوبون: غوستاف، روح السياسة، ترجمة: عادل زعيتر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.
٢٣٧. لوقا: نظمي، محمد الرسالة والرسول، الطبعة: الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩م.
٢٣٨. لويس: برنارد، العرب في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٥٤م.
٢٣٩. الماتريدي: أبو منصور محمد، تفسير الماتريدي، تأويلات أهل السنة، تحقيق: مجدي با سلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢٤٠. ابن ماجة: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمد كامل قره بللي - عبداللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٢٤١. ماجد: عبدالمنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة: الثامنة، ١٩٩٨م.
٢٤٢. مالك: مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: بشار عواد معروف - محمود خليل، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.
٢٤٣. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ١٤٠٣هـ.
٢٤٤. مركز المدينة المنورة للدراسات الاستشراقية بإشراف: د. مازن مطبقاني.

٢٤٥. مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح: (صحيح مسلم)، دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة، بيروت.
٢٤٦. مسلم: مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢٤٧. المصري: أبو القاسم عبدالرحمن، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ.
٢٤٨. المصري: جميل عبدالله، دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت.
٢٤٩. مطرز: أبو الفتح ناصرالدين، المغرب في ترتيب المغرب، دار الكتاب العربي، الطبعة: بدون.
٢٥٠. المطيري: عبدالمحسن، دعاوى الطاعنين في القرآن، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٢٥١. معجم وموسوعة لاروس.
٢٥٢. معلوف: لويس، المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، لبنان، دار المشرق، ط٤١.
٢٥٣. المغذوي: عبدالرحيم بن محمد، الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، دار الحضارة، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٢٥٤. المناوي: محمد بن عبدالرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٢٥٥. المنجد: صلاح الدين، المنتقى من دراسات المستشرقين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢٥٦. ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
٢٥٧. موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة:

- الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٢٥٨. الموسوعة العربية العالمية، صلواتي، بيروت، لبنان، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، ١٩٨٠م.
٢٥٩. ميلي: ألدو، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمه د. محمد يوسف موسى، ود. عبد الحليم النجار، مراجعة د. حسين فوزي، إصدار الإدارة الثقافية لجامعه الدول العربية، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢.
٢٦٠. ناتالي: رين، المرأة اليهودية (الماضي، الحاضر والمستقبل)، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٨٧م.
٢٦١. ابن نبي: مالك، إنتاج المستشرقين، بيروت، دار الإرشاد.
٢٦٢. ابن نبي: مالك، شروط النهضة، إشراف: ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م.
٢٦٣. النجدي: سليمان بن سحمان، إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل، تحقيق: عبدالسلام بن برجس، دار العصمة، ٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
٢٦٤. الندوة العالمية للشباب، الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، الطبعة: الثانية.
٢٦٥. النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٦٦. ابن أبي نصر: محمد بن فتوح، تحقيق: زبيدة محمد سعيد، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٢٦٧. أبو نعيم: أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق: محمد رواس قلعه جي - عبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٦٨. النملة: علي بن إبراهيم، المستشرقون والتنصير، الطبعة: الأولى.

٢٦٩. النملة: علي بن إبراهيم، الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، الرياض.
٢٧٠. النملة: علي، كنه الاستشراق، (دراسات استشراقية وحضارية، كتاب دوري محكم، العدد الأول)، المدينة المنورة، مركز الدراسات الاستشراقية الحضارية، كلية الدعوة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٧١. نولدكه: تيودور، تاريخ القرآن، ترجمة: رضا محمد الدقيقي، وزارة الأوقاف القطرية، الدوحة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٢٧٢. النووي: أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.
٢٧٣. هراس: محمد خليل، شرح العقيدة الواسطية، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الخبر، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ.
٢٧٤. الهروي: أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تحقيق: خليل محمد هراس، دار الفكر.
٢٧٥. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا- إبراهيم الأبياري- عبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
٢٧٦. هونكة: زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب: (أثر الحضارة العربية في أوروبا)، (في الأصل شمس الله تسطع على الغرب)، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٤م.
٢٧٧. وات: مونتجمري، محمد النَّبِيُّ والسياسي، ١٩٦١م.
٢٧٨. وات: مونتجمري، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (لا يوجد تاريخ).
٢٧٩. الوافي: علي عبدالواحد، قصة الزواج والعزوبة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٧م.

٢٨٠. وزان: عدنان محمد، الاستشراق والمستشرقون (وجهة نظر)، سلسلة دعوة الحق: ٢٤، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
٢٨١. وهبة: مراد، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٩ م.
٢٨٢. ويبستر: ميريام، قاموس ميريام ويبستر، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
٢٨٣. ويلز: هربرت جورج، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، دار الكتب العربية، الطبعة: بدون.
٢٨٤. يوسف: محمد السيد محمد، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، دار السلام بالقاهرة.

ثالثاً: بحوث علمية غير منشورة

١. الجحيمي: محمد موسى، التنصير عبر الخدمات التفاعلية لشبكة المعلومات العالمية (رسالة ماجستير)، إشراف: عبد الله بن عمر العبد الكريم، كلية التربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٣ هـ.

رابعاً: الخطب والمحاضرات

١. آل الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالله، خطبة جمعة، جامع الإمام تركي، الرياض، ١٤٢٥/٥/٢١ هـ.
٢. النملة: علي، محاضرة بعنوان: منهج التأثير والتأثير بين الثقافات، الرياض، ١٧ محرم ١٤٢٩ هـ.

خامساً: الصحف والمجلات:

١. صحيفة الرياض، العدد: [١٤٤٦٠]، بتاريخ: ١٧/١/١٤٢٩ هـ.
٢. مجلة البحوث الإسلامية: مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات

- البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد [٩]، ربيع الأول - ربيع الثاني - الثاني - جماد الأول، ١٤٠٤ هـ.
٣. مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: [٧]، ربيع الثاني ١٤١٣ هـ.
٤. مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول عام ١٣٤٧ هـ.
٥. مجلة كلية أصول الدين، العدد: [١]، صدرت عام ١٣٩٧ هـ - ١٣٩٨ هـ، عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
٦. مجلة الفكر العربي، العدد: [٣١]، ١٩٨٣ م.
٧. مجلة المجمع العلمي العربي.
٨. مجلة مجمع الفقه الاسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الاسلامي، العدد: [٧].
٩. مجلة الهلال، العدد: [٣]، ١٨٩٢ م.
١٠. ملحق مجلة الأزهر، القاهرة، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

سادساً: مواقع على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)

١. <http://ar.wikipedia.org>
٢. www.madinacenter.com/
٣. [http://en.wikipedia.org/wiki/Isaac_Taylor_\(priest\)](http://en.wikipedia.org/wiki/Isaac_Taylor_(priest))
٤. <http://www.saaaid.net/Doat/mazin/>

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	موضوع البحث
٥	أهمية الموضوع
٦	أسباب اختيار الموضوع
٧	أهداف البحث
٨	تساؤلات البحث
٨	حدود البحث
٩	الدراسات السابقة
١٣	خطة البحث
١٨	منهج البحث
١٩	شكر وتقدير
٢٠	التمهيد: مفهوم الاستشراق والتعريف بغوستاف وكتابته (حضارة العرب) ..
٢١	المبحث الأول: مفهوم الاستشراق
٢٢	أ- الاستشراق لغة:
٢٢	ب- الاستشراق اصطلاحاً:
٢٨	المبحث الثاني: التعريف بالمستشرق غوستاف لوبون
٢٨	أولاً: اسمه ومولده
٢٨	ثانياً: دراسته العلمية
٢٨	ثالثاً: رحلاته
٢٩	رابعاً: حياته العملية
٣٠	خامساً: مؤلفاته
٣٤	سادساً: الدراسات حول شخصية غوستاف لوبون وآراءه

٣٧	سابعاً: كتب المؤلف المترجمة إلى اللغة العربية
٣٨	ثامناً: وفاته
٤٠	المبحث الثالث: التعريف بكتابه (حضارة العرب)
٤٠	أولاً: زمن تأليفه
٤٠	ثانياً: أسباب تأليفه
٤١	ثالثاً: محتوياته
٤٣	رابعاً: منهج الكتاب
٤٤	خامساً: نظرة عامة على منهج الكتاب من الناحية الفنية
الباب الأول: دراسة تقويمية لمنهج غوستاف لوبون وموقف المسلمين من		
الدراسات الاستشراقية		
٤٨	
٤٩	الفصل الأول: منهج غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب
٥٠	المبحث الأول: مناهج المستشرقين ودوافعهم
٥١	المطلب الأول: المنهج في اللغة والاصطلاح
٥٥	المطلب الثاني: الآراء حول مناهج المستشرقين
		المطلب الثالث: أهم العوامل التي تحكمت في منهج البحث الاستشراقي، وأهم المآخذ
٦١	المنهجية على كتابات المستشرقين تجاه الإسلام
٦٣	المطلب الرابع: دوافع المستشرقين
٦٨	المطلب الخامس: السمات المشتركة لكتابات المستشرقين على وجه العموم
٧٠	المبحث الثاني: خصائص المدرسة الفرنسية التي ينتمي إليها غوستاف لوبون
٧١	المطلب الأول: تاريخ المدرسة الفرنسية
٧٤	المطلب الثاني: أعلام المستشرقين الفرنسيين
٧٨	المطلب الثالث: ملامح الاستشراق الفرنسي
٨١	المبحث الثالث: عرض لأبرز مواقف وآراء لوبون في كتاباته الاستشراقية
٨٢	المطلب الأول: أبرز الشبه والطعون الواردة في كتابات لوبون تجاه الإسلام
		المطلب الثاني: أبرز المواقف والآراء المنصفة الواردة في كتابات لوبون تجاه الإسلام
٩٦	والمسلمين وأثر المسلمين العرب على بقية الشعوب الأخرى

- ١١٣ المبحث الرابع: موارد في كتابه وأشهر من نقل عنهم من المستشرقين
- ١١٤ المطلب الأول: غوستاف لوبون والموروث الثقافي الغربي
- ١١٨ المطلب الثاني: مصادر ومراجع غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب
- ١٣٣ المبحث الخامس: أبرز الملاحظات المنهجية على كتابه حضارة العرب
- الفصل الثاني: موقف المسلمين من الدراسات الاستشراقية وكيفية فهمها
- ١٣٤ والتعامل معها
- ١٣٥ المبحث الأول: موقف المسلمين من مطاعن وافتراعات المستشرقين
- ١٣٦ المطلب الأول: الحركة الفكرية الاستشراقية وتأثيرها على الفرد والمجتمع
- ١٤٠ المطلب الثاني: منهج الرد على المستشرقين تصحيحاً وتقويماً
- ١٤٥ المطلب الثالث: المقومات لمواجهة تحدي الاستشراق والمستشرقين
- ١٤٨ المطلب الرابع: سبل مواجهة مطاعن وافتراعات الدراسات الاستشراقية
- المبحث الثاني: موقف المسلمين من اعترافات وشهادات المستشرقين والمثقفين
- ١٥١ الغربيين على سماحة الإسلام وعدالته وحفظه للحقوق
- المبحث الثالث: الآثار العلمية المستفادة من دراسة الكتب الاستشراقية وأوجه
- ١٥٤ الإفادة منها في تدعيم مسيرة الدعوة الإسلامية
- ١٥٩ **الباب الثاني: نظرة غوستاف لوبون تجاه مصادر الإسلام عرض ونقد**
- ١٦٠ الفصل الأول: موقف لوبون من القرآن الكريم
- ١٦١ المبحث الأول: شبهات لوبون حول مصادر القرآن الكريم
- ١٦٢ المطلب الأول: زعمه أن القرآن مقتبس من اليهودية والنصرانية
- ١٧٧ المطلب الثاني: زعمه أن القرآن من تأليف النبي ﷺ
- ١٩٣ المطلب الثالث: شهادات بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين تجاه القرآن الكريم
- ١٩٨ المبحث الثاني: نظرة لوبون لمسألة جمع القرآن وترتيبه
- المطلب الأول: تناقض غوستاف لوبون في الحكم بأن القرآن وحي من الله أو من عند
- ١٩٩ رسول الله ﷺ، ونقده لترتيب سور القرآن وآياته، وسياقه
- المطلب الثاني: شهادات المستشرقين والمثقفين الغربيين بأن القرآن الكريم كتاب معجز
- ٢٠٥ في ألفاظه ومعانيه

- ٢١٠ المبحث الثالث: آراء لوبون تجاه بعض نصوص القرآن
- ٢١١ المطلب الأول: ملاءمة القرآن الكريم لاحتياجات الأمم، والتقدم الحضاري
- ٢١٥ المطلب الثاني: تأثير القرآن الكريم في علوم المسلمين واكتشافاتهم
- المطلب الثالث: شهادات وتجارب العلماء الغربيين والشرقيين بتأثير القرآن في المذاهب
- ٢١٨ العلمية والفلسفية
- ٢٢٠ الفصل الثاني: موقف لوبون من العقيدة الإسلامية
- ٢٢١ المبحث الأول: نظرة لوبون لعقيدة التوحيد
- ٢٢٢ المطلب الأول: مقارنة لوبون بين الإسلام والنصرانية وتناقضاته
- ٢٢٤ المطلب الثاني: نظرة لوبون لعبادات العرب قبل الإسلام وموقف النبي ﷺ منها
- ٢٢٨ المطلب الثالث: مقارنة لوبون للإسلام بالديانات الوثنية
- ٢٣٠ المطلب الرابع: الزعم بأن المدينة مكان حج وزيارة بسبب قبر النبي ﷺ
- ٢٣٤ المبحث الثاني: شبهات لوبون حول الطواف بالكعبة وتقدير الحجر الأسود
- ٢٣٥ المطلب الأول: زعم لوبون أنه لا فضل لمكة المكرمة بين بقية المدن
- ٢٣٨ المطلب الثاني: نظرة لوبون للكعبة والحجر الأسود، ومغالطاته في ذلك
- ٢٤٣ المبحث الثالث: آراء لوبون في الفرق الإسلامية
- ٢٤٤ المطلب الأول: مقارنة لوبون أهل السنة بالشيعة
- ٢٤٨ المطلب الثاني: اتهام لوبون للإسلام بالجبرية
- ٢٥٥ المطلب الثالث: نظرة لوبون لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب
- ٢٥٨ الفصل الثالث: آراء لوبون في التشريعات والنظم الإسلامية والمذاهب الفقهية
- ٢٥٩ المبحث الأول: آراء لوبون تجاه بعض الشعائر الإسلامية
- ٢٦٠ المطلب الأول: آراء لوبون حول صلاحية الشريعة الإسلامية لكل الأزمنة
- ٢٦٤ المطلب الثاني: اعتقاد لوبون أن الشريعة جاءت لتلائم مشاعر العرب، وتوافق عاداتهم
- ٢٦٧ المبحث الثاني: آراء لوبون تجاه النظام الاجتماعي والسياسي في الإسلام
- ٢٧٤ المبحث الثالث: موقف لوبون من المذاهب الأربعة
- ٢٧٧ الباب الثالث: آراء غوستاف لوبون تجاه أحداث السيرة النبوية عرض ونقد
- ٢٧٨ الفصل الأول: موقف لوبون من شخصية النبي ﷺ

- ٢٧٩ المبحث الأول: مولد النبي ﷺ ونشأته
- ٢٨٠ المطلب الأول: موقف غوستاف لوبون من الأحداث التي صاحبت مولد النبي ﷺ ...
- ٢٨٤ المطلب الثاني: موقف غوستاف لوبون من أحداث سيرته ﷺ في بادية بني سعد
- ٢٨٥ المبحث الثاني: أخلاق النبي ﷺ وصفاته الحميدة
- ٢٨٦ المطلب الأول: وصف غوستاف لوبون النبي ﷺ بالهوس
- ٢٨٩ المطلب الثاني: وصف غوستاف لوبون النبي ﷺ بالقسوة
- ٢٩٣ المطلب الثالث: زعم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ كان قليل التعليم ولم يكن عالماً ...
- ٢٩٧ المبحث الثالث: حياة النبي ﷺ وعلاقاته الاجتماعية
- ٢٩٨ المطلب الأول: زعم غوستاف لوبون أن ضعف النبي ﷺ الوحيد هو حبه للنساء
- ٣٠٨ المطلب الثاني: تشكيك غوستاف لوبون في وفاء زوجات النبي ﷺ له
- ٣١٤ المطلب الثالث: زعم غوستاف لوبون أن النبي ﷺ كان قليل المسامحة نحو النساء
- ٣١٩ الفصل الثاني: موقف لوبون من أحداث الدعوة المكيّة وأحداث ما بعد الهجرة النبوية
- ٣٢٠ المبحث الأول: أحداث الدعوة المكيّة وما جاء فيها من مغالطات عند لوبون
- ٣٢١ المطلب الأول: نظرة غوستاف لوبون للوحدة السياسية والدينيّة عند العرب قبل البعثة
- ٣٢٥ المطلب الثاني: سر قوة النبي ﷺ عند غوستاف لوبون
- ٣٢٨ المطلب الثالث: المعجزات ونظرة غوستاف لوبون لها
- ٣٣١ المطلب الرابع: نظرة غوستاف لوبون لأحداث بيعة العقبة
- ٣٣٤ المبحث الثاني: آراء لوبون في أحداث ما بعد الهجرة النبوية
- ٣٣٥ المطلب الأول: نظرة لوبون لأحداث الحديبية وفتح خيبر
- ٣٤١ المطلب الثاني: رؤية لوبون في أسباب فتح مكة
- ٣٤٥ المطلب الثالث: غزوات النبي ﷺ ونظرة لوبون لها
- ٣٤٧ **الباب الرابع: غوستاف لوبون وقضايا المرأة في الإسلام عرض ونقد**
- ٣٤٨ الفصل الأول: آراء لوبون في تأثير الإسلام في أحوال النساء
- ٣٤٩ المبحث الأول: نظرة لوبون إلى أحوال النساء قبل بعثة النبي ﷺ
- ٣٥٠ المطلب الأول: شهادات المستشرقين على سوء أحوال المرأة قبل الإسلام
- ٣٥٤ المطلب الثاني: نماذج من أحوال المرأة عند العرب في الجاهلية

- المطلب الثالث: نماذج من أحوال المرأة في الأديان والمجتمعات الأخرى ٣٥٨
- المبحث الثاني: إعجاب لوبون برفع شأن المرأة في الإسلام** ٣٦٣
- المطلب الأول: شهادات المستشرقين على رفع شأن المرأة في الإسلام ٣٦٤
- المطلب الثاني: نماذج من تكريم الإسلام للمرأة ورفع شأنها ٣٧٠
- المبحث الثالث: مقارنة لوبون بين المرأة في الإسلام والمرأة في أوروبا** ٣٧٥
- المطلب الأول: شهادة لوبون على علو منزلة المرأة المسلمة مقارنة بالمرأة الأوروبية غير المسلمة .. ٣٧٦
- المطلب الثاني: اعترافات المستشرقين على فضل مكانة المرأة المسلمة مقارنة بالمرأة غير المسلمة . ٣٧٩
- الفصل الثاني: آراء لوبون حول مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام** ٣٨٦
- المبحث الأول: دفاع لوبون عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام** ٣٨٧
- المطلب الأول: تعدد الزوجات ومشروعيته في الإسلام ٣٨٨
- المطلب الثاني: إعجاب لوبون بمبدأ تعدد الزوجات وردّه لمزاعم الطاعنين فيه ٣٩٢
- المطلب الثالث: إعجاب بعض المستشرقين والمثقفين الغربيين بمبدأ تعدد الزوجات ٣٩٦
- المبحث الثاني: مقارنة لوبون بين أحكام النكاح والطلاق عند المسلمين وأحكام النكاح والطلاق عند الأوروبيين** ٤٠١
- المطلب الأول: مفهوم الأسرة في الإسلام وفي الغرب ٤٠٢
- المطلب الثاني: إعجاب غوستاف لوبون بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام ٤٠٦
- المطلب الثالث: إعجاب بعض المستشرقين بأحكام النكاح والطلاق في الإسلام ٤٠٩
- الباب الخامس: تقويم غوستاف لوبون لتاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية عرض ونقد** ٤١٥
- الفصل الأول: آراء لوبون في أحوال العرب وأديانهم** ٤١٦
- المبحث الأول: تقويم لوبون لأحوال العرب قبل الإسلام** ٤١٧
- المطلب الأول: آراء غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام ٤١٨
- المطلب الثاني: مغالطات غوستاف لوبون حول حضارة العرب قبل الإسلام ٤٢٢
- المبحث الثاني: نظرة لوبون إلى الإسلام وتأثيره في أحوال العرب** ٤٢٨
- الفصل الثاني: موقف لوبون من الفتوحات وانتشار الدعوة والثقافة الإسلامية** ٤٣٣
- المبحث الأول: رؤية لوبون حول مصادر قوة المسلمين العرب** ٤٣٤
- المطلب الأول: آراء غوستاف لوبون حول أسباب وعوامل انتشار الإسلام ٤٣٥

٤٤٨	المطلب الثاني: أسباب النصر والتمكين لدي المسلمين
٤٥٨	المبحث الثاني: تقويم لوبون للفتوحات الإسلامية
	المطلب الأول: شهادات واعترافات غوستاف لوبون وبعض المستشرقين والمثقفين
٤٥٩	الغربيين حول الفتوحات الإسلامية
٤٦٩	المطلب الثاني: شبهات غوستاف لوبون حول الفتوحات الإسلامية
٤٨٠	المبحث الثالث: انتشار الدعوة والثقافة الإسلامية في الأمصار وتأثيرها على تلك الشعوب ..
٤٨١	المطلب الأول: تقويم الحضارة ومدى ملاءمتها لعبادة الله <small>عَبَّادًا</small>
٤٨٥	المطلب الثاني: تقويم غوستاف لوبون للدعوة الإسلامية وانتشارها وتأثيرها على الشعوب ..
٤٩٨	الخاتمة
٤٩٩	الخلاصة
٥٠٠	نتائج البحث
٥٠٣	توصيات الباحث
٥٠٤	الفهارس
٥٠٥	فهرس الآيات القرآنية
٥٢٢	فهرس الأحاديث والآثار
٥٢٦	فهرس الأعلام المترجم لهم
٥٤٧	فهرس الأماكن والبلدان
٥٥٢	فهرس الألفاظ الغربية والمصطلحات العلمية
٥٥٤	فهرس المصادر والمراجع
٥٨١	فهرس الموضوعات